

الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

SOCIÉTÉ ÉGYPTIENNE DES ÉTUDES HISTORIQUES

المجلد،
التاريخية
المصرية

القاهرة ١٩٦٩

المجلد الخامس عشر

المطبعة العالمية ١٦، ١٧ شارع سيدي القاهرة

المحتويات

صفحة

البحوث :

١ — هجوم القبارصة على الإسكندرية — ٥٧٦٧ (= ١٣٦٥ م)

من نصوص جديدة للنويرى

دكتور حسن حبشى

١

٢ — الرملة ورباطاتها السبعة فى القرن الرابع الهجرى

قبيل الحروب الصليبية — نظام ادفاع دائرى

دكتور محمد عبد الهادى شعيرة

٣٧

٣ — القلاع فى الحروب الصليبية

دكتور عبد الرحمن زكى

٤٩

٤ — الغناء والموسيقى والمجالس الاجتماعية فى العصر العباسى

دكتورة مليحة رحمة الله

٨٩

٥ — آل محمد ، بيت الزعامة العشائرية العراقية فى القرن التاسع عشر

دكتور عبد العزيز سليمان نوار

١٠٩

٦ — فاشودة الصغيرة (١٨٩٦ - ١٩٠٦)

دكتور يونان لبيب رزق

١٦٣

نصوص ومخطوطات :

— مناهل الصفا فى أخبار دولة الملوك الشرفا : للوزير عبد العزيز الفتشالى

٢٣٥

الأستاذ عبد الكريم كريم

- ١ - إمارة دمشق ١٧٢٣ - ١٧٨٣
للدكتور عبد الكريم رافق
١٦٧
- ٢ - الإصلاح في الإمبراطورية العثمانية ١٨٥٦ - ١٨٧٦
رودريك دافيدسون
٢٧١
- ٣ - علاقات مصر بتركيا في عهد الخديوي إسماعيل ١٨١٣ - ١٨٧٩
للدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى
٢٨٢
- ٤ - مصر والسألة المصرية في ١٨٧٦ - ١٨٨٢
للدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى
٢٨٧

Was Pope Innocent III, An Accomplice in the Diversion of
the fourth Crusade (1204)

Dr. Ishak T. Ebeid

البحوث

هجوم القبارصة على الاسكندرية

(٥٧٦٧ = ١٣٦٥ م)

من نصوص جديدة للنويرى

للكنور مسن ميسى

أستاذ التاريخ المساعد بكلية الآداب . جامعة عين شمس

تعرضت الاسكندرية في سنة ٥٧٦٧ (= ١٣٦٥ م) لغزو صليبي كان بمثابة الهزة العنيفة للحكومة المملوكية مما حملها على الاهتمام بها بجملها - عن حق - خط الدفاع الأول عن البلاد وإعطائها مزيداً من الصلاحيات الإدارية تمثلت في أن أصبحت لأول مرة نيابةً بعد أن كانت ولاية ، وأصبح نائبها يلقب « بملك الأمراء » . ومع ضخامة هذا الحادث الذى سبب معاصروه بالكثافة العظمى^(١) من حيث الاستعدادات الحربية التى اتخذت من أجله على الصعيد الأوروبى ومن حيث الخسائر الضخمة التى نزلت بالاسكندرية وأهلها إلا أنه لم يجد من ينفى بالكتابة عنه - فى إفاضة وإسهاب - من المؤرخين المسلمين سوى واحد فقط هو محمد بن قاسم بن محمد النويرى الملقب بالاسكندرى من رجال القرن الثامن الهجرى (= الرابع عشر الميلادى) ، فقد وضع كتابه المسمى « بالإلام بما جرت به الأحكام القضائية فى واقعة الاسكندرية ، فى سنة سبع وستين وسبعمائة وعودتها إلى حالتها المرضية » ؛ ومن ثم فهو المصدر العربى الوحيد الذى تفرد بذكر هجوم القبارصة على هذا الثغر ، هذا بالإضافة إلى أن مؤلفه كان شاهد عيان لهذا الحادث الكبير الذى استعد له الغرب استعداداً كبيراً ظل معظمه طى الكتمان - حتى عن بعض الذين شاركوا فيه - وكان له صدى هائل وتأتج خطيرة ما بين محلية وخارجية .

وفد تعددت الإشارات — نسبياً — في كثير من المصادر الغربية والوثائق إلى الاستعدادات والاتصالات السياسية التي أجراها ملك قبرص بطرس اللوزينيانى صاحب مشروع الغزو ومنفذه ، كما أن هناك ملحمة شعرية في الأدب الأوربي عنوانها La Prise de Alexandria .

وقد تناول « الإلام » الوقعة بالتفصيل ، لكنها مع هذا التفصيل تكاد تضيع بين الاستطرادات اللمة التي تغطي في كثير من الأحيان على موضوع الكتاب ، ويشير أحد معاصريه^(١) إلى ذلك فيقول « إنما أطاله باستطراده من شيء إلى شيء ، فإنه بدأ بفتح الاسكندرية فأطال في ذلك وساق أخبارها ، فكان خبر الوقعة في جانب ما ذكر كالشامة » ، ومع ما تضمنته هذه الاستطرادات — في كثير من الأحيان — من معلومات تاريخية ونكات أدبية — إلا أنها لا ترتبط بالهجوم ، ومن ثم فهي اعتراضات مطولة تجور على التأن وتغطي على أحداث المعركة حتى ليكاد المرء ينسى الوقعة وهو يطالع الإلام ، ولقد شعر النويرى بذلك فكان يحتم كل استطراد بقوله « نعود » أو « نعود لما كنا فيه » وأشباههما .

ولقد جرى الهجوم على الاسكندرية يوم ٢٣ محرم ٥٧٦٧ هـ (= ١٠ أكتوبر ١٣٦٥م) في السنة الثالثة من حكم السلطان شعبان بن حسين ، وإذا كان هجوم القبارصة مفاجأة مصر المملوكية فإنه لم يكن كذلك بالنسبة لبعض القوى الأوربية وللبابوية ذاتها ، بل الثابت من استقرار الأحداث التاريخية أنه قد مهدت له دعايات معينة كتلك التي تصاحب كل تجريدة صليبية ، وسبقته اتصالات دبلوماسية على مستويات عالية وتحركات عدوانية على بعض مدن آسيا الصغرى ، حتى إذا نجحت كل واحدة في ميدانها كان الهجوم على الاسكندرية ذروة الجهد ، رغم أن هذا الهجوم لم يستمر أكثر من ثمانية أيام ، ولكن كانت له آثاره المدمرة في التخريب وتل المدد الكبير من أهلها^(٢) ووقوع البعض في الأسر .

لم يكن سقوط عكا في أيدي المصريين والقضاء على القوة الصليبية في الشام

(١) ابن حجر : شرحه .

(٢) رجعت في هذه التواريخ العربية للجداول التي وضعها اللواء محمد مختار في كتابه : التوفيقات الإلهامية ، « طبعة بولاق ١٣١١ هـ .

(٣) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة « طبعة القاهرة » ٢٩/١١ .

خاتمة للصراع الذي بدأه البابا إيزابان الثاني عام ١٠٩٥ في خطبته^(١) في كليرمونت بفرنسا ، بل راح يظهر في مسوح شتى لم تكن الحرب إلا إحدى مظاهرها ، ولقد امتاز هذا القرن في الغرب بظهور اتجاه جديد إهتم — أكثر ما إهتم — بإنشاء المؤسسات الدينية الحربية التي جعلت — ظاهرياً — غرضها استرداد بيت المقدس من أيدي المسلمين^(٢) ، ولقد وجدت القوى اللاتينية ملاذها في قبرص التي قام بها البيت اللوزيناني ، وأصبح كثير من رجال القصر وهذا البيت يلقبون بمارشالات بيت المقدس وصنجالاتها^(٣) ، وليس لهذه الألقاب من دلالة إلا الارتباط الشديد بين حكم جزيرة قبرص وبين فكرة استرداد الأحرام المسيحية المقدسة ، ومن ثم لم يكن بطرس اللوزيناني بدءاً في هذا المجال ، ولكنه كان أول وآخر رائد من حكامها وضع الفكرة الصليبية موضع التنفيذ ؛ والواقع أن توليه العرش سنة ١٣٥٩ م كان إشارة الانطلاق في احتضان هذه الجزيرة الفعلية للدوان الغربي على الشرق الإسلامي ، كما يعتبر عهده فاشحة التوسع الحربي ، وقد غذى فيه هذه الروح نشأة أحاطتها الأساطير الدينية وقوتها الخيالات والرؤى والأحلام^(٤) ، يضاف إلى هذا أن اتصالاته بفيليب دي ميزير^(٥) كان لها أثر قوي في بث الكراهية في نفسه ضد الجماعات الإسلامية

(١) R. Pernoud : The Crusades (Lond., 1962), pp. 23-26.

(٢) كان من بين هذه التنظيمات الدينية الحربية جماعة "Escon d'or" التي أنشأها لويس البربونى ، ومنظمة Annonciades على يد صاحب سانوى ، ومنظمة « النجمة » في فرنسا
نظر في ذلك Leopold Pannier : La noble maison de Saint Ouen, p. 90; Marquis de Loray : Jean de Vienne, Amiral de France, p. 36.

(٣) نستدل على هذا من وثيقة أوردها Mas Latrie : Hist. de Chypre II, p. 178. جاءت فيها هذه العبارة "sensecalus regni Jeresolimitani".

(٤) ولقد تجسست فيما بعد في إنشائه جماعة لإخوان السيف التي سماها البعض « بفرسان ملوك قبرص » ، وانخرط فيها كثير من الجنسيات الأوربية ، وكان هدفها في بداية الأمر استخلاص بيت المقدس من أيدي المسلمين ، لكنها انتهت بقصر إهتمامها على الدفاع عن قبرص ذاتها في وقت لم تجد قبرص فيه من يذود عنها أنظر Machaut : La Prise d'Alexandrie, (Genève, 1877), II. 369 et seq; Jorga : Philippe de Mézières, (Paris, 1896), p. 83.

(٥) ولد فيليب دي ميزير في إقليم بيكاردي بفرنسا عام ١٣٢٦ وتعلم في أميين ، ثم اتصل بـ بلاط أندريه ملك نابلي ، وظل به حتى سنة ١٣٤٦ رحل بعدها إلى كثير من البلاد ومن ثم

نتيجة اتصاله المباشر ببطرس توماس بطرك القسطنطينية . لذلك كان اهتمام بطرس الأول
متركزاً على ضرب المعادل الإسلامية أنى وجدت ، وساعدته الظروف في أرمينيا على
وجه الخصوص في أن يجد لقدمه موضعاً بها ، حيث بعث إليه ملكها ليون الخامس
يستنجد به في يناير ١٣٦٠^(١) ضد الخطرين العثماني والمملوكي ، حتى لقد « جعل مدينة
جورهيجوس^(٢) وأهلها في حمايته » فوافق ذلك هوى في نفس الملك القبرصي إذ « كان
متاهماً على تلك أرض في تركيا^(٣) ، ومن ثم أصبحت لبيت لوزنيان ركنة حرية
تتأخم القوى الإسلامية التي انزعج بعض أمرائها فسكونوا من بينهم تحالفاً للمقاومة
وإن لم يتمخض هذا التحالف عن نتائج عملية حاسمة ، ولكنه دفع بالملك القبرصي
لتسكين القوى الغريبة — حتى المتصارعة منها فيما بينها — فبادرت إلى إمداده
بالسفن الحربية والرجال والعتاد ، وجعل لنفسه القيادة العامة وهاجم « أنطاكية »^(٤)
ونهب عليها فارساً مولداً اسمه « جيمس دي نورس » ثم أعلن متابعتها للزحف
على « الملايا » مما انزعج له حاكمها فما لبث أن أرسل رسلاً من قبله إلى الملك بطرس
« يلتبس منه مودته ، وتعهد له بدفع قدر معين من المال كل سنة ، وأن يرفع راياته

== بينها بعض بلاد الشرق ، وحج إلى بيت المقدس حيث انبهت لديه فكرة تكوين جيش خلاص
نصراني لاسترداد الأهرام المقدسة ، ثم عاد فر يقبرس وتعرف إلى الملك بطرس الذي ما كاد
يعتلى العرش عام ١٣٥٩ حتى اتخذه مستشاراً له وصحبه في زياراته للملك وأمرأه أوروبا ، قصد
انعاونه في تنفيذ مشروعه الصليبي ، أنظر Jorga : op. cit., Ch. VII ، هذا وقد نشر
المرحوم الدكتور عبد الحميد عدى مشروع ميزير الصليبي في مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية .

(١) فيما يتعلق بالتاريخ راجع Dawkins (in) Makhairas, Recital concerning the
Sweet Land of Cyprus, (Oxford, 1932), Vol. II, 104, note I.

(٢) Machaut : op. cit., 20
فراجع I Mas-Latrie : Hist. de Chypre II, 75 note I حيث ذكرت في النص اللاتيني
الذي أورده باسم Culcum .

(٣) Makhairas : op. cit., I, 101.

(٤) كانت أنطاكية والملايا من أهم اللواتي في هذه الناحية الشرقية من حوض البحر الأبيض
المتوسط ، وقد زارها الرحالة المسلم ابن بطوطة قبل ثلاثين سنة من هذا الفوز القبرصي وأسهب
في وصفها ، كما أشار ياقوت : معجم البلدان ٣٨٨/١ إلى أنطاكية فذكر في شأنها أنها
« حصن واسع الرستاق كثير الأهل » وعنه أخذ هذا الوصف ابن عبد الحق البغدادي :
مرصد الاطلاع ١٢٥/١ .

وأعلامه في مدينته» (١) فسر الملك من هذا الاستسلام الذى لم ترق فيه نقطة دم ، وكان ذلك في الثامن من سبتمبر ١٣٦١ ، وكان هذا الاستسلام بداية انقراط (٢) عقد التحالف الإسلامى ضد الملك اللوزينانى .

بهذه الوسيلة وبهذه النتائج التى تخففت عنها هذه الحركة من جانب بطرس أدرك الأخير مواضع الضعف في الجبهة الشرقية الإسلامية ، كما أن هذه الانتصارات التى اكتسبها — وإن لم تكن له يد في بعضها — دفعت لتوجيه اهتمامه نحو ضرب المواقع الإسلامية الكبرى بغية استخلاص بيت المقدس واحتلال بعض أراضيها ، والسيطرة على معاير التجارة الشرقية ومسالكها .

إلا أن الأمور لم تمض كما يشتهى ، فلما لبث أن تحركت بعض هذه القوى الإسلامية لرفع النير القبرصى ، وذهبت إلى أبعد من ذلك حيث أخذت تعد العدة لمهاجمة قبرص ذاتها في الوقت الذى كان ملكها فيه في الغرب يستعديه لمهاجمة المسلمين ، إلا أن القوة الإسلامية البحرية المغيرة اضطرت للارتداد وفر قائدها إلى طرابلس الشام حيث حماه أميرها منكلى بغا الشمسى الذى يسميه ماخيراس باسم « ملك بخنا » (٣) .

ترى هل كانت في ذهن بطرس فكرة واضحة منذ البداية عن الهدف النهائى من زعته الصليبية ؟ أعنى هل كان يفكر في مهاجمة مصر وثغرها الإسكندرية قبل زول قواته على بعض بلاد آسيا الصغرى ما بين أرمينية وإسلامية ؟

(١) Makhairas : op. cit., I, 124.

(٢) تفسير هذا الاستسلام عند :

Atiya : Crusade in the Later Middle Ages, p. 328

هو خوف هذه الإمارات من ضياع استقلالها على يد قرمان ، أنظر
E.I. art Kirman; Gibbons : pp. 165-7, 187-90, 289-90.

Cf. Makhairas : op. cit. I, 159; II, 159, note 2 (٣)

وقد مات منكلى بغا الشمسى هذا سنة ٧٧٤ ، أنظر ابن حجر : أنباء الغمر ، وفيات ٧٧٤ هـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ١١/ ١٢٤-١٢٥ حيث ذكر ولايته لطرابلس الشام ، كذلك ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ٦/ ٢٣٦-٢٣٧ ، أما الدرر الكامنة ١/ ٩٩٨ فلم يورد خبر ولايته لها في ترجمته هناك .

الواقع أنه ليس بين أيدينا ما يشير صراحة أو تلميحاً إلى مثل هذه الفكرة قبل استنجد ليو الخامس به ، ولعله رأى في ضعف الإمارات الإسلامية وتنازعها فيما بينها وعدم وجود تحالف يجمعها ضد المعتدى ماحرك فيه هذه النزعة الدينية للتفكير في مواجهة مصر مواجهة حربية .

يؤيد هذا الرأي الذى تقترحه أن الملك بطرس لم يكد يفرغ من آسيا الصغرى حتى يبادر للشخص إلى أوربة يمرض « حرباً صليبية » لم يحدد لها هدفاً صريحاً ، ولسنا نجد في الوثائق اللاتينية التى جمعها « ماس لاترى »^(١) الخاصة بالملك بطرس فى سنة ١٣٦٤ ما يشير إلى « الإسكندرية » ، بل إن التصريح بوجهة هذه الحملة قد بقى سرّاً مكتوماً حتى عمن اشتركوا فيها - ومن بينهم البنادقة والجماعات الإيطالية على وجه الخصوص ، ولم يعرفوا حقيقة تلك الوجهة إلا يوم قاربوها ، بيد أنه ليس معنى ذلك أن تحديد وجهة الحملة لم يتم إلا بعد خروجها من قبرص وكشف الخبر عن طيتها لرجاله ، ولكن الأرجح أنه اندفع إلى الغرب بعد خضوع المايا وأنطاليا محاولاً اغتنام هذه الفرصة لتحريكه عدوانياً وتأليه على الشرق الإسلامى .

* * *

هنا بدأت الخطوة الثانية فى سلسلة التحركات التمهيدية التى أدت فى النهاية إلى مهاجمة الإسكندرية وهى الاتصالات الشخصية الدبلوماسية التى قام بها - منذ أكتوبر ١٣٦٢ - الملك بطرس بالقوى المسيحية الغربية وهى :

١ - البابوية .

٢ - البندقية وجنوة .

٣ - الممالك الأوربية (وعلى رأسها إنجلترا وفرنسا) .

٤ - جماعة الاسبتارية .

ولما كان بطرس هو وحده الذى قام بهذه الاتصالات فلم يدخل فى الحسبان توزيع تلك الاتصالات من حيث الأهمية الحربية بل إن الوضع الجغرافى هو الذى

كان على عليه الاتصال بواحدة منها قبل الأخرى ، وقد استغرقت تلك الاتصالات منه ثلاث سنوات امتدت من ١٤ أكتوبر ١٣٦٢ (١) .

وكان أول من اتصل به جماعة الفرسان الاستبترية في رودس وكانوا بقيادة رئيسهم الأخ الأكبر « روجردى بان » وكان ذلك على يد جماعة في أنطاكية كتب إليهم الملك رسالة يطلب إليهم فيها الشخوص على جناح السرعة إلى رودس ، فكان ما أراد ، وما يكاد هؤلاء القواد يصلون إليه حتى بادروا بالسفر إلى البلاط البابوي في « أفينيون » حيث كان البابا إربان الخامس الذى أصلح ما بين الملك وبين هيج اللوزينانى تحقيقاً لشق من سياسته القائمة على تقوية البابوية في إيطاليا ، وإقرار السلام بين الجماعات الغربية وإحياء الحركة الصليبية (٢) مما كان له صدًى في قول أحدهم حين اعتلائه العرش البابوي « لقد أصبح اليوم لنا بابا » *Modo habemus Papam* (٣) ، ولقى الملك بطرس استجابة طيبة من البابا الذى أراد أن يكون له ما كان لسميه إربان الثانى منذ أكثر من قرنين ونصف قرن من الزمان .

كذلك وصل بطرس في ديسمبر ١٣٦٢ إلى البندقية إدراكاً منه لما تستطيع أدائه هذه الجمهورية لصالح الفكرة الصليبية ومساعدتها مادياً ، ورحب به دوجها « لورانت شلى » الذى استمع إلى تصويره لحالة المسيحيين في الشرق ، كما لم تفته الإشارة إلى خطر ازدياد القوة الإسلامية وتهديدها للصالح الغربية في ميدانى التجارة والدين معاً على السواء ، وقد وعده الدوج بقيام دوقيته بمساعدته بالسفن وبعض الرجال ، وكان هذا غاية ما يرجوه بطرس من نجاح لمساهمة لدى جمهورية البندقية التى تضع مصالحها المادية فوق الصالح المسيحي والذى يرى أهلها في أنفسهم « بنادقة أولانم مسيحيين بعدئذ » ، والذى دعتها رعاية هذا الصالح الشخصى إلى الإصرار على أن تكون الاتفاقية بين الطرفين سرّاً حتى لا تبلغ مسامع قوى تمحصر البندقية

(١) تحديد هذا التاريخ بناء على ماورد فى Mas-Latrie : op. cit., II, p.

239, note 1, d'après Strambaldi حيث بين صراحة خطأ خروج الملك قبل هذا الوقت .

(٢) عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ .

Duchesne : Hist. de Cardinaux français, I, p. 406.

(٣)

على مراعاتها حفظاً منها على امتيازاتها التجارية والاستيطانية والفضائية فيها ، لكن هل رسمت وجهة الحملة الزرع قيامها تحت قيادة الملك القبرصى ؟ وهل نص الحديث بينهما على « الإسكندرية » ؟ الأرجح أنه اكتفى بأن تكون التجربة « صليبية » ، ولعل الجانب القبرصى لم يبلغه مثل هذا الإتفاق ، بدليل ما يسوقه النورى (١) من أنه حين هاجم القبارصة عمد جنفرا إلى التوصل بالبندقية واصطناعهم في حراسة البضائع التي خيف عليها فأرسلها للداخل محببتهم حراساً عليها ، مما يدل على أنه لم يكن بخامره شك من ناحية البندقية وقناصلها .

* * *

تابع بطرس سيره بعدئذ نحو لمبارديا وإيطاليا الجنوبية حيث صادف ترحيباً به وبفكرته من جميع من اتصل بهم : أمراء وأدواقاً وحكاماً ، ووصلوه بكثير من الهدايا والحيول ، ولم يعدم جماعة من الفرسان المتدينين الذين انضموا إليه ومحبوه في تجواله حتى بلغ جنوه حيث رحب به دوجها « سيمون بوكانيجرا » الذي ما لبث أن قتله أشرف الإمارة بالسهم ، فكان هذا الحادث باعثاً للأس في قلب بطرس الأول ، لكنه عاد يطرق أبواب جنوة حين أراد أهلها تجديد الامتيازات التي منحهم إياها من قبل هنرى الأول منذ أكثر من قرن من الزمان ثم العودة إلى مثل هذه المحاولة في العشرينات من القرن الرابع عشر (٢) .

* * *

اتصل بطرس بفرنسا وملكها جان الثانى المعروف بنزعته الدينية القوية حتى كان أحد اثنين تناولا الصليب لهذه الحرب من يد البابا إربان الخامس ، وليس من شك في أن بطرس كان يحذوه الأمل في أن تنضم لمشروعه مثل هذه الشخصية القوية النفوذ في بلدها ، الوثيقة الصداقة برجال الدين ، المؤاخية في السلاح لكثيرين من أبرز الفرسان المصاميد ، يضاف إلى هذا أنه كان يتحرق شوقاً لمحاربة المسلمين في الأندلس ، إرثاً ورثه عن أبيه وعهداً قطعه على نفسه ، يضاف الى هذا ما ترمى إلى سمع الملك القبرصى من إعجاب ملك فرنسا به لما جازه من نصر في الملايا .

(١) النورى : الأعلام ، ص ٥٢٤ .

التقى بطرس بجان الثانى فى بلاط أفينيون حيث رحب الملك الفرنسى به ودعاه للجلوس الى جواره على المائدة فأبى بطرس احتراماً لمساكنة ملك فرنسا وقال له: «أيها السيد العظيم، لا يحق لى أن أجلس إلى جوارك فأنت أعظم أمراء المسيحية»^(١)، ولعل هذا ما يفسر إشارة النويرى عن بطرس فى قوله عنه «إنه كان أذل ملوك النصرانية» وهو قول رده عنه مؤرخ حديث فى القرن العشرين صور مبلغ احتقار الغرب له وازدراءه بشأنه^(٢).

على أن الغريب هنا أن البابا أراد أن يجعل من حملة لوزنيان حملة بابوية تصرف فيها كيف شاءت، ومن ثم وكل قيادتها إلى ملك فرنسا دون بطرس، مما يؤيد رأى القائلين بتفاهة شأن الملك القبرصى، كما جعل «تاليران بريجورد» نائبه الرسول فىها، وطبيعى أن يرحب الملك الفرنسى بهذه الفرصة، لخصص جميع الأموال التى كانت قد جمعت من قبل لتخليص الأماكن المقدسة وفقاً على هذه الحملة، بالإضافة إلى الهبات والمبالغ التى وعد بها من جيبه الخاص، وكذلك نصف دخول كنائس فرنسا، على أن يوكل التصرف فى هذه الأموال إلى أربعة من كبار الأساقفة يختار الملك الفرنسى منهم اثنين ويختار البابا الاثنين الآخرين.

وقام البابا من جهته بتنفيذ الرسائل إلى ملوك وأمراء النصرانية فى الغرب يحثهم على المساهمة فى هذه التجريدة الصليبية التى يظهر جلياً أنها كانت متجهة ضد «الترك»، ولم تجر فيها الإشارة إلى مصر، وحدد أول مارس ١٣٦٥ ليكون موعداً لنهوضها. ويلاحظ أن اسم ملك قبرص لم يرد قط فيمن دخلوا فى نطاق أسماء زعماء هذه الحملة، فهل كان ذلك عدم اكتراث بشأنه؟ وهل كان ذلك يرضيه وهو الذى تكبد ما تكبد فى سبيل الحصول على نجيدات ومساعدات من الغرب؟

على أنه يظهر أن هناك ثم تدخلا من جانب فيليب دى ميزير لى لدى البابا لتأييد موقف بطرس الأول الذى ما لبث أن رحل يطلب مساعدة الأمراء الأوربيين المختلفين.

Chroniques de Pays-Bas et de France, (ed. de Smet), II, p. 201. (١)

Lorga : Philippe de Mezières, p. 283, l. 10.

(٢)

ويخيل إلينا أنه رحل وفي نفسه شيء من الألم لإيكال هذه الحملة لسواء دونه ،
وإلا فقد كان يكفيه كتابة البابا رسائله إلى مختلف ملوك وأمراء أوربة .

ذهب بطرس بعد مغادرته بلاط أفنيرون إلى ألمانيا على حد قول فروازار^(١)
حيث مضى الى براغ لمقابلة الأمبراطور ثم إلى بولندا وعاد منها إلى فرنسا ، ويقال
إن البابا أرسل خطاباً إلى دوج جنوة يخبره فيه أنه أرسل الملك بطرس بأمره إلى
بعض ممالك الغرب المسيحية لاسيما في إقليم ألمانيا^(٢) ، وكان ذلك في صيف ١٣٦٤م
(= ٧٦٦ هـ) ، ويظهر أن الغموض يكتنف رحلات بطرس في هذه الفترة ، وهو
غموض لا يفسره إلا أنه لم يجد تقديراً صحيحاً — في اعتقاده — لمكانته عند البابوية
مثل تقديرها لفكرة الحملة الصليبية في حد ذاتها ، ويتضح أن بطرس أصبح يعمل
لحسابه الخاص ملتصقاً المرتقة والمطوعة والغامرين ، وذهب أيضاً إلى إنجلترا يوم ٦
نوفمبر حيث قابل جماعة من الفرسان الانجليز والفرنسيين ورحبوا به وأزلوه منزلاً
خاصاً به ، واستقبله ملك إنجلترا إدوارد الثالث استقبالا كريماً واستضافه في قصر
وستمنستر^(٣) . على أن بطرس لم يحصل إلا على وعود كلامية من إنجلترا ، بل إن
ملكها صارحه بأن قبرص من أملاك سلفه ريتشارد قلب الأسد^(٤) ، وبذلك كان
كل منهما في هذا اللقاء يتكلم عن أمر يخصه ويسد السمع عن مطالب الآخر ، وإذا
كانت إقامة بطرس في إنجلترا قد استغرقت شهراً فانه لم يتوفر له خلاله الحصول على
تأكيد رسمي من جانبها في معاونته في مشروعه ، وإنما كان منتهى نجاحه يتمثل
في انضمام بعض الأفاقيين والمخاطرين إلى جانبه ممن يدفعهم حب الغامرة إلى الانخراط
تحت رايته ، ومن ثم عاد إلى فرنسا وفي النفس غصة كغصته يوم تجاهل إربان
الخامس إلقاء قيادة المحاربين إليه ، وفي باريس التقي بطائفة من الأمراء أمثال دوق
أنجو ، ثم رحل بعدئذ الى « بواتيه » حيث بعث الأمير الاسود من استقبله نيابة
عنه لانشغاله إذ ذاك بحفلات مولد ابنه^(٥) ، ورحب القوم به وأحاطوه بالرعاية

(١) Froissart : Chron. pp. XLII, 85.

(٢) يجعل ماشوهذه الرحلة إلى ألمانيا متأخرة عن الوقت الذي ذكره لها فروازار .

(٣) راجع الوثيقة رقم ٥ : Mas-Latrie : His. de Chypre, II, 247.

(٤) Chroniques des Quatres Valois, p. 128.

(٥) Chroniques de Pays-Bas et de France, III, p. 201.

الخطبة يريد أن ينهض بها « ترضى الرب عساها تفتح أمامه الطرق الى الأحرار المقدسة » (١) ، واضطجبه نائب الأمير الأسود الى بعض البلدان ليستوضح مشروعه الصليبي (٢) ، ولما تعرف ماذا كانت فكرة الأمير ومدى موافقته على الخطبة ، ولقد أصيب بطرس بضربة ألحمة حين وافاه نبأ موت الكردينال « بريجورد » الذى كان من أشد المتحمسين لحرب صليبية دون نظر للقائمين بها ، وكانت وفاته يوم ١٧ يناير ١٣٦٤ ، وما لبث ملك فرنسا نفسه أن وقع فريسة للمرض الذى ألح عليه حتى قضى نحبه هو الآخر يوم ٨ أبريل من السنة ذاتها وهو فى إنجلترا زائراً للملك الذى أقام احتفالات تأبين ضخمة لجان الثانى تليق بمكانته ، ثم بعث بجثته إلى فرنسا حيث شيعت جنازته ودفن فى كنيسة سانت دنيس ، ونودى بابنه شارل الخامس ملكاً مكانه ، وكان من بين المشيعين للملك الراحل والمهثنين لحلفه الملك بطرس الأول (٣) الذى مكث يباريس حتى ١١ يونيو محاولاً حمل الملك الجديد على الوفاء بالمهود التى قطعها أبوه من قبل بامداد الحملة الصليبية بالأموال والعتاد ، ولكنه لم يجد منه تشجيعاً أو بارقة أمل ، ولم يكن ذلك عن عزوف عن حمل الصليب أو عن قلة اكتراث منه بالصالح الصليبي وأوضاع النصارى فى الشرق بالصورة التى صورها ميزير ، لكنه كان فى الواقع مشغولاً بأحوال مملكته الداخلية وما عاته من ويلات الحروب الأهلية ، لكنه مع ذلك لم يرضن بوصفه يبعض المال ، ووعد بمخاطبة إمبراطور ألمانيا فى هذا الصدد باعتباره « أغنى وأقوى منه » ، ولم يجد بطرس إذ ذاك بداً من مغادرة باريس مهيض الجناح مزعزع الآمال ، وكان نجاحه فى كل معنى من أجله هو « الكلمات الممسولة من غير ثمرة nisi in verbo jactante et effecta carente » على حد قول فيليب ميزير .

لم يحاول بطرس مقابلة البابا أربان الخامس مرة أخرى ، وإنما توجه إلى الإمبراطور الألماني فى كولونيا وعرج فى طريقه زائراً كونت فلاندرز ودوق برابانت ،

Froissart, pp. 9 seq.

(١)

Ibid. loc. cit.

(٢)

Chron. de Pays-Bas et de France, II, p. 201.

(٣)

ولعل أكبر توفيق اقيه في هذه الرحلة الجديدة كان في « إرفورت » حيث انضم الكثيرون إليه ثم اتصل بفردريك مركيز مسنى الذى رحب بدعواه لكنه أرجأ البت في مساهمته فيها حتى يستشير الإمبراطور ، وكان المركيز صريحاً ، إذ جعل مساهمته سلباً أو إيجاباً رهناً برغبة الإمبراطور .

على أن نسمة من الآمال هبت وسط هذه اللقائمات التى لاتبشر بالخير المطلق حيث التقى بواحد من اصحاب الإمبراطور وأذناهم الى نفسه ونعى به رودلف الثانى دوق سكسونيا الذى أكرم وفادته وأقام له الاحتفالات التى استمرت ثمانية أيام سوية مكثفياً بهذا وبالأموال والهدايا التى وصله بها ، وحينذاك أيقن بطرس أن اللواجهة الصريحة بينه وبين الإمبراطور^(١) أجدى من الاتصال بسواه من الأمراء ، ومن ثم مضى غداة هذه الاحتفالات إلى « براج » ورحب به الامبراطور ترحيباً عظيماً وقدمه إلى زوجته ، وجعل له الصدارة فى اجتماع عقده لمناقشة مشروعه الصليبي ، وربما كان ذلك لما انطع عليه الامبراطور من تدين عميق وإن كان لايرقى به إلى التضحية والالتزام فى حرب لم تأخذ الامبراطورية والمساهمون معها فيها استعدادهم الكامل ، وكان الامبراطور فى ذلك واقعيّاً لإدراكه من مجريات الأحداث ما فات ذهن بطرس من طرد الصليبيين من الشرق بعد احتلالهم إياه قرنين وأكثر من الزمان ، وتجلت واقعية الامبراطور فى بيان ما تهدد الصليبين من خطر لاسيا والملك القبرصى فى قوة ضئيلة لاتستطيع أن تقف أمام القوات الإسلامية حتى ولو ضمن النصر فى جولاته الأولى ضدّها لذلك اقترح الامبراطور عقد مؤتمر لمناقشة هذا الموضوع فى « كراكاو » يحضره أيضاً ملكا بولنده والمجر وذلك فى سبتمبر ، وصرح شارل بأهمية النهوض بحرب صليبية تجتمع فيها القوى الأوربية فى هذا الوقت بالذات ، كما كتب إلى البابا بذلك أيضاً ، واتفق الرأى فى هذا المؤتمر على تأييد بطرس فى تجريدته الصليبية ووسيلة ذلك الكتابة إلى شتى الأمراء الألمان لدعوتهم للمساهمة فيها .

(١) يستفاد مما ذكره Alfred Leroux : Recherches critiques sur les relations politiques de la France avec l'Allemagne (1292-1378), p. 273 seq.

أن الحائز لبطرس على الذهاب للإمبراطور ، إنما كان رغبته فى اختيار قائد صليبي جديد فى المكان الذى خلا بوفاة جان الثانى ملك فرنسا، وهو رأى فى حاجة إلى نص يدعمه، أو شهادة تزكيه ، بل إن منطق الأحداث وطبيعة بطرس ترفضان هذا الاتجاه .

كان مؤمراً « كراكو » ذروة النصر الذي يطامع بطرس في الحصول عليه ، لكن ماهو مدى تحقيق هذه القرارات والتوصيات واتخاذها الصورة العملية ؟

الواقع أن هناك ما يقارب شبه عدم الاكتراث ببطرس الأول كداعية لحرب صليبية يريد أن يزوج فيها بدول أوربة المختلفة تحقيقاً لغروره الذي زاده حدة وغناً اتصاره في العلايا وأنطالية من قبل ، وإذا كان ليو الخامس — ملك أرمينيا — قد التمس منه النجدة فإن الوضع هنا يختلف كل الاختلاف عن سابقه . ومن ثم لم يبق أمامه إلا الرحيل إلى قبرص وفي جمبته وعود وعهود وفي نفسه آمال وآلام ، وكان حرياً به بعدئذ أن يستعرض رحلاته وما تمخضت عنه ويزن بميزان العقل مدى ما قد يصيبه من نجاح أو فشل إذا نهض بحملة ضد مصر ، لكن يبدو أن اندفاعه كان أقرب إلى التهور منه إلى الحطة القائمة على دراسة جدية عميقة لقوة مصر الحربية ، وشاء أن يجعل ختام رحلته زيارة الجمهورية التي كانت منها بداية جولاته في أوربة فمضى في نوفمبر ١٣٦٤ إلى البندقية التي أكرمها دوجها « شلزي » ووصله بكثير من الهدايا وخطا خطوة أكبر بمن خطوات من قابلهم بطرس الأول من قبل ، فأعد سفينة حربية جهزها بكل معدات القتال ، وكان شكر بطرس للدوج يلائم ما قام به الدرج نحوه ونحو مشروعه ، وأخيراً بعد إقامة طالت مدة أشهر في البندقية غادرها الملك القبرصى يوم ٢٧ يونيو ١٣٦٥ ميمماً شطر بلده ، ووصله بعد قليل خطاب من البابا يبارك فيه خطواته القادمة هو ومن معه من المحاربين المسيحيين وقد أبقى بطرس وجهة حملته سراً حتى على من معه من القائلين ؛ والمعروف أن البندقية لم تكن جادة في تأييد بطرس حرصاً على مصالحها وامتيازاتها التجارية في الشرق الإسلامي ، ومن ثم صدرت الأوامر إلى نوابها في كريت بالإتصال بالمسلمين في مصر تنبئهم بأنها ليست ضالعة في هجوم قد يشنه بطرس عليهم بعد عودته من آسيا الصغرى ، والواقع أن البندقية كانت تقف مع الجانبين ، ففي الوقت الذي ترسل فيه هذه الإخبارية إلى مصر كانت سفنها تنقل المحاربين من شتى الأجناس^(١) الذين انخرطوا تحت راية ملك قبرص ، وأرسلت الرسائل إلى أمير أنطاكية بإعداد مجموعة من السفن تنضم إلى الأسطول المللكي المحارب ، حتى لقد بلغت هذه السفن الحربية المختلفة الأنواع ٧٢ واحدة على حد بعض الأقوال ،

ومائة على بعض أقوال أخرى^(١) ، وكان بصحبته في هذه اللحظة المندوب البابوي وفيليب دى ميزير ، فقام الأول باعطاء الصليب للجميع دون تفرقة بين مذهب وآخر ، واعترف الجميع وتناولوا القربان ، وكان فيهم « من لم يتناوله منذ عشرين سنة » .

حين فرغ الكلام من تلك الطقوس الدينية اجتمع كبارهم في مجلس خاص يتشاورون في تحديد وجهة الحملة^(٢) ، وهنا برز برسفال الكولوني واقترح الاتجاه إلى الإسكندرية ، فقد عرفها من قبل وقت أن كان بها أسيراً وعرف مسالكها ودروبها ، وراح ييسر لهم أمر الفتح ويهون عليهم ما يلقونه من المقاومة ، ووجدت هذه الدعوة استجابة من بطرس الذى وقف في سفينته وحوله من اصطفاهم من عليّة القوم ووجوهم^(٣) ومن بينهم فيليب دى ميزير ، وبعد أن باركهم المندوب البابوي وبارك الرايات الحفاقة صعد السفينة الملكية وردد الأفق هتافات القوم ودوى الطبول والأبواق والكوسات ، وصاح الجميع يهتفون ببطرس ملك بيت القدس وقبرص وقاهر المسلمين الكفرة^(٤) .

وهنا أخذوا يتشاورون أيتجهون إلى آسيا الصغرى أم إلى الشام أم إلى مصر ؟ وكان ذلك التشاور يوم السبت ٤ أكتوبر ١٣٦٥ ، واتجهوا في اليوم التالى إلى إحدى الجزائر بمخيلج خلقدونية لأخذ كفايتهم من الماء ، ثم انطلق الأسطول نحو

(١) اشترك في هذه الحملة شعوب أوربية عدة فكان منهم الفرنسيون « يمثلهم مارتل دى باسكفيل الذى روى فيما بعد لماشو المؤرخ تفاصيل الحملة » ، والانجليز « ومنهم ريتشارد لورد جراى الذى كان من أوائل من دخلوا الاسكندرية بعد الفزو أنظر Stubbs : Lectures on Medieval and Modern History, p. 194 وفرنسان التيتوتون والألمان والاطليان وبعض البيزنطيين وجامعة الفرسان الأسبترية ومنهم مائة فارس بأسلحتهم ، أنظر أيضاً 7 Makhairas : op. cit., II, No. 167, n.

Jorga : Philippe de Mezières, p. 284. (٢)

Cf. Makhairas : op. cit., (٣)

Jorga : op. cit., p. 285 note 3; Atiya : Crusade in the Later Middle Ages, p. 347. (٤)

وكان هتافهم إذ ذاك :

Vivat vivat, Petrus Jerusalem et Cepri rex, contra Saracenos infideles.

الاسكندرية ، وحينذاك ظهرت روح قوية من المعارضة في هذا السير تخوف القوم منبهة المقاومة الكبيرة التي يمكن أن تقوم بها هذه المدينة .

* * *

ترى ما هي الدوافع التي جعلت بطرس يندفع أخيراً في غير تردد لتوجيه الحملة إلى الاسكندرية دون باقي المناطق والأقطار ؟

ربما قيل إنه رتب من قبل — فما بينه وبين نفسه على الأقل — هذا الاتجاه ، ولعله قد أوحى به صراحة — أو تلميحاً — إلى برسفال السكولوني ، فكان من ذلك مباغتة الاسكندرية ، على أن النويري لحص أسباب الإقدام عليها دون غيرها فيما يلي :

١ — غضب الغرب من قرار أصدره الصالح بن الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٥٧٥٦ هـ بمنع استعمال أهل الذمة في الديوان ، وإلزامهم بلباس خاصة (١) .

٢ — رفض السلطان الناصر حسن تحقيق طلب بطرس — حين ولى ملك قبرص — من التوجه إلى بلدة صور ليجلس على عمود « كمادة كل من تملك جزيرة قبرص » .

٣ — شجبه على ذلك أن مركباً قبرصياً كان قد تحترم في الميناء الشرقية بالاسكندرية في سنة ٧٥٥ « وبه كراسلة » أى « صليبيون » فلم ينهض لدفعه أحد .

٤ — وثوب أهل رشيد على فرنجي تخلف من جماعة هاجمت البلد وقتلهم إياه .

٥ — هجوم بعض الفرنج في ٢٧ شعبان ٧٦٤ على « بوقير دون أن يجرد أحد من أهلها في وجوههم سيفاً فطمع بطرس في الاسكندرية » .

٦ — انتقامه لما جرى لبعض البنادقة من قتل على يد « عوام المسلمين بالاسكندرية » .

على أن بعض هذه الأسباب يبدو فيه الافتعال والتماس العلة لعدم مقاومة المدينة كمسألة التنبؤ بسقوطها يوم « جمعة » على يد « ملك مسيحي من الغرب » لكننا

نستطيع أن نقول إن الملك القبرصي كان يعلم بضعف ناحية الباب القديم من الاسكندرية^(١).

على أية حال بلغت الحملة مشارف الاسكندرية يوم الخميس ١٩ أكتوبر ١٣٦٥ وازدهت الفرحة الغزاة وطالعهم قباب كنيسة القديس مرقس والقديسة سنت كاترين والعمودان اللذان يقول المسيحيون أن القديسة كاترين استشهدت عندها ، والحجر الذي قطعت عليه رقبة يوحنا المعمدان^(٢) ، وأبصروا عن بعد المسلمين في عمامهم البيضاء والنصارى في قلانسهم الزرقاء واليهود في طواقبهم الصفراء كما يستدل على ذلك من وصف أحد الرحالة المعاصرين ، وكان بالمدينة كثير من الفنادق الخاصة بالجاليات الأوربية المختلفة كالبنادقة والفرنسيين والقشتاليين والجنوية وأهل مرسيليا والقبارصة^(٣) ، بل وكان للمدينة ستة أبواب من الحديد ، هذا إلى وجود صهاريج^(٤) للمياه بها . كما كان جزء من مياه الشرب يأتيها عبر قنوات قامت على حافتها بيوت الأهالي ، وتستطيع المدينة الحياة على ما في هذه الصهاريج حتى في أيام الحصار الطويلة اللهم إلا إذا سيطر العدو على هذه القنوات لا سيما عند باب رشيد .

على أن الاسكندرية لم يكن معنياً بها كخط دفاع عن البلاد ، فكانت حاميتها قليلة^(٥) العدد ، ولم يكن لدى الأهالي من السلاح ما يستطيعون به دفع الغير ، ويبدو أن سكانها لم يكونوا يتوقعون هجوماً ليس له ما يبرره من مجريات الأحداث السياسية ، بل لقد ذهب بهم الظن إلى أن هذه السفن إنعاجات للمتاجرة والاستبضاع ، وراحوا يحتلّون بهم « وطن أهل الاسكندرية أنهم تجار البنادقة ينتظرونهم بأنون بتاجرهم

(١) أنظر جمال الدين الشيال: الاسكندرية ، طوبوغرافيتها .

(٢) T. de Swynburne : Arch. de l'Orient Latin, II, 380. (٢)

(٣) أنظر وصف اسكندرية — وإن كان قبل ذلك بقرنين — من الزمان والأمم الغربية التي يعيش أبناؤها فيها في رحلة بنيامين ، ترجمة عزرا حداد ، بغداد ١٩٤٥ ، صفحة ١٧٨ — ١٧٩ .

(٤) النويري : الأعلام .

(٥) Scheffer : Etude sur la dièse de Chemins de Babiloine, (Ar. Or. Lat.) II, 98. (٥)

على جارى عادتهم فى كل سنة ، وكان تجار المسلمين جلبوا لهم من الهند أصناف البهار يبيعونها عليهم ويتعوضون عنها من متاجرهم» (١) فكانت فرصة للغزاة للاستعجال تأهباً لقتال العدو ومهاجمة الثغر ، حتى إذا كان العاشر من أكتوبر (= ٢٢ محرم) أفصح القادمون عن حقيقتهم واقتربت مرأى بهم « إلى أن حطت قلاعها ببحر السلسلة وذلك من جهة الباب الأخضر المسدود ، وكان الباعة قد خرجوا من البلد بطبائليهم وقدورهم ودسوتهم ملاءة بالطعام يبيعونه على من بالجزيرة» (٢) . ولم يكونوا فى سلاح يستطيعون به ودفع هذه الجماعات الغيرة فالفرنج لا بسون الحديد من الفرق إلى القدم ، والسلمون كلهم على وضم « فكيف يبرز العارى لمن كفى الزرد والنضيد» (٣) .

وامتد القتال يوم الجمعة واستبسل الأهالى والمغاربة فى الدفاع عن « مدينة الإسلام» ما وسعهم الجهد ، وكان والى المدينة صلاح الدين بن عرام غائباً عنها فى الحج وسلطان البلاد شهبان بن حسين فى سرياقوس وأما بكه يلغا العمرى فى الصيد ، أما القائم بحراسة الثغر فاسمه « جنفرا » .

بدأت الأمور هينة أمام المغيرين الذين لم يجدوا ثم عسكراً يخرج لللاقاتهم ، وإنما كان جماع المقاتلين أفراد العامة والبدو وبعض المغاربة وأهل الربط والحاتقاوات ، ورأى الملك أن ينزل المحاربون إلى المدينة فى الصباح وكان دق الكوسات على مركبه إيداناً بيدء الهجوم ، وكان القتال عند الباب القديم ، وكان من رأى المغاربة « أن يدخل الناس المدينة يتحصنون بأسوارها الحصينة ويقاثلون من خلف الأسوار ليظن العدو أن خلفها كل رجل كالأسد المغوار ، يذيقونه برميهم عليه الشدة ، إلى أن تصل من مصر النجدة» (٤) ، لكن أهل الربط خافوا على ربطهم فلم يلتفتوا لهذا رأى ، ومن ثم يولمهم النويرى فى قوله « لو كان المسلمون ... تحصنوا بالسور وقتلوا من ورائه كل رجس كفور ، لسلموا من القتل والنهب والأسر ... فالذين

(١) النويرى : شرحه .

(٢) النويرى : شرحه .

(٣) النويرى : شرحه .

(٤) النويرى : شرحه .

خافوا على ربطهم تخربت ، ودورهم التي داخل البلد^(١) نهبت ، ، وحينذاك تسلل أحد المهاجمين واسمه « فرلينو » مع ثلة من المحاربين وحاصروا المدافعين عن الثغر ، وأخذت سهام الغزاة المسلمين من كل جانب فجعلت الجياد ، وجرح جنفرا نفسه .

على أنه يبدو أنه لم يكن من اليسير على المهاجمين احتلال الإسكندرية ولم تجدهم نفعا مفاجأتهم إياها على حين غفلة منها ، وأدركوا أن الوقت في صالح المسلمين إذ لا بد أن تأتيهم النجدة من القاهرة ومن غيرها من مدن الدلتا ، وحينذاك قد تدور الدائرة على المغير ، وتضيع مصالح المسيحيين الأوربيين داخل البلاد ، ومن ثم أخذوا في التشاور فيما بينهم عما يصنعون ، فرأى البعض منهم ألا جدوى من الاستمرار في مهاجمة الثغر ، وأن الخير في العودة من حيث جاءوا ، وكان « أميرال » رودس حامل لواء هذه الفكرة المؤيد لها ، غير أن ذلك أغضب بطبيعة الحال الملك الذي أصبحت كرامته بين ملوك النصرانية وشعوبها مرهونة بانتصاره وتحقيق مشروعه الذي قضى ثلاث سنوات في تجميع القوى من أجله ، يضاف إلى هذا أن إخفاقه في الاستيلاء على الإسكندرية يؤكد صحة فكرة البابا عنه حين جعل قيادة القوات المحاربة لجان الثاني ملك فرنسا ويؤيد ما انطوت عليه نظرية ملك إنجلترا من عدم تحدته جدياً معه في شأن ما جاءه من أجله استخفافاً منه به ، لذلك تقدم بطرس رافعاً عليه الخاص ونادى بالمهجوم على المدينة ، وأعلن منحه ألف أفلورنقى لأول مقتحم لأسوارها وخمسمائة لمن يليه وثلاثمائة لمن يأتي بعدها ، ولقد وجد بطرس أكبر مؤيد له في الهجوم في شخص « برسفال السكولوني » الذي اقترح إذ ذاك أن يشن الغزاة حملتهم من ناحية باب البحر ، وأخذ هو بنفسه القيادة في هذه الجبهة .

على أن المقاومة البرية من أهالي الأبراج ردت في أول هجمة على أعقابها ، فلما علم بطرس بذلك الارتداد المهين أنكره عليه ، وأخذ هو على عاتقه مهاجمة المدينة واصطعب معه جماعة من البارونات والاستبترارية ، فكان التوفيق حليفه هذه المرة وهاجم الباب وأضرم فيه النار وبذلك تحقق له النصر ، ووجد أحدهم ناحية باب الديوان من غير حراسة فافتحمها وافتحمها معه جماعة آخرون ، وحينذاك فر المسلمون

إلى الداخل ، وتقدم الغزاة فدخلوا المدينة من ناحية باب البحر وكان دخولهم إليها ظهيرة يوم الجمعة ١٠ أكتوبر ، وحينذاك اندفع الإسكندريون إلى باب سدرة والزهرة ورشيد ، وجرت مذبحة فظيعة فر إثرهما من بقي على وجوههم حيارى أمام الملك «الذى لم يجد بالإسكندرية أحدا من جيش الحلقة ، فدق فيها بجيشه دقة ، وأكل اللحم وشرب المرقعة » .. وتمكن جيشه منها بعد صلاة الجمعة ، فنهب وسبي وحرق وخرب بعد أن قتل من المسلمين كثيراً ... وكان الرجال على الساحل ليس عليهم ملبوس حرب طائل ، فرماهم الفرنج بالسهم فطاروا كطيران الحمام (١) ، وأراد الملك التقدم شطر القناة (المحمودية الآن) لكنه كاد أن يقتل وكانت نجاته بالفرار إحدى المعجزات .



كان الخبر قد وصل إلى القاهرة فبادر السلطان بإرسال الأتابك يلغا على رأس جيش بالغت المصادر (٢) الفرنجية في تعدادة فحملته مائة ألف مقاتل ، وكان في مقدمتهم قطلوبغا النصوري (٣) .

هنا أخذ البعض يحذ فكرة الارتداد ، وازداد عدد أنصاره لحظة بعد أخرى وحسبنا أن نشير إلى أن من بين هؤلاء كبار رجالاته أمثال أميرال ردوس وفيسكونت تورين والمغامرون الإنجليز والفرنسيون ، بل إن أخوى الملك انضموا إلى هذا الفريق المنسلخ عن التقدم في مصر ، وهكذا وجد بطرس نفسه في شرذمة ضئيلين لا يجاوزون مائة فارس ، وحيط به وتعمدت الأمور بصورة حملته على الارتداد إلى سفنه الباقية في الميناء القديم ، بعد أن أعمل الجميع النهب والسلب والقتل فيما أمامهم ومن صادفوه من أهل النغر ونازليه ولم تكف أيديهم حتى عن كثير من الجاليات الأوربية التي اتخذت الإسكندرية داراً لها ، ولم يجد الغزاة من يقف في سبيلهم حين ارتدادهم إلى شوانهم وأغربتهم وحينذاك كانت القوات المصرية قد

(١) النويرى : الأعلام ، ص ٢٣٥ .

Chron. des quatre valois, p. 166.

(٢)

(٣) راجع المقرئى : السلوك .

وصلت فاحذت في محاربة القلة الباقية من الفرنجة الذين وقفوا قرب القنطرة لحماية المرتدين^(١) ، ورأى الملك بطرس بعين رأسه الصليبان تخضع من الأماكن التي وضعها فيها .

وكان القدر كان يدخر للغزاة ضربة أخرى أنزلها بهم حيث هبت عاصفة فرقت سفنهم ، فعزاه مزير - وهو من هو في تدينه - والندوب البابوي إلى « نعمة الرب وغضبه » وكتب الأخير رسالة إلى البابا تقطع رأس^(٢) وحسرة من هذا « الارتداد الخزي » وصدق النويري إذ يقول في أكثر من موضع « جاءها لصاً وخرج منها لصاً » ، وعاد الأسطول إلى ليماسول حتى مضى كل واحد لوطنه . أما الملك فقد أصدر أمراً بمنع التجارة مع مصر .

على أن الجانب المصري أخذ يلحق جراحه بمدت مباشرة . فبادر بلبغا باعادة ترميم الإسكندرية وتحصيناتها . وصادر أملاك الكثيرين من فرنجة مصر والشام تعويضاً عن الخسائر التي لحقت بأهل الثغر^(٣) .

* * *

لكن هل انتهت الواقعة إلى هذا الحد من الأحداث ؟ وهل كان ارتداد الجيش المهاجم خاتمة لذلك الغزو ؟

الواقع ينفي السكوت ، فقد عمد الملك إلى إرسال مندوب عنه هو « جان الصوري » - أميرال قبرص إلى كل من البابا وملك فرنسا ودوج جنوة يطلب منهم مساعدته ، وكان بدء هذه السفارة في مارس ١٣٦٦ م (= رجب ٧٦٧) ، ووجد عطفاً من جميع أنحاء أوربة على ما قام به من عملي صليبي وإن أرجعوا فشله عن تحقيق هدفه النهائي إلى خيانة من كانوا معه من المحاربين ، وترددت صيحة تطالب بالنجدة ، ومضى السفراء إلى بلاط أراجون لدعوته للاشتراك في حملة قادمة ، وإن

Jorga: des quatre valois, p. 166.

(١)

Lorga: Ph, de Mezlières, p. 303.

(٢)

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية « ط القاهرة ١٣٥٨ » ج ١٤ ص ٣٢٣ .

كانت رسله في هذا الوقت بالذات بمصر تسأل العفو عن أسرهم مصر من أهل بلده
وتطلب عقد معاهدة بين البلدين .

لقد كانت هناك أطراف كثيرة يعنيها أن ينعقد الصلح بين قبرص ومصر ،
ولكل منها دوافع تختلف عن بواطن الأخرى ، على أنه وجد إلى جانبها جماعات
كان من صالحها أن تظل الحرب مشبوبة بين الطرفين ، والتوتر مستمراً ، ومن هذه
الطائفة الأخير جماعة الفرسان الاستبارية الذين كانوا يرون في الحرب مظهراً من
مظاهر فروسياتهم وتوجيهاً للفكر الأوربي نحوهم باعتبارهم حينذاك حماة الدين النابيين عن
بيضته والناهضين بمبء مقاتلة المسلمين في وقت قصرت فيه دول أوربية كبرى - بفهموم
ذلك العصر - عن متابعة الحرب جدياً ، ويقف إلى جانب الاستبارية في هذا
الاتجاه الجيش القبرصى الذى « كان يهتم بالسلب والنهب » ، وهو أمر لم يخف على
جماعات كثيرة من مستشارى الملك فصارحوه بهذا الواقع مصارحة لا تقبل
الجدل^(١) .

أما الأطراف الراغبة في الصلح فكانت قبرص ومصر ذاتهما وجماعات التجار
الأوريين .

أما قبرص فقد رأى ملكها رأى العين عدم تمسك الدول الأوربية بصورة
عملية للحرب وقتال المسلمين في وقت انشغل فيه معظمها بالنزاعات الداخلية والقتال
على الحدود الخاصة به ، وقد ترجم النويرى عن ذلك ، ولكن بصورة أخرى حين
قال^(٢) : « إن ملوك النصرانية لامته على هروبه من الإسكندرية ، وقالوا له إن الذى
فعلته فعل اللصوص لأفعل الملوك دخلتها لاصاً وخرجت منها لاصاً وذلك لعدم
قدرتك على مقاتلة سلطان مصر ، فثبتت لصوصيتك عند سائر ملوك مصر وسائر
أجناس الرومانية » .

كذلك فإن قبرص تأثرت من غير شك بالهزيمة التى لاقتها فى الإسكندرية حين
انسحبت قواتها بعد أن اقتصر دورها على النهب والقتل والحرق والتدمير ، وأدى

Makhairas : op. cit. loc. cit.

(١)

(٢) النويرى : الأعلام ، صفحة ٥١٦ .

هذا كله إلى إخلال الميزان التجارى لها^(١) ، وقد شاركها في هذا الوضع الأخير بعض الجمهوريات الإيطالية التجارية لا سيما البندقية ثم جنوة ثم جماعة التجار الكتلان ، ومن ثم اتحدت البواعث لدى هؤلاء على التماس الصلح وعقده حتى تظل التجارة آخذة مجراها الطبيعى ، وشرعت البندقية فى إرسال سفراء عنها إلى السلطان تسأله العفو عن رعاياها البنادقة المقيمين بمصر وترجوه رد أملاكهم إليهم وتجديد ما بين البلدين من اتفاقيات ، غير ملقية السمع إلى رجاء البابا إياها فى الامتناع عن مرارلة مصر بل ضربت بالتماسه عرض الحائط ، وتعددت سفاراتها إلى مصر ، وترددت بينها وبين قبرص ، فكانت أول سفارة رسمية منها فى ٢٩ يناير سنة ١٣٦٦^(٢) ، وعلى رأسها فرنشيسكو بمبو F. Bembo ، ولقد أوضح ماخيرات ، معاصر هذه الأحداث أن رسل البندقية وقفوا أمام السلطان يتصلون من معرفهم بمقدم الأسطول القبرصى إلى الإسكندرية ويرمون من مساعدتهم إياها فى تدبير خطة الهجوم الفاشل^(٣) .

لم يفت البندقية فى الوقت ذاته أن تبث إلى البابا رسلا آخرين تفسر موقفها وأن « تجارتها هى حياتها » ، وأن التوقف عن التجارة مع مصر هو « النهاية الحتمية للوجود البندقى ، وأنحت باللائمة فى الوقت نفسه على ملك قبرص الذى لم يرع فى هجومه على الإسكندرية جاليتها التجارية هناك فامتدت يده بسلبها حتى لقد نال هذه الجالية من الضرر أكثر مما نال المسلمين » ، لكن ذلك العذر لم يجد عناية لدى البابا إربان الخامس الذى لم تكن البندقية تتوقع منه غير الرفض ، أو على الأقل سكوته عن مسلكها من غير لا أو نعم ، ولذلك كان اعتمادها على ما تتمخض عنه سفارتها إلى مصر التى أوقفت ردها على التعرف شخصياً على رأى الملك القبرصى^(٤) .

(١) أشار إلى هذا الزوبرى فى الأعلام ، صفحة ٥٢٧ ، حين عرض لموقف القياصرة وتأفهم من ملوكهم وتفكيرهم فى الاقتضاى عليه وتولية أخيه مكانه حيث قالوا له « قصدا الإراحة منه (أى من الملك) ونملكك رقابنا لتخمد الفتن ونصطلىح مع صاحب مصر لتصير بضائعنا تباع بالإسكندرية لنزح فيها الفوائد القوية ، كما كنا أولا ، ونحجر فيها بضائعنا الكاسدة التى صارت بفعل أخيك فاسدة » .

Mas-Latrie : Hist. de Chypre, III, p. 753.

(٢)

Makhalras : op. cit., II, No. 176.

(٣)

(٤) كان الملك قد فقد فى هذه الأثناء أحد اثنين كانا من أكبر الشجعان له على التجربة الحربية ونهى به « بيبير توماس » وكانت خسارته إياه « أعظم من خسارته الإسكندرية » .

في هذه الأثناء جاءت رسل البندقية الوافدة من القاهرة (أبريل ١٣٦٦) ، غير أن قبرص كانت قد أعدت حملة بقيادة أميرال قبرص الجديد بطرس دي موستري لمهاجمة بيروت^(١) ، فأنسكرك البنادقة ذلك العمل من جانب الملك ، ورأوا مقدار الخطر العظيم الذي يهددهم إن هرو أنفذهوا ، وأفصحوا له عن مخاوفهم والتسوا منه مصالحة مصر حتى يتسنى لهم أخذ بضائهم ، وحينذاك ، «يفعل ما يحول له» ، بل لقد ذهبوا إلى أبعد من ذلك فعرضوا عليه أن يدفعوا له كل ما أنفقه على إعداد هذا الأسطول الجديد ، فاستجاب لهم ووعد بتأجيل الحملة حتى يرى ما تتمخض عنه مطالبه منهم التي تتلخص في أن يرسل السلطان المملوكي إليه سفراء للتفاوض في عقد السلم^(٢) ، وإذا كانت الحجة التي تدرع بها بطرس في هذا التأجيل هي «حبه للبنادقة» و «كراهيته في أن يلحقهم ضرر يكون هو سببه» فإنه يبدو لنا أن هناك دافعاً آخر حمله على النفاذ بالاستجابة لهم هو أن مصر شرعت في ذلك الوقت في بناء سفن حربية جديدة في بيروت ، وأخذت بعض سفنها تهاجم سواحل قبرص مما حمل الاستتارية على الشروع في دعوة الغرب للاتحاد لمواجهة الخطر الإسلامي في شرقي البحر الأبيض المتوسط .

على ضوء هذا يمكن أن نفسر قبوله لعرض البنادقة وإصداره أوامره إلى قائد قواته البحرية «جان دي موستري» في السكف عن النهوض لمهاجمة بيروت .

غادر رسل البندقية فاما جوستا ومضوا إلى القاهرة مقدمين عروض الجانب القبرصي فاستجابت لهم القاهرة وأرسلت من يثلها ، وركبوا سفينة بندقية بلغت بهم جزيرة قبرص يوم الأحد ٣١ مايو ١٣٦٦ ، ودخلوا نيقوسيا يوم ٢ يونيو فأنزلوهم في منزل أحد كبار لوردات الجزيرة حيث اجتمع الملك ووجوه رجال مملكته الذين يبدو أنهم كانوا كارهين للحرب ، فقد بينوا له وجوب استجابة سلطان مصر لأن «التهب لا ينتفع به غير الجيش ، أما نفقات الحملة فعليك أنت وحدك» . والظاهر أن هؤلاء الرسل لم يكونوا مفوضين في التحدث في شروط الصلح ، وإنما كان إرسالهم إثباتاً لحسن

Makhairas : op. cit., N. 177.

(١)

(٢) لكنه طلب إليه توجيه قواته لمهاجمة بعض البلاد التابعة للأتراك ، ومن ثم ذهب إلى العلاء التي يسميها Machaut : La Prise d'Alexandrie p. 120 ، وكان ديلور ، وربما كان ذلك تحريفاً لاسم البقعة التي شيد بها عليها علاء الدين السلجوقي حيث كانت تعرف باسم Coracestum ، راجع لي سترانج : بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٨٣ .

نوايا السلطان ورغبته في عقد السلم والاستجابة لوساطة البندقية وعدم ردها مخدولة فيما جاءته من أجله ، وتخلو المراجع من الإشارة إلى الحديث عن شيء من مطالب السلطان ، واكتفى الرسل بإعطاء ملك قبرص الهدايا المرسله من شعبان بن حسين .

الظاهر أن هذه الوفادة -- رغم سلبيتها المطلقة -- أرضت كبرياء الملك أمام أهل مملكته من الرعايا والنبله إلى جانب ما كان لها من صدق عند دول أوروبا ، وقد بعث الملك ثلاثة من قبله -- رداً على هذه السفارة -- هم يوحنا القونس الكتلاني وجورج ستىكا وبولس البولونى ومعهم الهدايا للسلطان ولكبار رجال مملكته ، وانفكاً الوفدان إلى مصر : المصريون في سفن البندقية والقبارصة في غراب قبرصى .

استقبلتهم مصر استقبالا طيباً ، ولم يرتفع صوت في مجلس السلطان أو خارجه باستنكار الصلح مما يشير صراحة إلى رغبة مصر في السلم والمهادنة ، بل لقد أرسلت وفداً من رجالها بحجة رسل الملك القبرصى وزودتهم برسائل تتضمن مطالبها التي كانت تلخص آنذاك في رد من أسرهم الملك من المسلمين أثناء إغاراته على الإسكندرية حتى يقوم ذلك دليلاً على حسن نيته وصدق طويته ، ويكون مقدمة لصلح يستقر عليه الطرفان ويلتزمان به في المستقبل ، فلم يعارض بطرس في هذا الطلب الذى رآه طبيعياً ، وأمر بجمع الأسرى ووكّل بهم إثنين هما : « وليم دى راس » ، وكاتب ديوانه سير « بولس دى بولون » غير أن الأول منهما ما لبث أن دامه مرض عاقه عن متابعة الرحلة فنهض بها الثانى وإن ظل على ظهر مركبه خارج الإسكندرية ، ولكنه أرسل الأسرى إلى القاهرة .

على أننا لا نعرف الداعى الذى حدى بسير بولس على عدم النزول إلى الساحل حين وصوله إياه ، وإن كان ماخيراس^(١) يملل ذلك « بمصافته وفطته » فعلى الرغم — كما يقول هذا الكاتب — من أن الذين ذهبوا لاستقباله خاطبوه بلسان معسول ليدخل الميناء إلا أنه توجس منهم خيفة حين رآهم يتهامسون فيما بينهم فذهب به الظن إلى أنهم يتآمرون عليه ، ومن ثم شرع القلاع وأبحر إلى قبرص^(٢) ويحاول نفس

Makhairas : op. cit. No. 185.

(١)

(٢) ينص Iorga, op. cit., p. 353 صراحة على أن بولس هذا ألقي القبض عليه في

مصر ، ويؤرخ لذلك أكتوبر ١٣٦٦ .

المؤلف تبرير هذا الموقف بأنه لما ترمى إلى صمم السلطان تراجع^(١) العرب عن تجميع قواته لمحاربة مصر ، احتج السلطان بأن قبرص أوفدت رسلاً أقل مكانة ممن ينبغي إرسالهم مثله ولمثل هذا الموقف .

تأزمت الأمور من جديد بين الطرفين في تحقيق ما سعت البندقية من أجله وتعثرت خطوات الصلح بين الطرفين ، وأنحى الملك على البنادقة باللائمة إذ عدم قدسخوا به فيما اضطلعا به ، ورمم بأنهم هم الذين كانوا السبب في انصراف العرب عن متسابعة تجميع قواه لمساعدته في محاربة مصر ، وحينذاك عاد الملك من جديد لتعريب القوى الأوربية لإنجاده في مشروعه في الهجوم على السلطان المملوكي في أرضه وتوابعها ، فأرسل إلى أميديو السادس (١٣٤٣ - ١٣٨٣) كونت سافوى - وكان إذ ذاك في القسطنطينية - فوجده بعد لآى ، ولكنه اعتذر عن المساهمة في الحرب إلى جانبه بانشغاله في مساعدة قريبه الإمبراطور يوحنا الخامس باليولوجس^(٢) فكان ذلك ضربة للملك وإن خففها عنه تطبيع فيلو ريعوند دى لسبار بسفنه وجون الأباينى صنجال بيت المقدس وهو ابن خالته ، وساعدت الظروف الملك حين هاجم أهل بروت سفناً للبنادقة مما حمل الأخيرين على تأييد بطرس .

* * *

خلا المسرح التجارى في موانى مصر إثر هذا الحادث من البنادقة مما أفسح المجال لتجار السكتلان الذين استغلوا الفرصة لصالحهم فطالبوا ملكهم بالتفاوض مع مصر حتى يمكن لبضائهم أن تجد بها السوق الناقصة بيعاً وشراءً ، فلم يتوان ملكهم عن إرسال بعضهم رفقة رسول من أسرته ، لكنهم وجدوا اعتراضاً من جانب السلطان حملهم على المضى إلى قبرص ، وذلك في نوفمبر ١٣٦٦ ، وحينذاك بادر رئيس فرسان الاسبتارية ريعوند بيرنجر (١٣٦٥ - ١٣٧٣) في رودس بإرسال سفن لحساب منظمته لمساعدة ملك قبرص ، وبذلك اجتمع لديه عدد ضخم من السفن الصغيرة والكبيرة المحاربة ، وجعل الملك لنفسه القيادة ، وعين بقية الرجال المحاربين قواداً للسفن الأخرى .

(١) وذلك بناء على ما كان ملك قبرص قد أذاعه وبينه لهم من قرب عقده السلم مع مصر .

Cambridge Medieval History, Vol. IV, p. 617.

(٢)

فلما كان يوم عيد^(١) الميلاد عند الشرقيين من سنة ١٣٦٧ (٥ جمادى الأولى ٧٦٨) خرج الأسطول أبهى ما تراهى ولكنّه ما كاد يتوسط البحر حتى هبت عاصفة هو جاء فرقة بعضه عن بعض « ولم تستطع سفينة أن ترى أين ذهبت الأخرى » على حد قول ماخيرات^(٢) وظلت العاصفة تصرف المراكب وجهات مختلفة، فردت الملك إلى ساحل جزيرته ووجهت سفينة لسبار وأخريات معها إلى ساحل بلاد الشام حيث هاجت طرابلس وأسروا إحدى الشخصيات الكبيرة واسمه المقدم داود^(٣)، وإلى هذا يشير ابن كثير^(٤) في قوله « وقد بلغنى أن الفرنج جاءوا طرابلس غزاة وأخذوا مركباً للمسلمين من الليناء وحرقوه والناس ينظرون ولا يستطيعون دفعهم ولا منعهم وأن الفرنج كروا راجعين وقد أسروا ثلاثة من المسلمين » على أى التويرى^(٥) يفسر هذا الهجوم تفسيراً آخر، يعزوه إلى لوم ملوك العرب إياه على عدم قدرته على إتمام حربه فى الاسكندرية، وأنه لما سمع قالنهم وتأنبهم إياه « كشف رأسه، وخلع من رجله مداسه . . . وجمع المشوم، من أقاليم الروم، كل كافر مذموم، وقصد طرابلس الشام فى سنة ثمان وستين وسبعمائة، فأرسل الله عليه ريحاً عاصفاً كسر من مراكبه بضعة عشر مركباً، ففرق من فيها وتفرقت بقية المراكب، فنها سالم وعاطب . . . ثم أتى إلى طرابلس الشام » .

ويقال إن مصر خشيت مغبة هذا التجمع الحربى، وأدركت مدى الخسارة التى لحقت بالثغر الشامى من جراء امتناعها عن الصلح، فأطلقت سراح جماعة من

(١) اعتبر Jorga, op. cit., p. 354 خروجه يوم ١٧ يناير، وقد بين التاريخ الصحيح الأستاذ داوكرز فى تعليقاً، على ماخيرات (II, No. 191, n. I) وبين أن اختلاف التواريخ راجع إلى سهو من الناسخ فى الخطبة الأصلية لماخيرات .

Makhairas : op. cit. No. 191.

(٢)

Cf. Makhairas : op. cit. loc. cit.

(٣)

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ١٤ / ٣٢٣ - ٣٢٤ .

(٥) التويرى : الأعلام، ص ٥١٧ .

كبار أسرى القبارصة والفرنجة وأرسلت^(١) معهم رسلا من قباها إلى بطرس لطلب المودة التي زكاها لديه كبار رجاله وخوفه « من ثروة سلطان مصر التي لا تنفذ مهما صرف منها على شئون الحرب » فقبل فكرة المسألة ، وكان ذلك بحضور رسل السلطان يوم ١٠ فبراير ١٣٦٧ (= ٩ جمادى الثانية ٧٦٨ هـ) .

واشترط الملك شروطاً قبلها سفراء مصر ، وقد اهتم اهتماماً خاصاً ببيت المقدس ولعل الإصرار عليها كان لتثبيت مكانته في نظر حكام الغرب ، واشترط بطبيعة الحال إرجاع الأسرى إلى قبرص ، على أن من هذه الشروط - كما يذكرها مؤرخ هذه الحادثة^(٢) - ما لا يكاد يصدق العقل إذ اشترط « أن يكون له نصف دخل مكس ما يدخل الجرك في مصر والشام » كما طلب أيضاً إعفاء الحجاج الزودين بخطابات توصية منه من ضريبة الزيارة في بيت المقدس وغيره من الأماكن المقدسة الأخرى ، وعلى السلطان أن يبعث إلى فاما جوستا بالعمود الذي يقال إن السيد المسيح ربط عليه . وأوقف السفراء المصريون تفضاه هذه الشروط على موافقة السلطان الهائية عليها . وليس من شك أن هذه شروط يعلمها الغالب وليس بطرس في هذا الموقف ، وكان من اليسير عليه أن يدرك أن مثلها ما كان لها أن تجد استجابة من مصر .

* * *

جهز الملك سفارة ربابعة جديدة من جيمس دي نورس ، وبطرس كامبن ، وجيمس الصغير وسير هيج وزاد على ذلك بأن أعلن في جميع أرجاء قبرص بجمع كل من يكون فيها من المسلمين « وإرسالهم إلى فاما جوستا أو أفهسية بل ذهب أبعد من ذلك فأعلن أنه يحق لكل من تنصر^(٣) - وكان مسلماً - ولأهل الشام

(١) كان الوفد المملوك بصحبة اثنين من الجنوية هما جوفاني أمبراتي ، وتبرو راكاني ،

راجع Iorga, op. cit. p. 350 d'après Machaut

Makhadras : op. cit.,

(٢)

(٣) يفسر النويري : الأعلام ، صفحة ٤٠٨ ، تنصر هؤلاء المسلمين بأنهم كانوا ممن أسرمهم الملك في غارته على الإسكندرية وفتنهم الفرنج في دينهم بالضرب الأليم والعذاب المهن فتنهم من تنصر ، ومنهم من مات تحت العقوبة وما كفر ، وإلى هذا يشير شاعر الحادثة ابن أبي حجلة في قوله :

وكم قتلوا فيها كبيراً ونصروا صغيراً من الأسرى ولا سيما البكر
فياك من هول عظيم وفنسة أضر على الإنسان من فتنة القبر

للموجودين بقبرص أن يذهبوا بحبة السفن المقلعة إلى مصر ونادى في بلاده « أن من كنتم مسلماً صغيراً أو كبيراً قتل »^(١) وعهد بهؤلاء جميعاً إلى سير جيمس دى نورس .

وحدث إذذاك أن هاجم المسلمون قلعة « جوريجوس » في أرمينيا ، فرأى القائد التريث وتوجه بهض قواته لمحاربة بنى قرمان هناك ، وتراعى إلى سمعه أيضاً ما حدث في القاهرة من ثورة مماليك الأتابك يلبغا بن عبد الله العمري الناصرى^(٢) عليه ، « فقد نفرت قلوبهم منه لكثرة ظلمه وعسفه وتنوعه في العذاب لهم على أدنى جرم »^(٣) ونجحوا أخيراً في قتله ، وبفسر ماخيراس^(٤) سر هذه الفتنة بأن يلبغا كان راغباً في مصالحة الفرنجة والقبارصة ، وهو خطأ في التفسير كما يخطئ فيما يذكره من إقامة أسندى الناصرى^(٥) مكانه وإن كان يسميه « بحسن دمور » ، وتضطرب المصادر الغربية في تتبع الأحداث ، فبيناهم تذكر توجيهه جيمس دى نورس لمحاربة بنى قرمان ، إذا بها تذكر تشوق الملك لسمع الأخبار من مصر ومدى قبول السلطان شعبان بن حسين لشروط الصلح التي ارتضاها سفراؤه أثناء وجودهم بالجزيرة ، ولكن يبدو لنا أن السفارة قد عادت إلى مصر التي علمت بحملته ضد بنى قرمان وتشككت في صدق نوايا بطرس في اللوادة ، فلم تجبه على رسالته في انتظار ما تتمخض عنه الأحداث ، وبزكى هذا الرأي عندنا موقف الجنوية حينذاك فقد خافوا العواقب المترتبة على تأخر الصلح بين الجانبين وأدركوا مقدار الضرر الذى سوف يحيق بمصالحهم التجارية في مصر ، فأرسلوا إليها وفادة جنوية بقيادة أحد كبار تجارهم واسمه « بطرس دى كانيل » يلتمسون عقد الصلح بينهم وبين السلطان الذى رفض رجاءهم ورد عليهم بأنه « لا يمتد الصلح إلا مع ملك قبرص وأنه في انتظار رسول من حانبه »^(٦) ، فلم يجد السفير الجنوى بداً من المضى

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، ٣٢٣/١٤ .

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ١٢١٨/٤ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٢٦/١١ ؛ ابن كثير : شرحه ٣٢٤/١٤ .

(٤) Makhairas : op. cit., I, No. 196. (٤)

(٥) ابن حجر : الدرر الكامنة ٩٨٢/١ .

(٦) Makhairas : op. cit. I, No. 196. (٦)

إلى بطرس متوسلاً إليه إنفاذ رسل السلطان بحجة سفير من عنده ، فاستجاب لهم الملك وبعث جيمس دى نورس مندوباً عنه وفي صحبته غرابان أحدهما لجنوة والآخر لأراجون . فلما جاء السفير القبرصى إلى مصر أمر السلطان بأخذه لمشاهدة معالم مصر والقاهرة . حتى إذا فرغ من ذلك كله تقدم « دى نورس » إلى السلطان يطلب موافقته على الاتفاقية التى أقرها سفراؤه من قبل . فأنكرها السلطان مما أحق السفير القبرصى الذى خاطبه فى جرأة بلغت حد القحة فأثارت غضب شعبان حتى لقد هم بالفنك به لولا أن سكن خاطره أحد رجالاته (١) . وراح يلح عليه فى عقد الصلح مع قبرص حتى لانت عريكته واستجاب لإلحاحه ، وبعد فترة طالت حتى بلغت عشرين يوماً وافق الملك على شروط لا تعرف مفرداتها ، وإن قيل أن الكثيرين من كبار محاليسه كانوا غير راضين عنها . وليس فى المراجع العربية والغربية ما يشير إلى خفى هذه الشروط : غير أنه من الثابت أنه أرسل مع جيمس دى نورس سفيرين من قبله يقال إن أحدهما أسندمى الناصرى والآخر للترجم الجنوى الأصل . وبعث معهما بكثير من الهدايا والتحف . فبلغ الوفد قبرص يوم ١٤ يونيو ١٣٦٧ (= حوالى ١٣ شعبان ٥٧٦٨ هـ) لكن الملك كان متغيباً وقتذاك فى رودس . فلبثوا عشرة أيام رحلوا بعدها إليها . فاستبقى للملك رسول مصر بالسفينة وقابل جيمس دى نورس وغضب إذ رأى المسألة لا تعدو حد إرسال الرسل وأن الصلح لم يتم . وكان ظنه أنه قد أبرم واستتب السلم بين الجانبين . ورأى فى إرسال السلطان السفراء من جديد سخيرية به .

أراد بطرس — كما يظهر — أن يثبت فى روع مصر عدم اهتمامه بشأنها . فمضى يغير على بعض البلدان والثغور فى شرق البحر الأبيض المتوسط ومنها طرابلس (٢) ويصف ابن تغرى بردى (٣) قصد الفرنجة إياها تحت رايته فى مائة وثلاثين مركباً من الشوانى والقراقير والعربان والطرائد « وصحبهم صاحب قبرص . وكان نائبا أكثر عسكرها غائبين عنها . فاغتتمت الفرنجة الفرصة وخرجوا من مراكبهم

(١) هو ناصر الدين بن قرايا مترجم السلطان ، وكان مسيحى الأصل جنوبه ثم أسلم وكان اسمه قبل دخوله خدمة السلطان Luciano dell'Orto .

(٢) النویری : الأعلام ، ص ٥١٧ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ١١ / ٣٦ .

إلى الساحل . فخرج لهم من طرابلس بقية عسكرها بجماعة من المسلمين . فقاموا بالنبال ثم اقتتلوا أشد قتال ، وتقهقر المسلمون ، ودخل المدينة طائفة من الفرنج فنهبوا بعض الأسواق . ثم إن المسلمين تلاحقوا وحصلت وقائع عدة استشهد فيها من المسلمين نحو أربعين نفرآ ، وقتل من الأفرنج نحو الألف » ، ويتفق ابن تغرى بردى والنويرى^(١) في أن « الفرنج رجعوا خائبين » ، وأن الملك عاد إلى جريدته « خائباً مقهوراً » ، وكانت تلك الوقعة يوم ١٩ سبتمبر ١٣٦٧ (= ٢٣ صفر ٧٦٩ هـ) وتتفق المصادر العربية والغربية^(٢) في وصف استبسال أهل طرابلس وكذلك فيما ارتكبه الغير من أعمال السرقة والنهب . وقد استغرقت هذه الحركة من بطرس فترة امتدت حتى الأسبوع الأول من أكتوبر حيث عاد إلى قبرص ، وربما كان السبب الذي حمله على العودة هو اقتراب عيد الميلاد ورغبة الفرنسيين الموجودين في جيشه في أن يكونوا برومة للاحتفال بهذه الذكرى الدينية . فلم يجد بداً من الرجوع حيث أمر بزج رسل السلطان في الحبس . وأصدر بياناً دعى فيه كل راغب « في نهب بلاد السلطان المصرى أن يعضى إلى قاما جوستا ، وأن يتزود لذلك بما شاء من السلاح والعدة » وكان هذا منخبطاً من الملك القبرصى .

* * *

على أن الجنوبية والبنادقة رأوا مبلغ الضرر الذى حاق بهم وبتجارانهم في الشرق من جراء مسلكت بطرس ، فبعثوا إلى البابا يشرحون له ما هم فيه من إرهاب والتمسوا منه أن يطلب من الملك القبرصى عقد الصلح صوناً لمصالحهم « وحفاظاً على أرواح المسيحيين في أرض السلطان » فلم يجد البابا بداً من استدعاء بطرس (وكان إذ ذاك في فلورنسة) وحثه على موادة مصر . فأبدى استعداداه لإجابة مطلبه . وكان للملك شروط حملها الرسل الإيطاليين إذ جعل لنفسه حق اختيار من يمثله من القبارصة في مصر ، وله وحده حق خلعهم مما عهد إليهم . وأن يكون لهم الحكم في جميع

(١) النويرى : الأعلام ، ص ١٧٥ .

(٢) النويرى : الأعلام ص ١٧٥ . النجوم الزاهرة ١١/٣٦ ، وانظر أيضاً :

الجرائم والنازعات التي تكون بين القبارصة الذين لا يجوز حبسهم إلا بعد مطالعة هؤلاء المندوبين بالأمر وموافقهم عليه ، وأن يكون هؤلاء المندوبين - في بعض الأحيان - التقدم بطلب خفض الضرائب المستحقة على القبارصة إلى ما قد يصل إلى النصف . أما أترك آسيا الصغرى فلا يسمح لهم بدخول أرض مصر إلا تجاراً ، وحينذاك يجب أخذ العهد عليهم ألا يهاجوا بلاد الملك في أثناء رجوعهم من مصر ، وأن تطلق الحرية لجميع حجاج الأراضي المقدسة . وأخيراً فإن جميع المنازعات التي تنشأ بين القبارصة وبين رعايا السلطان يجب أن تخضع لحكم رؤساء القبارصة وإلى قيمي الجنوية والبندقية في النرق^(١) .

فبادر الجنوية والبنادقة في الحال بحمل هذه الشروط وأرسلوها بحبة وفدين من قبلهما كان على رأس الأول « كاسان سيجالا » وعلى رأس الثاني « نيكولا جستيانى » وأنفذ الملك إلى أخيه - وكان إذ ذاك نائبه في قبرص أثناء غيبته عنها - يطلب إليه إطلاق سراح أسرى السلطان ، وأن يعهد بهم إلى مندوبى جنوة والبندقية لأخذهم إلى القاهرة .

يلاحظ هذه المرة أن السلطان لم يرسل سفيراً أو سفراء من قبله ولكنه وكل إمضاء الاتفاقية إلى « السفيرين الجنوى والبندقى برآ بوعدهما الذى قطعاه فى حضرة البابا المعظم »^(٢) فى أن يعملأ جهدهما على حمل مصر على الاستجابة لحقن الدماء وإنهاء العداوة والحرب الباردة ، وما كان لأخيه الأمير إلا أن يؤمر فيجب ، على أنه يظهر أن الجنوية والبنادقة اتفقوا فيما بينهم على استبقاء الرسل النصريين حيث هم - وإن كانوا مطلقى السراح حتى يروا ما يتم بشأن الوفاة التى نهضوا من أجلها ، وأخذوا على عاتقهم تحقيق الغاية التى ينهدها الملك ويطمعون فيها لضمان انتظام تجارتهم ، ومن ثم رحلوا وحدهم يوم ٢٥ يونيو ١٣٦٨ (٧ ذو القعدة ٧٦٩ هـ) - أى بعد عام من رجوع سفارة جيمس دى نورس - فلما بلغوا القاهرة أفضوا إلى السلطان بما جاءوا من أجله « ووصلوا معه إلى اتفاق وأرسلوا إلى قبرص لإرجاع رسله »^(٣) ، وقام

Cf. Iorga : op. cit., p. 375.

(١)

Makhairas : op. cit., I, No. 223.

(٢)

Makhairas : op. cit., I, No. 224.

(٣)

السلطان من جانبه بإطلاق سراح كثير من المسيحيين ورد أملاكهم عليهم ، ولكنه آخر القسم « حتى يتم الصلح »^(١) ، وحينذاك قامت سفيتان : جنوية وبندقية بالإبحار الى جمهوريتهما للتوسط في إحضار السفراء المصريين الموقنين بقبرص ، فرفض الحاكمان بنفسيهما لأداء هذه المهمة مما يدل على خطورة المهمة هذه المرة وعلى أن الجانب الفرنجى كان شديد الثقة فى أن تسكل مساعى الجمهوريتين الحميدة بالتوفيق واستكتبتهما أخو الملك فى قبرص أمام الوثوق الرسمى استلامهما « السفراء سالمين » فرحلا بهم يوم ٢٤ أغسطس (٩ محرم ٧٧٠ هـ) من فاما جوستا إلى ثغر الإسكندرية حتى إذا بلغاها أرسلوا يعرفان كاسان سيجالا ، ونيكولا جستناني بحجر قدومهم ، فطلب السلطان إنزال سفرائه إلى البناء ، إلا أن كاسان سيجالا قال له : « مولاي ، أن أوامر ملك قبرص تقضى ألا ننزل رسلنا حتى تعقد الصلح ويتم إطلاق من فى سجونك من النصارى حتى لا تغير رأيك كما حدث من قبل »^(٢) فغضب السلطان غضباً شديداً وكبر عليه أن يكون عمله وقوله موضع شك ، كما عظم عليه أن يحدته « هذا الملعج الخنزير » بمثل هذا الأسلوب دون مراعاة لمقامه ، وقام منكلى بغا الشمسى فصفع كاسان على وجهه وسبه وجذبه من لحيته واتهمه بغش السلطان والسخرية به ، فأنكر كاسان هذا القول ، ويصف لنا ماخيراس^(٣) — ولكن فى اضطراب فى ذكر الأحداث — ما جرى إذ ذاك من وجود فريقين أحدهما يشجع السلطان على اتخاذ موقف صلب إزاء هذه السفارة وثانيهما يحاول تهدئته ومعالجة الموقف فى شىء من الهدوء . وتردد السلطان بين الاستجابة والرفض وأخيراً عفا عن السفير الجنوى ورده إلى قبرص حيث عاد باثنين من الرقيق المسلم هما « آخر من بقى من المسلمين بها » وأرسل بطرس معهم خطاباً إلى السلطان وردت ترجمته فى ماخيراس^(٤) جاء فيه « إلى صديقنا العزيز سلطان مصر : يبعث إليكم صديقك ملك قبرص تحياته . وأحب أن تعلم أننى تأملت منك أشد الألم . . . فقد طلبت الصلح واستجبت له بناء على التماس الجنوية والبنادقة والكتلان ، إذ ألحوا على من أجله ، فلما جاءتك

Op. cit., loc. cit.

(١)

Op. cit., loc. cit.

(٢)

Ibid., I, Nos. 225-226.

(٣)

Ibid., I, No. 230.

(٤)

رسلى ضرب البعض منهم في حضرتك ، وحاولت قتل الآخرين ، فاحتملت هذا كله ؛ وإنك لتطلب السلم لحظة ثم يبدو لك أن تنصرف عنه وتماطل فيه ... وأقسم لك كمسيحي أن حكام العرب قد أصدروا أوامره لعسكرهم بالنأهب لحملة ضخمة لمهاجمتك . غير أن البنادقة خدعوني فأفهمت الحـكام أن السلم قد استتب بيني وبينك فقعدوا بعد النهوض وآمنت بما قلته كملك فأطلقت سراح الأسرى المسلمين وبعثتهم إليكم بينما لا تزال أنت مستبقياً النصارى في حبسك » ثم أخذ يتهدهد وأخبره أنه لن يخط إليه بعد ذلك حرفاً . ووضح من هذا الكتاب — إن صدق وروده على هذه الصورة — أن الملك يهدد من طرف خفي بتعويق تجارة مصر نظراً لاشتراك البنادقة والجنوية والكتلان معه في إحساسه وإن كان يلقي باللأمة على البنادقة في أنهم — بما نقلوه إليه من رغبة السلطان الصلح — قد خدعوه إذ ثنى الغرب عن إفادة حملة ضد مصر ، ولكنه يهدد في الوقت ذاته بأن الغرب لا زال مستعداً لمحاربته إن لم يف بما وعد ، وأنه لمن المؤسف أن المراجع العربية تخلو خلواً تاماً من الإشارة إلى مثل هذا الخطاب ، بل وإلى الأحداث التي جرت في تلك الفترة بالذات .

على أن الأحداث في قبرص عوقت الملك فقد تحركت نفوس أمرائه ضده ، وراحوا يتهمون به بكل موبقة ، بل إن زوجته ذاتها كرهت منه أسلوبه في خطاياه ، فاتفقت الآراء على اتخاذ خطوة فعالة ، كان أيسرها شكواه إلى البابا ، وبلغ التذمر منه غايته حتى تأمروا على قتله فاغتالوه ، وكان بمن اغتاله أخواه ، وأجلسوا على العرش ابنه الصبي بطرس الثاني وجعلوا أخاه وصياً عليه ، وكان من أشد من حزن على قتله فيليب دي ميزير الذي جمل « خبزه دمعه Panem Lacrimarum » ، والظاهر أن الوصى أراد أن يجعل من وصايته عهداً بالسير على خطة المقتول من حيث معاداة مصر ، فبعث بواحد من رجال الأسطول اسمه « جان دي مورف » في أربع سفن حربية إلى النغر السكندري لكن المسئولين بها لم يسمحوا له بالدخول ، فلم يكن منه إلا أن وثب على مركب لجماعة من المغاربة ثم راح يهاجم صيداء وبيروت وجبلة واللاذقية ، ثم عاد إلى فاما جوستا يوم ٢٢ يوليو ١٣٦٩ (١٦ ذو الحجة ٧٧٠ هـ) ، وكان لهذا الهجوم المباغت أثره في تقوية الروح المعنوية في الغرب فأخذ يحمشد قواته من الغامرين وأصحاب المطامع الشخصية لضرب القوة الإسلامية في مصر ، وضافت

البندقية ذراعاً بمسلك السلطان في عدم رضائه بالصلح ، فنهضت هي هذه المرة ودعت جنوة لإرسال مندوبين عنهما إلى البابا الذي جاءته وفادة من الجمهوريتين التجاريتين وهونى مدينة «فيتيرب» واتفق الجميع حينذاك على عدم التجارة مع مصر المملوكية ، وتأكد هذا في اتفاقية عقدت يوم ٢٨ يوليو تعهد فيها كل من البنادقة والجنوية بإرسال بعض السفن والأغربة إلى رودس للاتفاق مع جماعة الاسبتارية — المرحبين بكل دعوة لقتال مصر — ومع القائم بالوصايا على الملك القبرصى ، واتفقوا على إرسال قوة إلى مصر تطلب من سلطانها إعادة جميع من في أسره من الفرنجة فإن أبى ذلك عليهم هددوه بقطع الطريق على جميع السفن القاصدة الإسكندرية ، مسيحية أم إسلامية ، وكان معنى هذا الحصار الاقتصادى وما يتبعه من ضعف قوة مصر وركوعها أمام الغرب .

وإذا كان ماخiras هو المصدر لهذه الأخبار فقد أورد ماجرى من هذه الجماعة من مجبئها وإرسالها رسالة إلى السلطان ، قذفته إليه بسهم تهدده فيه بالحرب إن لم يستجب لداعى العقل والصالح العام ، وختمته بقولها « إنك مملوك من أصل وضيع » (١) ، ويذهب ماخiras إلى أن السلطان خاف هو وأمرأوه فأطلق سراح اثنين من تجار النصارى وأرسلهما إلى الوصى بقبرص بكتاب يعتب فيه على مسلك الدين جاءوا من قبله ، فمدد القوم تحولا طيباً وخطوة إيجابية في سبيل الصلح ، ورحب الوصى بهذه الفرصة إذ رأى فيها تهيئةً لمكاته في عيون الأهالى وتجار الغرب ، ومنع السفن من المضى إلى الساحل الشمالى بقصد نهبه ، وأخذ السلطان يترب عوده للتاجرين اللذين فك قيدهما ، فأرسل اثنين آخرين أحدهما جنوى والآخر بندقى (٢) ، فاطمأنت قلوب تجار قبرص ، ورحبت جنوة والبندقية بهذه الخطوة الجديدة من جانب السلطان وأرسلتا إلى البابا والدوج للسكون ، وسارت الأمور كما يشتهى جميع الأطراف ، وخرجت ثمانى سفن ، واحدة عليها التجار ولأربعة الذين بعثهم السلطان من قبل ، واثنان جنويان وعليهما ولتر داريا ، ومثلهما بندقيان وعليهما بطرس جستينيانى واثنان اسبتاريان وعليهما الأخ دى فيرن وغرابان قبرصيان عليهما سيتفن فاردن وجون بدوان

Dawkins, op. cit., No. 294, note I, d'après Bustron.

Cf. Iorga : Philippe de Mezières, p. 401.

(١)

(٢)

الكبير ، كما أرسلوا مع هذه السفن التجار المسيحيين الأربعة الذين كان السلطان قد بعث بهم من قبل على دفتين ، وأرسل الوصى كتاباً رقيق اللهجة إلى السلطان يؤكد له فيه أن كل ما يبرمه رسوله جون بدوان مقبول لديه وغير مراجع فيه ، وبلغت هذه السفن الإسكندرية يوم ٦ أغسطس ١٣٧٠ (= ١٢ المحرم ٧٧٢ هـ) على قول ويوم ٨ أغسطس على قول آخر^(١) ، وبعد لأي استجاب السلطان للصلح وأقسم على القرآن باحترامه كما أقسم الآخرون على الإنجيل ، وأرسل بعض كبار أمرائه إلى قبرص حيث رحب بهم الوصى ودعى الملك الشاب للقائهم ، وأقسم الجميع كل على كتابه المقدس ، وبذلك ختمت صفحة من النزاع الذي بدأه بطرس اللونياني ليعود في القرن التالي ويستكمل باحتلال مصر لقبرص .

من مبدئى

Makhairas, op. cit., No. 303 ; Dawkins, op. cit., II, 303, note (١)
2. d'après Strambaldi.

obeikandi.com

الرملة ورباطاتها السبعة

في القرن الرابع الهجري قبيل الحروب الصليبية
نظام دفاع دائري

للكنوز محمد عبد الرهادي شعبة

أستاذ التاريخ الإسلامي (سابقاً)

كلية الآداب - جامعة عين شمس

من الطبيعي أن نهتم بالرملة وهي مفتاح القدس من ناحية ومفتاح المدن الساحلية المحيطة بها على شكل دائري . ذلك أن الرملة جزء هام من فلسطين التي شغلت تفكيرنا وجهودنا منذ أكثر من عشرين سنة .

والرملة هي العاصمة الحرة الحقيقية لجند فلسطين كما كان يسمى في عهد عمر أو لإقليم فلسطين ، كما نسميه نحن العرب اليوم . أما القدس فهي العاصمة الروحية ، ومسرى الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومقر المسجد الأقصى ، والقبلة الإسلامية الأولى ، والحرم المقدس لدى عامة المسلمين .

أنشئت الرملة في عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ) لتقوم بدور رئيسي في حماية الثغور والدفاع عن البلاد الساحلية . ويجب أن نذكر دائماً أن هذه المدينة كانت مصراً من أهم الأمصار الإسلامية ، وكان إنشاؤها على يد دولة واثقة من نفسها ، قادرة على تحقيق الأمن الداخلي وتحقيق الدفاع الفعال عن الساحل ، ولهذا اختار القواد الذين مصروها موقعها بعيداً عن المرتفعات القريبة منها عند « عمواس » وحرص القواد على أن يجعلوا من مكاتها مكاناً يمكن أن تحتشد فيه القوة الاقتصادية دون عائق من التضاريس ، وأن تحتشد فيه الجيوش لتدافع دفاعاً فعالاً عن الساحل القريب .

وقد كانت الرملة ورباطات الساحل الواقعة في غربها وحدة متكاملة من وحدات الدفاع واقعة في منطقة السهول الساحلية . فكانت الرملة قاعدة خلفية مركزية

بالنسبة لمدن الساحل السبع الواقعة أمامها ، وكان إنشاؤها عبارة عن تمهيق لخطوط الدفاع الساحلى ، مع تركيز هذه الخطوط عند نقطة مركزية خلفية ، أكفأ من القدس على الدفاع والهجوم .

أما اسم الرملة فالراجح أنه مشتق من ظاهرة مناخية ، هي ظاهرة تحول التربة إلى رمل ناعم في الصيف ، بسبب جفاف الجو بحيث لا يوجد في هذا الفصل ماء يجرى ولا خضرة مؤنسة إلا في قمم النخيل وشجر التين ، ولا يوجد فيها في الصيف إلا ماء الآبار البعيدة الغور وهو ماء عيل إلى الملوحة غير أنه شراب ، ولهذا يدخر الناس ماء الشتاء في صهاريج لهم لشربهم في الصيف . ومثل هذه التربة تعتبر أصح الأراضي لإنبات التين ، ولهذا اشتهرت الرملة بهذه الثمار حتى قرر القدماء أنه لم يكن يوجد أفضل منه تين في ديار الإسلام وكان يسمى لسبب ما بتين دمشق . كما يسمى تين العامرية بتين سيدى جابر ، أما في الشتاء فإن النظر يتغير عندما ينزل المطر فيحول الرمل الناعم إلى بحيرة من الوحل ذات لون رملى ، وتبت عندئذ الزروع وخاصة القمح ، وقد اشتهر قمح هذه المنطقة واشتهر كذلك خبرها بالبياض وجودة الصنعة ، وكان محصول القمح يكفي كل المنطقة ، وكان يصدر إلى مصر .

وإلى جانب هذه الثروة الزراعية توفر للرملة ثراء تجارى صناعى ، فقد كان فيها طبقة من تجار الأقمشة ينزلون في حى خاص بهم حول الجامع الكبير ، وكان من عاداتهم في القرن الرابع الهجرى أن يركبوا حميراً من مصر ، وأن يتأقنوا في اختيارها وفي اتخاذ السروج لها صنّاً بالحيل التي كانت لا تستعمل إلا للأغراض الحربية .

في هذه المنطقة الرملية الحصبة قامت مدينة كبيرة ذات جامع أنخم من جامع دمشق الأموى مع أن مسجد دمشق كان فخماً وكان ثانى مساجد الإسلام اتساعاً وجبالاً ، وبنيت لجامع الرملة مأذنة جميلة وكان محرابه أكبر محراب معروف ، ومنبره أجمل منبر في ديار الإسلام كلها على الإطلاق في رأى للقدسى الجغرافى العربى . أما عمائر المدينة فكانت مبنية بالحجر والآجر على السواء ، وامتد العمران امتداداً كبيراً ، فكان للرملة إثني عشر باباً بعدد الطرق التي تخرج من المدينة نحو الداخل ونحو الثغور البحرية على الساحل ، ومنها درب يافا المار بمدينة « يازور » ودرب عسقلان ، وهذه الدروب الإثني عشر هي التي تصور نظام الدفاع المركزى

الدائري . وإنما سميت الطرق دروباً لإبراز معنى الجهاد ، فكان شأن هذه الدروب المؤدية إلى ثغور البحر شأن الدروب التي كان يجوزها الغزاة المجاهدون المرابطون للوصول إلى أرض العدو عبر جبال الطوروس . ومن الطبيعي أن يكون العمران على قدر الطرق ، ولهذا يقول المقدسي : إن مباني المدينة كانت فخمة ، وشوارعها واسعة ، ومسكنها فسيحة ، وحماماتها طيبة ، وفنادقها جميلة ، وتجارها واسعة رائجة . ونقول نحن : إن المدينة كانت تمثل قوة الدولة في عهد بني أمية واليهود التالية بها وجمالاً وسحراً ورغد عيش لأنها كانت العاصمة لإقليم فلسطين . وكان للمدينة طابع خاص سجله المقدسي فأشاد بكرم الناس وسماحتهم وطيب عيشهم . ولم يجد فيهم عيباً إلا عيباً واحداً هو قلة حظهم من العلم في القرن الرابع الهجري . وكان عدد السكان كبيراً من غير شك بسبب ما ذكرنا من ثراء المدينة ورواج تجارتها وصناعاتها ، وبسبب آخر هو اندفاع المهجرة الحربية نحو المراكز الإستراتيجية على شكل متطوعين وعلى شكل رباطات رسمية . وقد أدى عامل الجهاد إلى أن أكسب جامع الرملة قداسة كقداسة المساجد الأولى في الأمصار الإسلامية الأولى كجامع الكوفة ، والبصرة والفسطاط ودمشق ، بل يقرر المقدسي أن الرملة كانت في أيامه أكثر عمراناً من بغداد نفسها .

كانت الرملة ورباطاتها الساحلية السبعة جزءاً من نظام الدفاع الساحلي الذي أقامه عمر بن الخطاب للدفاع عن الشام (بدلول الإسم القديم) من غزاة إلى أنطاكيا ، وقد استمر هذا النظام قائماً واستمرت العناية به قائمة إلى القرن الرابع الهجري ، وتلك حقيقة يجب الانتباه إلى أهميتها ، لأنها تدل على أن هذه السواحل ظلت قائمة قياماً فعالاً بواجب الدفاع إلى أن اغتصبها الفرنج الصليبيون في نهاية القرن الخامس الهجري .

ويقرر المقدسي أن الرملة كانت عاصمة فلسطين ، وأنها كانت نقطة خلفية لسبعة رباطات ساحلية ، وأن العرف جرى بقداء أسرى المسلمين فيها ، وأن نظام الدفاع كان يقوم على أساس استئصال شارات النار فوق الأبراج لحشد قوات المنطقة عند قيام أي خطر .

* * *

ولكي نشرح نظام الدفاع يجب أن نتخيل المنطقة تخيلاً كاريكاتورياً ، ولنتصور

على هذا الأساس أن الرملة كانت مركز قطاع من دائرة ، وطول القطاع الدائري نحو ٥٠ كيلومتراً ، وطول القطر بين المركز وخط القطاع نحواً من ٢٠ إلى ٣٠ كيلومتراً ، والمطلوب هو أن تدافع قاعدة الرملة المركزية عن القوس الساحلي (أنظر الخريطة التوضيحية المرفقة وهي تمثل نظام الدفاع الدائري) ، فأقيمت على الساحل على أبعاد متساوية تقريباً من الرملة ستة رباطات بين كل رباط والآخر نحو ١٠ كيلومترات ، وقد روعي في اختيار هذه المسافات أن يكون من الممكن الاتصال بالعين المجردة بين كل رباط ورباط عن طريق النيران . أما الرباطات السبعة فهي : (١) غزة وميلاس (٢) عسقلان (٣) أزدود وماحوز أزدود (٤) يبنى وماحوز يبنى (٥) يافا (٦) أرسوف (٧) قيصرية .

لكننا يجب أن ننبه إلى أن القوس المرسوم حول الرملة يتفرطح ويتباعد في طرفيه الشمال والجنوبي عند قيصرية وغزة .

وليتبدىء من الجنوب نحو الشمال في ذكر هذه الرباطات من غزة إلى قيصرية .

١ — غزة وميلاس :

أما غزة فإنها تقع على مسافة قريبة من الساحل لا على الساحل نفسه ، ويتركز الدفاع عنها في ميلاس الواقعة على ساحلها ، وهي ميناء غزة وقلعتها ، ويظهر أن الوضع قد اختلف اليوم ، وأن غزة اندثرت وحلت محل قلعة ميلاس وحملت إسمها معها لأن الذين زاروا غزة تحدثوا أماًى عن كورنيشها وما عليه من فنادق ساحلية وتحدثوا عن شارع طويل متفرع من الكورنيش إلى أقصى المدينة . وكانت غزة رباطاً بحسب المقدسى ، ومعنى هذا أنها كانت محصنة شأنها شأن ميلاس . وكانت الرباط الرئيسي بالنسبة لرباط ميلاس .

ولغزة قداسة اكتسبتها من حياة الرباط ومن قداسة الجهاد . ومن ذكريات دينية قديمة : ففيها قتل ولد النبي سليمان وولد الإمام الشافعى ، وفيها دفن هاشم ابن عبد مناف جد رسولنا الكريم ، وفي أسواقها في الجاهلية تاجر عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين .

ولا غرابة إذن في قول المقدسى أن غزة في أيامه في القرن الرابع الهجري كانت مدينة كبيرة عامرة هامة الشأن .

أما ميباس فيقول عنها المقدسى أنها كانت مدينة صغيرة محصنة ، وتفهم من هذه العبارة أن ميباس مدينة مسورة ذات أسوار وأبراج وحصن . وكانت تتبع غزة بحسب قول المقدسى والواقع أن وظيفتهما الحربية كانت متكاملة وأن ميباس كانت جبهة غزة . ثم أن طريقاً من طرقات الرملة كان ينتهى عند غزة وميباس .

٢ - عسقلان :

تقع هذه المدينة على نحو ١٢ كم شمالى غزة . وكان لها عمرانها الكبير وزراعتها المشهورة وذكرها الدينية وتحصيناتها .

أما من حيث العمران فإنها كانت جميلة فائقة الحسن ، ذات أسواق فخمة ، وتجارة رائجة أهمها تجارة الحرير . وكان تجار الأقمشة بها كثيرين تتركز منازلهم في الحى الذى يقع فيه الجامع . وكان هذا المسجد الجامع كبيراً كسيت أرضه بالرخام .

أما الزراعة ، فإن أشهرها الفواكه والجوز . ولا يزال هذا الساحل الشامى مشهوراً بها إلى اليوم ، فهى زراعة مستوطنة أصيلة . ثم إن المدينة اشتهرت أيضاً بشجر الجوز وهو شجر كثير الظل رخيص الثمار ، معروف بفوائده الطبية ، وكان الجوز قديماً شجرة مباركة ترمز إلى الحصب ، والبركة مقترنة بها في بعض العصور . وكان المعروف في القرن الرابع الهجري أن سيدنا إبراهيم احتقر بئراً عند إحدى شجرات الجوز . ولا يزال نرى في ريفنا البئر عند شجرة جوز . ولكن ذبوع الطلبات قضى على مثل هذه المناظر وأنسى الناس قداستها ، ثم أن عصير الشجرة الذى يتساقط منها كلما دقت سائل نافع في العلاج .

ومن الذكريات الدينية التى شاعت في العصر الفاطمى وجود ضريح للحسين سيد الشهداء . ويكفى آخر الأمر أن تكون أية مدينة رباطاً لمكى تكسب شيئاً من قداسة الأحرار .

وقد كان الرباط يقتضى إقامة التحصينات . وكانت تحصينات عسقلان عظيمة الأهمية من حيث قوة التحصين وماتة البنيان ومن حيث عدد الحصون . ويقرر

المقدس أنها كانت تشمل حصوناً كثيرة جيدة التحصين عجيبة البناء . وبكفي ذلك لإبراز الأهمية الإستراتيجية الكبرى المقترنة بهذه المدينة . ولا عيب في هذه المدينة إلا زداة الماء ورداة المبناء .

٣ — أزودود وماحوز أزودود :

على نحو عشرة كيلو مترات شمالي عسقلان تقع أزودود وميناؤها ماحوز أزودود ولفظ ماحوز آراعى معناه المبناء ، والشأن فيهما شأن غزة وميأس . وبهذا القياس كانت أزودود قرية من الساحل على حين كان ماحوزها عند البحر تماماً .

وقد باقنا عن طريق الصحف اليومية أن إسرائيل الدخيلة على منطقتنا تعيد إنشاء ميناء أزودود (أى ماحوزها) الذى اندثر هو وتحصيناته .

٤ — يبنى وماجوز يبنى :

ونلاحظ نفس الازدواج الذى رأيناه فى غزة وفى أزودود فى حالة يبنى وماحوز يبنى . ويدل نص البلاذرى الخاص بالتحصينات الساحلية كما يدل نص المقدسى العام الشامل لكل الرباطات التابعة لمدينة الرملة على أن التحصين يكون مزدوجاً شاملاً للمدينة الداخلية وللمدينة الساحلية وأن يكون الرباط عند الساحل وأن تكون المدينة الداخلية ورءاً مساعداً يحمى الرباط ويدعم صلته بداخل البلاد .

٥ — يافا :

كانت يافا كما يقرر المقدسى ميناء مدينة الرملة . فإذا كانت الرملة العاصمة الحربية والإدارية لجند فلسطين من الشام بالمعنى القديم فإن مدينة يافا تعتبر المبناء الأكبر لإقليم فلسطين . وفعلما يقرر المقدس حسن المبناء وصلاحيته .

والمدينة كما يصورها المقدسى تبدو فى صورة أنيقة هى الصورة الجميلة لكل المدن العربية القديمة . تبدأ المدينة بسور محيط بها ، وكان سور يافا محيط بها من جميع الجهات ، وله أبواب منها باب يفتح على البحر مصنوع من الحديد ، لأنه الباب الأهم ، على حين كانت الأبواب الأخرى مقواة بالحديد فقط ، ولم يورد المقدس شيئاً غير ذلك عن السور ولكن التقاليد المتعارفة فى أصول التحصينات القديمة الإسلامية تقضى

أولاً بأن يكون للصور أبراج على أبعاد مقدرة بحيث تحمى الأبراج جدار السور كله بضرب السهام ، وثانياً بأن يكون الاتصال بين الأبراج ممكناً عند قمة السور بطريق عال في أعلى السور على نحو الطريق العالى الموصل بين بأى الفتوح والنصر الباقى بالقاهرة إلى اليوم . وثالثاً بأن يوجد خارج السور خندق يصعب على العدو اجتيازه لكي يتقدم نحو السور .

وفى داخل المدينة فى مكان ما منها — يختلف باختلاف تضاريس المدينة يوجد الحصن ، ويذكر المقدسى أنه كان للمدينة حصن يشرف عليها بعلوه ، على نحو إشراف قلعة القاهرة عليها أو على نحو إشراف قلعة حلب عليها .

وكذلك اختير لمسجد المدينة مكان مرتفع قرب البحر فكان المسجد ظاهراً مشرفاً على البحر .

فإذا نظر الناظر إلى المدينة من خارجها رأى السور ذا الأبراج الشاحخة ورأى حصن المدينة ومسجدها .

أما الريف المحيط بالمدينة فهو سهل يحمل إسم سهل يافا ، وكان ذا خصب وصفه المقدسى بأنه كان مضرب الأمثال .

وعندها أقامت الدولة الدخيلة مدينة تل أبيب .

٦ — أرسوف :

تقع أرسوف فى شمالى يافا على نحو ١٢ كيلو متر . وكانت رباطاً ذا تحصينات قوية . ولم يذكر المقدسى غير ذلك ، غير أننا يجب أن نفترض وجود ما يوجد عادة فى الرباطات من التعصينات والأبراج .

٧ — قيصرية :

تعتبر قيصرية من مدن الساحل الفلسطينى التابع لجند فلسطين ، وهى رباط ومدينة لها سور قوى محصن ، وبجانبها أرباض ذات حيوية محاطة بأسوار خاصة للدفاع عن كل ربض ، ومع ذلك فإن المقدسى لم يذكرها ضمن الرباطات المتصلة بالرملة عاصمة فلسطين حريباً وإدارياً . ونحس أن الأمر يحتاج إلى تعليل .

والتمثيل هو أن قيصرية بعيدة بعض الشيء عن القوس الدائرى المحيط بالرملة لأن القوس عندها يتفرج ويتجه نحو الشمال ، وكذلك الأمر بالنسبة لغزة — مماس في جنوب القوس الساحلى . أما جميع الرباطات الأخرى الخمسة التابعة للدولة فإنها تقع على مسافات متساوية منها .

ثم إن المقدسى لا يقصد إلى ذكر جميع رباطات الساحل ، وإنما يقصد فقط شيئاً دقيقاً ، وهو مركز الرملة والرباطات الخمسة التى تقع على مسافات متساوية منها على أساس أن الرملة ورباطاتها القريبة وحدة استراتيجية دفاعية قائمة بذاتها . وإذن فعن أمام مجموعة معينة من الرباطات ، هى : عسقلان ، وأزدود ، وبينى ، وبافا ، وأرسوف . وكلها تحيط بالرملة باعتبارها المركز الذى يقع على مسافة واحدة تقريباً من هذه الرباطات الخمسة .

كيفية الاتصال بين الرباطات والقاعدة الحلقية :

يقضى فن الحرب بضرورة الاتصال السريع بين نقط الدفاع ، وقد استطاع العرب منذ حروب الفتح أن يستغلوا عامل السرعة ، وأن يحرصوا على تبليغ كل إنذار بالخطر وبطلبات النجدة ، ولم يجدوا أسرع من سرعة الضوء وذلك باتخاذ أبراج عالية توقد فوقها النيران فى حالة الإنذار وطلب النجدة . وهذا هو ما يقرره البلاذرى نقلاً عن شاهدها الفتح الأولى وعمن عاصروا التنظيم الأول للدفاع عن السواحل ، ثم ظلت هذه الطريقة مستعملة إلى القرن الرابع الهجرى على الأقل بحسب رواية المقدسى .

حصنان بين الرملة وكل رباط ساحلى :

أما المسافة الواقعة بين الرملة ورباطاتها الساحلية الخمس فكانت مقسمة إلى اثلاث عند كل منها برج ، وقد أشرنا إليها فى خريطتنا دون ذكر أسمائها لكيلا نطغى على الفكرة الأساسية .

أبراج المراقبة :

لابد لكل رباط من برج ، ويكون البرج عادة متصلاً بحصن من الحصون ، ولا نعتقد أن السآذن اتخذت لتحل محل الأبراج ، أو أنها استعملت للدفاع ، فإذا كانت الرباطات تعتمد كما رأينا على مسافة ٥ كيلو متراً تقريباً ، فإن متوسط المسافة

بين كل برج وآخر هي عشرة كيلو مترات . وقد يحتاج الأمر بحسب التضاريس السانعة من الرؤية إلى إنشاء أبراج أخرى بين الرباطات ، ليسهل الاتصال بينها عند الضرورة .

التشكيل الاستراتيجي الدائري :

يدل النظر إلى الخريطة على كيفية توزيع الأبراج على الساحل الفلسطيني في هذه المنطقة ، كما يدل على أنصاف الأقطار الواصلة بين كل رباط وبين مركز الرملة ، وتقرح أن نسمى مثل هذا النظام بالنظام الاستراتيجي الدائري . ويدخل ضمن هذا النظام الطريق الساحلي الواصل بين الرباطات الساحلية المختلفة ، لكي يستطيع بعضها أن يتعاون مع البعض الآخر .

هل كان مثل هذا النوع من الدفاع عاماً في الشام ؟

رأينا أننا أمام وحدة دفاعية قد يكون من الممكن أن تتكرر على طول السواحل الشامية من غزة إلى انطاكية بحسب حدود الشام القديمة .

نحن نميل إلى تعميم القضية لأنه لا يوجد قط مايرر اعتبار نظام الرملة الدائري برباطتها التابعة لها نظاماً استثنائياً ولكن التعميم دون وجود نص واضح صريح إنما يرتفع إلى مستوى الترجيح فقط دون اليقين . وهنا مكان لمزيد من الدراسة .

وإذا رجعنا إلى أول نظام وضع للدفاع الساحلي وجدنا أن النظام الذي كان متبعاً أيام الراشدين جعل الساحل ولاية واحدة مستطيلة ممدودة من غزة إلى أنطاكية ، ويقوم بحمايتها وإلى من الولاية يعرف باسم « صاحب البحر » وهو الذي يقع على عاتقه كل الدفاع الساحلي ، ثم عدلوا عن هذا النظام الأول ، وأنشأوا نظاماً ثانياً هو تقسيم السواحل بحسب أجناد الشام ، وصارت السواحل مقسمة يتبع كل قسم منها الجند الذي يقع بازائه .

أما الأجناد بحسب التقسيم الحربي في هذا العهد الأول فهي :

- | | | |
|--------------|--------------|---------------|
| ١ - فلسطين . | ٢ - الأردن . | ٣ - دمشق . |
| ٤ - حمص . | ٥ - قنسرين . | ٦ - الجزيرة . |

وصار الساحل عبارة عن وحدات استراتيجية متكررة ، والزاحج عندنا أن نظام الدفاع الدائري نظام تكرر بالنسبة لكل الأجناد الساحلية .

أين يقع جند الأردن :

ولنلاحظ أن جند الأردن لا يذكرونا بالملسكة الأردنية الحالية في شيء ، بل كان عبارة عن المنطقة الواقعة شمالي فلسطين من الصحراء إلى البحر . ولا يوجد أدنى رابط بين التشكيلات السياسية الحاصرة المفروضة على المنطقة وبين التشكيلات الحربية السياسية القديمة .

المرابطون في الثغور البحرية :

تقرر قبل كل شيء ، أن التجنيد الإجباري أمر لم يطبق في النظم الإسلامية القديمة ، بل كانت القبائل تدخل نفسها في سلك الجندية وتكتسب بهذا الدخول منزلة إجتماعية مرموقة رعية الرزق ، ويكون رزقها بقدر عدد المقاتلين من أفرادها ، بحسب ماهو مقرر في ديوان الجند المسمى أيضاً بديوان العطاء . ثم توارث القبائل إبناً عن أب سلك الفروسية . وأشهر مثل على توارث الفروسية هو مثل أسرة ابن خلدون الحضرية ، فإنها توارث الخدمة العسكرية من أيام معاوية بن أبي سفيان (في القرن الأول الهجري) إلى أيام جد ابن خلدون (أول القرن الثامن الهجري) وهذه الطبقة العسكرية هي الجند الرسمي للدولة . أما من عداهم فإنه يستطيع أن يتطوع في الجيش أداء لحق الجهاد ، وكان عدد هؤلاء المتطوعين يمد بالآلاف في كل عام في كل جهة .

وكان عبء الرباط يقع أولاً على الجند الرسمي . أما دور المتطوعين ، فإنه دور ثانوي وإن كانوا يساهمون في الدفاع والهجوم مساهمة فعالة .

كان العرف الجاري منذ القرن الأول الهجري ، يقضي بأن تخصص الدولة لكل رباط عدداً معيناً من المرابطين بقدر احتياجه . ومدى الاحتياج هو قدرة العدد المخصص للرباط على حماية الموقع بأنفسهم إلى أن يأتي الدد . ومثل هذه الرابطة هي الرابطة الدائمة المقيمة بالرباط صيفاً وشتاء .

أما في الصيف فإن الدولة تحرص على أن تضيف إلى الرابطة الدائمة المذكورة آنفاً جنداً رسمياً من « جند الديوان » بأصنافهم المختلفة من : طوابع ، وبعوث ،

ونذبة ، تدعياً لقوة الرباطات في هذا الفصل الوحيد الصالح للملاحاة والأعمال البحرية .
أما في فصل الشتاء ، فانه فصل لا تقوم فيه الحروب إلا نادراً ، فلا تحتاج
الرباطات فيه إلى تدعيم .

ونعمة مدد آخر يدعم الدفاع الساحلى ، وهو مدد مؤلف من المتطوعين الذين
يؤدون حق الجهاد تعبداً ، ومثال ذلك المقدسى نفسه ، فانه لم يكن جندياً بل كان
تاجراً عالماً رحالة ، ولكنه شارك في الجهاد أحياناً قاصداً التعبد ، فشارك في الرباط
وغرام مع الغزاة . ولم نزل إلى وقت قريب ندعو في خطب الجمعة القديمة للغزاة الذين
يحمون الحدود ويدافعون عن الدول الإسلامية . على أساس أن الغزو هو عملية
دفاعية سواء كانت رباطاً أم هجوماً ، لاعلى أساس النهب والتخريب .

الخلاصة :

١ — تبين هذه الدراسة تشكيل وحدة من وحدات الدفاع قائمة بوظيفة معينة
بحسب وصف الجغرافى العربى المقدسى ، وقد اخترنا هذا الجغرافى بالذات لأنه كتب
كتابه قبيل الحروب الصليبية ، وصور التنظيمات الحربية قبل دخول الصليبيين إلى
الشام (بالدلول القديم) .

٢ — يرجع أصل هذا النظام إلى القرن الأول ، وقد وصفته أنا ، في كتاب
وبحث ، في هذا القرن معتمداً على البلاذرى خاصة ، ثم لم أحدد مدى استمراره إلى
أن وقعت على المقدسى فعرفت أن النظام الدفاعى الساحلى المبتدع في القرن الأول ظل باقياً
ثلاثة قرون ونصف قرن إلى العهد الفاطمى وإلى غزو الفرنج الصليبيين للشام .

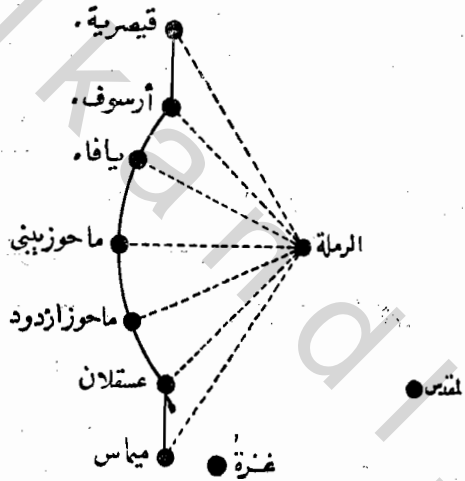
٣ — يدل بقاء هذا النظام على أن فكرة الجهاد ظلت قائمة ، وظلت تتدعم
على مر العصور ، وكذلك تحسكت فكرة الجهاد في اختيار الرملة عاصمة ،
وفي إنشاء الطرق المؤدية إليها أو الخارجة منها . ثم تحسكت أيضاً في تركيز العمران
في كل قواعد الرباط لتسكون هذه القواعد أقوى على القيام بدورها الدفاعى .

٤ — وفي ضوء هذه الدراسة ، نفهم أهمية انسحاب القائد الإنجليزى «جلوب»
قائد الجيوش الأردنية من اللد والرملة في حرب ١٩٤٨ ، مع أن هذه الدراسة تبين
أن الرملة هى مفصلة مروحة مكونة من سواحل فلسطين .

ولم يكن « جلوب » يحفل قيمة الرملة .
ومن واجبتنا اليوم أن نقدر قيمة هذه المدينة ، وأن نرفع قيمتها الاستراتيجية على قيمة القدس من الناحية الحرية .

محجر عبر الهادي شعيرة

خريطة كاريكاتورية لنظام الاستراتيجية الدائرية حول الرملة :



القلاع في الحروب الصليبية

دكتور عبد الرحمن زكي

مقدمة

تأثرت الحصون والقلاع في الشام بشكل يدعو إلى الدهشة ، منذ أيام الحروب الصليبية وما قبلها ، بين جزيرة « الجرية »^(١) في شمال خليج العقبة (بين مرفأى طابة والعقبة) وسلسلة جبال أمانوس في شمال سورية . ومع أن بعض تلك الحصون قد شيد على بقايا قلاع الرومان والبيزنطيين والعرب قبل الغزو الصليبي بثلاث السنين ، فإن ما بنى منها في أثناء الحروب الطويلة في جميع المسلمين والفرنج زاد على ما عرفته تلك البقاع من قبل ، سواء في ضخامة العدد أو من ناحية الطراز المعمارى .

شيد المسلمون والصليبيون عشرات القلاع ، فهم لم يتركوا مضيقاً أو سفح جبل يشرف على واد أو نهر دون أن يبنوا قلعة ، تشرف على هذا أو ذاك . ولم يتركوا مدينة دون أن يشيدوا في خارجها أو على الجبل الذى يشرف عليها حصناً منيعاً . لقد هيدوا كثيراً كما فعل الرومان من قبل فأحاطوا المدن بالأسوار والأبراج للنيعة ، وكثرت المعارك التى نشبت حولها أو في داخلها ، وكمن المرات تبودلت بين الحصنين . وما تلك الحصون إلا شهود حق على النضال اللير الذى ساد أرض العرب أجيالاً طويلة .

بالقرب من منابع الأنهار : الأردن واللبان والأورنت ، قاومت القلاع مهاجميها أو من حاولوا الاقتراب منها . كم من الأبراج الكبيرة أو الصغيرة التى شيدت فى السهول لأغراض المراقبة والحراسة ! كم من الكهوف التى تقرب فى صخور الجبال قاومت بنف كل من حدثته نفسه بالإستيلاء عليها ! كما حدث فى حبيس جلدق^(٢) وتيرون النها^(٣) . لقد أفاد المهاجم والمدافع من طبيعة البلاد وتضاريسها ،

(١) مى الجزيرة المروية فى كتابات مؤرخى الحروب الصليبية باسم Ile de Graye (أو جزيرة فرعون) وتقع فى شمال خليج العقبة وتحتوى اليوم على أطلال حصن قديم .

(٢) تكتب أحياناً حبيس جلدق وهى القلعة الصليبية التى تعرف باسم بلقوار Belvoir أو شقيب أرنول وتقع بالقرب من انياس .

(٣) يقع حصن تيرون إلى شمال قلعة الشقيف على بعد بضعة أميال ، وتعرف اليوم بقلعة نحا .

ولم يترك الصليبيون موطناً قدم على الساحل الفيضي القديم دون أن يختاروا بقعة تصلح لإقامة حصن أو برج للمراقبة والمقاومة . . حتى الجزر الصغيرة شيدوا عليها الحصون كما فعلوا في إنفه (Infeh) جنوبي طرابلس على الشاطئ . . وقد عاونتهم طبيعة الأرض على تنفيذ ما أرادوه .

كانت حماسة الصليبيين الدينية وآمالهم الطامحة في امتلاك البلاد المقدسة ، الحافز الأول لهم في بناء عدد يذكر من القلاع . . تلك التي مازالت إلى اليوم محطة للدراسة رجال الآثار ، وكان أكثرها نماذج رائعة لأساليب العمارة الحربية التي اتسم بها ذلك العصر ، أي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر .

اتخذت بعض تلك القلاع ، طراز البناء الشرقية . . . شيد بعضها في عصور الرومان ، وبعضها في أيام البيزنطيين أو العرب ، وبعضها من طراز العرب ، ولا سيما الطراز الفرنسي .

لقد غصت سورية وفلسطين وشرق نهر الأردن ، في الصحراء الجرداء بعشرات القلاع ، التي اتسمت كلها بروح الإبتكار والإنسجام مع شكل أرض البلاد . ولقد استطاع المحاربون أن يؤلفوا من الحجارة تاريخاً للعمارة الحربية في القرون الوسطى ، وتاريخاً حريياً أيضاً ! فهناك على ربوة تطل على عيون أدونيس ، شيدوا حصن النيطرة (Le Moineestre) ^(١) على إرتفاع ستة آلاف قدم . ولذلك يعلو قممها الثلج معظم أشهر السنة . تنهض في جلال لترقب ممرآ في وادي البقاع . وهي في موقع عزيز النال يصعب اقتحام جدرانها .

وهناك في طرطوسة على الساحل شيد الصليبيون في داخل قلعتها كاتدرائية في الأسلوب البرجندى . وإلى وراء اللاذقية نحو الداخل في بقعة وعرة جداً ، عند قلعة صهيون تقروا ١٧٠٠٠ من أطنان الحجر الأصم ، ليزيدوا مناعة القلعة التي أقاموها على قمة الجبل . كما أنهم قد أنشأوا في قلعة المرقب مخازن فسيحة تسع عتاد ألف رجل يقاسون ظروف الحصار العنيف الذي امتد حوالى خمس سنوات .

(١) أعاد الصليبيون بناءها بالقرب من أفقا وقد شيدت لحراسة الممر الجبلى الذى يربط بين جبيل وبعبك ، كانت حصناً عربياً غير أن طغمتين تنازل عنه للفرنجية عام ١١٠٩ .

إنك إذا قمت بجولة لزيارة تلك الحصون التاريخية من شمال سورية إلى أقصى النقب جنوباً ، ومن الشرق عند الفرات إلى ساحل البحر الأبيض لأدركت في الحال ذلك الدور الهام الذي قامت به تلك القلاع ، في تلك البقعة بأسرها على مدى التاريخ والتي نشبت على أرضها أعنف المعارك بين الشرق والغرب .

لماذا شيدت الحصون ؟

ذلك العدد الكبير من القلاع الذي مازال ناهضاً إلى اليوم في بلاد العروبة يجعلنا نتساءل : لماذا شيد البيزنطيون والعرب والصليبيون هذا العدد الكبير من تلك الحصون ؟ أليس عملهم هذا مبالغة وإسرافاً في خطة إقامة الحصون وحشد الرجال فيها .

ربما كان من محض الصدف أن جاءت الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٧ م) إلى سورية في الوقت الذي بدأ فيه بناء الحصون يزهر في أوروبا ، ذلك العصر الذي أطلق عليه عصر القلاع ^(١) . صادف هذا عصر الإقطاع الذي اتسم ببناء الحصون ، فكان لكل إقطاعي قلعة يحمي نفسه فيها ومعه أتباعه وعتاده .

ولم تكن الحرب الصليبية إلا صورة متقدمة للإقطاع الأوربي في الشرق الوسيط . وقد يمكن إضاح ذلك الموقف في صورة بيّنة ، إذا أدركنا وضع المملكة اللاتينية في الشرق .

عبرت جيوش الحملة الصليبية الأولى جبال طوروس متجهة إلى سورية في عام ١٠٩٧ م ، وغادرت آخر العملات الأرض المقدسة في أغسطس عام ١٢٩١ م أي بعد سقوط عكا بنحو ثلاثة أشهر ^(٢) . وكانت المملكة اللاتينية التي عمل الصليبيون كل مافي وسعهم للحفاظ عليها بنجاح متفاوت قرابة مائتي عام ذاب شكل شاذ . فقد كان طبيعة موقع دولتهم مكشوفاً تجعلهم معرضين للهجوم عليها . وكانت أراضيهم الممتدة من الجنوب إلى الشمال تضم مملكة بيت المقدس ، وإمارة طرابلس وإمارة

(١) شيد برج لندن في إنجلترا في عام ١٠٨٧ م ، وأضيفت إليه مباني كثيرة وهو من أهم معالم لندن حتى اليوم .

(٢) قاوت جزيرة أرواد الحصينة التي تقع أمام طرطوسة إلى عام ١٣٠٣ م .

أنطاكية وكونتية الرها التي استقرت في حدود خمسين سنة يبلغ امتدادها من أربعمائة إلى خمسمائة من الأميال تقريباً . وإذا استثنينا البقعة الشمالية منها لوجدناها أرضاً ضيقة خطيرة يتراوح عرضها بين الخمسين والسبعين من الأميال ، فقد كان امتدادها إمارة طرابلس عرضاً مثلاً لا يتجاوز ٢٥ ميلاً فقط ، وعلى الجانب الصحراوي والطويل لتلك الدولة الساحلية بقيت المدينتان الإسلاميتان والقويتان ، حلب ودمشق تناهضان تلك الدولة الدخيلة ، ولم يستطع الصليبيون مطلقاً الاستيلاء عليهما ، فكأنما طوال مدة الغزو الصليبي بمثابة سيف مصلت عليها باستمرار كشوكة في جانبها . بل وأكثر من ذلك كأننا قاعدتين هامتين ، كان المسلمون يوجهون منها هجباتهم العنيفة المتكررة كلما رغبوا وكما سمعت ظروفهم الحربية .

ولاشك أن الموقف الحربي العام كان يتغير تماماً لو أن الصليبيين — بدلاً من اندفاعهم في اتجاه الساحل وإلى الجنوب نحو بيت المقدس والاستيلاء عليه — كانوا اتجهوا نحو الشرق واستولوا على حلب ، ثم دمشق مفتاح سورية في ذلك الحين . ولكن ضاعت الفرصة منهم ، وكان من المحقق في النهاية أن يخسر الفرنج البلاد المقدسة كلها . فمن المحتمل إذا كانوا استولوا على حلب ودمشق لاطمأن الصليبيون إلى بقاء دولتهم . فان الصحراء تكون حداً منيعاً يفصل دولتهم عن هجمات المسلمين من الشرق . بيد أن ذلك لم يكن شيئاً يسيراً . . فان هناك ما يقرب من ثلاثمائة ميل في الصحراء القاحلة التي حرمتها الطبيعة من الماء ، لا يستطيع جيش في مصر الوسيط أن يقوم فيها بعمليات القتال بنجاح إلا إذا أنجز خطته بسرعة .

وفضلاً عن ذلك كان وجود الصليبيين يهدف إلى تجزئة الدول الإسلامية ، وفصل بعضها عن بعض ، لكي لا تستطيع التعاون في إطار من الوحدة . . لذلك لم تتعاون القاهرة ، أو توحدها خطتها مع بغداد في سبيل القضاء على دولة الفرنج ، إذ ليست هناك طرق مواصلات جديدة وقصيرة تيسر لها ذلك التعاون ، فضلاً عن الاختلاف الذهبي في البلدين حينذاك .

وأدرك الصليبيون خطأ حطتهم ، ولكن جاء ذلك متأخراً جداً وضاعت عبثاً جهودهم حينما فشلوا مراراً في الاستيلاء على دمشق . وعلى ذلك كان يواجه الصليبيون باستمرار عدو قوى بمجنوده السريعة الحركة ، عدو يسدد صرבותه في أي وقت

شاء ضد الجانب المهدد من ناحية تلك المعاقل الحصينة ، ولذلك كان من الضروري أن يلجأ الصليبيون إلى سياسة بناء تلك السلسلة المنظمة من الحصون النينة .

وكانت ثمة سبب حيوى آخر اضطر الصليبيون من أجله إلى بناء الحصون والقلاع ، وهو حاجتهم الملحة إلى المزيد من المحاربين . وقد فطنوا إلى تلك الحاجة عندما أرادوا تعديل خططهم للاستيلاء على خط حلب — دمشق والاندفاع إلى قلب البلاد الإسلامية . والمعروف أن الجيش الصليبي الذى خرج من نيقية فى عام ١٠٩٧ كان عرمرماً إذا نظرنا إليه بمقياس الجيوش المعاصرة إذ ذاك . ولكن معركة « دوريلوم »^(١) وقسوة الطبيعة فى الأناضول أثناء الصيف كبدت الصليبيين خسائر كبيرة ، فنقص تعداد قواتهم . وعلاوة على ذلك فإن قواتهم التى حاصرت أنطاكية قدرت بحوالى الخمسين ألفاً ، يضاف إلى هذا أنه فى الوقت الذى كادت فيه الحملة تحقق أهدافها بدأ قادتها الواحد بعد الآخر ينسلخ عن الحملة برجاله ، وكان كل منهم يهدف إلى إنشاء إقطاعيات جديدة فى الدولة التى كسبوها . فمثلاً استقر بلدوين (فلاندرز) فى الشمال الشرقى إلى الرها . وفصل بوهيموند ورجاله من أهل جزيرة صقلية البقاء فى منطقة أنطاكية ، فلم يصل من القوات الصليبية جميعها إلى بيت المقدس (عام ١٠٩٩ م) سوى ١٥٠٠ فارس وقرابة ١٥٠٠ مشاة ، ثم أنه بعد سقوط القدس تحقّق الهدف الأول من الحملة الصليبية عاد معظم الفرنج وأتباعهم إلى أوروبا ، بينما بقي « جودفرى دى يون » لإدارة مملكة بيت المقدس ومعه ثلاثمائة من الفرسان . وليس يخاف أنه قد يستطيع عدد من الفرسان القلائل على كسب المعارك لكنهم لا يستطيعون بعد ذلك الحفاظ على دولهم . ولذلك كانت حاجة الصليبيين إلى الإمداد بالرجال ملحة باستمرار فى أوروبا . ولم يكن هذا الإمداد دائماً كافياً لأنه كان صغير العدد ومحدوداً .

صحيح أن الحملة الصليبية الأولى كانت ضخمة العدد ، ولربما كان فى استطاعتها أن تغير مجرى تاريخ الدولة اللاتينية ، لولا ما صادفها من الحن فى آسيا الصغرى فى عام ١١٠١ ، ثم جاءت فى أعقابها الحملة الصليبية الثانية — التى قدر عدد رجالها

(١) نشبت هذه المعركة بالقرب من المدينة المعروفة بهذا الاسم بين السلاجقة والصليبيين وذلك فى عام ١٠٩٧ وهزم فيها السلاجقة .

بحوالى ١٥٠٠٠ من المحاربين . وفي ذات الوقت اتسعت رقعة البلاد المحتلة ، وتنافس عدد رجال الحاميات « نسيباً » ... ولذلك أمام هذا النقص الشديد في الرجال عالج الصليبيون الموقف الحربي بالالتجاء إلى بناء الدفاعات الحصينة للاستعاضة بها عن جنود الحاميات . ولا يخفى أن الجنب الأيسر للصليبيين كان معرضاً دائماً لهجمات المسلمين المفاجئة .

لذلك لم يكن هناك سوى علاج واحد للملافة المتاعب .. ألا وهو مضاعفة الجهود لبناء القلاع والحصون كما ذكرنا .

ولكى يحتفظ الصليبيون بمواطىء أقدامهم على شاطئ لبنان ، كان عليهم أن يحتفظوا بسيادتهم على البحر لكي ييقوا على الصلات التي تربطهم بمواطنهم في الغرب ، ولكي يحظوا بمعطفهم فيواصلون إمدادهم بالرجال . فلقد أحس الصليبيون أنهم يستطيعون الحفاظ بممتلكاتهم إذا استمر سيل المساعدات بالعتاد والرجال يأتيهم من أوروبا ، وإذا ظل أعداؤهم متفرق في السكينة لا يوحدهم زعيم قوى . فكان عليهم إقامة التحصينات الساحلية . لكي يؤمنوا العمليات البحرية . ولذا فإنهم أقاموا عند مداخل الموانئ البحرية في عكة وصور وصيداً ، وجبيل ومدن بحرية أخرى أبراجاً عند الحاجز الذي يقاوم اللوج ، أو على جزر صغيرة بالقرب من مداخل هذه الموانئ . فشيدوا سلسلة من الأبراج التي كانوا يستخدمونها للمراقبة على طول الشاطئ اللبناني لكي يؤمنوا الاتصال بينها . وقد بقي من هذه الأبراج إلى يومنا هذا تسعة أبرزها برج جبيل القائم على هضبة جنوبي شرق البلدة . وجميع هذه الأبراج تقوم على مواقع أبراج أو قلاع قديمة . ومواد البناء التي بنيت بها كانت أنقاض تلك الأبراج . وكذلك شيد الصليبيون قلاعاً تحيط بالموانئ من جهة البر .

أما في طرابلس وصور وعسقلان حيث كانت المقاومة عنيفة شديدة وطويلة الأمد ، فإن الصليبيون بدأوا ببناء قلاع كهذه في زمن مبكر . وكانت هذه القلاع التي بنوها من العوامل التي عجلت في إخضاع المدن والاستيلاء عليها . وبقايا قلاع الصليبيين في جبيل هي أول ما يسترعى انتباه السائح في تلك المدينة^(١) وجميع هذه القلاع

والحصون الصليبية في لبنان يعود زمن بنائها إلى القرن الثاني عشر ، وبعضها إلى القرن الثالث عشر (١) .

أما قلعة البحر في صيدا ، فإنها شيدت على جزيرة صغيرة عام ١٢٢٧/٢٨ م ، وكان يربطها بالمدينة جسر طوله ٨٥ ياردة لا يزال قسم منه قائماً إلى يومنا .

ولما أخذ الملك لويس التاسع يرمم حصونها وقلاعها استعمل مواد البناء ذاتها التي كان الرومان والفينيقيون قد استعملوها في بناء تحصينات المدينة . وفي الواقع أن أكثر الحصون والقلاع اللبنانية التي أقامها الصليبيون لم تكن سوى إصلاح أو إعادة بناء حصون وقلاع أقامها ، إما البيزنطيون أو الرومان أو ربما الفينيقيون أنفسهم . وهذه القلاع ذاتها رممها المماليك وأعادوا بناءها في عصر تال .

ذلك أن مواقعها الإستراتيجية الممتازة يجب أن تكون قد استرعت انتباه العسكريين قبل وصول الصليبيين بأزمة كثيرة . فإن الإدريسي الرحالة والجغرافي المغربي (ت ١١٦٦) لما زار هذه البلاد قبل الفترة التي نحن بصدد ذكر ثلاث قلاع بين صيدا وبيروت وستة عشرة قلعة بين بيروت واللاذقية (٢) .

مراحل بناء القلاع الصليبية

تجلى أمام القرنج الذين استقروا في البلاد عقب سقوط القدس حقيقة واضحة هامة . فإنه بالرغم عن استطاعتهم إنشاء مملكة لاتينية ، كان لزاماً عليهم أن يحافظوا عليها . ومن ثم بدأت سياسة الإنشاء والبناء بنشاط على أيام حكم الملك بلدوين الأول (١١٠٠ - ١١١٧) ، تلك السياسة التي استمرت نحو مائتي سنة .

المرحلة الأولى :

كان حصن صافيتا — الحصن الأبيض (٣) أول المعاقل التي شيدها الصليبيون

(١) فليب حتى : لبنان في التاريخ س ٣٥٦ — ٣٥٨ .

(٢) الإدريسي : طبعة جلد ميستر ، ص ١٦ — ١٨ ، ٢٠ ، ٢٢ .

(٣) Safet-Chastel Blanc

(١١٠٢ م) ، ولذلك لأجل السيطرة على مخاضة نهر الأردن في أقصى الشمال من سورية^(١) ثم شيدوا قلعة تورون (Toron) عام ١١٠٧ م . التي تشرف على الطريق الموصلة بين صور على الساحل ودمشق . ثم قلعة الشقيف^(٢) أقوى الحصون السبعة التي شيدت لحراسة حركة الحج بين يافا وبيت القدس . وقلعة الحبس جلدق ذلك للمقل الكهف لمراقبة نهر اليرموك . وقلعة الشوبك^(٣) التي شيدت حول عام ١١١٥ جنوب البحر الميت لتهديد المواصلات الصحراوية بين مصر ودمشق . وقلعة سكاناليون (١١١٦ م) جنوب صور على الساحل . وأخيراً قلعة الجريبة^(٤) التي تشرف على شمال خليج العقبة في البحر الأحمر .

وفي أوائل القرن الثاني عشر احتل الصليبيون قلعة صهيون — البيزنطية الأصل — في جبل العلويين ، وكانت تستر المداخل الجنوبية الشرقية المؤدية إلى أنطاكية وجعلوا منها قلعة منيعة لما أضافوه إليها من الأبراج والأسوار والخنادق .

ولقد كانت قلاع الصليبيين في هذا الطور (أوائل القرن الثاني عشر) صغيرة البناء كقلعة بلفور^(٥) .

كان أهم ما يميز طابع القلاع في تلك المرحلة ، استخدام الحصن النورمانى المربع ، وبناء سور بسيط تدعّمه الأبراج المربعة الموزعة على مسافات طويلة نسبياً وذات تنوّات واضحة . وفي هذه المرحلة أيضاً يمكن القول بأن الصليبيين استفادوا بما وجدوه في البلاد من القلاع البيزنطية^(٦) علاوة على ما نقلوه معهم من الغرب من

(١) يوجد قول آخر بأن أول قلعة يمكن تأريخها هي قلعة المكونت ريمون التي أقاموها على جبل الحاج عام ١١٠٤ م ، لكن تكون مقراً لرئاسة جيشه ، وذلك أثناء انهماكة في حصار طرابلس ، ومن المحتمل أن تكون قلاع أمراء الجليل في طبرية وتورون قد شيدت في نفس العصر .

- | | |
|----------------|-----|
| Chastel Arnoul | (٢) |
| Montreal | (٣) |
| Ile de Graye | (٤) |
| Belvoir | (٥) |

(٦) كانت الأسوار وأبراج السور من أهم ما تميّزت به القلاع البيزنطية والتي اقتبسها الفرنج في حصونهم .

أساليب البناء الحربية . وكما رأينا فقد واكب وصول الصليبيين إلى فلسطين العصر الذى رأى فيه العرب الأبراج الأولى (Keeps) ، ولذلك فقد عرف الفرنج الاستفادة باستخدام الحصن النورمانى المربع إلى أبعد حد ، وليس هناك أدنى شك فى أن الصليبيين تأثروا بتقليد حصون البيزنطيين الذين كانوا أحياناً يشيدون فى قلاعهم (كما كان الحال فى نيقية ودارا) برجاً واحداً يمتاز بضخامته ومنعته عن الأبراج الأخرى . . وقد عاين الفرنج عدداً كافياً من القلاع فى بلادهم .

وتلك الأبراج القوية التى بدأ الصليبيون يشيدونها فى صافيتا^(١) وكرك مؤاب وصهيون وجبله وعكار وفى أماكن أخرى ، كانت تتألف غالباً من طابقين وشرفة (terrace) تعتبر من المتانة التى لم يسبقها مثيل فى العمارة العسكرية إلى القرن السابع عشر . فقد كانوا يشيدون تلك الحصون فى بادىء الأمر فى أسهل مكان دفاعى فى القلعة ، ولكنهم بعد التجربة وجدوا أن خير مكان يشيد فيه هذا البرج هو المكان الذى يتطلب الدفاع فيه أقوى أعمال التحصين . وبناء على هذا الاعتبار وضعت أبراج مربعة منيعة فى أقوى أعمال الدفاع فى المملكة اللاتينية — وهى حصون صهيون (Saone) والصيبية والمباني القوية التى شيدت فيما بعد فى الكرك والمرقب والبرجان الكبيران فى قلعة الحاج فى أنسب الأماكن فى القلاع — أى أشد المناطق خطراً فى القلعة .

والبرج المربع يعتبر أهم السمات البارزة فى الصليبية الأولى ، وبالرغم مما يمتاز به من المتانة فله مساوئ خطيرة . وقد وضعت تلك العيوب فى حروب الحصار المتعاقبة فى الأرض المقدسة ، كان فى أول الأمر سلاحاً إيجابياً ، ولم يكن مبناه يسمح إلا للحماية محدودة العدد . ولم يكن باب البرج الوحيد (لأجل أسباب الأمن والوقاية) يسمح للعمامة بالانسحاب عندما تضطر الأحوال . ولقد قيل إن البرج يستطيع الدفاع عنه جندي واحد . وقد أشار ذلك لورنس^(٢) فقال إن اثنين فقط يستطيعان محاصرة البرج بنجاح . وذلك إذا وقف جندي واحد عند كل ناحية من ناحيتى الباب لمنع إنطلاق الجنود من الداخل . كما أن هناك مساوئ فنية أخرى تلازم كلا من البرج

Chastel Blanc (١)

(٢) المغامر البريطانى الذى اشتهر بأعماله فى شبه الجزيرة العربية خلال الحرب العالمية الأولى.

المربع وبرج السور المربع فهما معرضان من زواياها (أركانها) للغم . فضلاً عن أن شكلهما لا يسمحان لوقايتهما التامة بواسطة النيران الحاكمة .

وقد دعا الضعف المتوارث للحصن النورمانى والبرج المربع في السور ، في أواخر القرن الثانى عشر إلى التخلّى جزئياً عن الشكل المتبع وإلى إحداث تغييرات هامة في عمارة القلاع الصليبية ستوضح جلية في المرحلة الثانية .

المرحلة الثانية :

وفي خلال حكم الملك بلدوين الثانى (١١١٨م — ١١٣١م) تم الإستيلاء على بانياس وتحصين قلعة الصليبية فوق جبل الشيخ (Hermon) الذى تكسيه الثلوج في الشتاء ، وذلك لخلق الطريق بين دمشق وأعلى نهر الأردن . ثم نشطت حركة البناء والتعمير بصورة واضحة على أيام فولك أوف أنجو (١١٣١ — ١١٤٤م) ففيما بين ١١٣٧ و ١١٤٢ شيدت حلقة قوية من القلاع في الجنوب الغربى من عسقلان تضم قلعة الحارس الأبيض ^(١) (تل الصفى) وابلين ^(٢) وبيت جيلين . والمعروف أن عسقلان هذه كانت آخر المرافق التى بقيت في قبضة المسلمين . وكان غرض « فولك » من تشييد تلك الحصون قفل الطريق من مصر إلى فلسطين .

وفي عام ١١٣٩ بدأ الفرنج يشيدون قلعة بوفورت ^(٣) (شقيف أرناول) المنيعة على أحد الجبال المشرفة على نهر اللبتانى وذلك ليعتكموا على أحد مخائفه الضيقة ، وبعد أربع سنوات شيد الصليبيون كرك مؤاب فيما بين ١١٤٠ — ١١٤٣ شرق البحر الميت وهى تتأاز بموقعها العسكرى وتمتد نموذجاً طيباً في أسلوب التحصين ، وقد شيدها باين النابلسى رئيس سقاة الملك فولك . وفي تلك السنين تسلم فرسان طائفة الإيستارية حصن الفرسان (الأكراد) من الملك ^(٤) .

(١) Blanche Garde

(٢) شيد رجال الإيستارية قلعة ابلين (بيتنا) عام ١١٤١م .

(٣) تبعد بوفورت (بلفورت) نحو ٢٤ ميلاً من بيروت ، انتزعها السلطان الظاهر بيبرس من الصليبيين في ١٥ أبريل ١٢٦٨ (Beufort) .

(٤) Crak des Chevaliers

وينسب إلى قلاع هذه المرحلة قلعة بلقوار^(١) وتعرف باسم كوكب الهواء ، شيدها فولك عام ١١٤٠ في السنة التي شيدت فيه قلعة صفد في الجليل العلوى ، وقد بنيت على الأسلوب البيزنطى ، ويحيط بها سور خارجى يكاد يكون مربع الشكل تقريباً ، وتدعمه الأبراج ويقوم فى وسطها حصن عال كان يؤلف فى الواقع قلب الدفاع ، وقد جمع أسلوب البناء بين المثانة والمنعة .

ويعتبر انتقال واجب الدفاع عن حصن الأكراد (الفرسان) إلى طائفة الاسبتارية حدثاً هاماً وذلك من ناحية الترتيبات الدفاعية فى مملكة اللاتين وذلك فى حوالى منتصف القرن الثانى عشر . ذلك لأن تصميم هندسة الحصون وبناءها كان قد بلغ مستوى رفيعاً من ناحية الضخامة ، بحيث لا يستطيع السيد الإقطاعى مهما كان غنياً أن يتكبد الإنفاق على البناء المطلوب . ولذلك انتقلت تدريجياً شئون الدفاع عن الأرض المقدسة إلى الطوائف العسكرية القادرة . ومن ثم وقع على عاتق الاسبتارية بناء حصن إيلين فى عام ١١٤١ م ، ثم عسقلان بعد الاستيلاء عليها عام ١١٥٣ م . وقلعة بلقوار التى تحكم أعالي نهر الأردن قبل عام ١١٦٨ ، وقلعة عكار فى لبنان الشمالى فى عام ١١٧٠ م ، وقلعة المرقب التى بين طرابلس واللاذقية فى عام ١١٨٦ م .

ولم يكن بناء قلعة المرقب الاسبتارية قد تم عندما انتهت معركة حطين فى عام ١١٨٧ ، ومن ثم حشدت جميع القوات التى أمكن الحصول عليها لمقاومة جيوش صلاح الدين عند طبرية ، وكانت نتيجة تلك الأعمال الحربية المتعاقبة أن نقص عدد رجال الحاميات فى القلاع .

وهكذا نرى أنه كان من عواقب نقص عدد الرجال فى القلاع ، أن ازداد عبء الدفاع أمام هجمات المقاتلين المسلمين ، ولدينا الكثير من أحداث الحصار الرائعة فى قلاع الكرك بؤاب والشوبك (موتريال) وبوفور وصافيتا ، فقد استطاع رجالها مقاومة الحصار أكثر من عام ضد قوات تفوقهم عدداً وعدة .

ونلاحظ أن أكثر القلاع التى استولى عليها صلاح الدين ومنها كرك مؤاب ،

لم يستردّها الصليبيون مرة ثانية . ولكن عندما جاءت الحملة الصليبية الثالثة بامداد من الرجال (١١٨٩) عاد الأمل إلى اللاتين ، ونشطت حركة بناء القلاع ثانية .

أنه قبل حوالي ١١٧٠ م لم يشيد الفرنج أية أبراج مستديرة كبيرة . وبعد معركة حطين (١١٨٧) وباستثناء قليل ، كانت أهم حصونهم الكبرى تعتمد على الأبراج للمستديرة ذات التواء أو البروز الكبير — تلك الأبراج المستديرة التي تسمح بكية كبيرة من النيران الجانبية . وفي الوقت الذي حافظ فيه الصليبيون على طراز البرج القديم بدأوا يتخذون الطراز الممارى المستدير ، ومن ثم أخذ هذا يتطور إلى حسن متين يضم عدة أبراج متصلة ببعضها ، وسمح هذا الشكل — التطور الجديد — إلى زيادة سرعة حركة الجنود ومضاعفة نشاط هجومهم ، وقد أدى هذا التطور في الأسلوب البنائي إلى ظهور الحصن ذي الأسوار المتكررة المشتركة المركز وهو المعروف concentric fortification .

وأصل هذا الأسلوب في القلاع الصليبية التي لها نطاق مزدوج من الأسوار غير محقق ، وصحيح أن الإمبراطورية الشرقية قد استخدمت هذا النوع من الاستحكامات ذات الحصون للتداخلة في برنطيوم وغيرها ، كما استخدمها الخليفة المنصور عند بناء الأسوار المستديرة في تشييد بغداد في القرن الثامن ، وفي إنجلترا على أيام الرومان والسكسون عرفت بعض الاستحكامات الترابية من هذا النوع (concentric earthworks) ، وما زالت مخلفات هذه الاستحكامات تشاهد إلى اليوم فوق الكتيبان الرملية الإنجليزية .

ومن الممكن أيضاً أن تكون القلعة ذات الحصون التداخلة قد تطورت من البرج الذي على شكل المحار (Shell-keep) ، وهو عبارة عن قلعة وحسن (Keep-fortress) شيد وسط فناء ، وقد أثبت هذا التخطيط في أوروبا أنه أحسن ما يستعاض به عن الحصن النورمانى المحدود المهمة ، ومن الحصن الذي على شكل المحار جاء سور الستارة الذي ضم مساحة أكبر عرفت باسم بيلي (Bailey) .

وعلى أية حال فهما اختلفت الآراء في منشأ هذا الطراز الممارى : أهو شرقي أو غربي فانه ازدهر على أيام الصليبيين ازدهاراً مدهشاً واضحاً . نراه أمامنا إلى

اليوم ظاهراً جداً في قلعتي المرقب وحصن الأكراد ، وهو عنوان الفخامة والجمال في وقت واحد .

وقد واكتبت هذه الثورة في التخطيط عدة تغيرات في طريقة البناء : منها استخدام الحجارة المنحوتة التي لا يتيسر بشلالم الحصار التغلب عليها لأنها لا تسلك بها ، وتطورت طريقة عمل المزاغل (فتحات السهام) وصارت تتجه منفضية إلى الأسفل ، وبذلك تيسر الرمي إلى أسفل القلعة . ولم يقتصر عمل تلك الفتحات على الشرفة العليا أو الطوابق المرتفعة في الحصن ، بل عممت أيضاً في الطوابق المنخفضة إلى مستوى الأرض . وتطور أيضاً عمل المشرييات الحجرية (Machicolation) وذلك بينائهما من الحجارة بدلا من الحشب كما كان الحال في أوروبا ، وذلك لندرة الأحشاب في سورية . كما طرأ على مداخل القلاع وأبوابها أساليب خداعة لتضليل المهاجمين ، ولنضرب لذلك مثلا : فالهاصرون إذا أرادوا اقتحام مدخل حصن الأكراد .. كان عليهم أن يجتازوا ممراً مقبى ويديرون ثلاث مرات وربما قابلهم بعد ذلك باباً شبكياً من الحديد يمنهم عن اقتحام البوابة الكبرى .. وعليهم بعد ذلك أن يعملوا جادين لاجتياز أربعة أبواب أخرى أقيمت فوقها المشرييات الحجرية . ولأجل تيسير التحرك والعمل لرجال الحامية ، فقد لجأوا إلى استخدام عدد من الأبواب السرية والخفية (Postern gates) . وكانت تلك الأبواب يخفى أمرها في بعض الأحيان كما كان البيزنطيون في الغالب يخفون أبواب قلاعهم ، وذلك في المكان الذي تأخذ فيه ستارة السور في الانثناء بشكل زاوية قاعة ، وكانوا يختارون مواضعها بحيث أن جماعة الجند المهاجمة عندما تتخذ طريقها نحو الباب السرى تعرض يسرها أو أجناب دروعها للعدو .

الرحلة الثالثة :

وبعد انكماش مساحه الأراضي الصليبية في القرن الثالث عشر نتيجة لاستيلاء المسلمين على أراضي الأفرنج ، لم يشيد هؤلاء إلا القليل من القلاع الجديدة باستثناء قلعة مونتفورت^(١) أو القرنين (١١٢٧ - ١١٢٩ م) والتي شيدت في موقع جذب

ومنيح يشغلها مقر رئاسة الفرسان التيتون^(١) علاوة على أعمال التحصين الهامة التي شرع في إقامتها بعد عام ١٢٤٠ م في صافيتا شمال طبرية ، وفي قلعة بوفورت التي كان الأفرنج قد شيدوها من قبل ، ثم استولى عليها المسلمون واستعادها الصليبيون بعد ذلك . وانتقلت العناية إلى تحصين قلاع الساحل ، ذلك لأن المرافئ يستطيع المسلمون مهاجمتها ، ومنها يتمكن الفرنج مراقبة البحر ، ويسر كل هذا للفرنج التمسك بالسهول الضيقة المطلة على البحر ، ولذلك رأينا الملك ريتشارد يعيد تحصين يافا قبل رجوعه إلى وطنه في عام ١١٩٣ م ، ثم شيدت قلعة صور حوالى عام ١٢١٠ م ، وشيدت قلعة الحاج هي حصن الداوية المنيح عام ١٢١٨ ، كما بنيت قلعة الجزيرة في صيدا عام ١٢٢٨ . وقد نشطت على أيام الملك لويس (سنت لوى) حركة تحصين واسعة في المرافئ على طول امتداد الساحل ، وعلى أية حال فقد استمر البناؤون الفرنج يشيدون ويعمرون حتى الساعة الأخيرة ، ساعة فراقهم سورية .

هكذا رأينا في عرض عام حصون المملكة اللاتينية تزيد حصناً بعد حصن ، عقب سقوط بيت المقدس في قبضتهم حتى انتهاء دولتهم وسقوط عكا في يدي المسلمين (١٢٩١ م) .

ويمكن تقسيم تلك القلاع حسب الأهمية العسكرية (الوضع الحربى) وربما من الناحية الجغرافية أيضاً إلى ثلاثة أقسام رئيسية :

١ — حصون تأمين طريق الحج المؤدى إلى بيت المقدس من يافا أو عسقلان :

كان الفرض الظاهر من الحملة الصليبية الأولى هو تحرير الأماكن المقدسة من السلاجقة . فلما أحرز هذا الهدف عكف الصليبيون على تأمين حركة الحج من الساحل إلى كنيسة القيامة . ولأجل هذا أنشأوا سبعة معاقل رئيسية بين يافا وهي المحطة الأولى لانزال رجالهم الناهبين إلى القدس ، وفي عام ١١١٨ م أناطوا برجال طائفة الداوية واجب حراسة الطريق المذكور . وكان أهم تلك المعاقل شقيف أرنول^(٢) . أما المعاقل الأخرى في هذه المجموعة فلم تكن على شيء كبير من الضخامة .

(١) تعرف أيضاً باسم قلعة ستاركنبورج Starkenburg

(٢) Chastel Arnoul أو بلفورت ، ويعرف عند العرب بقاعة الشقيف .

٣ — تحصين المدن الساحلية :

أول المدن الساحلية من الشمال هي أنطاكية . وكانت حصونها البيزنطية منيعة ، ولم يزد عليها الصليبيون شيئاً يذكر . ثم وجه هؤلاء عنايتهم لتحسين معظم المدن الساحلية الممتدة بين عسقلان في الجنوب إلى ساحل آسيا الصغرى في الشمال . وقد وجد الصليبيون في معظم تلك المرافئ والمدن حصوناً بيزنطية وأسواراً عربية كانت أقيمت قبل وصولهم إلى سورية (ماعدا يافا) ، وعلى ذلك كانت أعمال الصليبيين عبارة عن إمتداد أو توسع أو تحسين فحسب . وقد اجتنبوا إقامة القلعة في قلب المدينة كما كان يفعل العرب ، وهؤلاء أسوة بالرومان . وبدلاً عن ذلك كانوا يشيدونها في ركن من أركان المدينة أو بعيداً عنها مع إشرافها على الأرض المكشوفة ولذلك استقلت القلعة من ناحية تأديتها الواجب الدفاعي عن المدينة . ولا يخفى أنه كان للمدينة أسوارها وأبراجها الخاصة . فإذا سقطت المدينة في قبضة العدو استطاع رجال القلعة القيام بواجب الدفاع كوحدة مستقلة ، وفي الوقت نفسه تستطيع أن تستمد العون والمدد والنجدة من البلاد المجاورة ، ومن أمثال تلك القلاع :

حصون طرطوسة وجبلية وبيروت وقلعة البحر في صيدا^(١) ، وقلعة صور (والتي كان يمكن عزلها بغمر خندقها بجياه البحر) كانت تتمتع باستقلال مائل ، لأنه عندما تسقط المدينة (أي صور) في قبضة العدو كانت تستطيع القلعة الإتصال بواسطة البحر .

ولم يبق معظم أعمال تحصين المرافئ التي أقامتها الدولة اللاتينية لأسباب كثيرة . لقد مر عليها الكثير من أحداث القتال ، وكثيراً ما تبادلتها القوات المتحاربة منذ القرن الثالث عشر ، علاوة على ما قامت به معاول الهدم والتخريب ، ولم يبق اليوم من منشآت اللاتين الحربية في صور أو أسوار يافا (ذات الـ ٢٤ برج) التي هدمها السلطان بيبرس ، أو بيروت التي اشتهرت قلعتها بفسفاسائها وقاعاتها الرخامية . تلك أنارت دهشة وبلبراند في القرن الثالث عشر^(٢) . ولم يبق شيء هام في قلعة طرابلس ، أما قلعة عكا فقد ضاع معظم معالم البناء الصليبية .

Chateu de mer (١)

Wilbrand of Oldenburg (٢)

أما قلعة البحر في صيداء فلا تزال تحتفظ بأطلالها الصليبية . كذلك الحال في برج جبلة ، على عكس ما تبقى في طرطوسة : وقلعة المبدین ذات البرج اللينع وأسوار دفاعاتها المزدوجة ، وجزء من سور المدينة والكاتدرائية .

وفي نيفين^(١) (Nephtin) حيث حول اللاتين قطعة جبيلة في البحر إلى جزيرة . لم يبق منها سوى أكوام من الحجارة .

٣ — القلاع الاستراتيجية :

والنوع الثالث من الحصون (الاستحكامات) هي القلاع الاستراتيجية الكبيرة التي شيدت لحماية مدينة هامة أو موقع رئيسي ، ومعظم هذا النوع شيده الصليبيون في داخل سورية . وواجهها الرئيسي وقاية الجنب المهدد بالهجوم لدولتهم . وقد أقيمت هذه القلاع إما عند مخاضة رئيسية أو مضيق ، ولذلك كانت تبقى في مكان موحش منعزل تسوده العزلة من كل جانب . فإذا بقي هذا النوع إلى اليوم محتفظاً بأهم سماته فذلك راجع إلى طبيعة الموقع . ولم تفقد تلك القلاع أهميتها على مر السنين بل إنها حافظت عليها لان طبيعة الأرض لم تتغير .

وتعتبر تلك القلاع الاستراتيجية الكبرى خير تعبير للمهارة العسكرية الصليبية في القرون الوسطى ، وقد تمكن رجال الآثار والتاريخ بفضلها أن يدركوا كفاءة ومهارة بنائها وذوق مهندسيها . ونذكر من تلك القلاع :

حصن الأكراد ، الرقب ، كرك مؤاب ، صهيون ، بوفورت (الشقيف) ، قلعة الحاج أو أثليت ، الصبية جنوى جبل الشيخ . ونضيف إلى تلك إسمي قلعتين من ذات الطراز الكبير ، هاتورون^(٢) وصافيتا . وقد خربهما المسلمون في زمن ما .

الموامل الجغرافية واختيار المواقع :

ولاشك أنه كان للموامل الجغرافية أثر كبير في اختيار مواقع تلك القلاع الكبيرة .

(١) احتفت هذه القلعة اليوم تحت مياه البحر ، وقامت بالقرب منها قرية آفنة ، وهي جنوبي مدينة طرابلس .

(٢) Sarfita — Ieron

وتوزيعها في سورية ، ونظرة فاحصة للخريطة للبقاع التي تقع بين صيداء وأنطاكية تبين لنا أهمية المواقع التي شيدت فوقها تلك القلاع . فسد جبال لبنان الشاهقة التي تناطح السحاب إلى ارتفاع قد يصل إلى عشرة آلاف قدم ، وجبل العلويين في شمال لبنان أيضاً (مع أنه أقل ارتفاعاً) يمثل التوحش والوعورة . اتخذت طائفة الاسماعيليه معاقلم النعمة ومنها قلعة القدموس ومصيف ، وقد كان هؤلاء في وقت ما من حلفاء الصليبيين .

ومن صيداء إلى أنطاكية كان من اللازم بناء القلاع عند الممرات القليلة العدد التي تصل بين داخلية البلاد والساحل . ولقد شيدت قلعة صهيون عند الطرف الشمالي لجبل العلويين والمرقب في المكان الذي تتعرف فيه سلسلة الجبال عند الساحل مؤلفة أخدوداً ضيقاً بين الجبال والبحر . وحصن الأكراد (الفرسان) ، والقلعة البيضاء وعكار وغيرها . كل منها في مكان تتحكم فيه على ثغرة بين الطرف الجنوبي لجبل العلويين أول معاقل لبنان . ولم يكن من اللازم بناء قلعة كبيرة على طول امتداد سلسلة جبال لبنان ذاتها . وأمامنا قلعة بوفور عند نهاية تلك السلسلة الجبلية ، وهي تحرس الممر الذي يخرج منه نهر اللباني في طريقه إلى البحر .

وفي فلسطين ، في الجنوب ، حيث تعتبر الدفاعات الطبيعية إلى حد ما قليلة وغير مؤثرة ، أمكن استعاضة هذا الضعف بتشييد قلاع كثيرة ، وسندكر بعضها . كان هناك خط دفاعي أولى للدفاع في الأرض الشبيهة بالصحراء في شرق نهر الأردن :

- الصبيية في جنوب جبل الشيخ للتحكم وكشف أي تقدم يزد من جهة دمشق .
- وقلعة كرك مؤاب في شرق البحر الميت وعلى مقربة منه .
- والشوبك في صميم صحراء الأردن وشمال خليج العقبة .

أما خط الدفاع الثاني فكان يقع غرب نهر الأردن ويعتمد على قلعتي توروب وصافيتا ، ويشرف بالتتابع على الطرق المؤدية من أعلى الأردن إلى صيدا أو عكا ، وعلى قلعة بلفوار التي تشرف على المحاصرة الهامة جنوب طبرية .

وإلى جنوب وادي نهر الأردن والبحر الميت أنشئت عدة حصون منيعة جيدة : بينها شيدت قلعة الحاج على ساحل البحر حيث ترتطم المياه بأسوارها من ثلاثة أجناب .

الأساليب المعمارية للقلاع الصليبية

تلك القلاع التي مر ذكرها يختلف تخطيطها اختلافاً بيناً ، وهي تلخص أوتوجز تاريخ وتطور الحصون من نهاية القرن الحادى عشر والقرن الثانى عشر إلى خاتمة القرن الثالث عشر .

كانت مشكلة بحث الأصول الهندسية والمعمارية لتلك القلاع موضوع دراسة رجال الآثار منذ القرن السابع عشر .. هل استمد الصليبيون أصولها من البيزنطيين أم من العرب أم أنهم جلبوها معهم من الغرب ؟ ، أم أن تلك القلاع كانت هندستها من وحى بنائهم عندما حلت قوات الصليبيين في الأراضي المقدسة ؟

إن رأى الغالب هو أن البنائين الصليبيين تلقوا فنونهم في العمارة العسكرية من الشرق ، وأن فن الحصون الأوربي استمد أسوله واستوحاها من التقدم الذى طرأ على القلاع في الشرق منذ البيزنطيين . يذكر ف . ١٠ . لورنس^(١) أن القلاع الصليبية في سورية صورة من النماذج الأوربية وأنها لم تستمد شيئاً مطلقاً من أساليب القلاع البيزنطية ، وقد اندفع في تأييد هذا الرأى وتسجيل نظريته بشق الشواهد ، ومنها ما قد يعتبر متفقاً مع الحقائق العملية أو منساقاً مع العواطف !

والواقع ، أن الحق ربما يوجد بين الرأين ، فإن الصليبيين تعلموا كثيراً من الشرق ، كما جلبوا معهم بعض الأساليب من الغرب وخاصة في السنوات الأخيرة من دولتهم .

إن الحصون في الشرق العربى التي زرت في القرن الحادى عشر امتدت أصولها وتطورها منذ العصور القديمة ، ولم يعرف عن الصليبيين أنهم استحدثوا جديداً فى منشآت الدفاع العسكرية ، مما لم يكن أمره معروفاً عند القدامى . ذلك لأن بعد سقوط رومه انتقلت تقاليد فن الحصون القديمة إلى البيزنطيين ، وتلك القلاع بقيت خير تعبير لما شيده جوستينيان من المباني العسكرية التي يقدر عددها تسعمائة مبنى . وقد اهتمدى رجال الآثار على كثير من تلك الأعمال . وفى عام ١٠٩٧ بدأ الصليبيون

(١) Lawrence, I.E., Crusader Castles, 2 vols., Golden Cockerel Press, 1936.

حيرهم الطويل عبر آسيا الصغرى ودمروا نيقية ثم أخضعوها لهم ، وفي العام التالي استولوا على أنطاكية . وقد اشتملت المدينتان الحصينتان على خير النماذج المعمارية الحربية التي تأثر بأساليبها البناءون الصليبيون ، فعرفوا كيف يستفيدون منها ، واقتبسوا منها ما يتفق مع مطالبهم .

كانت قلاع الصليبيين مبان منيعة وكأنها وحدات دفاعية مستقلة ، وكانت تزداد قوة باتصال إحداها بالأخرى كحلقات في سلسلة أو شبكة محكمة من المواصلات مع المعاقل المجاورة .

ومن المحتمل أن الصليبيين تأثروا أثناء وجودهم في الشرق باستخدام الإشارات والحمام الزاجل كوسيلة من وسائل المواصلات . والمعروف أن العرب قد امتازوا في استخدام الحمام الزاجل ، كما مهر البيزنطيون في استعمال الإشارات . ومع ذلك أدرك الفرنج أين يشيدون قلاعهم وذلك لكي يجمعوا الاتصالات الداخلية بين معاقلهم أمراً ممكناً داخل مساحات شاسعة في ممتلكاتهم اللاتينية .

كان جنودهم على ذروات قلعة بوفور (الشقيف) (مثلاً) يتصلون بالإشارات مع جنود قلعة الصببية أي بانياس على سفوح جبل الشيخ . وكذلك مع قلعة تورون إلى الجنوب ، ومع حامية قلعة صيداء على بعد ١٠ ميلاً على الساحل . وكانت المواصلات في تورون ، (تبين) ممكنة مع « شاتونوف » ونهر الأردن . كما أنه كانت هناك شبكة مواصلات شبيهة تصل بين حصن الأكراد وعكا والقلعة الحمراء (قلعة يهور) وصافيتا (Chastel Blanc) والعريضة وطرطوسة في شمال ووسط المملكة اللاتينية . وفي أقصى الجنوب في كرك مؤاب حينما كان يحاصرها صلاح الدين عام ١١٨٣م كانت القلعة تتصل ليلاً بواسطة الشارات النارية عبر البحر الميت بقلعة بيت المقدس (برج داود) التي تبعد عنها مسافة تبلغ نحو خمسين ميلاً .

وتلك القلاع ومن كان فيها من رجال الحاميات القليلي العدد وهم مسلحون تسليحاً طيباً (١) احتوت على الإسطبلات السكافية وأبراج الحمام والطواحين ومخازن

(١) في معركة حطين (١١٨٧م) فقد حوالي ٢٣٠ من فرسان الطائفة الشجعان ، كما فقد الداوية عدداً كبيراً من رهبانهم في معركة عكا الختامية .

الضاد في الأقية داخل الأرض ، وكان يشرف عليها مسئول من قبل كبار الإقطاعيين الذين أسهموا في إرسال الحملات الصليبية الأولى إلى الشرق . ولكن فيما بعد تغير هذا الوضع حينما اتسع نطاق العمليات الحربية واستقرت مملكة اللاتين في الشرق ، وآل معظم الأمر في منتصف القرن الثاني عشر إلى رجال الطوائف الدينية وأهمها طائفة الإسبتارية وطائفة الداوية ، وهما الطائفتان اللتان وقع على عاتقهما مسؤولية المحافظة على القلاع الكبرى ، ثم آلت إليهم مسؤولية الدفاع عن المملكة اللاتينية بأسرها .

كذلك كان الحال في قلاع الصليبيين التي كانت على الحدود بين دولتهم والدولة الإسلامية . كان يحافظ عليها رجال تلك الطوائف المتمصة ، وكان من مهامهم تقرير الضرر ائب كما كان لهم سفنهم البحرية الخاصة وهيئاتهم الدبلوماسية التي تتكلم بالنيابة عنهم لدى ملوك أوروبا .

لقد وصل رجال طائفة الاسبتارية إلى الشرق قبل مجيء الصليبيين ، وكانوا معنولين عن تنظيم حركة الحجاج المسيحيين إلى بيت المقدس وتوفير نظم الراحة لهم ومعالجة المرضى منهم . وفي أوائل القرن الثاني عشر تطورت واجباتهم وضمّت الشئون الحربية . أما الداوية فينسبون إلى الهيكل (هيكل للقدس) ، ونشأت طائفتهم في عام ١١١٨ م . وفي أعقاب العام المذكور أخذ يتقدم نفوذ الطائفتين بسرعة ونشاط ثم ساعد تطور الأحداث على إدماج الأعمال الحربية ضمن مسؤولياتهم ودخل في اختصاصاتهم إدارة معظم القلاع الهامة ، كما أصبحت لهم نظم خاصة وتقاليد متصلة بأعمالهم الروتينية والعسكرية .

التأثيرات البيزنطية المعمارية

حين نبحث موضوع التأثيرات البيزنطية المعمارية نجد أن حاجيات الصليبيين والبيزنطيين اختلفت إحداها عن الأخرى . فالبيزنطيون لم يكن ينقصهم الإمداد بالرجال (القوة البشرية) ، ونضيف على هذا أن تكتيكات وأسلحة الحصار خلال العصور الوسطى وقبل العهد الصليبي لم تكن تتطلب الأسوار اللينة البناء . وكان أهم ما اعتمدت عليه القلعة البيزنطية هو سور رفيع «نوعا» تحميه عدة أبراج مربعة ذات

بروز ضئيل . وتلك الأبراج موزعة على مسافات معينة ، بين كل منها والآخر ستارة غير مميكة من الحجارة ، الأمر الذي كان من أجله تبنى كواويل يعتمد عليها ممشى السور ، وفي بعض الأحيان كانت تبنى لها سلسلة من العقود الداخلية .

ومن أهم مميزات الحصون البيزنطية — الخندق الكبير الذى يحيط بالقلعة ، وكان يتقدمه أكمة من التراب تسمى متراساً (استحكام ترابى) . وعلى العموم فقد كانت الحصون البيزنطية تعتمد على عدد الرجال وعلى الأعمال الدفاعية الخارجية (الخندق والمتراس الترابى) ولا تبنى كثيراً بالموقع النسيج أو بمناة الأسوار أو بترتيب منسق لاستخدام النيران الساترة ^(١) .

استفاد الصليبيون كثيراً فى سورية من الخصائص والمميزات المعمارية لحصون البيزنطيين واتخذوها مرشداً لهم ، ولا سيما فيما شيدوه منها عندما وصلوا إلى الشرق . وقد استخدم الفرنج الأبراج فى حصونهم على الأسلوب البيزنطى ، وشيدوها فى بادية الأمر مربعة الشكل ، ولكن بدون التواء البارز الذى عرفه البيزنطيون . ونشاهد فى قلعة صهيون والحاج أن أبراج الستارة لم تكن متصلة بممشى السور . وفى قلعة صهيون نلاحظ أن جزءاً من ممشى السور كان يعتمد على الكواويل الخارجية . وقد استخدم الصليبيون بمهارة الخندق وعنوا به كثيراً ، ويشاهد هذا بوضوح فى قلعة صهيون وكرك مؤاب والصبيبة وبوفورت وقلعة الحاج .

ومن حصون الفرنج التى لم تطبق فيها الأصول المميزة للحصون البيزنطية ، تلك الحلقة من القلاع التى شيدها الملك فولك أوف آنجو بين عامى ١١٣٧ و ١١٤٢ م حول عسقلان ومى : إيلين وبيت جبلين والحارس الأبيض . فقد كانت تلك عبارة عن قلاع مربعة ذات أبراج مربعة فى الأركان وبروزات (تواءات) مستطيلة ممتدة مع الستارة .

وكان فى قلعة من تلك القلاع برج منيع مستقل فى وسطها (Keep) ، وقد شيد

(١) تلك هى ميزات عامة ويمكن الرجوع إلى حصون قبرص البيزنطية وحصون الرصافة وغيرها مما شيده البيزنطيون فى سورية .

على نفس الطراز قلعة كوايات^(١) بالقرب من طرابلس وقلعة بانفوار (١١٤٠ م) .
وقد بنيت الأخيرة من الحجر المنحوت الأسود ، وهى حصن كبير مربع يحيط به
خندق حول ثلاثة من أجناعه ، أما الجانب الرابع فيطل على هوة سحيقة . ويمتد
أطول أضلاع القلعة نحو ٣٨٠ قدماً ، والأبراج المشيدة عند الأركان مربعة الشكل ،
وهناك برج واحد ذو تنوء كبير مقام فى وسط ثلاثة من ستائر القلعة .

ومن أهم المميزات التى توضح التخطيط الدفاعى هى الأبواب السرية الثلاثة
(Posterns) وكذلك المدخل الرئيسى للحصن ، وكان يضم هذا الأخير على الأقل
منحنيين يعملان معاً شكل زاوية قاعة^(٢) وكان يصل المرء إلى الباب الثانى بواسطة
ممر مقبى ، وتعتبر القلعة الحمراء القرية من طرطوسة نموذجاً بسيطاً لهذا النوع من
البناء ، ونجد هذا المدخل الذى على شكل مرفق يتكرر عدة مرات فى قلعة حلب .

واستمد الصليبيون من النماذج العربية عنصر المشرييات الحجرية
(Machicolation) ثم عملوا على تطويره . وهناك عدة أمثلة لهذه الظاهرة
المعمارية فى عدة مبان بالقرب من أنطاكية ترجع إلى مابين القرنين الرابع والسادس .
وقد نشأت هذه الظاهرة فى الشرق قبل ظهورها فى أوروبا^(٣) .

أما عن أسلوب البناء بالحجارة فقد اتبع الصليبيون الطراز الذى اتبع فى سورية
على أيام ما قبل البيزنطيين (الفينقيين وغيرهم) . ولا يخفى أن ندرة الخشب فى تلك
البلاد أجبرت الصليبيين على إستخدام العقود والقنوات بدلا من استخدام الخشب ،
ولذلك كان عدد الطوابق محدوداً ، ولم يتجاوز عددها فى القلاع اثنين أو ثلاثة ،
ويلاحظ أن الأبراج التى تتوسط القلاع الصليبية (Keeps) كانت أقل ارتفاعاً من
مشيلاتها التى شيدت فى الغرب .

(١) Coliat .

(٢) هذا الأسلوب المعمارى أخذه الغرب من الشرق وهو جعل المدخل الموصل
من باب القلعة إلى داخلها على شكل زاوية قاعة أو جعله منثنياً لكي لا يتمكن العدو الذى
يصل إلى الباب من أن يرى الفناء الداخلى أو أن يصوب سهامه إلى من فيه .

(٣) K.A.C. Creswell : A Short Account of Early Muslim Architecture, Pelican, 1958, pp. 121-122.

وليس يخاف أن العرب على أيام الصليبيين كانوا قد اتصلوا من قبل ببيزنطية منذ عدة قرون . وقد استفاد الاثنان وتبادلا المعرفة كما أنهما أضافا كثيراً إلى مبادئ فن هندسة الحصون القديمة .

ونحن هنا إذا تذكرنا أن في معظم عصور النضال الإسلامي الصليبي ، كان العرب يعتمدون على الهجوم وسرعة الحركة ، وكانوا يمتازون في الوقت ذاته بتفوق عددي كبير على خصومهم ، فانهم لم يعنوا كثيراً في تلك المدة بأعمال بناء الحصون الدفاعية ، ولأجل ذلك لم يقدر الباحثون تأثيرهم على العمارة اللاتينية حق قدره . وليس هناك أدنى شك أن الصليبيين استفادوا كثيراً من خبرة العرب في أساليب البناء العسكرية . وكان مما أدخلوه إلى أسس جدرانهم ذلك التضخم في زيادة سمك جدران أسوار قلاعهم .

وفي صيداء وغيرها استخدم المسلمون العمد الرخامية والجرايتية القديمة كدعامات لتقوية مباني الحصون ، وهو أسلوب معماري شاع استعماله عند المسلمين أينما وجدوا تلك العمد القديمة .

وموجز القول أن الصليبيين استفادوا دروساً شتى من البنائين البيزنطيين والعرب وأخذوا تلك الميزات الممارية التي راقوا لهم وأوصلوها إلى مستوى رفيع . ثم أدخلوا عناصر جديدة ، وكان من أهمها حسن اختيار الموقع الذي تشيد عليه القلعة من ناحية الدفاع المثالي والعمل على أن ينسجم الموقع مع شكل الأرض وطبيعتها .

كان من نتائج الحروب الصليبية ، أن تطور نوعان رئيسيان من القلاع ، انتقلا فيما بعد من الشرق إلى أوروبا ، وكان لكل منهما ذات التخطيط والغرض فقد اشتملت كل قلعة على خطين للدفاع أو ثلاثة خطوط دفاعية ، الواحد في خلف الآخر . وقد اختلف كل نوع عن الآخر من ناحية طبيعية الموقع الذي شيدت عليه القلعة . وبمعنى أوضح أن طبيعة الأرض ، هي التي كانت تتحكم في اختيار نوع التخطيط المنشود . فإذا كانت القلعة معرضة للهجوم من جميع الأجناب ، فإن القلعة في مثل هذه الحالة تتطلب الدفاع المتعادل عن كل جنب من أجناب القلعة ، ومن هنا نشأ ذلك النوع من القلاع الذي يشتمل على عدة خطوط أو ساحات دفاعية

متعاونة تعتمد على بعضها بعضاً داخل القلعة . وقد أطلق على هذا النوع « القلاع المتداخلة الحصون » (concentric) . وكان يحدث غالباً ، حيناً تشيد قلعة ما في أعلى ربوة أو موقع شبيه وينتظر أن يكون المهجوم على القلعة من جانب واحد فقط . حيث لاتوافر فيها إمكانية الدفاع عن كل الأجناب ، فقد كان من الطبيعي استخدام الأسلوب الذى يسمح بإقامة ساحات متعاونة داخل القلعة لأجل مواجهة المهاجمين فى الاتجاه الذى ينتظر أن يحصل الهجوم منه .

حصن الأكراد :

وخير نموذج لهذا النوع من القلاع فى سورية ، هو حصن الأكراد أو قلعة الحصن (١٢٠٥) التى تقع فى شمال شرق طرابلس . فإن موقعها فوق ربوة مرتفعة جعلها تشرف على جميع الأراضى المحيطة بها . لقد كانت القلعة موجودة قبل وصول فرسان يوحنا (Saint John) فأخذوا يشيدونها من جديد ، وجعلوا فيها ساحتين كبيرتين تتخللهما الأبراج المنيعة والأبواب الحصينة ، وكانت الساحة الداخلية أعلى من الساحة الخارجية ، ومشرفة عليها ، ومسيطرة على المهاجمين الذين قد ينجحون فى اقتحام السور الخارجى ، وبذلك يتهيا للدفاعيين فرصة التحكم فى العدو فيقضون عليه أو يطردهونه . وكان مدخل قلعة الحصن مهياً بطريقة حاذقة ، فإذا استطاع العدو مثلاً اقتحام البوابة الرئيسية للقلعة ، فلا بد أن يأخذ طريقه عبر ممر ضيق وطويل ، ثم تقابله عدة بوابات حصينة أخرى ينبغى التغلب عليها بعناء وتضحيات ، فإذا نجح قابله دهاليز أخرى ذات منحنيات ومرافق يتعذر التغلب عليها .

كل هذا ، قبل أن يصل المهاجمون إلى الساحة الداخلية للقلعة ، وهنا تكون قوات العدو ، قد حوصرت ، وأصبحت هدفاً محققاً وتحت رحمة المدافعين فوق الأبراج والأسوار والبوابات المسيطرة على الساحتين . ولم يكن فى هذا النوع من القلاع ، ذلك البرج المربع المنيع (keep) الذى كان يتوسط قلاع القرون السابقة والذى كان يحتوى فيه المدافعون للقتال حتى اللحظة الأخيرة ، فقد اضمحلت أهميته وأصبح لا يركن إليه . ولذلك لا نشاهده فى القلاع التى بنيت منذ عام ١٢٠٠ ، فقد أهمل إلى حد ما . ولقد أثبتت التجربة ، أن منعة القلاع قد أصبحت حينذاك فى

مسلسلة الأبراج القوية التي تدعم أسوار القلعة ، وكل برج منها يقوم فيه رجاله بالقتال والدفاع ضد المهاجمين ، وكأن كل جماعة في قلعة مستقلة .

أما النوع الثاني من القلاع ، وفيه يقوم الدفاع معتمداً على خطوط (ساحات) دفاعية منفصلة ضد الجانب الوحيد المعرض للهجوم ، كما هو الحال في قلعة صهيون (Saone) في سورية ، وقلعة جايار التي شيدها ريتشارد الأول ملك إنجلترا على نهر السين في عام ١٩٨١ بعد عودته من البلاد المقدسة^(١) .

أثر العمارة العربية على الغرب

وليس مما يشير الدهشة أن بعد عودة الفرسان من الحملة الصليبية الثالثة انعكست كثير من التطورات المعمارية العسكرية التي انطبعت في البلاد المقدسة على المباني الأوروبية ، وكان المماريون الأوروبيون يبحثون عن أفضل الأساليب التي عرفت في سورية ، كالأبواب ذات المرافق الكثيرة وكالأبراج المستديرة في السور والحصون الوسطى التي استخدموها في مبانيهم ، كما أنه عني كثيراً بتأثير النيران الجانبية ، ثم عرفت السقاطات^(٢) والتاريس ، ومن ثم ساد في أوروبا القلاع المتداخلة الحصون ، على الأقل لمدة قرن ونصف ، وذلك بعد نجاحها في سورية على غيرها من الأساليب التي كانت قد استقرت فيها منذ أجيال سابقة .

ونلاحظ في ضوء استيعاب الخبرة الصليبية في أوروبا ، أن عدداً من البنائين في سورية الذين نهضوا ببناء قلعة موثفورت (١٢٢٧-١٢٩ م) معقل فرسان التبتون ، لم يتأثروا بطراز القلاع الدائرية الدفاع ، وواصلوا بناء القلاع على الأسلوب البيزنطي حتى نهاية أيام الصليبيين في سورية (بالرغم من إدخالهم

(١) تشبه قلعة جايار في الواقع ثلاثة حصون يكاد يكون كل حصن مستقلاً عن الآخر فأقيم الحصن الأول على ربوة عالية ويحيط به الأسوار والأبراج ، ويفصله عن باقي القلعة خندق عميق ، ويقع خلفه حصن كبير يضم ساحتين كبيرتين يفصلهما خندق ، ويحيط بهما سور ضخم تغلله الأبراج المنيع ، وواحد من هذه الأبراج منيع جداً يقوم بوظيفة الخط الدفاعي الأخير للقلعة .

(٢) تعرف في البلاد الغربية باسم Portcullis

لبعض عوامل التقوية عليها) ، واستخدموا كذلك البرج المربع « القديم الاستعمال » . وقد نسب بعضهم ذلك الاتجاه (أى المحافظة على التقاليد القديمة) فى أسلوب بناء الحصون إلى المنافسة التى كانت تسود العلاقات بين طائفتى الداوية والاسبتارية ، والأخرون كان لهم الفضل فى اتخاذ الطراز الدائرى الدفاع والنهوض به . ومن الصعب اليوم أن نحكم على مدى ما كانت عليه قوة كثير من القلاع الداوية لأنها تعرضت لانتقام قاس أكثر مما لقيته قلاع الاسبتارية . ومن تلك القلاع : صفد والرمبة ، والقصر الأبيض (صافيتا) وطرطوسة ، وغيرها من القلاع الجنوبية التى تخربت .

وسنوضح العناصر (التدابير) المعمارية التى استخدمها العرب فى حصونهم قبل وصول الصليبيين إلى البلاد المقدسة ، ثم نقلها بعد ذلك إلى أوروبا . وفى طليعة هذه العناصر :

١ — المدخل ذو المرافق العديدة (لأنها على هيئة المرفق) والكلمة التى استخدمها المؤلفون العرب « عطف » . عرف المصريون القدامى هذا الأسلوب فى حصونهم . فنشاهد فى حصن شونة الزبيب فى الألف الثانية قبل الميلاد . والغرض منه أن نكبد العدو المهاجم للحصن أفدح الخسائر فى أثناء محاولته الانطلاق من باب الحصن ولا سيما فى أثناء الظلام أو عند انسحابه عقب فشل هجومه . ولم يستخدم الرومان أو البيزنطيون هذا الأسلوب فى حصونهم بل إنهم استخدموا المدخل المستقيم الذى يؤدى مباشرة إلى فناء الحصن . وفى القرن الثامن استخدم المهندس الذى أسهم فى بناء بغداد (٧٦٢ — ٧٦٥) المدخل ذى المرفق ، فكان استخداماً موفقاً . ومع ذلك فلم ينتشر هذا الأسلوب فى الشرق العربى ، حتى إذا وصلنا إلى القرن الثانى عشر تم استخدامه فى مباني الحصون بطريقة جيدة ، ولا سيما فى قلعة حلب العظيمة (أوائل القرن ١٣) التى عتاز مدخلها بخمسة منبثبات قائمة ومتتالية (١) .

(١) تراجم مادة « باب » للأستاذ كريستول فى دائرة المعارف (الطبعة الجديدة) وفى مقاله عن الحصون فى الإسلام قبل عام ١٢٥٠ فى :

ويلاحظ أن أول الأبواب التي اشتملت على هذا المرفق الثنائي في العمارة البيزنطية ، هو الباب الجنوبي في قلعة أنسكرا (أنقرة) التي شيدها الملك ميخائيل الثالث في عام ٨٥٩ م . ويرجح أن العباسيين نقلوا ذلك النظام المعماري من إقليم ما وراء النهر حيث شوهد هذا الأسلوب في قلعة جنيس التي بنيت قبل الإسلام^(١) . والجدير بالذكر أن الأمير قراقوش الذي ندبه السلطان صلاح الدين الأيوبي لبناء قلعة الجبل ، استخدم ذلك الأسلوب من المداخل في القلعة ثلاث مرات (١١٧٦ - ١١٨٤) ، وفي قلعة الجندي بسيناء التي شيدها هذا العاهل حوالي عام ١١٨٢ م . ثم انتقل الأسلوب إلى أقصى المغرب في قصبة وداية في رباط بمراكش^(٢) . كما أننا نلاحظ هذا الأسلوب الرائع في حصن الفرسان (الأكراد) في شمال سورية .

٢ — وهناك نظام معماري آخر ابتكره العرب وهو «السقاطة» التي انتقلت إلى الغرب باسم "Machicoli" وهي عبارة عن دروة من الحجارة أو الخشب ذات فتحات تبرز عن الحائط بوساطة كوابيل وتقام فوق أسوار الحصون أو في أعلا مداخلها ، ويستطيع الجنود من خلال الفتحات إلقاء المقذوفات أو السائل الحار على الرجال الذين يقتحمون القاعة وقد ظلت السقاطة مجهزة مدة طويلة في الغرب حتى استعمارها الصليبيون في القرن الثاني عشر . وقد استخدمت السقاطات على نطاق واسع في شمال سورية قبل ذلك بعدة سنوات ، وأقدم نموذج منها تلك السقاطة الباقية في دار قيطة وتاريخها منقوش عليها وهو ٥٥١ م . وتشاهد السقاطة أيضاً في قصر الحير الغربي (٧٢٩ م) الذي شيده الخليفة هشام ابن عبد الملك فوق أبواب القصر ، وكذلك تشاهد سقاطة أخرى في قصر الحيرة الشرقي (٧٣١ م) والجدير بالذكر أن أقدم السقاطات التي شيدت في أوروبا هي التي نشاهدها في قلاع جايار (١١٨٤) وشاتيلون (١١٨٦) ، ونوروتيش (١١٨٧) وونشستر (١١٩٣) . ويتضح من هذا أن الصليبيين نقلوا فكرة السقاطة عن المعماريين العرب بعد مرور عدة أعوام طويلة .

(١) Field and Prostov : Ars Islamica, VI, pp. 158-166.

(٢) المرجع المذكور في هامش ١ ص ٧٤ للأستاذ كريسويل ، والمعروف أن نظام الأبواب ذات المرفق انتقل إلى كثير من القلاع الأندلسية في عصر المرابطين ولا سيما في غرناطة وأشبيلية وأيلا .

وبالإضافة إلى هذين النظامين العربيين ، هناك أيضاً « المتراس » Portcullis ويمكن وصفه بأنه إطار من الخشب أو الحديد ، مدبب الأطراف من أسفله ، ينزلق عمودياً في حزين جانبيين في كفتي باب حصن أو قلعة ، ويثبت في الإطار شبكة معدنية صلبة ، يستطيع المدافعون قذف السهام من خلالها ، ويسدل المتراس عند محاولة العدو اقتحام القلعة وذلك بخفضه بوساطة حبال متينة أو سلاسل . ومن المحتمل أن يكون العرب قد اقتبسوه عن البيزنطيين في أثناء حصار حصن بابلون في مصر العتيقة^(١) ثم استخدموه فيما بعد في قصر الأخيضر ج . ع . م (٧٧٨ م) ومنذ ذلك الحين شاع استخدامه في الشرق قبل انتقاله إلى الغرب في أثناء الحملات الصليبية .

٤ - وهناك البربكان (Barbican) وهي كلمة عربية أو فارسية الأصل (بربخان) ، تطلق على البرج الكبير الذى يبنى على مسافة من باب الحصن أو قنطرته المقامة فوق الحندق المحيط بالحصن . وقد انتقل هذا النظام المعمارى إلى أهل الأندلس ولا سيما في عهد المرابطين بشمال أفريقيا .

٥ - والمقرنص (Squinch) نظام معمارى استخدمه العرب ونشأه في كثير من العمار الإسلامية وهي ذات طبقات مصفوفة أعلا بعضها ببراعة فنية ولا يقصد بها الزخرفة بل أنها ركن مهم في الهندسة المعمارية ولا سيما في بناء القباب ، وهي غالباً كروية محمولة على قواعد مربعة الشكل . ففي الفراغ الناشئ مادة من انتقال السطح المربع إلى مسطح دائرى . وكان كل صف من هذه الدلايات يوضع فوق بعضها وكل صف يبرز من الذى في أسفله حتى يلتقى الصف الأعلى بصف القبة . واستخدمت المقرنصات أيضاً في المآذن أسفل دورات المؤذن وذلك لإيجاد البروز الذى يتحرك فيه المؤذن ، فهي تقوم بعمل المسكوايل التي نشأها في أسفل الشرفات لملها . والمعروف أن الفاطميين كانوا أول من استخدموا الدلايات في مباني القاهرة . وقد انتقل استخدام المقرنصات إلى أوروبا بوساطة الصليبيين .

Joy, Sidney : Babylon of Egypt. Journal of British Archaeological Assoc., 3rd serie, vol. I, p. 70.

(١)

إعتبارات متصلة بالقلاع الصليبية :

وهنا وقد انتهينا من عرض مميزات بعض القلاع الرائعة ، وألمعنا بأنظمتها ، أفلا نتساءل كيف سقطت بعض تلك الحصون الصليبية أو كيف أجبرت على الاستسلام .
الواقع أنه لا يوجد جواب واحد لذلك السؤال . إذ أن هناك عدة عوامل كانت تؤثر على سقوط القلاع الكبرى . وكان يجتمع منها عاملان أو أكثر كسبب هدم لسقوط القلعة ، ويمكن بحث كل من تلك العوامل على حدة .

نقص قوة الرجال (١) :

كان النقص المزمع للقوة البشرية الصليبية دون شك العامل الرئيس لسقوط قلاع كثيرة في قبضة المسلمين ، وانضرب لذلك بعض الأمثلة :

وجد المسلمون في حصار قلعة صهيون النينة عام ١١٨٨ م أن قسماً كبيراً من السور النيع في القلعة لا يدافع عنه أحد من رجال الحامية . وكان ذلك ما حدث في قلعة توروب (تبين) التي قاومت سبعة أيام فقط . وقد لاقت قلعة حصن الفرسان (الأكراد) نفس المصير ولا سيما بعد ما تخلى رجال التركمان عن مساعدة الفرسان ، فاضطر فرسان الاستبارية وحدهم إلى الدفاع عن الحصن حتى أجبروا على التسليم .

عقيلة القلاع :

أوجدت القلاع الكبرى عند الصليبيين عقيلة دفاعية ، وفرضت جهداً نفسياً عليهم . وقد كان هؤلاء دواماً في انتظار ما يجلبه المهاجمون من مفاجآت أو ما سوف يعلونه عليهم . وبمباراة أخرى كانوا في حالة يقظة مستمرة ورقابة وانتظار وإنصات وخوف . . إلخ . فنشأ عندهم الضجر والدعر والانهيار والتبرم والملل . وتلك كلها أعداء عنيدة للجنود تعرضهم لانهيار معنوي شامل ، ولا سيما إذا تواردت الإشاعات بأخبار المهجوم ، أو أبناء الحصار . وفي بعض الأحوال كان يتسرب المسلمون من الأبواب السرية الخلفية ويفاجئون رجال القلعة ثم يفرون مسرعين بعد الانهساء من غارتهم ، في حين يعمل رجال اللغم (اللغامون) تحت الأبراج

(١) يعبر عنها بعبارة Lack of manpower

الكبرى والأسوار دون كلل أو ملل ، ويدمرون قسماً هاماً من القلعة ويشهلون على المهاجمين التسرب أو المباغلة . فما بالك إذا انضبت المياه داخل القلعة وتفتشت الأمراض . وبينما هم في محيط تلك الكوارث والمتاعب تصل الأنباء إلى حامية القلعة بأن العدو قد أباد نجدة كانت آتية لخلاصهم .. وهكذا كانت معنويات الحامية تنضال .. وتتفشى بين أفرادها الدعوة إلى التسليم . وتفسر لنا أمثال تلك المواقف لماذا سالت أنطاكية المنيعه عام ١٢٦٨ أم بعد حصار لم يدم أكثر من خمسة أيام .

المجاعة :

كان أهم عناصر حروب الحصار حرمان رجال الحصن من المؤونة والطعام والماء ، ولكن هذا السلاح لم يتأثر به الصليبيون . ذلك لأن رجال الحصن لم يكن عددهم ضخماً يحتاج إلى مقادير كبيرة من الميرة . ومع ذلك فقد احتوت القلاع الكبيرة على مخازن تحت الأرض تحتوى على مقادير وفيرة من الحاجيات الضرورية . فكانت في قلعة المرقب مثلاً من المؤنة التى تكفى رجاله للمقاومة خمس سنوات من الحصار المرير ، وكان فى حصن الفرسان (الأكراد) طاحون للقمح وكانت مخازن الزيت والجبوب كبيرة .. وتلك لا زالت إلى اليوم موضع دهشة الباحثين . وكانت فى صهاريج ومخازن قلعة صهيون ما يكفى حامية كبيرة مدة حصار طويلة .

وفى بعض الأحيان كان يبدو شبح المجاعة خفيفاً مزعجاً . وتتحدث المراجع التاريخية عن دفاع « رينودى ساجيت » وحاميته الباسلة عن قلعة الشقيف (Beaufort) ، وانهاء هذا الاستبسال بالتسليم لصالح الدين (١١٨٨/٨٩) بعد ما تحمله رجالها من الحرمان ، وقد مر هذا الخطر بحامية قلعة بلفوار (بيت جبرين) التى قاومت الحصار ١٨ شهراً . كما فتكت الجماعة برجال كرك مؤاب بعد معركة حطين — وحامية حصن موتريال ، وقلعة صافيتا (١١٨٨ م) .

د. عبد الرحمن زكى

ملحق

ثبت بالقلاع الإسلامية والصليبية

في الشرق الأوسط العربي

حوالي ١٠٠ م	حصن بابلون بمصر
نهاية القرن الثالث	حصن الأزرق
٥٢٧-٥٦٥ م	قلعة أنطاكيا (بدأ تشييدها أنتيجونوس وسلوكوس)
٥٢٩	قصور الحلابات (بدأ تشييده كرا كلا ٢١٣ م)
القرن السادس	حلبية (زنوبيا على نهر الفرات)
» »	ساموساتا (قلعة الطين على الفرات)
القرن السابع	مرعش (أعاد الخليفة معاوية بناءه)
» »	الحديث (أعاد الخليفة المهدي بناءه) ومماه الحمديّة
» »	جبلة (على البحر المتوسط بالقرب من اللاذقية)
٧٠٣-٧٠٢	المصيصة (بدأ تشييد القلعة عبد الملك بن مروان)
٧٢٤	المتقبة (شيدها الخليفة عمر بن عبد العزيز)
٧٢٨-٧٢٩	قصر الحير (شيده هشام بن عبد الملك)
٧٢٨-٧٢٩	قلعة الرصافة (شيدها هشام بن عبد الملك)
٧٥٦	ملطية (أعاد تشييدها الخليفة المنصور)
٧٥٧	منصور (شيدها المنصور بن جعوانة بن الحارث)
٧٨٠	زبطرة (بالقرب من قلعة منصور أعاد بناءها الخليفة المنصور)
٧٨٢	أذنة (شيدها هارون الرشيد)
٧٨٨-٧٨٧	طرسوس
٧٩٦	عين زربة (Anazarbus)
٧٩٩-٨٠٠	الهارونية (شيدها هارون الرشيد)
القرن التاسع	برزية

قبل القرن العاشر	جعب (دوسرة)
قبل القرن العاشر	حران
القرن العاشر	حلب
القرن العاشر	المريرة
القرن العاشر	مصيف (قادموس بالقرب منها)
القرن العاشر	عكا
القرن العاشر	حمص
القرن العاشر	يهر (القلعة الحمراء)
٩٥٩	حارم
٩٦٣-٩٦٨	بغراس (Pagrae)
حوالى ١٠٠٠	عكار
حوالى ١٠٠٠	شيرز
القرن الحادى عشر	المهلبه
القرن الحادى عشر	الكهف (شمال بانياس)
القرن الحادى عشر	قادموس (٩١٣٤)
١٠٤٥ أو ١٠٦٧	دمشق (الأمير أنسز) أو خلفه
١٠٦٢	المرقب (مرجط) — بدأ تشييدها رشيد الدين الإسماعيلي
حوالى ١١٠٠	المضيق (أباميا)
حوالى ١١٠٠	بانياس (حبيبة أونغرود)
١١٠٢	صافيتا
ح ١١٠٣	طرابلس (سان جيل)
١١٠٤	جبله (جيبيل)
١١٠٣ أو ١١٠٧	تورون (تيرون)
١١١٠	حبيس جلدق (شرق الأردن)
١١١٠-١١٢٠	حصن الأكراد (الفرسان) على أسس سابقة
١١١٥	الشوبك (كراك موتريال) شرق نهر الأردن

ح ١١١٦	فرعون (الجرايه) بخاليج العقبة
١١١٦	سكانديون
١١٢٠ — ١١١٩	صهيون (صلاح الدين)
١١٤٤ — ١١٣١	إيلين (يينا)
١١٤٤ — ١١٣١	بيت جيلين
١١٤٢ — ١١٣٧	جارد بلانش (تل الصافي)
١١٤٠ — ١١٣٩	بلفورت (شاستل أرنول) أو شقيف أرنول
١١٤٠	صفد
١١٤٠	بلقوار (كوكب الهواء)
١١٤٣ — ١٩٤٢	كرك مؤاب (شرق نهر الأردن)
١١٥٢ — ١١٤٩	غزة (على البحر المتوسط)
١١٤٩	عريّة
١١٥٣	عسقلان (على البحر المتوسط)
١٢٠٧ — ١١٧٦	قلعة الجبل بالقاهرة (صلاح الدين)
١١٧٨	شاستلية (ن . الأردن الأعلى)
ح ١١٨٣	طرطوسة
١١٨٤	عجلون (الربض شرق نهر الأردن)
١١٨٧	صدر (صلاح الدين بسيناء)
القرن ١٢	داروم (دير البلح) — الملك بلدوين الأول
القرن ١٢	إنفة (نفين)
١٢٠٣ — ١٢٠٢	بصرى (سورية)
١٢١٥ — ١٢٠٨	قلعة النجم
١٢١٠	قلعة صور (على البحر المتوسط)
١٢١١	قلعة جبل طابور (الملك المعادل)
١٢١٨ — ١٢١٧	عثليت (الحاج في شمال فلسطين)
حوالى ١٢١٨	قيصارية
١٢٢٧ — ١٢٢٩	جدين (مونفرتس — ستاركنبرج)

١٢٢٨—١٢٢٧

صيداء (ساجيت)

١٢٤٠

جزيرة الروضة بالقاهرة

القرن ١٣

قلعة بيت المقدس

١٤٧٧

قلعة قايتباى بالإسكندرية

١٤٧٩

قلعة قايتباى برشيد

١٥١٦

العقبة (السلطان الغورى)

١٥١٦

نخل (السلطان الغورى بسيناء)

١٥٦٠

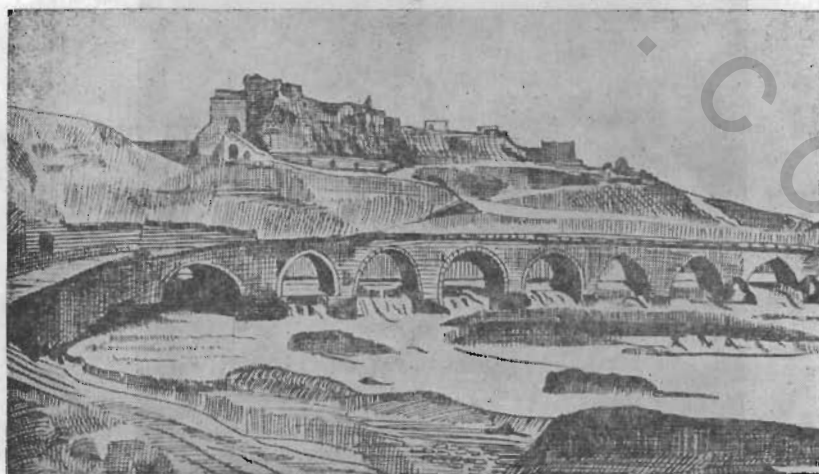
العريش

١٥٦٠ ح

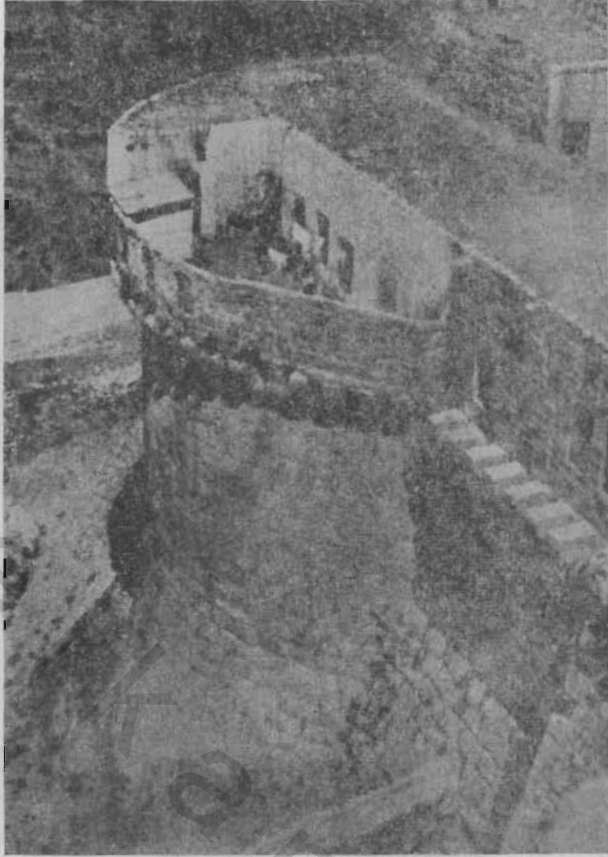
الطور



مدخل قلعة حلب العربية بسورية



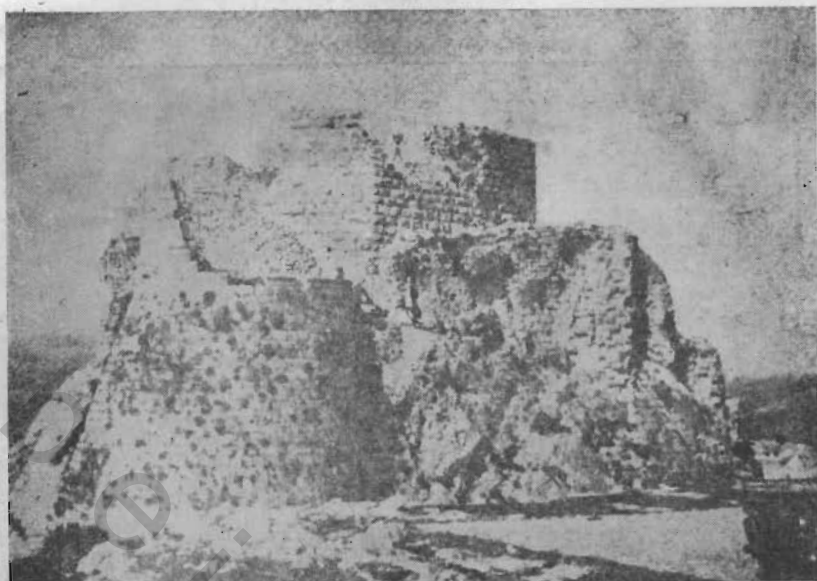
قلعة شيزر العربية المطلة على نهر العاصي بسورية



قلعة حصن الأكراد : برج مطل على السهل بسورية



قلعة الشقيف شقيف (أرنول) بلبنان



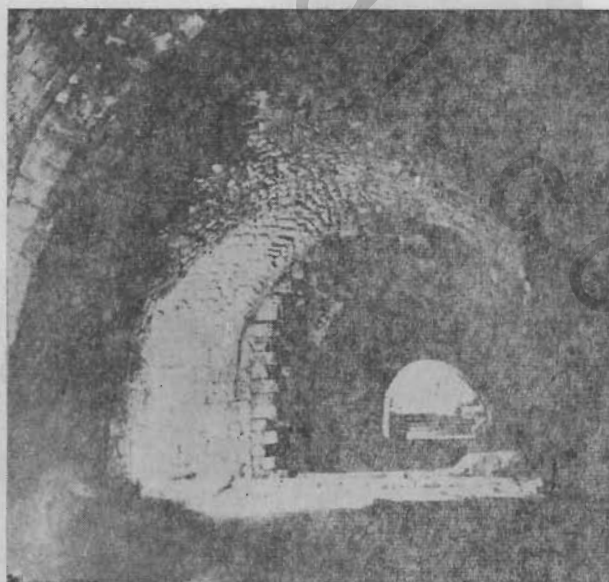
قاعة الشقيف بلبنان



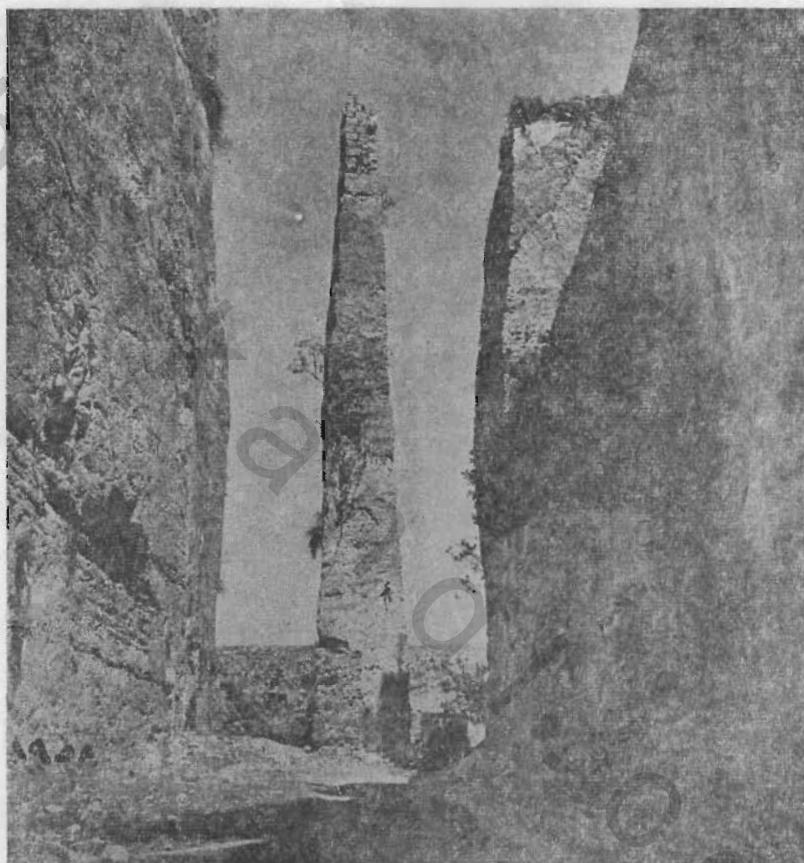
قلعة السكرك بشرق الأردن



قلعة ماسيون (صلاح الدين) في سورية



قلعة جبيل : أقبية الحصن بانيان



قلعة صهيون (صلاح الدين) في سورية

obeikandi.com

الغناء والموسيقى والمجالس الاجتماعية

في العصر العباسي

للكنتورة ملحة رحمه الله

قسم التاريخ - كلية البنات - جامعة بغداد

اهتم العباسيون اهتماماً كبيراً بصناعة الغناء والموسيقى . ولم تكن هذه الصناعة جديدة عليهم ، فالعرب في الجاهلية كان لديهم غناء بسيط يسمى بالحاء ثم اشتق منه الغناء المعروف ، ويقول المسعودي « لم تكن أمة من الأمم بعد فارس والروم أولع بالملاهي والطرب من العرب »^(١) . وظهر من الغنّين المشهورين في العصر الإسلامي الأول ابن محرز وابن سريع ومعبد والفريض وغيرهم^(٢) .

وفي العصور العباسية تطورت صناعة الغناء والموسيقى تطوراً كبيراً . وبلغت ذروة السكّال^(٣) عند ظهور الغنّين كإبراهيم وإسحاق وغارن وابن بانة وابن جامع وعلوية . هذا وقد شاركت المرأة الرجل في هذا الميدان ، وبرزت بعض الجوارى المغنيات كمرب جارية المأمون وشارية وبدعة وشاجية وغيرهن كثيرات .

ولا بد من وجود دوافع وأسباب أدت إلى تطور هذه الصناعة تطوراً بعيداً لدى جميع طبقات المجتمع حتى العامة^(٤) . ونلخص من هذه الأسباب :

١ - التأثير بالفرس ثم بالروم الذين أصبحوا موالى للعرب المسلمين بعد الفتوحات ؛ فنشأ بالبيدات والطنساير والمغازف والزامير ، وسمع العرب تلحينهم فلعنوا عليهم الأشعار^(٥) . هذا فضلاً عن كثرة الجوارى اللواتي أخذن كسبائاً في الحرب . وأغلبن من الفارسيات والروميات اللواتي حملن البعض منهن ثقافتهم الأصلية ثم تنقطن على أيدي

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ١٦٠

(٢) الأصفهاني : الأغاني ، ج ٢ ص ٢٦٨

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٣٠٠

(٤) ابن طيفور : بغداد ص ١٥١ ؛ التوحيدى : الأمتاع والخواكسة ص ١٧١-١٧٣

(٥) ابن خلدون : المقدمة ص ٣٠٠

النخاسين ، فبرزن في الأدب والشعر الغناء وأقيمت الأذواق ليمهن ، حتى بلغ سمر البض أربعة عشر ألف دينار^(١) وربما أكثر ، ولعب بعضهم دوراً كبيراً في قصور الخلفاء والأمراء ، كما فعلت عريب التي جمعت بين الأدب والغناء . وهناك البعض ممن برزن في اللعب على الآلات الموسيقية ، واشتهرت عبيدة^(٢) الطنبورية التي جمعت بين الأدب والشعر والموسيقى ، وقد ذكرها جعظلة في كتاب «الطنبورين والطنبوريات» ؛ ومنهم من اتصفن بحسن السلوك والأدب والتصرف مع الغناء . ذكر ابن طيفور أن جارية أهداها عبد الله بن طاهر إلى المأمون فلما دخلت عليه قال لها : غنى يا جارية فغنت وهي قائمة ، فقال لها : لم غنيت وأنت قائمة وما منعك من الجلوس ؟ فقالت ياسيدي أمرتني أن أغنى ولم تأمرني أن أجلس فغنيت بأمرك وكرهت سوء الأدب في الجلوس بغير إذنك . فوهب لها مالا واستعسن ذلك منها^(٣) .

أما شاجبة التي عرفت بحبها للغناء والموسيقى فقبل أن المعتضد سألها يوماً عند حضورها في دار الخلافة « هل رأيت شيئاً لم ترمثه عندنا فاستحسنته ؟ » فقالت « لا والله إلا عوداً من عود »^(٤) وهي التي شهد لها المنى جعظلة بقوله : فما قولك فيمن يدخل دار الخلافة فلا يعد عنه بشيء يستحسنه سوى عود^(٥) . وغيرهن كثيرات .

هذا ، وللمغنين دور كبير في تطور الغناء والموسيقى ، بعضهم من أصل أجنبي نقلوا الثقافات القديمة وأضافوا إليها ثقافة العرب ، فبرزوا ليس كمغنين فقط بل كأدباء وشعراء - بل حتى فقهاء - مع الغناء والموسيقى . فهذا إبراهيم الموصلي^(٦) الفارسي الأصل كان بارعاً في صناعة الغناء والموسيقى ، حتى أن ثلاثين جارية ضربن جميعاً طريقة واحدة وغنين في الأوتار وترآ غير مستو ، فأخذ يشير إلى إحداهن قائلاً : يا فلانة شدي مثناك ؛ فتشده وتستوى الأوتار^(٧) .

(١) الصوى : الأدران ص ١٠١

(٢) الأصفهاني ، الأغاني ج ١٩ ص ١٣٢

(٣) طيفور ، بغداد ص ٩١

(٤) الشابشي ، الديارات ص ٨

(٥) التنوخي ، نشوار المحاضرة ج ١ ص ٦٣ ، ٦٤

(٦) الأصفهاني ، الأغاني ج ٥ ص ١٧٠ وما بعدها

(٧) تاريخ العرب مطول ص ٥٠١ - ٥٠٤ ج ٢

وهكذا كان ابن إسحاق الوصلى له مقدرة وتفهم للفناء والموسيقى كأيّيه ، ذكر أن يوماً في مجلس المأمون جلست عشرة على يمين المأمون وعشرة جوارى عن يساره وممن العبدان يضرّبن بها ، وكان إبراهيم بن المهدي حاضراً ، فبدأن بالغناء والضرب ؛ فوجد إسحاق هناك خطأ من الناحية اليسرى ؛ فأنكره إبراهيم وأكد عليه إسحاق ، وظهر صحة قوله وتعيينه للخطأ ؛ فشهد له المأمون ببراعة في هذه الصنعة وتفوقه على إبراهيم بن المهدي ؛ إذ قال لإبراهيم « لا أمار إسحاق بعدها أن رجلا فهم الخطأ بين ثمانين وراً وعشرين حلماً لجديد الأغارية » (١) ، ويقول الأبيشبي إن إسحاق كان يصنع الألحان العجيبة . ووصف خرداذبة للمعتمد خصائص المغنى بقوله : « قد تمكن من أنفاسه ولطف في اختلاسه وتفرغ في أجناسه » (٢) .

وكان لاهتمام الخلفاء بالغناء أثره في ارتفاع منزلة المغنين والغناء في المجتمع ، فالاهتمام بالمغنين كان منذ العهد الأموي حتى قيل أن الوليد هو أول من جلب المغنين من البلدان إليه (٣) . وهكذا فعل الرشيد الذي فاق جميع الخلفاء في تقديره للمغنين - بالإضافة إلى العطاءات والهدايا - وجعلهم مراتب وطبقات (٤) : أولها إبراهيم وإسحاق وابن جامع وززل وغيرهم ، وآخرها أصحاب المعازف والونج والطنابير . وعلى قدر ذلك تخرج جوائزهم (٥) . وإذا أظهر أحدهم براعة رفع إلى المنزلة العليا . وهكذا فعل برصوما الزامر وهو من الطبقة الثانية عندما طلب منه أن يزمر لغناء ابن جامع فرفض وقال : لا أزمّر فإن كنت أزمّر على الطبقة العالية رفعت إليها ، فإما أن أكون في الطبقة الثانية وأزمّر على الأولى فلا أفعل . فطلب الرشيد من صاحب الستارة أن يرفعه إلى المرتبة الأولى (٦) . وماذا تقول في تقدير خليفة للمغنين حيث يذهب بنفسه إلى دار المغنى ، كما فعل الرشيد عندما ذهب يوماً مع أربعمائة خادم أبيض إلى دار المغنى إبراهيم (٧) .

(١) الأصبهاني ، الأغاني ج ٥ ص ٢٨٥

(٢) المسعودي ، مروج الذهب ج ٤ ص ١٦٠

(٣) المسعودي ، مروج الذهب ج ٣ ص ٢٧١

(٤) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ص ١٩٦

(٥) الجاحظ ، التاج ص ٣٩

(٦) الجاحظ ، التاج ص ٤١

(٧) الأصبهاني ، الأغاني ج ٥ ص ٢١٨

وهذا المأمون الذي اشتهر عصره بالعلم والمعرفة في جميع النواحي ، كان لا يتردد في السماح لإسحاق المغني أن يدخل عليه بزى الفقراء وهو سائر بجانب قاضي القضاة أحمد بن داود ، مما أثار الدهشة عند الناس والحسد لدى محارقي وعلوية^(١) . هذا ، وطلب إليه أيضاً أن يدخل مع أهل العلم والأدب والرواة لأمع المغنين ، فإذا أرادته للبقاء غنى^(٢) . وسأل المأمون يوماً أن يحضر الصلاة مع الفقهاء في المقصورة يوم الجمعة ، فأجابه المأمون « ولا كل ذا يا إسحاق ، وقد اشتريت هذه المسألة بـ ١٨٠ ألف درهم »^(٣) . وهكذا فعل الواثق مع المغنين . قيل كان يحضر إسحاق إلى مجلسه بدون عود ، فإذا طلب منه الغناء أعطى له عود^(٤) . وكذلك الراضى^(٥) والمقتدر وغيرهم . أما الخلفاء القادر والظاهر والمهتدي الذي طرد المغنين وحرم الغناء ومنع الملاهي وقبضها عليهم من الرجال والنساء والحرائر والأبناء وكسر آلات الطرب وأمر ببيع الجوارى على أنهن سواذج ... إلى آخره .

وهناك سبب آخر هو تفهم وإطلاع ومعرفة بعض الخلفاء لفن الغناء ، واهتمامهم الشديد بدراسته وتطوره ، وعلى رأسهم الواثق والمعتمد . فالأول له معرفة عميقة بالأهزاج والألحان والأصوات^(٦) ، وكان يأمر المغنين بغناء ما يخرجهم من الأصوات ويهتم بالتلعين إلى درجة المقارنة بينه وبين إسحاق ، ويشهد له المؤرخون ، فقال السيوطي « وكان الواثق أعلم الخلفاء بالغناء وله أصوات وألحان بلغت حوالى المائة »^(٧) .

أما المعتمد - كما يذكر عنه المسعودي^(٨) - فكان شغوفاً بالطرب وبفن الغناء والموسيقى ، وكان ملازماً لابن خرداذبة الكاتب المعروف في الغناء والموسيقى ، إذ

(١) الأصفهاني ، الأغاني ج ٩ ص ٢٧٦

(٢) و (٣) الأصفهاني ، الأغاني ج ٩ ص ٢١٥

(٤) الأصفهاني ، الأغاني ج ٩ ص ٢٨٦

(٥) المسعودي ، مروج الذهب ج ٤ ص ٢٦١ ، قيل كان لا ينصرف عن مجلسه مغن أو مغنية إلا ويدفع لهم بصله أو كسرة قلت أم كثرت كما كان يفعل أبو العباس .

(٦) الأصفهاني ، الأغاني ج ٩ ص ٣٣٥

(٧) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ص ١٣٦

(٨) المسعودي ، مروج الذهب ج ٢ ص ١٥٦

دخل عليه يوماً وفي مجلسه عدد من الندماء فسأله المعتد عن أنواع الطرب ، فقال على ثلاثة أوجه ؛ ضرب محرك ينعش النفس وضرب شجن وحزن ؛ وضرب يكون في صفاء النفس ولطافة الحس ... إلى آخره .

أما آلات الطرب فتتكون من الزمار ، الناي^(١) ، الرباب^(٢) ، العود^(٣) ، الطنبور^(٤) ، الرق^(٥) ، الطبل^(٦) ، العزفة^(٧) ، السكلارينيت^(٨) ، السرناي^(٩) ، الجنبك^(١٠) ، الونج^(١١) إلى آخره .

ف قيل ناي^(١٢) زناي إختارعه زنام ، وأول من ضرب في هذه الآلة في عهد المعتصم عاصي الرشيد والمعتصم والواقع والمعتز . أما العود فقد عرف عند العرب وهو من الآلات الوترية ، ووصفه الشعراء بقولهم كثيراً في شعرهم^(١٣) وضرب عليه العرب كثيراً ، ويعتبر من الآلات المرغوبة ؛ أخذ من الفرس ، واستطاع زلزل أن يحدث الضرب على العود بعيدان الشنايط ، وكانت قبلاً على عمل عيدان الفرس ، فجاءت عجيباً من المعجب^(١٤) ووصف الخوارزمي العود وصفاً دقيقاً وكيفية الضرب عليه^(١٥) .

أما الطنبور فيعتبر من الآلات الموسيقية المشهورة والمهمة عند العباسيين ، وسمى أحياناً من يدق عليه باسمه كعبدة الطنبورية ، واشتهر بالضرب عليه سليمان

(١) الشابثي ، الديارات ص ٧١

(٢) الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ص ١٣٧ ؛ التنوخي ، نشوار المحاضرة ج ١ ص ١٩٣

(٣) المسعودي ، مروج الذهب ج ٤ ص ٢٥١

(٤) ابن الجوزي ، الأذكياء ص ٧٠

(٥) الشيرازي ، المسبة ص ١٠٩

(٦) المسعودي ، مروج الذهب ج ٤ ص ١٥٨

(٧) الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ص ١٣٧

(٨) و (٩) الشابثي ، الديارات ص ٧٢

(١٠) و (١١) الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ص ١٣٧

(١٢) البجرتي ، الآداب السلطانية ص ٣٢٠

(١٣) الشابثي ، الديارات ص ١٦٨

(١٤) الأصبهاني ، الأغاني ج ٥ ص ٢٠٢

(١٥) الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ص ١٣٧ - ١٣٨

الطبال^(١) وابن القصار في مجلس^(٢) المعز، وكلاهما من القرنين في القرن الثالث الهجري . وأشهر أنواع الطنبور الميزان البغدادي الطويل^(٣) . وفي المسعودي وصف شامل للآلات الوترية كآلة المربع والمستطيل والدورة ، إلى آخره^(٤) . أما الطبل فيقول المسعودي أنه أخذ من الفرس^(٥) . والرباب وهو ما يجيء حتى يحجب صوته ولا يضرب ، عرفت عند الفرس . والقثارة واللوزا وغيرها أخذت من الهنود^(٦) . وهناك تشابه ما بين المزمار^(٧) والكلارينيت^(٨) ، وهو آلة ينفخ فيها كالزمار، وصنعها أحمد بن موسى المهندس ، وعند التصغير يرسل منها الماء فيسمع لها متكونة من عدة دفوف يسمح لها صوت كالجلجل^(٩) ، وهناك آلات كثيرة أخرى كالشهرود^(١٠) اخترعت في القرن الثالث الهجري (اخترعها حكيم بن أحوص السفدي) وآلة بوران التي سميت الآلة^(١١) باسمها وغيرها من الآلات .

(١) الشاشتي ، الديارات ص ٩٩ ؛ الأصفهاني ، الأغاني ج ٢ ص ٢٨ - ٣١

(٢) الشاشتي ، الديارات ص ١٠٧

(٣) الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ص ١٣٧

(٤) المسعودي ، مروج الذهب ج ٤ ص ٢٥١ - ٢٥٢

(٥) المسعودي ، مروج الذهب ج ٤ ص ١٥٨

(٦) ابن الجوزي ، المدهش ص ٢٣٢

(٧) الوشاء ، الموشى ص ١٩١

(٨) الشاشتي ، الديارات ص ٧٢

(٩) الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ص ١٣٧

(١٠) الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ص ١٣٧

(١١) سيد أمير علي ، ص ٣٩١

المجالس الاجتماعية في العصر العباسي

١ — المجالس الغنائية :

أقيمت بالدرجة الأولى في قصور الخلفاء وأصحاب المراتب العالية ، واشتهرت هذه في العصر العباسي ، خاصة في عهد الرشيد والمتوكل والمقتدر والواثق . واهتد مثل هذه المجالس مناسبات عديدة ، منها أنها أقيمت في أول يوم الخلافة ، إذ يدخل المثقفون على الخليفة الجديد ويغنون له أبيات شعرية تمجد الخليفة الجديد ، وقيل إن إبراهيم الموصلي أول من غنى للرشيد في اليوم الأول ؛ قال (١) :

إذا ظلم البلاد وتجلتسا منها ردت الإمام لها ضياء
بها ردت استقام الصراع فينا وغاض الفجور وانفسح الرجاء

أو أن تقام لمجرد التسلية والإيناس والاستماع للأناء والموسيقى ، خصوصاً في عهد هارون (٢) والواثق والمتوكل والمعتز ، فيكثر فيها الشراب ويشترك الندماء والجواري . وذكر أن الواثق أقام مجلسين متتاليين في يوم واحد ، وأقامها أيضاً في يومين متتاليين (٣) .

أو لإزالة الشعور بالانتقاض ، وإزالة حالة الغضب والهياج ، كما فعل المنتصر يوماً ، إذ دعى بينان بن الحرث المواد وكان مطرباً عبيداً فأحضره فغناه .

لقد طال عهدي بالإمام محمد وما كنت أخشى أن يطول به عهدي (٤)

أو قد تقام في مناسبات الأعياد ، خصوصاً الذوروز والمهرجان . أمر الرازي في

(١) الأصفهاني ، أغاني ج ٥ ص ٢٠٣

(٢) كان الرشيد يجمع الفنانين والموسيقيين دائماً للتسلية فجمع يوماً إبراهيم وزلول وبرصوما فكونوا جوقاً موسيقياً ، المنى والزامر والضارب « أغاني ج ٥ ص ٢٤١ » ؛ التوبرى ، نهاية الأرب ج ٥ ص ٢١٤ — ٢١٥ ، مجلس الرشيد الذي حضرته ألني جارية في أحسن زى .

(٣) الشاشقي ، الديارات ص ١٠٧

(٤) المسعودي ، مروج الذهب ج ٤ ص ٧٨

ليلة عيد المهرجان بإحضار الجلوساء ، وقعد في مجلس التاج على دجلة ، وأجاز في ذلك اليوم من الندماء والمقنين والمهلبين بالدنانير والدراهم والخلع وأنواع الطيب ، فلم يكن أحسن منه فرحاً^(١) .

وتقام أيضاً في أعياد المسيحيين، إذ يشترك المسلمون في تلك المناسبات - حتى الحلفاء - فالأمون جلس في يوم الشعائين، وبين يديه عشرون وصيفة راميات، تخرجن بالدياج الرومي وعلفن في أعناقهم صلبان الذهب، وفي أيديهن الحوص والزيتون، وغنى إبراهيم

طباء كالدنانير ملاح في المقاصير
 جلاهن الشـ _____ ائني علينا في الزناير

ورقصت الجوارى أنواع الرقص والمأمون في حالة سكر ، ثم أعطى المغنى ألف دينار ووزع على الجوارى ثلاثة آلاف دينار (٢) .

وتقام في مناسبة ختان الأولاد ، واشتهرت حفلة ختان عبد الله المعتز ابن المتوكل ، حضر المجلس أربعمائة بليه ، أى راقصة، عليهن أنواع الثياب، وحملن في أيديهن أنواع الزهور والرياحين والزرجس والفواكه ، ونثرت على الرؤوس ، وحضر المجلس الغنون والموسيقيون أمثال عمرو بن بانة وابن الهكبي وسليمان الطبال وصالح الدقاق ، وغيرهم كثيرون (٣) .

هذا ، وقد تجرئ فيها مناظرات ومناقشات تدور حول صنعة الغناء والموسيقى وتاريخهما وتطورهما ، وكذلك عن الرقص والتحكيم بين الغنيين والموسيقين⁽⁴⁾ .

وأحياناً تقام حفلات موسيقية فقط خاصة تسمى (بزيات الخاتون) يشترك فيها مائة عازف^(٥).

أما طريقة الجلوس بالنسبة إلى الخلفاء العباسيين فمنهم من لم يظهر أمام الندماء

(١) المسعودي ، مروج الذهب ج ٤ ص ٢٦٢

(٢) الأصفهاني ، الأغاني ج ١٩ ص ١٣٨

(٣) الشاشتي ، الدياوات ص ٩٩

(٤) المسعودي ، مروج الذهب - ج ٤ ص ١٥٧

(٥) سيد أمير علي ، الحضارة ص ٣٨٧

والغنين ويستمتع إليهم من خلف الستارة^(١) ، كما فعل أبو جعفر للنصور . ومنهم من اختفى^(٢) ، ثم ظهر ، كالمهدي والمهادي والرشيد . أما للأمون فقد امتنع عن إقامة مجالس غنائية لمدة سنتين ثم ظهر أمام الغنين^(٣) . ومنهم من اهتم بها اهتماماً كبيراً إلى درجة انشغاله بها ليالى متتالية لحبه للطرب ، كالوائقي^(٤) والرشيدي^(٥) وغيرهم .

أما الجلوس في المجلس فيكون بدرجات ، فالمتقدمة فيها للعلماء وأهل الأدب والرواة ، ثم تأتي طبقة الندماء ثم للغنين . وقد طلب إسحاق يوماً من الأمون الجلوس مع أهل العلم والأدب بدون غناء ، وإذا غنى يتقدم ويجلس مع الغنين ثم يرجع مرة أخرى . وحق للغنين فقد رتبهم الرشيد بمراتب وصنوف مختلفة ، تبعاً لمقدرتهم الغنائية والموسيقية^(٦) . وأما المجالس التي تمحضر فيها المغنيات ، فتفصل بينهن وبين الخليفة أو الرجال ستارة ، ويقف شخص يشرف على إدارة حفلة الغناء يسمى بصاحب الستارة^(٧) عليه أن ينفذ ما يطلبه الخليفة من المغنيات . قيل أحضرت شارية في مجلس المعتز^(٨) لتغني ، وجلست خلف الستارة ، وأخذت تناقش الرجال في الغناء^(٩) . وقد وصف المؤرخون الستارة بأنها مطرزة بالذهب^(١٠) ومن خلفها الجارية تغني .

والظاهر أن هناك بعض الجلسات ، جلس الخلفاء فيها مع الغنيات بدون ستارة . ذكر أن للأمون جلس يوماً وعن يساره تسعة مغنيات وعن يمينه تسعة مغنيات أيضاً ؛ وطلب منهن أن يغنين ، وطلب من إسحاق وإبراهيم أن يحكما بينهن^(١١) وأكثر من ذلك أن المعتز كان يجلس مع الجوارى خلف الستارة التي تفصله عن الغنين

(١) الجاحظ : التاج ، ص ٣٣

(٢) الجاحظ : التاج ، ص ٣٣ ؛ ابن طيفور ، بغداد ص ١٧٩

(٣) الجاحظ : التاج ص ٣٣

(٤) الشاشتي ، الديارات ص ١٥٧

(٥) أغاني ، ج ٥ ص ١٦٦ لإخراج إبراهيم من السجن لإحياء حفلة غنائية لهبط .

(٦) الجاحظ ، التاج ص ٤١

(٧) الجاحظ : التاج ، ص ٣٣

(٨) الشاشتي ، الديارات ص ٧٩

(٩) الشاشتي ، الديارات ص ٧١

(١٠) البيهقي ، المحاسن والأضداد ص ٤٠١

(١١) ابن طيفور ، تاريخ بغداد ص ١٠٥

والموسيقين ، فإذا أراد شيئاً أرسل شخصاً يطلب منهم الغناء . وبين يدي كل منى كأس فيه خمسة أرطال من النبيذ وقدح ومضلل وكوز ماء . وقد تغنى الجوارى أيضاً (١) .

وكما كانت المجالس الغنائية تعقد في قصور الخلفاء ، كانت تعقد أيضاً في بيوت الأمراء والوزراء . وقد لاقتل أبهة وروعة وبذخاً وإسرافاً عن سابقتها ، وبحضرها حتى القضاة الذين قد يطرحون الحشمة ليلائم يرجعون إلى وقارهم . ومن بينهم أشهر القضاة كابن مترجة وابن معروف والقاضى التنوخى المعروف . قيل ، حضروا في مجلس الوزير المهلبى القناتى واتعمسوا بالطرب ونسوا الوقار إلى درجة وضع كل منهم لحيته في شراب من قطر بل أو مكبراً بكأس من الذهب من ألف مثقال ، ثم يشرب أكثره ويرش بعضهم على بعض ، ويرقصون وعليهم المضيفات إلى آخره ، وقال الشاعر في ذلك .

مجالس ترقص القضاة بها إذا انتشوا حلوة في مخانق الدم
وصاحب يخلط المحجون لنا بشيمة حلوة من الشيم
تخضب بالراح شبيهه عيشاً أمل مثل حمرة العلم
حتى تحال العيون شيبته شية فصلان ضرجت بدم (٢)

وعرف أبو الحسن على بن محمد بن الفرات بأبهة الحفلات الغنائية التي كانت تقام في داره ، ففي إحدى الحفلات أحضر المغنيات خلف الستارة ، ومن بينهم الجارية بدعة فغنت وضربت على العود ، فاستحسن أبو الحسن ما أنت به .

فطرب وقال شعراً :

إذا بدعة جردت عودها فذلك في ضربها كل شعب (٣)
تغنى — فتغنى ثمار القلوب وتهدى سروراً إلى كل قلبي

(١) الأصفهاني ، الأغاني ج ٥ ص ٢٢٢

(٢) الثعالبى ، يتيمة الدهر ج ٣ ص ٣٣٧

(٣) الصابى ، الوزراء ص ٢١٤ — ٢١٥

٢ — مجالس القصاص :

مجالس القصاص نوعان : عامة وخاصة ، فالعامة يجتمع فيها نفر من الناس للقصاص ويعظمهم ويذكرهم . وأما الخاصة فقد أوجدها معاوية ، يقف القاص بعد صلاة الصبح ويذكر الله ويدعو للخليفة^(١) . وهذه المجالس تمقد على شكل حلقات^(٢) في المساجد^(٣) ، ثم أخذت تمقد في الطرقات^(٤) والأسواق^(٥) والمقابر^(٦) . فالإسلام لم يمنع القصاص من القيام بمهمتهم بل شجعهم وذكرهم^(٧) بالحسنى في القرآن ، قال تعالى « نحن نقص عليك أحسن القصص »^(٨) ، وقال « فأقص القصص لهم يتذكروا »^(٩) وغيرها من الآيات ، كما أن الرسول الأعظم (ص) ذكرهم وامتدحهم^(١٠) . وهذه الآيات دلت على أن القصاص لم تكن وليدة الإسلام ، بل كانت قبل ذلك عند العرب ، ولكنها أصبحت عند ظهور الإسلام في القرن الأول الهجري عبارة عن قصص دينية^(١١) تهدف إلى معرفة الخالق والتسلك بالأخلاق إلى غير ذلك من الحسنات . واختلف المسلمون في تعيين زمن ظهور مجالس القصاص ، فمنهم من قال في عهد عمر بن الخطاب ، والمقرئ قال^(١٢) في عهد معاوية ؛ وربما كانت في عهد عثمان . ولكن معاوية أحدث القصص الخاصة ومنع القصص العامة وسمح برواية القصص الخاصة ؛ وفيها مجالس القاص بعد صلاة الصبح يدعو للخليفة ولأهل

(١) آدم متر ، الحضارة ج ٢ ص ١٠٣

(٢) آدم متر ، الحضارة ج ٢ ص ١١٤

(٣) الخطيب ، تاريخ بغداد ج ٣ ص ١٢٣

(٤) الخطيب ، تاريخ بغداد ج ٣ ص ١٢٢ ؛ الثعالبي ، يتيمة الدهر ج ٣ ص ٣٦٨

(٥) الثعالبي ، يتيمة الدهر ج ٣ ص ٣٦٦

(٦) ابن الجوزي ، تلبيس إبليس ص ١٢٢

(٧) ابن الجوزي ، تلبيس إبليس ص ١٢٠

(٨) القرآن الكريم ، سورة يوسف آية ٣

(٩) القرآن الكريم ، سورة الأعراف آية ١٧٦

(١٠) آدم متر ، الحضارة ج ٢ ص ١٤١

(١١) الجاحظ ، البيان والتبيين ج ١ ص ٣٦٧ — ٣٦٨

(١٢) الخطيب ، تاريخ بغداد ج ٢ ص ٢٥٣

(١٣) الخطيب ، تاريخ بغداد ج ٢ ص ١٠١

ولايته ولحاشيته إلى آخره^(١) ، بعد الدعاء للنبي (ص) . فالقاص مهنته إلقاء الآيات والأحاديث وأخبار السلف^(٢) والحكايات^(٣) على الناس . والظاهر أنه في القرن الأول الهجري - حتى منتصف الثاني - لا يمكن التمييز بوضوح بين الواعظ والقاص ، فأطلق على القصاص إسم الوعاظ المتطوعين^(٤) لأن كلا المهنتين كانت تخدم المجتمع خلقياً ودينياً ، لذا لم يتعرض أحد للقصاص خصوصاً العلماء الذين رضوا عنهم لأنهم كانوا يثبون روح الزهد بين العامة . ومنهم إبراهيم التيمي^(٥) القصاص ، كان قاضياً كقاض مكة الذي كان يروى عن الصحابة مثل ابن هريرة ، ومنهم الخطباء الثقفون كأبي بكر الهندي ومعطوف^(٦) ومنهم البلغاء العظماء من قراء القرآن القائم بالتدريس ، ومنهم العلماء العارفون للغات أجنبية بجانب العربية كابن سيار الأسراري^(٧) . حتى أنه كان يترجم من اللغة العربية العظمى إلى الفارسية العظمى وبالعكس بطلاقة ، أثناء وعظه ، وهكذا كان غيرهم . ولكن لم تستمر هذه الحالة ، إذ جاء بعد هؤلاء العلماء طبقة من القصاصين قليلي المعرفة حتى عن الأنبياء والمرسلين^(٨) غايتهم الكسب والتسلية واللمب بقول العامة^(٩) ، وقد ظهوروا في القرن الثالث حيث أخذت الروح الدينية^(١٠) والأخلاقية تختفي من مجالسهم تدريجياً ، حتى جاء القرن الرابع ، وإذا بالقصاص ينزلون إلى غمار العامة ، وصاروا يقصصون لهم القصص الدينية الخرافية والأساطير والنوادر في المساجد والطرقات ، وكان يجتمع إليهم رجال ونساء فيرفعون أصواتهم بالدعاء ويمدون أيديهم لأخذ الأموال^(١١) .

هذا الانحراف يرجع إلى تدهور شخصية القاص من جميع الوجوه ، وإلى مستوى

(١) الخطيب ، تاريخ بغداد ج ٢ ص ١٠١

(٢) السبكي ، معيد النعم ص ١١٣

(٣) المسعودي ، مروج الذهب ج ٨ ص ١٦١

(٤) آدم متز ، الحضارة ج ٢ ص ١٠٣

(٥) ابن الجوزي ، صفة الصفرة ج ٢ ص ٩ - ٥٠

(٦ و ٧) الجاحظ ، البيان ج ١ ص ٣٦٧

(٨) الثعالي ، بتيبة الدهر ج ٣ ص ٥٢

(٩) ابن الجوزي ، تلبس ص ١٢١ .

(١٠) الجاحظ ، البيان ج ١ ص ٣٦٧ .

(١١) الكلي ، قوت القلوب ج ١ ص ١٤٩ .

عقلية العامة . فالقصص الكذابون انتشروا في العراق في القرن الثاني الهجري ، ومنه انتقلوا إلى آسيا الصغرى والحجاز^(١) وهؤلاء استغلوا جهل العامة من جهة ومحبتهم لهم من جهة ثانية ، إذ قيل أن العامة كانت تدافع عن القاص حتى لو كان غير لائق بهذا المنصب . حكى أن عثمان الوران قال : رأيت العتابي يأكل خبزاً على الطريق يباب الشام فقلت له : ويحك أما تستحي ؟ فقال لي : أرأيت لو كنا في دار فيها بقر كنت تستحي وتحتشم أن تأكل وهي تراك ؟ فقال : لا . قلت : فاصبر حتى أعلمك بأنهم بقر . فقام ، فوعظ وقص ودعا حتى كثر الزحام عليه ، ثم قال لهم : روي لنا غير واحد أن من بلغ لسانه أرنبة أفته لن يدخل النار . فباقي واحد إلا وأخرج لسانه يومئذ به نحو أرنبة أفته ويقدره حتى يبلغها أم لا . فلما تفرقوا ، قال لي العتابي : ألم أخبرك أنهم بقر^(٢) ؟

وهناك قصص كثيرة وحوادث تدل على دفاع ومحبة العامة للقصص ورغبتهم في الحضور لمجالسهم أينما عقدت .

هذا ، ومن القصص من اتصف بفساد الأخلاق كأبي كعب القاص^(٣) وأبي سالم الذي قلع باب للمسجد يوماً لأن باب داره سرقها اللصوص ، وعندما قالوا له : ماتنع ؟ قال : أطلع هذا الباب فإن صاحبه يعلم من قلع بابي^(٤) ومنهم من يذكر بدءاً^(٥) وأخباراً كاذبة لا علاقة لها بالدين ، ومنهم من ينوح على الموتى ويصف ما يجري لهم من البلاء والغربة إلى آخره ، أو قد ينشد أشعاراً غزلية ويقول حبة الله ، أو قد يحرك يديه ويصفق بها ويحرك رجليه ويضرب بها الأرض إلى آخره من حركات الجسم التي يريد بها أن يجذب إليه أنظار العامة ومن ضمنهم النساء ، كما يقول ابن الجوزي^(٦) . أو قد يفسر بعض الكلمات تفسيراً غير صحيح لقلّة معرفته باللغة العربية أو لكونه عجيباً . قيل سؤال أحد القصص عمن تسميه العصفور ، فأجاب : لأنه عصي وفر !

(١) آدم مّر : الحضارة ج ١ ص ١٢٨

(٢) الأصفهاني : الأغاني ج ١٣ ص ١١٤

(٣) الملاحظ : الحيوان ج ٣ ص ٢٤ — ٢٥

(٤) ابن الجوزي : المحقق والمفتلين ص ١٢٥

(٥) الفزالي : إحياء العلوم ج ٢ ص ٣٣١

(٦) تاليس لمبليس ص ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢

وقيل له : فالطفشيل ، قال : لأنه طفا وشال^(١) ! وحكى عن مدى جهالة العامة والقص أيضاً أن أحدهم وقف يوماً وهو يقول : إذا مات العبد وهو سكران وحشر وهو سكران ، فقال رجل في طرف الحلقة لآخر : هذا والله نبذ جيد يساوى الكوز منه عشرين درهماً^(٢).

هذا ، وقد اقتبست القصص الإسلامية من القصص الهندية كسكيلة ودمنة^(٣) طريقة التحدث عن أسنة الطيور والحيوانات ، ومن القصص الفارسية كألف ليلة^(٤) وليلة الحوادث الخيالية البعيدة عن الدين ، فألف سهل بن هارون^(٥) وعلى العتابي على لسان الحيوانات ، وقام الجهشينارى أيضاً بكتابة ألف سحر وسحر^(٦) ، ولكنه توفي ولم ينته الكتاب ؛ بالإضافة إلى دخول العقائد وآراء الأديان القديمة^(٧) إلى مجلس القصص . ولعب الوراقون أيضاً دوراً كبيراً في دفع القصص إلى الانحراف ، فأخذوا يصنفون ويؤلفون القصص الخيالية ، كما فعل ابن المطار وابن دنان^(٨) ، واستمرت القصة ومجالس القصص في التدهور في القرن الرابع وحتى القرن الخامس ، حيث شاع انتشار الحكايات والأسمار وكثر عدد المستمعين لمجالسهم من الرجال والنساء على السواء^(٩).

وقد اتخذوا بالإضافة إلى ما ذكرناه طرقاً أخرى لكسب المال ، فنجد أحد القصص يقف بطرف الطريق يقص عن فضائل على ، وآخر يقف في الطرف الثاني يقص عن

(١) الحموى ، معجم البلدان ج ١ ص ٣٩٣

(٢) ابن الجوزى ، أخبار الطراف ص ٩٠

(٣) ابن النديم ، الفهرست ص ٤٣٧

(٤) السعوى ، مروج الذهب ج ١ ص ٤٣٧

(٥) ابن النديم ، الفهرست ص ٤٣٧

(٦) ابن النديم ، الفهرست ص ٤٣٧

(٧) ابن النديم ، الفهرست ص ٤٥٦

(٨) ابن النديم ، الفهرست ص ٤٣٧

(٩) القفطى ، تاريخ الحكماء ص ٣٣١

(١٠) ابن الجوزى ، تلبس ١٢٢

فضائل أبي بكر؛ والناس تدفع لهم النقود^(١) كل حسب ميوله، فلا يفوتهما درهم. أوقد يتفقون مع أحد الأشخاص أن يجلس مجلسهم ويسمى بالسكوز، فيأمر القاص أصحابه بأعطائه النقود، ثم إذا تفرقوا تقاموا ما أعطوه^(٢). هذا ومن جراء ما وصلت إليه مجالس القصاص وقف في وجههم الخلفاء، وأصحاب السلطة من جهة، والعلماء من جهة أخرى. فمن جراء إثارتهم للفتن، وكسبهم الأموال بدون استحقاق منهم بعض الخلفاء من الجلوس في المجلس وإلقاء القصة للناس. وقد حدث هذا في سنة ٢٤٨^(٣)، إذا أمر المعتضد بمنع القصاص من الجلوس في المساجد والطرقات، بعد حصول الفتنة بين السنة والشيعة. وفي سنة ٣٦٧^(٤) أيضاً منع عضد الدولة القصاصين من الظهور وأعتبرهم آفة المجتمع الذي تمرض للعروب الأهلية المذهبية وإلى الجوع والمرض والمهلك. وكذلك في سنة ٤٠٨^(٥) أمر القادر بضرب القصاص واندفع في محاربة المذهب الشيعي من جراء موقف القصاص. وفي كتب التاريخ حوادث كثيرة من هذا القبيل خلال العصور العباسية المتأخرة على الأخص.

أما العلماء، فقد وقفوا لهم بالمرصاد وحاربوهم بقدر ما يملكون، ولو أن القصاص كانوا هم المسيطرون على المجتمع في القرون الثالث والرابع والخامس. فمن هؤلاء السعدي الذي وصفهم بالكذابين^(٦)، ووصفهم الحمداني بالشعوذين، وغيرهم كالبيروني والقدسي والسيوطي وابن الجوزي، وغيرهم.

أما من علماء الدين فهؤلاء كانت لهم الأفضلية والأسبقية في الوقوف في وجه القصاص، فيذكر أن مالك بن أنس منعهم من دخول مسجد المدينة^(٧). وأحمد بن حنبل بعد أن كان يعبدهم بقوله «ما أحوج الناس إلى قاص»^(٨)، انقلب عليهم لانحطاط

(١) الثعالب، بقيمة الدرهم ج ٣ ص ٣٦٦

(٢) الثعالب، بقيمة الدرهم ج ٣ ص ٣٦٢

(٣) الطبري، تاريخ الأمم والملوك ج ٨ ص ١٨٢

(٤) ابن الجوزي، المنتظم ج ٣ ص ٨٨

(٥) المذهب، العبر ص ٦٥ — ٦٦

(٦) مروج الذهب ج ٥ ص ٨٦ الطبعة الأوربية

(٧) آدم متر، الحضارة ج ٢ ص ١٤١

(٨) ابن الجوزي، تلبس ص ١٢٢

مستواهم الأدبي والخلق والاجتماعي». وكذلك المحدث المشهور الدارقطني، وغيرهم من علماء الدين.

وبالرغم من تقرب وحببة العامة لهم، إلا أن هناك جماعات لم تعمل المستوى المنخفض للتقصص. حتى أن رجلاً جاء إلى قاص وهو يقر ألا يجرحه ولا يسيغه^(١) فقال له: اللهم اجعلنا ممن يتجرعه ويستسيغه. وكان الناس أيضاً يكفرونهم وينسبونهم إلى الخوارج^(٢).

٣ — مجالس الوعظ :

كانت لمجالس الوعظ أهمية كبيرة في المصور الإسلامية الأولى (القرنين الأول والثاني) حيث يقوم الواعظ مقام للدرس، ويحضر حلقة في مجلسه عامة الناس بدون تمييز، يأخذ على عاتقه تثقيف الناس ثقافة دينية، يشرح لهم المفرائع، ويحجب على جميع الأسئلة؛ وأطلق على بعضهم عندئذ الأساطين^(٣) لأنهم يفتنون الناس في أساطين المسجد. وهناك دوافع لاستمرار مجالس الوعظ وهي شعور الناس بالروح الدينية التي لازالت عميقة في نفوسهم وكون الواعظ نفسه فقيهاً عالماً^(٤) زاهداً ولاستمراره على التمسك بغاية الأساسية في الوعظ، ألا وهي بث روح الإسلام وإرشاد العامة إلى الطريق الديني السليم^(٥).

وهناك نوع ثان من مجالس الوعظ وهو مجالس الوعظ الخاصة وهي على قسمين وعظ عصى، وهذا قد يتم بين الفرد والواعظ كما فعل كثير من الخلفاء^(٦) إذ يسألون الواعظ أن يعظهم. ووعظ يتم بين الواعظ ونفر من الطلاب ويسمون بأهل الزوايا^(٧) لأنهم يتخذون مكاناً منزوياً في المسجد، أي في إحدى زواياه. وهذه

(١) ابن الجوزي، الحقي والمفطين ص ١٢٥

(٢) آدم مزر، الحضارة ج ٢ ص ١٠١

(٣) المسكي : قوت القلوب ج ٢ ص ١١

(٤) ابن الجوزي، تلبس ص ١٠٢

(٥) البيهقي : المحاسن والمساوي ج ٣٣٨ و ٣٤٤

(٦) الماحظ : المحاسن والأصدا ص ١١٣

(٧) المسكي : قوت القلوب ج ٢ ص ١١

الحلقات علمية غايتها تعليم الطلبة أمور الشرع (١) . ولكن هذه المجالس إنحرفت بتطور المجتمع العباسي ، خصوصاً في القرنين الثالث والرابع ، إذ تعرض لمجالسهم الجهال من العوام والنساء كما يقول ابن الجوزي (٢) فتركوا العلم واهتموا بالكسب للمادى ، فتنوعت عندهم البدع والحرافات ، فثمهم ينزل في وعظه إلى مستوى (٣) واطيء من حيث المعرفة واللغة ، وقد يكون أعجيباً تنقصه البلاغة . حكى أن الأمين العلوي حضر مجلس واعظ أعجمي ، فمدحه الواعظ ثم قال : أى شيء أقول فيك وأنت من بيت الطهارة ثم قال : الدعاء في الخلوة ربما دخله نفاق ، وأنا أدعوك في الخلوة . قال : فقال لى الأمير ما يرصا من بيت للماء (٤) .

هذا ، ومنهم من خلع ثياب الزهد البسيطة والمرقعة ولبس الثياب الفاخرة الثينة فيفتتن الناس به ويكون له جماعة ، كمحمد بن أحمد الواعظ الشيرازي (٥) . وكذلك بن مسمون الواعظ (٦) المعروف الذى عرف بلبسه أحسن الثياب وبأكله لأطيب الطعام (٧) . ومنهم من أخذ بالوعظ خارج المساجد في مقابر رجال الدين - كمقبرة أحمد بن حنبل- يعقد فيها مجالس للوعظ، ومقبرة الشيخ معروف (٨) ومنهم من يعقد مجلسه في الأماكن الشعبية كمحلة (كباب البصرة والحربية) وغيرها من الأماكن الكثيرة (٩) .

والفروض في الواعظ أن يكون عنصراً صالحاً للمجتمع ، فلا يثير الفتن والإضطرابات ولا يستغل كآلة بيد أصحاب السلطة ، كما حصل في القرنين الثالث والرابع ، إذ أصبحوا كالفصاح عاملاً مشيراً للفتن المذهبية بين السنة (١٠) والشيعة وبين

-
- (١) آدم متر : الحضارة ج ٢ ص ١٠٦
 - (٢) ابن الجوزي : تلبس ص ١٢٠ — ١٢١
 - (٣) الغزالي : إحياء العلوم ج ٢ ص ٣٣١
 - (٤) ابن الجوزي : الحقى والمفتلين ص ١٢٦
 - (٥) ابن الجوزي : المنتظم > ٨ صفحة ١٣٤
 - (٦) ابن الجوزي : المنتظم ، > ٧ صفحة ١٩٨
 - (٧) آدم متر ، الحضارة ، > ٢ صفحة ١١٢
 - (٨) ابن الجوزي ، المنتظم : > ٩ صفحة ٨٩
 - (٩) ابن الجوزي ، المنتظم ، > ١٠ صفحة ٣٠
 - (١٠) أبو الفدا ، > ٢ صفحة ٨٢

مذاهب السنة كالحنبلية ، والشافعية ، إذ استغلت الوعاظ هذه المذاهب في النهج على المذاهب (١) الأخرى . فمن الحوادث المهمة سنة ٣١٨ (٢) حدوث الفتنة الكبرى بين الحنابلة والعامية حول تفسير قوله تعالى : « عسى أن يمشك ربك مقاماً محموداً » فقالت الحنابلة معناها يقعده الله على عرشه وقال غيرهم بل هي للشفاعة . وكذلك حادثة الاسفرايينى (٣) والأكتانى اللذين كادا أن يقتلا . وكذلك في حوادث سنة ٦٩٩ (٤) و ٣٥٢ (٥) ، وغيرها ...

ومن الحكم من يقف بجانب أحد المذاهب ؛ فيطلب من واعظ المذهب أن ينشر ويعلن عن طريق وعظه مايكفيه الحاكم ، فيكون الواعظ خير عامل للدعاية بيد السلطة . وحوادث سنة ٤٠٨ (٦) خير دليل على ذلك ، إذ طلب الخليفة القادر بالله ضرب الشيعة ومنع القصاص ، فاستعمل الوعاظ في ذلك . وتكرر هذا عند حدوث الفتنة بينهما والراضى (٧) في موقفه ضد الحنابلة ومعاقبة لهم عن طريق الوعاظ . وحادثة سنة ٣٥٤ في عهد بنى بويه عندما طلبوا من الوعاظ الاحتفال بيوم عاشوراء ولعن معاوية (٨) وفي إقامة الاحتفال بعيد العذير (٩) سنة ٣٨٩ ، وأقام السنة العيد بيوم فار حراء وغيرها من الحوادث . .

هذا ، ومن الوعاظ من له القابلية والمقدرة على مسaire السلطة (الخليفة) بمقدرته على الوعظ البليغ ، كما عرف ابن سمعون الواعظ المشهور الذى استطاع أن يجعل الخليفة الطائع في حالة بكاء عندما أرسل عليه ليؤنبه لتعرضه على الأمام على ، ف شعر ابن سمعون بذلك وانقلب في وعظه يمدح علياً وما زال يعظ حتى أبكى الطائع (١٠) . وهكذا استطاع أن يتخلص من عقوبة عضد الدولة عندما استمر في

(١) أبو الفدا ، ج ٢ صفحة ٧٤ . السبوطى تاريخ الخلفاء صفحة ١٥٤

(٢) الذهبى ، العبر ، ج ٣ صفحة ٦٥

(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج ٧ صفحة ٨٨

(٤، ٥) الذهبى العبر ، ج ٣ صفحة ٩٨

(٦) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ صفحة ٢٤٨

(٧، ٨) الثعالبى ، ثمار القلوب صفحة ١١١

(٩) القرئزى ، الخطط ج ٢ صفحة ٢٢٢

(١٠) ابن الجوزى : المنتظم ج ٧ صفحة ١٩٩

التحدث والجلوس في المسجد ، ولم يأمر لامر النع للقصاص من المساجد^(١) .

ومن الوعاظ من ابتدأ بقراءة شعر في مجلسه بدل الآيات .. حكى في أبي زكريا يحيى بن معاذ الرازي^(٢) الواعظ المشهور أنه ابتدأ بشعر عندما صعد على المنبر وقال :

مواظ الواعظ لن تقبلا	حق يعيها قلبه أولا
يا قوم من أظلم على واعظ	خالف ما قد قاله في الملا
أظهر بين الناس إحسانه	وبارز الرحمن لما خلا ^(٣)

هذا ، وفي عهد إنحراف الوعاظ إزداد عدد النساء^(٤) في المساجد . ومن الوعاظ من لم يضع حائلا^(٥) بينهم وبين الرجال . ويؤكد الغزالي على منعهم من الحضور إذا أدى ذلك إلى الفتنة^(٦) ومن الوعاظ من يترين للنساء ، ويشكك مستعملا حركات وإشارات كثيرة مع كثرة الإشعار ، فتحضر النساء مجلس هذا الواعظ ، ويؤدي إلى إنحرافها ، فعلى الواعظ أن يظهر بمظهر الورع والهيبة والسكينة والوقار ، وزيه زى الصالحين^(٧) .

ومن الوعاظ من يعتقد أن في التخويف والتعنيف والشدة في القول عبرة للمستمع ، قيل إن أحد الوعاظ حضر للمأمون لوعظه فأستعمل العنف في القول ، فقال له المأمون : يا رجل أرفق فقد بث الله من هو خير منك إلى من هو شر مني ، وأمره بالرفق متمثلا بقوله تعالى (فقولوا له هولا لينا لعله يتذكر أو يخشى)^(٨) .

ومن الوعاظ من يستغل مجلسه فيثير الفتنة بالتشجيع على واعظ آخر منافس له ، لذلك كانت السلطة تراقبهم ، وتناقش من يسوء منهم التصرف ، وقد تمنعه من الوعظ أو تطرده خارج البلاد ، أو قد تصدر مرسوماً يوقع عليه القضاة الفقهاء بعد توقيع

(١) ابن الجوزي : المنتظم ، ج ٧ صفحة ٢٠٠

(٢) ابن الجوزي : المنتظم ، صفحة الصفوة ، ج ٤ صفحة ٧١

(٣) متر المضارة ، ج ٢ صفحة ١١٥

(٤) ابن الجوزي ، تلبس ، صفحة ١٢٠

(٥) الغزالي ، لإحياء ، ج ٢ صفحة ٣٣١ . ابن الجوزي ، تلبس ، صفحة ١٢١

(٦) الغزالي ، لإحياء ، ج ٢ صفحة ٣٣١

(٨) الغزالي ، لإحياء ، ج ٢ صفحة ٣٢٩

الخليفة ، ويوزع على الوعاظ لتلاوته في حلقاتهم ، وذلك عندما تحدث منازعات مذهبية فتندشط بعض العناصر لبث آرائها بين الناس . هذا ولا ننسى دور العامة في إستمعار الوعاظ في إنحرافهم ، حيث يتحمسون ويقفون إلى جانبهم ، ويدافعون عنهم لأنهم يغذون خيال العامة ويشاطرون المكدين والشعراء في ذلك ، حتى قيل أصبحت صناعة الوعاظ (أعلى مرتبه من ساسان)^(١) .

(١) متر : الحضارة ، ج ٢ صفحة ١١١ .

آل محمد

بيت الرئاسة في عشائر شمر الجربا

دراسة في الزعامة العشائرية العراقية في القرن التاسع عشر

دكتور هبب الهزبر سليمان نوار

قد يتبادر إلى الذهن أن دراسة تاريخية امشيرة عربية بدوية لن تخرج عن تسجيل منازعاتها مع الحكومة ومع العشائر الأخرى . ولكن هناك بعض العشائر العربية ذات تاريخ حافل يتضمن المجالات المحلية والدولية على السواء ، وعشائر شمر الجربا^(١) العراقية من هذه العشائر التي يكشف لنا تاريخها عن تفاصيل دقيقة لما كان يجري داخل العشيرة نفسها ، وعمما كان يحدث بينها وبين العشائر الأخرى من صراع وتحالف ، ويكشف لنا تاريخها أيضاً عن تجربة خطيرة وهي هجرتها من شبه الجزيرة العربية إلى العراق وما تبع ذلك من جهود مضنية لتثبيت أقدامها في مواقعها الجديدة . كذلك يكشف لنا تاريخ عشائر شمر الجربا عن نوع من العلاقات الدولية في منطقة المشرق العربي . فلقد اصطدمت هذه العشائر بعنف بحركة الموحدين (الحركة الوهابية) في أواخر القرن الثامن عشر ، وكأخت الغزو الإيراني للعراق في العشرينات من القرن التاسع عشر ، كما تعاونت مع القيادة المصرية في الشام (١٨٣١ - ١٨٣٤) . وإلى جانب هذا وذاك كانت السلطات الإنجليزية المسؤولة عن مصالح إنجلترا في العراق تولى عشائر شمر الجربا عناية خاصة لأنها كانت تسيطر على جزء هام من خطوط المواصلات العالمية التي كانت تربط بين الشرق والغرب عبر العراق .

وخلال دراستنا لهذه العشائر سنلقي نظرات على الظروف التي أدت إلى هجرة عشائر الجربا من شبه الجزيرة العربية إلى العراق ثم سنركز بعض الأنواء على

(١) سميت شمر لأن رجالها كانوا يشمرون عن ساعد الجد خلال الأزمات ، أما الجربا فلقب لقسم من هذه العشيرة التي تضاربت بشأنه الروايات .

الشخصيات الهامة من « آل محمد » وهو البيت الحاكم في تلك العشرات لما كان لها من آثار واضحة في توجيه أمور العراق خلال القرن التاسع عشر .

كان العراق قبل الفتح الإسلامي مهجراً لبعض القبائل العربية ، وقد تغفلت بعضها داخل العراق بينما أقام البعض الآخر على تخومه ، حتى إذا ما فتح المسلمون العراق تحولت معظم تلك العشرات إلى الإسلام وتوالت بعد ذلك الهجرات العربية حتى أصبح العراق على جانب كبير من التكامل من حيث العروبة والإسلام . ومنذ ذلك الوقت أصبحت العشرات العربية تغطي مساحات واسعة في العراق . ولقد كان للعشرات العربية فضل كبير في أن يحتفظ العراق بطابعه العربي حتى الآن . فالعراق أن العراق كان أكثر البلاد العربية تعرضاً لموجات متتالية من الغزوات والهجرات غير العربية التي كادت أن تغير من ملامحه العربية ، لولا أن توافدت مجموعات من العشرات العربية على العراق بصورة تكاد تكون مستمرة . ولكن نلاحظ — من ناحية أخرى — أن العرب بعد سقوط الدولة الأموية فقدوا الكثير من صفات الزعامة والتفوق خاصة في النصف الثاني من العهد العباسي . فلقد احتكر الفرس والترك الحكم والإدارة خلال ذلك العهد ثم سقط العراق في قبضة المغول في ١٢٥٨م الذين قضوا على الخلافة العباسية هناك .

ولفترة طويلة عاش العراق تحت حكم المغول الإيلخانيين ثم (القره قوينلو والآق قوينلو ومن بعدهم استولى الفرس الصفويون على العراق في ١٥٠٨ وظل في قبضتهم حتى انتزعه منهم الأتراك العثمانيون في ١٥٣٤ ثم استولى عليه الفرس مرة أخرى في ١٦٢١م ولم يسترده الأتراك العثمانيون إلا في ١٦٣٨م ومنذ ذلك التاريخ ظل العراق في إطار الدولة العثمانية تارة تحت الحكم المباشر (١٦٣٨ — ١٧٤٩) ومن (١٨٣١ — ١٩١٤) ، وتارة أخرى تحت حكم عصابات حاكمة من أشهرها ممالك بغداد (١٧٤٩ — ١٨٣١) وآل عبد الجليل في الموصل^(١) وآل آقر أسياب في البصرة^(٢) والأسرات الكردية العديدة^(٣) التي قويت شوكتها خلال القرن

(١) حكمت هذه الأسرة في الموصل من أوائل القرن الثامن عشر حتى حوالى ١٨٣٤م .

(٢) حكمت هذه الأسرة البصرة من ١٥٩٥ إلى ١٦٦٢ .

(٣) من أهمها الأسرة البابانية في السليمانية والصورانية في راوندوز .

السابع عشر . ولكن استطاعت الحكومة أن تصفيها خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر^(١) ولعل تقسيم العثمانيين للعراق إلى أربع ولايات كبرى : بغداد — البصرة — الموصل وشهر زور (كردستان) كان من العوامل الرئيسية التي قوت من جانب هذه العصيات المحلية ، ولكنها مع هذا كانت لا تفكر في الانفصال الكامل عن دولة الخلافة العثمانية رغم المعارك الدموية التي كانت تقع بين تلك الإمارات من جهة وجيوش السلطان من جهة أخرى .

ونظرة سريعة على تاريخ العراق تؤكد لنا أن العراق عاش معظم الفترة الواقعة بين سقوط الخلافة العباسية والاحتلال الإنجليزي له خلال الحرب العالمية الأولى تحت حكومات غير عربية حجت عن العرب المناصب القيادية الكبرى . فزادت أحوال العرب تهمقراً كما زادت سرعة انحدارهم نحو تقاليد الجاهلية الأولى ولم يصممها من العودة الكاملة إلى تلك الجاهلية الأولى سوى احتفاظها بالاسلام ديناً وبالعبادة كياناً ولقد ظلت تلك العشائر معتزة بعروبيتها رغم التفوق الحضارى الذى كان لدى الفرس والترك . وكان لهذا الاعتزاز بالعروبة قيمة كبرى في الحفاظ على العراق عربياً حتى الآن .

وفي الغالب كانت العشائر العربية في العراق خصوصاً النازلة قرب نهر الفرات على اتصال بأصولها في شبه الجزيرة العربية . فكانت عشائر بادية العراق تمثل حلقة بين العشائر العربية التي استقرت في ريف العراق والعشائر البدوية في شبه الجزيرة العربية . وكانت هجرة العشائر العربية من شبه الجزيرة العربية تقع في فترات متطاولة فكانت عملاً الفراغ الذى كان يحدث في العراق بسبب الاحتياجات الحربية ، أو الحروب المدمرة ، أو بسبب الأوبئة التي كانت تقضى على أعداد كبيرة من سكان العراق . وكانت بعض عشائر شمر من بين العشائر العديدة التي هاجرت من شبه الجزيرة العربية إلى العراق منذ القرن السابع عشر الميلادى . فتحدثنا الراجع عن مصادمات عديدة بين شمر وولاية بغداد العثمانيين في ١٦٩٥/١٧٠٦ . وقد دخلت شمر في حلف مع عدد من كبريات عشائر العراق مثل المنتفق والحزاعل وزبيد

(١) عبد العزيز نوار : تاريخ العراق الحديث . دار الكتاب العربي . القاهرة ١٩٦٨
(الفصل الثالث عبارة عن دراسة للأطروفي التي أدت إلى تصفيها) .

ضد حسن باشا والى بغداد (١٧٠٤ - ١٧٢٣) ^(١). ودارت معارك عنيفة جداً بين الطرفين استطاع خلالها حسن باشا أن يثبت تفوقه العسكري على تلك العشائر ^(٢) ولم نسمع عن تمردات لعشائر شمر حتى توفي حسن باشا في ١٧٢٣ . فتجددت تمرداتها ^(٣) في وقت كان فيه نادرشاه يغزو العراق ، الأمر الذى شغل أحمد باشا (والى بغداد ١٧٢٣ - ١٧٤٧) عن الالتفاف إلى إخماد تمردات شمر . ولا شك أن شمر بتمرداتها هذه لم تقدر خطورة عملها على مستقبل العراق في تلك الظروف ، ومن ناحية أخرى فإننا نعتقد أن كراهية شمر للأتراك العثمانيين حكام العراق كانت على قدر المساواة مع كراهيتهم للفرس (الطامعين في السيطرة على العراق) . فلقد كان هدف هذه العشائر هو التخلص من أى حكم أعجمى وتخليص نفسها من الالتزامات التى كانت تفرضها الحكومة على العشائر .

كانت شمر — شأنها شأن العشائر الكبرى — عرضة لأن تنفصل عنها بعض أجزائها كلما تزايدت أعدادها أو طرأت ظروف سياسية أو اقتصادية تدعو إلى انفصال جزء منها عن جسم العشيرة . ولقد انقسمت شمر فعلاً إلى أقسام عديدة استطاع بعضها أن يستقر في مناطق محددة مثل « شمر طوقة » التى استقرت في ريف العراق ، كما أن بعضها ظل متقلداً على عادة العشائر البدوية مثل « شمر الجربا » التى كانت من أشد تلك العشائر بدواة . ورغم بداوتها الشديدة هذه فقد لعبت شمر الجربا دوراً كبيراً في تاريخ شبه الجزيرة العربية وفي تاريخ العراق .

ومما لا شك فيه أن الزعامات تلعب دوراً رئيسياً في توجيه تاريخ المجتمعات العشائرية . وهذا ما نلاحظه عند تتبع العشائر بصفة عامة أو شمر الجربا بصفة خاصة ولقد كان من المألوف أن يكون هناك « بيت » معين يخرج منه شيوخ العشيرة ، وهو ما يعرف باسم « بيت الرئاسة » . وكان « آل محمد » هم بيت الرئاسة في

(١) كان حسن باشا من الوجهة الرسمية والياً على بغداد ولكن امتدت سيطوته إلى معظم العراق وهو الذى كوّن جيشاً من المالك الذين استطاعوا الاستعداد بالحكم بعد وفاة أحمد باشا ابن حسن باشا في ١٧٤٧ واستمروا في الحكم إلى ١٨٣١ م .

(٢) عباس الزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين ، بغداد ١٩٥٣ ج ٥ ، ص ١٣٩ / ١٦٩ - ١٧٧ - ١٧٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢١٤ - ٢١٥ .

شمر الجربا . ولقد كان لهذا البيت تاريخ حافل عندما وقعت شبه الجزيرة العربية عند مفترق الطرق بعد اشتداد حركة الموحدين (الحركة الوهاية) بزعامة آل سعود الذين جعلوا من هذه الحركة تياراً جارفاً . فقد دعا الموحدون العشائر إلى نبذ التقاليد البدوية الجاهلية . وكان من لا يقبل تلك المبادئ يعتبر — في نظرهم — كمن كفر بالإسلام . وكان من أهم الموضوعات التي كان من المستحيل أن يلتقي عندها الطرفان موضوع « الغزو »^(١) فقد كان من عادة العشائر العربية أن تقوم بغزو العشائر الأخرى وكان شباب العشائر يفخرون بتلك العمليات العدوانية ، بل إن « الغزو » كان كفيلاً بأن يعيد العشائر العربية إلى ما كانت عليه من صراع بدائي اشتهرت به قبل الإسلام . ومن ثم كان الغزو يقتنافي مع فكرة الدولة الإسلامية ، كما كان يتنافى مع الاستقرار والأمن اللذين هما مفتاح التقدم والتطور ، ولكن في النصف الثاني من القرن الثامن عشر كان من المستبعد أن تنبذ العشائر فكرة الغزو ، حيث أن تلك العشائر ظلت قرون طويلة وهي تمارس هذه التقاليد البدائية وتعتز بها ولهذا كان من العسير على عشائر بدوية — مثل شمر الجربا — أن تقبل عن طيب خاطر الأفكار والمبادئ التي دعا إليها الموحدون وعلى رأسها السكف من « الغزو » .

ولهذا كان لابد من وقوع صراع دموي مرير بين عشائر شمر والموحدين ، وكان على رأس هذه العشائر حينذاك « مطلق بن محمد » بينما كان سعود بن عبد العزيز على رأس الموحدين . وكل منهما كان صعب المراس . وأصبح على « مطلق بن محمد » أن يتخذ طريقاً من الطرق الثلاثة التالية :

١ — أن يقاتل حتى ينتصر على آل سعود ، ولكن بينما كان القتال ضرورة ملحة كان النصر بعيد الاحتمال أمام شمر الجربا لأن هذه العشائر لم تكن قادرة على الصمود في وجه حركة الموحدين أو حتى خفض شوكتها ، لافتقار العشائر الشمرية إلى الفكرة العقائدية وإلى التنظيم الذي اشتهر به الموحدون في أيامهم الأولى .

٢ — أن يقبل « مطلق بن محمد » خضوع عشائره للموحدين ولكن هذه العشائر الشمرية كانت شديدة البداوة ترفض الخضوع بإياه وقسم .

(١) عباس الزاوي : عشائر العراق ، ج ١ ، ص ٧٢ .

٣ — أن تغادر عشائر شمر الجربا نخبداً بعيداً عن متناول سيوف الموحدين ، وهذا قرار ليس من اليسير على شيخ العشيرة أن يتخذه إلا تحت ظروف قاسية .

جرب « مطلق بن حمد » القتال (١٧٩١) فإذا بتيار الموحدين جارفاً ، ولما يتقن « مطلق » أن الإحتكام إلى السيف سيعود عليه بالحسران آثران يجمع جموعه مولياً وجهة شطر العراق الذي كان مهجراً طيباً حيث كانت فيه عشائر عديدة شمرية سبقت « الجربا » إليه^(١).

وبما ساعد على اتجاه « مطلق بن حمد » إلى العراق ، أن المالك — حكام العراق — كانوا يرحبون بعقد مثل هذه العشائر وذلك لكي يستخدمها المالك في صد هجمات الموحدين على العراق وأيضاً في شن حملات على الموحدين في قلب شبه الجزيرة العربية ، إذ أن جيش المالك كان مؤلفاً من الفرسان الثقلي العدة والعتاد ، ولم يكن مثل هؤلاء الفرسان بقادرين على التصدي لقوات الموحدين الخفيفة الحركة . هذا فضلاً عن أنه لم يكن في استطاعة الفارس المملوكي أن يحارب في الصحراء . فغرب الصحراء وقاتل العشائر له أسلوبه الخاص . ومن ثم كانت العشائر هي خير سلاح يمكن إستخدامه ضد الموحدين ، وبخاصة إذا كانت تلك العشائر مواتورة منهم .

ومن ناحية أخرى ، كان والى العراق (سليمان باشا الكبير)^(١) يعد العدة لشن حملة كبيرة ضد الموحدين في قلب شبه الجزيرة العربية ، حيث أن سليم الثالث — السلطان العثماني — كان يلح عليه في إرسال حملة كبيرة ضدهم . وكان اشتراك عشائر شمر الجربا في مثل هذه الحملة ضد الموحدين يعطى فرصاً أوسع لنجاحها ، لما كان لتلك العشائر من خبرات في قتالهم . فضلاً عن أنها كانت كبيرة العدد وشديدة الكراهية للموحدين وتبحث عن فرصة لتثار لنفسها منهم^(٢) ، وفعلت اشتراك شمر الجربا في الحملة الكبيرة التي أعدها سليمان باشا الكبير والتي تولى كتحداه « على بك » قيادتها ، وكانت تضم قوات مملوكية إلى جانب القوات العشائرية .

(١) عباس الزاوي : عشائر العراق ، بغداد ج ١ ، ص ١٣٨ — ١٤٠ .

(٢) حكم ص ١٧٧٩ — ١٨٠٢ .

(٣) عباس الزاوي ، عشائر العراق ، ج ١ ، ص ١٣٧ ، ١٤٤ .

زحفت الحملة من العراق إلى الإحساء ، وهناك تصدت لها قوات الموحدين ، فدارت معركة حامية سرعان ما تحولت إلى هزيمة قاسية كادت أن تصبح مذبحة لولا ثبات قوات العشائر . وخلال هذه المعركة سقط « مطلق بن محمد » قتيلا عام (١٨٩٨/١٢١٣) واضطرت بقايا قوات الحملة إلى التقهقر من الإحساء إلى العراق^(١) .

لقد كانت الضربة التي وجهها الموحدون إلى شمر الجربا قاسية وأصبحت المشيرة في حاجة إلى زعامة قوية تأخذ بيدها في هذه الحقبة . وكان في العراق حينذاك شخصية شميرية ذات نفوذ ، ونعني بذلك « إبراهيم بك الشمري » الذي آل على نفسه أن يعيد إلى العشيرة قوتها ونعاسكها ، ووجد « إبراهيم بك الشمري » في الشيخ « فارس » من « آل محمد »^(٢) القائد الذي يستطيع أن يتحمل المسؤولية بعد مصرع « مطلق بن محمد » .

كان « الشيخ فارس » في نجد حينذاك ، فاستقدمه « إبراهيم الشمري » إلى العراق فلبى الشيخ النداء ، وشد رحاله إلى هناك وتولى مشيخة شمر الجربا^(٣) ، وكان طبيعياً أن يكرس جهوده في تقوية مكانة عشائره عن طريق التعاون مع القوى المناهضة للموحدين أشد أعداء شمر الجربا ، وكانت حكومة العراق تمد حينذاك قوات لتوجيه ضربات إلى العشائر التي تعاونت أو مالت إلى الموحدين^(٤) ، ولهذا وضع « فارس » سيفه في خدمة هذا الغرض ، كما شارك في الحملة الجديدة التي كانت تعدها

(١) المصدر السابق ، ص ١٣٨ - ١٣٩ ، تاريخ العراق ، ج ٦ ، ص ١٢٥ ؛ لقد كان مطلق بن محمد عنيداً في كراهيته للموحدين فيقول صاحب مطالع السعود أنه سار من العراق إلى الشام وتوجه إلى أحمد باشا الجزائر يجمع ، وبعد رجوعه من الحج « رأى ذلك الضلال المبين الذين كان عليه الوهابيون . . . رجع وقد عاهد الله على أن لا يرجع عن الجهاد والقتال مع الوهابيين إلى أن يموت » انظر مختصر مطالع السعود ، ص ٢٤ .

(٢) البيت الحاكم في شمر الجربا .

(٣) عباس الزاوي ، عشائر العراق ، ج ١ ، ص ١٤٤ .

(٤) مثل عشائر العبيد التي كانت من كبريات عشائر العراق .

الحكومة ضد الموحدين (١٧٩٨ م) (١).

ولكن هذه الحملة الجديدة لم تستطع إحراز نصر ما على الموحدين ، بل توالى تهوق للموحدين على الحملات الموجهة ضدهم من العراق ، مما أدى إلى أن يتوسع للموحدون في نطاق عملياتهم فشرعوا في مهاجمة العشائر النازلة غربي نهر الفرات وبلغت تلك الحملات ذروة قوتها عندما هاجم الموحدون مدينة كربلاء (١٨٠١) ونهبوها وخرّبوا مرقد الإمام الحسين بن علي وامتدت أيديهم إلى مساكن المدينة ، وأدى ذلك إلى إرتفاع هذه المشكلة إلى مستويات عالية بسرعة وخطورة .

فقد كان الشيعة ينظرون إلى مرقد « الحسين بن علي » نظرة تقديس ، وكان لذلك الهجوم على مرقد صدى سيئاً للغاية في مختلف الأوساط الإيرانية ، وجاء هذا الحادث في وقت كان فيه « فتح علي » (شاه إيران) (٢) يتبع سياسة نشطة في المجالات الدولية والإسلامية والمحلية متطلماً بقوة نحو السيطرة على العراق تحت ستار الأهداف المذهبية الشيعية لتحقيق أهداف اقتصادية ، وكان سليمان باشا الكبير (والي العراق حينذاك) يدرك هذه الأهداف ، كما أن الباب العالي العثماني ما كان ليقبل ذلك التدخل الإيراني في أمور العراق ، كما كان لا يقبل أن يقال إن الحكومة العثمانية عاجزة عن الدفاع عن العراق ضد الموحدين (٣) .

وعلى هذا النحو أصبح من الضروري أن يبعث سليمان باشا الكبير بحملة جديدة ضد الموحدين ، لينج عن العراق هجماتهم ، وليستعيد ثقة السلطان به ، وليدرك خطراً التدخل الإيراني في أمور العراق . ومعنى هذا أن سليمان باشا أصبح أكثر حاجة إلى القوى العشائرية عن ذي قبل . ولكن توفي سليمان باشا الكبير في عام ١٨٠٢

(١) ع . الزاوي ، عشائر العراق ، ج ١ ، ص ١٤٤ ، تاريخ العراق ، ج ٦ ، ص ١٢٧ - ١٢٨ .

(٢) حكم إيران من ١٧٩٧ - ١٨٣٤ .

(٣) هـ . لونكريك ، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، الطبعة الثالثة ، بغداد ١٩٦٢ ص ٢١٥ - ٢١٦ ، عباس الزاوي ، تاريخ العراق ، ج ٦ ، ص ١٤٤ ، رسول الكركوكي ، دوحة الوزراء ، ص ٢١٦ - ٢١٧ .

وجاء بعده في حكم ولاية بغداد « على باشا » الذي كان قد سبق له أن تولى حملات قاشة ضد الموحدين . وعلى أى حال أصبح على « على باشا » أن يعيد تشكيل قواته وأن يرسل حملة كبيرة ضدهم . وكان من الطبيعي أن يعول « على باشا » على الشيخ فارس ورجاله من مقاتلي شمر الجربا . وفعلًا شاركت شمر الجربا في جهود « على باشا » العسكرية ضد الموحدين ، ولكن دون أن تصل تلك الجهود إلى نتيجة إيجابية بل على العكس تزايدت هجمات الموحدين على العراق ، حتى لقد فضل الشيخ فارس أن يبحث لعشائره عن مراعي جديدة بعيدة عن متناول سيوف الموحدين .

قاد « الشيخ فارس » عشائره إلى الجزيرة في شمال العراق لعل العيش يصفو لها هناك . ولكن وصول هذه العشائر الشمرية إلى الجزيرة كان في حد ذاته خطراً على العشائر الأخرى النازلة هناك . ولهذا كان تاريخ شمر الجربا — منذ ذهابها إلى شمال العراق — عبارة عن سلسلة من الصراخ مع عشائر العبيد والمهمل . وحيث أن زعماء عشائر العبيد كانوا ميالين إلى الموحدين فما لا شك فيه أن ذلك كان من العوامل الرئيسية التي عمقت البغضاء بين شمر الجربا والعبيد . ولعل هذا يفسر لنا عنف الحملات التي كان يشنها الشيخ فارس على عشائر العبيد^(١) . ولقد كسب « الشيخ فارس » من وراء ذلك ثقة « على باشا » وإلى بغداد ، حيث أن الأخير كان شديد الكراهية لشيوخ العبيد بسبب ميول زعمائهم للموحدين . بل أصبح « على باشا » يخشى من أن يقوم الموحدون — بالتعاون مع أعوانهم في العراق — بانقلاب يطيح بحكومته . ولهذا كان الرجل مستعداً لأن يقدم على أى عمل يخلصه من تلك الأخطار التي كانت تحيط به ، حتى أنه لم يتورع عن إغتيال إثنين من زعماء العبيد هما « محمد » وأخيه « عبد العزيز الشاوي »^(٢) .

ولكن سياسات العراق حينذاك كانت تختلف باختلاف الولاة وبميوهم ولهذا

(١) غ . الزاوي ، عشائر العراق ، ١٠ ، ص ١٤٥ .

(٢) ذكر صاحب مطالع السمود أن مقتلهما كان بسبب ميولهما الوهابية ، انظر مختصر مطالع السمود ، ص ٣٠ ، بينما لم يتعرض « جودت » في تاريخه لهذا السبب عندما تعرض لهذه المشكلة ، تاريخ جودت ، ٧ ، ص ١٩٩ .

حدث تبدل في السياسة بعد مصرع « على باشا » في ١٨٠٧ . فقد حل محله في ولاية بغداد سليمان باشا الصغير^(١) الذي كان ميالا للموحدين . كذلك نجد الى بغداد « سعيد باشا » (١٨١٣ - ١٨١٦) . يمتد على عشائر العبيد ويضع أمور البلاد في يد أحد شيوخ هذه العشائر وهو قاسم الشاوي . وحيث أن عشائر العبيد كانت شديدة العداء لعشائر شمر الجربا ، فقد أدى ذلك إلى أن تفقد هــ هذه الأخيرة تلك المسكنة الكبيرة التي كانت تحتلها زمن سليمان باشا الكبير وعلى باشا .

ومما جعل الأمور أمام عشائر شمر الجربا أكثر تعقيداً أنها فقدت ب وفاة شيخها الجرب « فارس » الزعيم الذي يستطيع أن يواجه تلك الظروف القاسية . وقد تولى الشيخة بعده « بنية بن قرينص » الذي أصبح عليه أن يواجه حلفاء كبيراً تشكل ضده . وكان هذا الحلف مكوناً من عشائر المتفق والحزاعلي والرولة والعقيل ، بل انضمت إليه عشائر العبيد وقوات الوالي سعيد باشا . ويبدو أن هذا الحلف كان قد عقد العزم على توجيه ضربة ساحقة لعشائر شمر الجربا (١٨١٦ / ١٢٣١) ولم يكن أمام « بنية بن قرينص » إلا أن يقرع السيف بالسيف . فكان أن دارت معركة كبيرة في أراضي ملوم . وانجلى عن هزيمة شمر الجربا ومصرع « بنية » نفسه .

ولما كان رجال « شمر الجربا » يدركون دقة موقفهم ويعنون بأن يكون شيخهم مقداماً جريئاً قادراً على أن يقود العشيرة وسط أعداء عديدين فقد وقع اختيارهم على « صفوق بن الشيخ فارس »^(٢) . حقيقة كان تاريخ حياة شيوخ شمر الجربا سلسلة من الكفاح من أجل الحياة ، إلا أن تاريخ حياة صفوق بالذات كان مليئاً بالأحداث الجلى . ولقد كان صفوق^(٣) منذ شبابه جريئاً قوى الشكيمة ، مولماً بالخطاطر والغزو ، عزمه من حديد ، وفي عيذه بريق حاد يؤكده قدرته على الإصرار وعلى تحقيق الأهداف .

(١) حكم من ١٨٠٧ - ١٨١٠ .

(٢) رسول حاوي الكركوكي ، دوحة الوزراء ، ص ٢٦٨ - ٢٦٩ .

(٣) كان عوده متناسقاً إلا أنه كان ممتلىء الجسم نوعاً ما مما كان يعطيه شكلاً تركيياً .

وقد امتدت مشيخة صفوق^(١) من ١٨١٦ إلى ١٨٤٣ . وتعتبر هذه الفترة من أدق فترات تاريخ المشرق العربي ، كما عاصر صفوق مجموعة من أهم الشخصيات التاريخية التي لعبت أدواراً خطيرة في المنطقة . فقد تولى حكم العراق ابتداء من ١٨١٧ والي داود باشا^(٢) الذي كان يسعى إلى توحيد العراق تحت حكمه وإلى تجديد شباب العراق حتى ولو كان ذلك رغم أنف السلطان العثماني . وكان على عرش السلطة العثمانية حينذاك « محمود الثاني » (١٨٠٨ — ١٨٣٩) الذي كان مصمماً على أن يعيد حكمه المباشر إلى مختلف ولايات الدولة العثمانية حتى لو اقتضى ذلك استخدام القوة العسكرية ضد الولاة المتغلبين من أمثال داود باشا في بغداد ومحمد علي باشا في القاهرة ، ويوسف القره منلى في طرابلس الغرب . وعاصر صفوق أيضاً « فتح علي » شاه فارس الذي كان يبذل — هو الآخر — كل جهده من أجل تجديد قوة بلاده لعله يتمكن من انتزاع العراق من المظنة العثمانية .

وعاصر صفوق كذلك بداية الفترة التي استعاد خلالها طريقا العراق ومصر — بين الشرق والغرب — بعض أهميتها بخطوط مواصلات سريعة حديثة عالمية ،

(١) كان لصفوق قصة حب كبيرة . فقد حدث أن شاهد في يوم من الأيام ، وهو لا يزال في فتوة الشباب — فتاة بهرته يجالها وهي عمشة بنت شيخ عشارطى . ولقد سميت كذلك منماً للحسد على عادة العرب . وكانت الفتاة ذات سمرة خمرية أخاذه ، وكانت ذات عينين خالفتين لماحتين ساحرتين . فشغف ، وأصر على الإقتران بها . ولكن أبوها رفض أن يزوجه إياها ، فما كان من صفوق إلا أن دبر خطة لإختطافها ونفذها بنجاح . وكانت مثل هذه الجرأة كفيلة بأن تشعل نيران قتال مرير بين المشيرتين . لولا أن تدارك الأمر عقلاء القوم ، وتعلبت المحكمة على التهور خاصة وأن طلى من بنى عمومة شمر . ووافق شيخ طلى على أن يتزوج صفوق من إبنته ، وزفت إليه لتصبح بعد ذلك سيدة شمر الأولى . وكانت عمشة تزين بكميات كبيرة من الذهب تضعها حول رقبتها وعلى صدرها . وكان يتدلى قرط ذهبي من أذنها حتى خصرها ، كما ثبت قطعة ذهبية أخرى على أنفها كانت تتدلى على فمها حتى تغطيه فتضطرب إلى إزاحتها بيدها عندما تتناول طعامها . وكانت عندما تبخر في مشيتها تسمع أصوات رنين الذهب بوضوح . انظر :

H. Layard : Nineveh and its Remains, London, 1849, vol. I, pp. 100-102

(٢) انظر عبد العزيز نوار ، داود باشا والى بغداد ، المكتبة العربية ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ١٩٦٨ .

وذلك بعض اختراع الباخرة والقاطرة الحديدية وظهور مشروعات لاستخدامهما في العراق .

ذلك هو العصر الذي عاشه صفوق ، وهو عصر مليء بالأزمات والتطورات المريعة . وزاد من دقة موقف صفوق — في سنوات مشيخته الأولى — أنه تولى هذه المشيخة بعد تلك الهزيمة المريعة التي منيت بها عشائره . حقيقة سقط سعيد باشا — وإلى بغداد — بعد ذلك بوقت قصير جداً فزال بسقوطه خصماً شديداً لشمر الجربا ، ولكن الوالي الذي جاء بعده ، وهو داود باشا (١٨١٧ — ١٨٣١) ، كان على جانب كبير من النشاط وصاحب آمال واسعة . وكان معنياً كل العناية في أوائل أيام حكمه أن يثبت أقدامه في حكم العراق . وكان هذا يتطلب منه أن يجمع قدراً كبيراً من الأموال ليسد به حاجته وحاجات أعوانه وليقدم للباب العالي الأموال التي تعهد بدفعها إلى خزانة السلطان . ولهذا شرع داود في مطالبة العشائر بدفع ما عليها من متأخرات من أموال الميرى . وكان صفوق من بين من طلب منهم داود دفع الضرائب للحكومة . وكانت أحوال عشائر شمر الجربا سيئة ، هذا فضلاً عن أن العشائر كانت غالباً ما ترفض طلبات ولاية بغداد ولا تدفعها إلا إذا شعرت بأن الوالي قد ضغط عليها بقوة . ولهذا اصطدم الرجلان بعضهما ببعض . وبعث داود باشا بحملة ضد « شمر الجربا » في ١٨١٧ ولكن لم يصل الوزير داود إلى نتيجة حاسمة بسبب قسوة هذه العشائر على التوغل بعيداً عن متناول سيوف الجيش . ومن ناحية أخرى لم تكن لدى داود فرصة متمسكة لمتابعة الضغط على صفوق بسبب هزيمة قوات الحكومة أمام عشيرة الصقور هزيمة أضاعت هيئة الوالي في البلاد الأمر الذي جعل داود باشا يركز قواته ضد عشيرة الصقور . فكان انشغاله بتلك العشائر فرصة طيبة لصفوق ليتابع تنظيم عشائره وتقوية جانبها .

ويبدو أنه خلال السنوات الأولى من حكم داود باشا كان كل من الرجلين ينظر بعين الحذر للآخر . ولم يدرك كل منهما أن العراق في حاجة إلى تعاونهما معاً إلا عندما دهم الخطر الفارسي البلاد .

لقد كان الفرس يعدون العدة للاستيلاء على العراق . وتزايد نشاطهم المعادي على الحدود الثمانية (العراقية) ، ثم قام الفرس بهجوم شامل . ومنذ البداية كان

تفوقهم العسكري واضحاً ، وانتصرت القوات الفارسية على جيش داود ، واقتربت القوات الفارسية من بغداد نفسها وشرعت في حصارها .

وكان المفروض أن يبعث السلطان العثماني بقوات من عنده لإيقاد بغداد من الفرس ، ولكن كل قواته كانت مشغولة بقتال القوات الفارسية في جبهة أرضروم . وهكذا أصبح على العراق أن يدافع عن نفسه معتمداً قدراته الخاصة به . فما كان من داود باشا إلا أن جمع قواته ومما يملكه خلف أسوار بغداد واستعد لحصار طويل . ولكن ظلت هناك قوة عربية عراقية قادرة على الحركة السريعة وعلى مناوشة الجيش الإيراني والنيل منه ، ونعني بذلك عشائر شمر الجربا .

فقد وضع رجال شمر الجربا — تحت قيادة صفوق — سيوفهم في خدمة والي بغداد دفاعاً عن العراق ، وقام صفوق بمدة عمليات عسكرية ضد الفرس^(١) . ولكن ليس معنى هذا أن هذه القوى العشائرية كانت قادرة على رد الغزو الفارسي ، إنها تستطيع أن تكبده خسائر كبيرة ، وأن تقطع خطوط مواصلاته ، ولكنها لا تستطيع أن تهزم جيشاً مثل الجيش الذي غزا به « فتح علي » العراق ، ولقد قامت السكوليرا بهمة لإخراج الفرس من البلاد حيث أنها تفشت بينهم بقسوة فأوهنت قوتهم وجعلتهم يفضلون عقد الصلح مع الدولة العثمانية (١٨٢٣)^(٢) .

كان لتلك المجهودات الكبيرة التي بذلها صفوق في الدفاع عن العراق أثرها الكبير في نفس داود باشا ، فحفظ له الجليل . وكافأه بأن أقطعه « عانة وما يتبمها من القوى »^(٣) ، وارتفعت منزلته لدى الوزير . ويبدو أن صفوق — وقد شعر بتفوق مكانته -- وجد أن الفرصة قد سنحت لفرض هذا التفوق على خصوم شمر الجربا ، وعلى عشائر عنزه بصفة خاصة . وسرعان ما وقع القتال بين شمر الجربا وعنزه ، وكسب صفوق الجولة الأولى ، ولكن عشائر عنزه كانت ضخمة العدد ، وكانت لا تقبل بسهولة مثل هذه الهزيمة ، فأعادت « عنزه » تنظيم نفسها ، وجمعت

(١) ع . الزاوي ، تاريخ العراق بين احتلالين ، ج ٦ ، ص ٢٦٣ - ٢٦٥ ، عشائر العراق ، ج ١٠ ص ١٥٣ ، عبد العزيز نوار ، داود باشا ، ص ١٠٧ .

(٢) عبد العزيز نوار ، داود باشا ، ص ١٨٠ .

(٣) ع . الزاوي ، تاريخ العراق ، ج ٦ ، ص ٢٨٦ .

جموعها ، ودارت الهائرة هذه المرة على « شمر الجربا »^(١) . ولقد كان انتصار
عزّه كبيراً للدرجة أن داود باشا وجد أن عزّه أصبحت خطراً يهدد العراق . وليس
هناك من قوة تستطيع أن تصدها عن مزارع العراق سوى شمر الجربا . ولهذا عمل
داود على تقديم المعونة إلى صفوق ليعيد تنظيم عشائره ويجعلها قادرة على التصدي
لعشائر عزّه إذا عمدت إلى التوغل داخل العراق^(٢) .

ولكن فترة الوفاق بين داود باشا وصفوق لم تدم طويلاً . ففي السنوات
الأخيرة من حكم داود تحولت علاقاته بصفوق إلى عدااء مستحکم . فلقد انقلبت
الصداقة إلى بغضاء شديدة حوالي ١٨٢٧ . وليس لدينا معلومات إوافية عن الأسباب
التي أدت إلى هذا التحول . ولكن هناك بعض الاتجاهات العامة التي يمكن أن
تفسر لنا هذا التطور .

لقد كان داود يحاول أن يفرض سيطرته بقوة على طول البلاد العراقية وعرضها
من الموصل إلى البصرة لعله يعيد إلى العراق تماسكه ووحدته تحت يده . ومثل هذه
السياسة تتطلب من العشائر أن تركز إلى الهدوء وإلى الاستقرار في أماكن محددة ،
وأن تعيش على الزراعة بدلاً من حياة البداوة والترحال . ولكن مثل هذه
الاتجاهات كانت لا تلقى قبولا لدى العشائر البدوية . ومن ناحية أخرى كان داود
يرى أن عدم السيطرة على شمر الجربا بالذات قد يؤدي إلى القضاء على مشروعاته
الخاصة بالسيطرة على الموصل . فلقد كانت شمر الجربا مهيمنة على منطقة الجزيرة
التي تتحكم في الطريق بين بغداد والموصل . وكان لا بد لداود — قبل أن يبدأ
عملياته إزاء الموصل — أن يضمن هدوء واستقرار عشائر شمر الجربا حتى لا تعرض
خطوط مواصلاته مع الموصل لخطر الانقطاع المفاجيء .

هذا إلى أن داود كان قد شرع في إدخال الأساليب الأوروبية الحديثة في
الجيش . والمعروف أن الجيش الحديث لا يعتمد إلا في القليل على التشكيلات
العشائرية . ومعنى هذا أن حاجة داود إلى قوة شمر الجربا قد أخذت تتناقص كلما نما

(١) ع . العزاوي ، عشائر العراق ، ج ١ ، ص ١٥٣ .

(٢) ع . العزاوي ، تاريخ العراق ، ج ٦ ، ص ٢٨٥ - ٢٨٦ .

جيشه الحديث . وهذا يعني أن شمر الجربا ستفقد — إن عاجلاً أو آجلاً —
الامتيازات التي كانت تتمتع بها .

أضف إلى هذا الأسباب المعتادة التي تؤدي إلى وقوع الصدام بين العشائر
والحكومة ، وأهمها رغبة العشائر باستمرار في الامتناع عن دفع ما عليها من
ضرائب ، والكراهية العميقة التي يكنها رجال العشائر العربية للحكومات الأنجلمية .

وعلى أى حال وقعت الأزمة بين داود وصفوق . وكابت أزمة طاحنة شأنها
في ذلك شأن تمردات عشائر شمر الجربا السابقة فهي عشائر صعبة المراس ، بعيدة
النال ، سريعة الحركة ، قادرة على أن تهبط مقتربة جداً من بغداد قاطعة الطرق
المؤدية إليها ، ناهية ما تمر به من قرى ، ثم تعود مسرعة موغلة في الصحراء فتمجن
قوات الحكومة عن اللحاق بها . ولقد طال الصراع بين صفوق وداود دون أن
يكسب الأخير أى جولة من جولات هذا الصراع الذى امتد من ١٨٢٧ إلى ١٨٣٠ .
وفي أغسطس ١٨٣٠ استطاع داود أن يستخدم بعض وحدات جيشه الحديثة التشكيل
ضد صفوق ورجاله ^(١) . ولكن في نفس هذه السنة بالذات انقلبت الموازين بسرعة
لصالح صفوق . فقد انفجر النزاع الحاد بين داود باشا والسلطان محمود الثانى وعزم
الأخير على إبعاد داود والمالليك عن حكم العراق وأعادته إلى الحكم المباشر العثماني
مرة أخرى (١٨٣٠) .

وترجع هذه الأزمة الكبيرة بين داود والسلطان العثماني محمود الثانى إلى أن
داود كان قد تخطى حدوده كوال عثماني على بغداد من حيث قيامه بإعداد جيش حديث
كبير قادر على التصدى لقوات السلطان نفسه . ووجد السلطان محمود الثانى أن
الإسراع في القضاء على داود خير من الإبطاء ، حتى لا يعطى لداود فرصة لاستكمال
استعداداته . ولقد بلغت مخاوف السلطان العثماني ذروتها عندما امتنع داود باشا عن
إمداده لا بالمال ولا بالرجال خلال الحرب التركية — الروسية (١٨٢٧ — ١٨٢٩) .
ولهذا بعث السلطان العثماني إلى العراق بأحد كبار موظفيه إلى داود حاملاً فرمان
عزل داود عن ولاية بغداد . فما كان من داود إلا أن قتل مبعوث السلطان مصعداً

(١) A.N. Groves : Journal of a Residence at Bagdad during the
years 1830-1831, London, 1832, p. 24 ,

بذلك الأزيمة إلى ذروتها ، فأرسل السلطان جيشاً بقيادة علي باشا رضا^(١) إلى العراق .

كان طبيعياً أن يستعين علي رضا بالقوى المعادية لداود . وكان « صفوق » مستعداً للتعاون معه لتقوية مركزه في العراق تحت ستار التعاون مع جيش السلطان ضد داود التائر على الخلافة العثمانية صاحبة الحق الشرعى في أن تولى أو تخلع من تشاء حسب منطق ذلك العصر . كذلك وجد علي باشا رضا في قاسم العمرى (والى الموصل) حليفاً قوياً له لأنه كان من ألد اعداء داود ، ونسق هؤلاء (على رضا و صفوق وقاسم العمرى) عملياتهم العسكرية ، وأصبح علي صفوق أن يقطع للمواصلات بين بغداد وبقية أجزاء العراق . فقامت عشائره بهذه المهمة . ومع هذا كانت الدلائل تشير إلى أن جيش داود كان لا يزال قادراً على الصمود طويلاً أمام جيش السلطان ومن يشد أزره . إلا أن الأفق كان أكثرى من الآمال والإمكانات . فقد انقض وباء الطاعون على جيش داود ففضى على معظمه ، وأصيب داود نفسه به ، وانفض كثير من الناس عنه فيما عدى عدد قليل من أعوانه وأهمهم يوسف أغا (رئيس الحسابات) وسليمان (المراخور)^(٢) ومحمد افندى (المصرف) . وقد حاول هؤلاء الثلاثة القيام ببعض العمليات التى يمكن بها تقوية جانب داود فى هذه الأزيمة الطاحنة . ولكن كان صفوق وقاسم العمرى لهم بالمرصاد . فقد اتفقا على فرض حصار قاتل على بغداد يمنع الخروج منها أو الدخول إليها حتى تضطر إلى التسليم . وعندما حاول يوسف أغا العودة إلى بغداد على رأس قوة مسلحة وبأموال معه كثيرة — كان قد جمعها من نواحي كركوك — أسرع صفوق إلى خمسمائة من خيالة شمر الجربا ومعهم ثلاثين من مشاة العقيل من حملة البنادق . ووسع خطته على أساس أن يكن مشاة العقيل فى أحد الأنهار الجافة بينما يقوم خيالة شمر باستدراج قوات « يوسف أغا » إلى هذا السكين . ونفذت الخطة بنجاح وسقط عدد كبير من القتلى بل وقع يوسف أغا نفسه أسيراً فى يد رجال صفوق^(٣) . وكانت هذه الهزيمة بمثابة بداية

(١) كان والياً على حلب فاستندت إليه ولاية بغداد والموصل ودار بكر ليقوم بالقضاء على داود ومواليه .

(٢) منصب من المناصب المملوكية الكبيرة .

(٣) سليمان غائق : تاريخ بغداد ، ص ٧٨ - ٧٦ .

النهاية لداود ورجاله ، فقد استسلمت بغداد إلى قاسم على اعتبار أنه قاطعاً على باشا رضا^(١) .

دخل قاسم العمرى بغداد وفي معيته صفوق ورجاله ، وسليمان الغنام ورجاله من العقيل . وكان هذا في محرم ١٢٤٧/ ١٨٣١ . ويحدثنا الكاتب التركي سليمان فائق عن أن صفوق عنى عناية خاصة بالبحث عن زوجة سليمان أغا (الميراخور) ليحصل عليها حيث أنه كان يدعى أنها وهبت له من قبل^(٢) .

أما سليمان الغنام ورجاله من العقيل فسكانوا يقومون كذلك بعمليات النهب والسلب حيث أن قاسم العمرى كان قد ترك الحبل على غاربهِ لكل من سليمان الغنام و صفوق . وحيث أن كلا منهما كان بدوياً لا يتقن فن إدارة المدن أو معاملة أهلها فقد أتمدماً على تعديات خطيرة . وقد حاول أهالى المدينة ردهما بالحسن دون جدوى . فلم يبق أمامهم سوى الاحتكام إلى السيف رغم ما كانوا عليه من حالة نفسية ومادية متدهورة بسبب النكبات المتتالية التى ألمت بالمدينة خلال فترة قصيرة من الزمن (١٨٣٠ — ١٨٣١)^(٣) . ورغم ذلك أعلن البغداديون ثورتهم على قاسم العمرى وأعوانه (صفوق وسليمان الغنام) . فقتلوا الأول وعزموا على خوض معركة ضد القوات الشمرية والعقيلية ، رغم ما عرف عن القوات الشمرية من كثرة عدد وقسوة فى القتال ، ورغم ما عرف عن العقيليين من دقة فى استخدام البنادق .

ومن المعروف عن القوات الشمرية أنها أعجز من أن تقا تل داخل المدينة قتال شوارع لعدم تمرسها على هذا النوع من القتال . ولهذا أثر صفوق أن يغادر بغداد بـرجاله ، وبأقصى سرعة ممكنة ، كما فر منها سليمان الغنام ورجاله العقيليين^(٤) .

(١) عبد العزيز نوار : داود باشا . الفصل السابع عبارة عن دراسة مفصلة للظروف التى أدت إلى استسلام بغداد لقاسم العمرى .

(٢) تاريخ بغداد ، ص ٨٤ .

(٣) خلال السنتين ١٨٣٠ — ١٨٣١ تعرضت بغداد لحصار قوات السلطان ، ولولاه الطاعون الذى أفضى أغلبية سكانها ولفيضان نهر دجلة الذى دمر وشرّد معظم البقية الباقية من سكان ومبانى المدينة .

(٤) سليمان فائق ، تاريخ بغداد ، ص ٨٣ — ٨٤ ؛ رحلة فريزر ، ص ١٢٢ .

وهذا تخلص البغداديون من هذا الحكم البدوي الذي كاد أن يجهز على المدينة . وهكذا أثبتت الطبائع البدوية أنها غير قادرة على إدارة أمور مدينة أو ولاية . هذا فضلا عن أن الفردية تغلبت على أعمال كل من قاسم العمري وصفوق وسليمان الغنام فعلى حد قول سليمان فائق :

« لقد تفرد كل من ... صفوق وسليمان الغنام بإصدار ما يبعادون من الأوامر المتضاربة دون التشاور بعضهم بعضاً . ولم يكونوا على أمر جامع » (١) .

كان البغداديون يعتقدون أن مصرع قاسم العمري وفرار صفوق وسليمان الغنام من بغداد قد يقنع السلطان العثماني — محمود الثاني — وعلى باشا رضا بأن اقتحام بغداد بالقوة أمر بعيد الاحتمال . ولكن « على باشا رضا » كان عنيداً مصرّاً على أن يستولى على بغداد فتابع حصارها تشد أزرها قوات شمر الجربا بقيادة صفوق . واضطرت بغداد في نهاية الأمر أن تفتح أبوابها لعلى باشا رضا ، بل استسلم إليه داود كذلك . ودخلت قوات على رضا بغداد وبدأ بذلك الحكم المباشر العثماني لبغداد (١٨٣١) .

ونلاحظ هنا أن القوات التي دخلت بغداد لم تتضمن أية قوة عشائرية ، وهذا يدل على بعد نظره ، وقدرته على التعلم من الأخطاء السابقة . هذا إلى أن على رضا كان قد جاء إلى العراق ليقضى على نظام الممالك حتى يصفو الجو للحكم المباشر . وهذا يتطلب كف أية قوة أخرى غير قوة الوالي العثماني عن ممارسة الحكم أو توجيه الأمور ، ومن ثم فهممة قوات شمر — من جهة نظر على رضا — هي القيام بالجهد العسكري دون التطالع إلى أى نوع من أنواع المشاركة في الحكم أو امتيازاته .

ويبدو أن صفوق أدرك هذه الحقيقة ، فنقل بسرعة نشاطه إلى الديدان الذي يستطيع أن يحصل فيه على مكاسب أكثر واقعية . ففي أعقاب سقوط بغداد في يد على رضا نجد صفوق يقود قواته ضد عقيل السمدون — شيخ عشائر المنتفق .

كانت عشائر المنتفق من كبريات عشائر العراق ، وكافت تسيطر على مقدرات البصرة ، وبلغت هذه العشائر درجة كبيرة من القوة عندما استطاعت أن ترفع سميده

باشا إلى منصب الولاية (١٨١٣) ، وظلت عشائر المنتفق تشد أزره ضد منافسة داود لمدة طويلة . ولما نجح داود في الحصول على منصب الولاية أخذ يتدخل في أمور المنتفق حتى أحنده مشيختها إلى « عقيل السعدون » الموالي له . وعندما وقعت الأزمة بين داود باشا والسلطان العثماني (١٧٣٠ — ١٨٣١) وقف « عقيل السعدون » بجانب داود . فلما استسلم داود إلى « علي رضا باشا » أصبح على هذا الوالي الجديد أن يتخلص من أعوان داود في العراق ، وبالتالي أصبح الصدام بين « عقيل السعدون » والحكم العثماني الجديد أمراً لا مناص منه .

وكان المفروض أن يبعث « علي باشا رضا » حملة ضد « عقيل السعدون » الذي عزله عن المشيخة ، ولكن اتبع « علي رضا » السياسة المألوفة لدى ولاية العراق في مثل هذه الأمور . وهي ضرب العشائر بعضها ببعض . وكان صفوق « شيخ ثمر الجربا » مستعداً لأن يوجه قواته ضد « عقيل السعدون » . وكانت الظروف مواتية لصفوق ليضرب ضربته بقوة ، حيث أن الإنقسام في البيت الحاكم السعدوني نفسه كان كبيراً ، بل كان في بغداد عدد من الشيوخ السعدونيين المناهضين لعقيل لنفسه ويسعون إلى خلعهم من المشيخة والخلول محلّه . وكان هؤلاء الشيوخ السعدونيون يحثون « علي باشا رضا » على التدخل ضد ابن عمهم « عقيل السعدون » ، وعرضوا عليه تقديم كافة المساعدات في مقابل حصول أحدهم على المشيخة وانتهت هذه المفاوضات بتفاهم تام بين هؤلاء وعلى رضا وصفوق بأن يقوم صفوق ورجاله بالزحف ضد « عقيل السعدون » يشد أزرهم أعوان أولئك المشايخ المنافسين لعقيل . وفعلات الترتيبات على أساس أن يقوم صفوق بالتعاون مع الشيوخ السعدونيين المتحالفين معه بحملة كبيرة ضد « عقيل السعدون » .

زحفت قوات صفوق وحلفائه صفوال وحلفائه ديار المنتفق ، ودارت معركة كبيرة بين الطرفين ، وأحرز صفوق ورجاله نصراً كبيراً ولكن بعد قتال مرير من جانب المنتفق حتى لقد سقط « عقيل السعدون » نفسه في المعركة . ولا شك أن مصرعه كان في حد ذاته عاملاً حاسماً في هزيمة المنتفق حيث أن موت الشيخ أو القائد حينذاك كان يعني تشتت شمل قواته وهزيمتها . وكان طبعاً أن يذيع صيت

صفوق بعد ذلك ، حتى لقد أطلق عليه منذ ذلك الوقت لقب « سلطان البر »^(١) .

لقد أصبحت عشائر شمير الجربا - في أعقاب ذلك - من أكبر عشائر العراق فعالية ، وأكثرها قدرة على الحركة لتمدّد خبراتها في القتال وتنوع الأزمات التي تعرضت لها . فأكسبت تلك الظروف « صفوق » بصفة خاصة ، ورجال عشيرته بصفة عامة ، خبرات سياسة وعسكرية لم تكن متوفرة لدى غيرهم من رجالات العشائر الأخرى ، وكان هذا في وقت دخل فيه الوطن العربي في تجربة جديدة هزته هزاً عنيفاً ، وجعلت العراق مجالا من مجالات السياسة الدولية النشطة ، ونعني بذلك الانتشار المصري في المشرق العربي فيما بين ١٨٣١ و ١٨٤١ .

فبعد نشوب القتال بين الجيش المصري والجيش العثماني في الشام إبتداء من أكتوبر ١٨٣١ أصبح لزاماً على « علي باشا رضا » أن يسهم بما لديه من إمكانيات في المجهود الحربي العثماني من أجل عرقلة التقدم المصري في الشام ومن أجل تقويض دعائم الوجود المصري هناك تنفيذاً للسياسة العامة للسلطان العثماني محمود الثاني الذي طالب الولاة بتقديم كل مساعدة ممكنة للجيوش العثمانية في حربها ضد « محمد علي باشا » وإلى مصر . وكان الأمر أمام « علي رضا باشا » صعباً حيث أنه كان يعتمد على القوات التي جاءت معه من حلب إلى العراق . ومعظمها قوات غير نظامية كثيرة الشغب صعبة القيادة ليس من اليسير الإعتماد عليها في حرب كتلك التي كانت تدور رحاها في الشام بين القوات المصرية والقوات العثمانية .

وهكذا وجد علي باشا رضا نفسه مضطراً إلى إستخدام القوات العشائرية في شد . أزر الجيوش العثمانية المقاتلة في الشام وحيث أن عشائر شمير الجربا كانت قد اشتهرت بقدراتها العسكرية فقد وضع « علي رضا » عينه عليها كقوة يمكن الإسهام بها في الحرب الدائرة في الشام . خاصة وأن هذه العشائر كانت من أكثر عشائر العراق

(١) عباس الزاوي : تاريخ العراق ، ج ٧ ، ص ١٩ ، واقب « سلطان البر » كان يمنح للشخصيات العربية القوية . ولقد حصل عليه نضر الدين المعني في أوائل القرن السابع عشر . انظر الحوروي بولس قرالي ، نضر الدين المعني الثاني ودولة تسكانيا ١٦٠٥ - ١٦٣٥ ، رمية بحم العلوم والفنون الملوك الإيطالية ، ١٩٣٨ ، الجزء الثاني ، ص ١٦ .

تعاوناً معه في العراق . فكان من المنتظر أن تكون مستعدة كل الإستعداد للقيام بتلك المهمة . هذا فضلاً عن أن أراضي شمر الجربا كانت تمتد على مساحات واسعة من الجزيرة العراقية .

فند أوائل القرن التاسع عشر أصبحت الجزيرة العراقية ذات أهمية كبيرة دولية بسبب التطورات التي حدثت في أساليب المواصلات العالمية تلك التطورات التي جعلت أنظار أوروبا تتجه إلى إعادة الحياة إلى الطرق العالمية القديمة عبر الشرق الأوسط إلى آسيا على اعتبار أنها أقصر من طريق « رأس الرجاء الصالح » وعلى اعتبار أنها أقدر على إستيعاب أساليب النقل الحديثة البخارية ، فاتجهت للشروعات نحو مد خطوط بحارية ملاحية بين الموانئ الأوربية والساحل السوري ومنه تنقل البضائع إلى يبره جك في أعلى نهر الفرات أو إلى الموصل على نهر دجلة ، ومن هناك يعاد شحن البضائع على بواخر تهبط أحد النهرين إلى الخليج العربي ومنه إلى الهند والشرق الأقصى^(١) . ومن هنا برزت أهمية الجزيرة العراقية حيث أنها تقع بين نهري الفرات ودجلة وتسيطر على هذا الطريق الدولي الجديد .

وهكذا أدى اختراع السفن التجارية والتوسع المصري في الشام (١٨٣١ — ١٨٤٠) إلى إرتفاع أهمية الجزيرة العراقية إلى مجالات التنافس الدولي^(٢) ، وإلى أن تجد عشائر شمر الجربا — المسيطرة على الجزيرة العراقية ، نفسها في موقف جديد سواء من حيث الأوضاع الداخلية أو الخارجية ومن ناحية أخرى كان على رضا لاشك سيجعل مميزات الجزيرة العراقية في خدمة أهدافه إذا ما ضمن تعاون صفوق معه تعاوناً كاملاً . ولعل هذا يفسر لنا لماذا علق « على رضا » آملاً واسعة على صفوق ورجاله .

(١) انظر Hoskins : British Routes to India, New York, 1928, Chapters II-XIII.

(٢) أصبحت الجزيرة العراقية مجالاً واسعاً للدراسات الأنجليزية التي كانت تهدف إلى جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن العشائر العربية النازلة فيها حيث أن أي اضطرابات عشائرية كانت تهدد بالقضاء على المشروعات الأنجليزية الهادفة إلى إستخدام البواخر في نهر الفرات لربط البحر المتوسط بالخليج العربي . ولقد كانت الاضطرابات العشائرية كثيرة الوقوع في الجزيرة بسبب الصراع المتتالي بين عشائر شمر الجربا وعزته .

أضف إلى هذا أن « علي باشا رضا » كان يعتقد أن « صفوق » سيقدم خدماته للسلطان العثماني خلال أزمة التوسع المصري على نفس المستوى الذي كان عليه صفوق عندما خدم الدولة العثمانية خلال حربها ضد الفرس (١٨٢١ — ١٨٢٣) وعلى نفس المستوى الذي تعاون به مع جيش السلطان ضد داود باشا (١٨٣٠ — ١٨٣١) وأيضاً على نفس المستوى الذي قاتل به « عقيل السعدون » شيخ المنتفق (١٨٣١).

ويكشف لنا فرمان الذي أصدره السلطان محمود الثاني إلى والي الشام عن تلك الآمال الواسعة حيث جاء فيه أن صفوق وصل الحابور^(١) جامعاً جموعه « كالجراد المنتشر قد ملأ الفضاء والبر »^(٢) واتجه بهذه الجموع التي كانت تعدت بمحوالي ثلاثين إلى أربعين ألف مقاتل صوب الشام للتعاون مع الجيوش العثمانية ضد الجيوش المصرية هناك .

ولقد جمع صفوق جموعه حقاً ، وبدا كأنه سيلتحق بالقوات العثمانية في الشام . ولكن حدث تغير خطير في أهدافه واتجاهاته ، حيث أنه غير رأيه ، وبدلاً من أن يزحف صوب الشام لوى عنان فرسه وهبط صوب بغداد ليحاصرها شاهراً السيف في وجه الأتراك العثمانيين^(٣) .

وليس لدينا أية وثيقة تكشف لنا عن الأسباب التي أدت إلى هذا التحول المفاجيء في موقف صفوق من الحكم العثماني سوى ما ذكره لوريمر Lorimer^(٤) من أن صفوق طالب « علي رضا باشا » بامتيازات لم تلق القبول منه^(٥) . وأغلب الظن أن هذا السبب يمثل واحداً من أسباب عديدة أخرى هيأت الظروف لثورة

(١) نهر في شمال العراق .

(٢) عابدين محظفة ٢٣١ وثيقة ٢٨ في ١٢ ذي القعدة ١٢٤٧ هـ / ١٤ أبريل ١٨٣٢

(٣) عابدين محظفة ٢٤٦ وثيقة ١٧٨ ، ١٧٩ « غير مؤرختان » .

(٤) أحد موظفي حكومة الهند المسؤولين عن جمع المعلومات عن العراق والخليج العربي وهو صاحب الموسوعة الانجليزية عن الخليج العربي .
Gazetteer of the Persian Gulf .

Larimer : op. cit., vol. I, Part I, pp. 1315-1316.

(٥)

صفوق على الحكم العثماني ، وبعض هذه الأسباب يتعلق بالموقف في العراق نفسه .
وبعضها الآخر يتعلق بالموقف في المشرق العربي على وجه العموم .

فقد قامت في بغداد ثورة كبيرة ضد علي باشا رضا^(١) ، وأعلن يحيى باشا الجليلي
(والى للوصل السابق) أنه عاد إلى حكم ولايته لا ليتولاها من قبل السلطان العثماني ،
وإنما عاد ليحكمها من قبل الحكومة المصرية . وفي أقصى جنوب العراق كان
الموقف حرجاً أمام « علي باشا رضا » لوجود حزب قوى في البصرة يناصر المصريين
ضد العثمانيين^(٢) وبذلك يكون العراق كله عرضة لأن يخرج على العثمانيين . خاصة
عندما انتشرت فيه أنباء سقوط عكا في يد القوات المصرية . ويبدو أن القوى
المناهضة للحكم العثماني في العراق عازمت على انتهاز هذه الفرصة لإحراز مكاسب
جديدة أو للتخلص من التدخل التركي في شئونها . ومن ذلك أن محمد بك — أمير
راوندوز — سعى إلى السيطرة على معظم كردستان ، ولكن الأخطر من هذا وذلك
هو ما ذكره الميجور روبرت تيلز — الوكيل السياسي الإنجليزي في بغداد Major
Robert Taylor من أنه كان هناك تحالفاً بين محمد بك (أمير راوندوز)^(٣)
ويحيى الجليلي (حاكم للوصل) وصفوق (شيخ عشائر شمر الجربا)^(٤) .

وسواء أ كان هناك تحالف متفق عليه أم أن الأمر لا يعدو أن يكون اتجاهات
عاماً لدى القوى المناهضة للحكم التركي في العراق . فإن مجرد ظهور مثل هذه القوى
بمظهر التعدي العلني للحكم التركي العثماني كان كافياً لتشجيع العناصر الأخرى
المعادية للأتراك على الخروج إلى مجال العمل الإيجابي ضدهم . ومن ذلك تعاون بقايا

(١) Intelligence from Bagdad contained in Report from Wood, 2 August 1832, F.O. 78/210.

(٢) Robert Taylor to Secret Committee, July 29, 1833 (India Office Records, Factory Records, Persia and Persian Gulf, vol. 49, pp. 541-543).

(٣) إلمارة في شمال العراق في قلب ديار الكرد .

(٤) R. Taylor to Secret Committee, September 5, 1833 (Ind. Office Rec., Fac. Rec., Per. and Per. Gulf, vol. 49, p. 673).

المالِك مع تلك القوى ضد العثمانيين^(١)، وانضمام سليمان بابان (حاكم السليمانية)^(٢) إليها، وكانت تلك القوى تمثل خطراً شديداً على الوجود العثماني في العراق.

فقد ثبت فعلاً أن يحيى الجليلي كان قد نسق عملياته العسكرية مع صفوق^(٣)، كذلك بمحدثنا اليجور «روبرت تيلر» عن أنه كان لدى صفوق مستشارين مصريين^(٤). ومن ثم كان الزحف المفاجيء الذي قام به صفوق صوب بغداد — الثائرة ضد «علي باشا رضا» — يمثل ذروة الخطر الذي تعرض له وإلى العراق حينذاك، حيث أن قوات صفوق استطاعت أن تسيطر على الطرق المؤدية إلى بغداد وأن يضرب الحصار عليها الأمر الذي جعل «علي رضا» بين نار ثورة داخلية ونار قوات صفوق من خارج بغداد.

ورغم تلك الأخطار المتعددة استطاع علي باشا رضا أن يتغلب على تلك القوى المعادية له. فقد قضى إلى بغداد على ثورة بغداد بضرب المدينة بالمدفعية، فأصبح من المتعذر على صفوق أن يقتحم المدينة لأن الثورة في داخلها كانت قد أخذت فحسب بل كذلك لأن القوات العشائرية البدوية لا تستطيع أن تقيم الحصار على مدينة مسورة لمدة طويلة. وكان هناك عامل آخر قوى أرغم صفوق على رفع الحصار عن بغداد وهو مقدم جموع كبيرة من عشائر عنزه.

فقد كان من سياسة ولاية بغداد أن يضربوا العشائر العربية بعضها ببعض، ولهذا حرص «علي رضا» عشائر عنزة ضد «شمر الجربا» واتفق مع عنزه على أن تحصل على أراضي شمر الوفيرة المرعى في حالة انتصارها عليها. وكان هذا وعداً

R. Taylor to Secret Committee (Ind. Office Rec., Fac. Rec., (١)
Per. and Per. Gulf, vol. 49, pp. 541-543 and vol. 47, pp. 354-359).

R. Taylor to Secret Committee, Oct. 24, 1833 (Ind. Office Rec., Fac. Rec., Per. and Per. Gulf, vol. 49, pp. 784-791). (٢)

R. Taylor to Secret Committee, September 5, 1833 (Ind. Office Rec., Fac. Rec., Per. and Per. Gulf, vol. 49, p. 673). (٣)

R. Taylor to Secret Committee, Oct. 26, 1833 (Ibid., pp. 785-792). (٤)

مضرباً كل الإغراء جعل عشائر عنزه تبذل كل ما لديها من قوة من أجل الانتصار على شمر (١).

وخلال هذا كان علي رضا قد أعلن عن عزل صفوق عن مشيخة عشيرته ، وأسندها إلى « شلاش » ، إلا أن الأخير كان ضعيف الشخصية الأمر الذي جعل معظم العشائر الشمرية منضوية تحت زعامة صفوق . ومع هذا فضل صفوق أن ينسحب بمشائره موغلاً صوب الشمال وبذلك لم يمد صفوق خطراً على بغداد ولهذا سحب علي رضا وعوده لعشائر عنزة .

وعندما وجدت عشائر عنزه أن « علي باشا رضا » قد سحب وعده أقدمت على خطوات إرهابية بأن فرضت حصاراً جزئياً على بغداد وأصبح علي « علي رضا » أن يجهز حملة كبيرة ضد « عنزة » وكان من المعروف أن التغلب على « عنزة » يتطلب تعاون عشائر شمر بالذات معه . وكان « شلاش » مستعداً كل الاستعداد ليضع ما تحت يده من رجال تحت قيادة « علي باشا رضا » . وفي هذه الأثناء علم صفوق بهذه التطورات وأدرك أن القضية ليست قضية والى بغداد وشلاش وحدهما بل هي جزء لا يتجزأ من الصراع التقليدي بين شمر وعنزة ، ورأى أن الظروف تحتم عليه أن يتناسى أسباب النزاع ، وأن يضع يده في يد شلاش ضد عنزة . وأغلب الظن أن صفوق أدرك أن قوات « علي باشا رضا » وقوات شلاش غير قادرة على التغلب على « عنزة » ولعل هذا هو الذي أدى إلى عودة التفاهم بين علي باشا رضا وشلاش من جهة وصفوق من جهة أخرى . وفعلاً بعث صفوق بالني رجل للاشتراك في الحملة ضد « عنزة » وبعث صفوق إلى شلاش يقول له :

« أنا وأنت متخاصمان ويمكننا أن نسوى النزاع بيننا ولكن شرف العشيرة في الوقت الحاضر قد تعرض للخطر ، ولا أستطيع السكوت عن ذلك ما لم أقدم ممنونى المحافظة عليه » (٢) .

ويبدو أن صفوق كان يعتقد أن عنزة لن تلقى بكل قواتها في المعركة ، أو ربما

(١) Lorimer : Gazetteer of the Persian Gulf. vol. I, Part I, pp. 1315-1316.

(٢) فريزر : رحلة فريزر ، ص ١٣٤ .

كان يعتقد أن اشتراك قوات الحكومة بما لديها من مدفعية كفيلاً بأن يرهب عشائر عنزة ، فلا توسع في نطاق القتال وتنسحب إلى مراعيها . ولعل هذه هي العوامل التي جعلت صفوق يقتصر على إرسال ألفي مقاتل فقط من رجاله . ولكن الحقيقة هي أن عنزة كانت مستعدة لخوض المعركة بخمسة وثلاثين ألف مقاتل . ويرى الرحالة السياسي الانجليزي فريزر Fraser أن هذه المساعدة من جانب صفوق لشلاش في هذه الظروف لم تكن مجدية حيث أن مجموع شمر الجربا لم تكن بقدرة على مواجهة جموع عنزة التي كانت متفوقة من حيث العدد بمراحل كبيرة .

وعلى أي حال قامت قوات شلاش وصفوق وعلى رضا بحملة مشتركة ضد عنزة التي تصدت لهذه القوات ، وبعد أن دارت المعركة بدا واضحاً أن كفة عنزة هي الراجحة . فقد اندحرت بسرعة قوات علي باشا رضا ووقعت المدافع في يد رجال عترة . وسقط شلاش صريعاً ، وتحولت المعركة إلى مذبحه للقوات الشمرية . والملاحظ أن قوات عترة آثرت أن تلتقي بثقتها على رجال شمر مخفية سبيل القوات النظامية التابعة لوالى بغداد . وكانت صيحة عنزة في تلك المعركة :

« خل النظام واقتل الجربا »^(١) .

ولاشك أن هذه الهزيمة الكبيرة التي منيت بها عشائر شمر الجربا هزت مكائنها حينذاك ، بينما كان عدم تشكيل عشائر عترة بالقوات النظامية سبباً في أن يبقى الباب مفتوحاً للتفاهم بينها وبين علي باشا رضا^(٢) . كما نلاحظ أن « علي رضا » شرع في تضيق الخناق على صفوق وحلفائه مرة أخرى وبوجه خاص على « يحيى الجليلي » في الموصل . وكانت هناك في الحقيقة ضرورة ملحة لذلك حيث أن وجود « يحيى الجليلي » (التعاون مع القيادة المصرية في الشام) في الموصل كان يمثل خطراً كبيراً على الوجود العثماني في العراق .

وكان تدهور مكانه « شمر الجربا » بعد هزيمتها أمام عنزة من العوامل التي

(١) فريزر ، ص ١٣٤ .

(٢) يتضح هذا من أن عشائر عترة سرعان ما رقت حصارها عن بغداد رغم اقتصارها في تلك المعركة انظر :

Lorimer : Gazetteer of the Persian Gulf, vol. I, Part I, pp. 1317-1318.

مكنت القيادة العثمانية من توجيه ضربات قاصمة إلى الحليين الكيرين «بحي الجليلي» وإلى الموصل الليال إلى المصريين ، وصفوق التعاون معهم كذلك (١) .

وكان طرد «بحي الجليلي» من الموصل وطرد القوى العراقية الميالة إلى المصريين أو اتهمت بالميل إليهم من أمثال أمير اوندوز (محمد بك) في شمال العراق يتطلب التخلص من صفوق أولاً . وكانت فكرة التخلص من هذه الزعامات تدرس بعناية وعلى أعلى المستويات . فقد كانت السلطات الإنجليزية الدبلوماسية وغير الدبلوماسية تبذل جهوداً واسعة لتقوية جانب الحكومة العثمانية في العراق ، وللقضاء على القوى المؤيدة للمصريين .

وكان هناك طريقان للتخلص من صفوق :

- ١ — إرسال حملة كبيرة ضد عشائر شمير الجربا وإنزال الضربات المتتالية بها حتى ترغم على الخضوع لأوامر الحكومة وحتى تضطر إلى تسليم صفوق إلى وإلى بغداد تمهيداً لإسناد المشيخة لزعيم متفاهم مع الحكومة .
- ٢ — تدبير مؤامرة توقع بصفوق في قبضة رجال الحكومة .

لقد كان الطريق الأول وعراً وغير معروف النتائج حيث أن الحكومة منذ زمن بعيد فشلت في السيطرة عسكرياً على أية عشيرة بدوية ، وكانت الحملات الحكومية ضد العشائر الكبرى لا تنتهي إلى إنتصار حاسم وغالباً ما كانت تنتهي بتفاهم بين الطرفين على أساس أن يتنازل كل طرف عن بعض إدعاءاته أو مطالبه . ولكن هذه الظروف الجديدة لم تكن تجدى معها الحلول الوسط ، حيث أن وجود صفوق على رأس عشائر شمير الجربا كان كفيلاً بأن يجعل حكومة بغداد في انزعاج دائم من وقوع تعاون بين صفوق والقيادة المصرية في الشام ضد القوات العثمانية في العراق .

لقد كان « على رضا » يدرك أنه من الضروري أن يتلخص من صفوق بالذات على اعتبار أن غيره من آل محمد (مشايخ شمير الجربا) ليس على كفاءته أو قدرته

(١) Taylor to Secret Committee, September 5, 1834, 1st Novem-
ber 1834 (India Office Records, Factory Records, Persia and Persian
Gulf, vol. 51, pp. 1-3, 420, 547-555).

في التفاهم مع القيادة المصرية في الشام . وحيث أن طريق القوة كان لا يحقق أهداف على رضا فقد عمد إلى أسلوب الخديعة والتآمر . وهو أسلوب مهتر فيه على رضا إلى حد كبير ، واستطاع بواسطته أن يحقق نتائج هامة ما كانت الدولة تستطيع أن تحققها إلا بنفقات مالية كبيرة وإلا بإسالة دماء غزيرة .

كان القبض على كل من « صفوق الفارس » و « محمد بك » صورتين من صور تلك المؤامرات الناجحة التي دبرها « على رضا » ضد القوى الوطنية . فقد أعلن « على باشا رضا » أنه سيخلع على صفوق في حفلة تقام خصيصاً لذلك . وكان صفوق في موقف لا يحسد عليه وفي حاجة إلى أن يتعاون مع حكومة بغداد إذا أراد أن يستعيد مكانه وأن يداوى جراح عشيرته وأن يعيد إلى العشيرة تماسكها . فقبل صفوق الدعوة ، وما أن ذهب إلى مقر الحفلة حتى ألقى القبض عليه ^(١) .

لقد كان القبض على صفوق حلقة من سلسلة من المؤامرات التي دبرها « على رضا » ضد الزعامات العراقية المناوئة له . حيث دبر مؤامرات عديدة مشابهة أدت إلى القبض على محمد بك (أمير راوندوز) وعلى عدد من الزعماء الأكراد . وأرسل هؤلاء جميعاً إلى خربوط تحت حراسة مشددة ١٨٣٤ (٢) . وبعد وقت قصير نفذ حكم الإعدام في محمد باشا ، بينما نقل صفوق إلى الآستانة وعاش فيها منفياً هو وابنه فرحان وهنا يجدر بنا أن نتساءل : هل كان للانجليز يد في تلك المؤامرة التي أدت إلى القبض على صفوق ؟

إن السبب الذي جعلنا نلقي بهذا التساؤل هو أنه كانت للدبلوماسي الإنجليزي النشط ريتشارد وود Richard Wood دور كبير في إقناع محمد بك بالإستسلام للعثمانيين وبعدم التجاوى في الثورة ضد السلطان العثماني ^(٣) . وكان هدف الإنجليز من وراء ذلك هو تقوية قبضة الحكومة العثمانية على ما تحت يدها حتى تستطيع

(١) H. Layard : Nineveh and its Remains, London, vol. I, pp. 93-97.

(٢) Werry to Ponsonby : December 3, 1836 (India Office Records, Factory Records, Persia and Persian Gulf, vol. 54, pp. 833-854).

(٣) Ponsonby to Palmerston, October 12, 1836 (Ind. Office Rec., Fac. Rec., Pers. and Pers. Gulf, vol. 54, pp. 675-678).

أن تركز جهودها بعد ذلك ضد الوجود المصري في الشام وشبه الجزيرة العربية وحتى يصبح ظهرها آمناً عندما يشتبك الجيش العثماني مع الجيش المصري في الشام في الجولة التالية المنتظرة .

ولقد كانت لدى الإنجليز مصلحة كبرى في شد أزر الدولة العثمانية ضد الوجود المصري في الشام أو في شبه الجزيرة العربية ولهذا كانت السلطات البريطانية معنية كل العناية بأن يكون ظهر الجيش العثماني آمناً عندما يخوض المعركة المقبلة ضد المصريين في الشام ، هذا فضلاً عن أن تقوية قبضة الحكومة على عشائر شمر الجربا بالذات يعين الإنجليز على تنفيذ مشروعاتهم الكبيرة بشأن استخدام العراق كطريق قصير للمواصلات بين الشرق والغرب بواسطة تشغيل خط بواخر بين الموانئ الإنجليزية والساحل السوري ، وبين أعلى نهر الفرات والخليج العربي والهند .

ولملاحظ أن الإنجليز ركزوا في ذلك الوقت عنايتهم بشدة على طريق العراق بين الشرق والغرب . واتجهت الحكومة الإنجليزية إلى إدخال مشروعاتهم إلى حيز التنفيذ في أعقاب التوسع المصري في الشام ، حيث أن هذا التوسع قد أدى إلى أن أصبح طريقاً للمواصلات بين الشرق والغرب عبر كل من العراق ومصر تحت سيطرة حكومة القاهرة ومن ناحية أخرى كان المشروع الإنجليزي لربط الشرق بالغرب — بواسطة خط بواخر يعمل في نهر الفرات — لا يخدم هذه الأهداف فقط بل كذلك كان يمكن الإنجليز من التصدي لأية قوة مصرية تحاول عبور نهر الفرات إلى العراق حيث أن البواخر التي كانت معدة للعمل في نهر الفرات كانت بواخر مسلحة^(١).

وكان تنفيذ كل تلك المشروعات والأهداف الإنجليزية يتطلب الوصول إلى تفاهم مع العشائر الكبرى المسيطرة على الطريق بين الساحل السوري ونهر الفرات ، حيث وضعت الحطة على أساس إرسال بواخر مفسكة من إنجلترا إلى الساحل السوري ومنه إلى نهر الفرات . وهذه العملية لا يمكن لها أن تتم بنجاح إلا بعد الوصول إلى تفاهم مع عشائر شمر ، وكذلك مع عشائر عنزة .

(١) درسنا هذا الموضوع بالتفصيل في كتابنا « المصالح البريطانية في أنهار العراق ١٦٠٠ — ١٩١٤ » ، دراسة وثائقية للتطورات التي أدت إلى احتكار بريطانيا الملاح في العراق ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٨ .

ولهذا ، عندما اقترب موعد إرسال الباخرتين — المدينتين للعمل في نهر الفرات — إلى العراق ، أرسلت السلطات الانجليزية إلى العراق اثنين من رجالها المارفين بطبائع العشائر وهما كريستيان رسام C. Rassam (١) ، والستر إليوت Eliot الذي قال عنه قائد البعثة المكلفة باستخدام الباخرتين في نهر الفرات أنه ينحدر من سلالة عربية (٢) .

كل هذه الإستعدادات تؤكد لنا أن الانجليز كانوا يفضلون وجود شيخ ضعيف في مشيخة شمر الجربا ، ومن ثم كان القبض على صفوق على هوى الانجليز لأنه يزج عن طريقهم زعيما صعب الراس قادراً على تهديد مشروعاتهم بخطورة . فقد كان الانجليز في حاجة إلى تفاهم أكيد أيضاً مع عشائر عنزة حيث أن الهدوء بين هذه العشائر من جهة وعشائر شمر الجربا من جهة أخرى كان أمراً ضرورياً كل الضرورة انجاح المشروعات الملاحية الانجليزية في الفرات .

فهل كان من الممكن للانجليز أن يتوصلوا إلى اتفاق ترضى عنه هاتين العشيرتين المتعاديتين ؟

لقد كان ذلك عسيراً ، وكان وجود صفوق في المشيخة يجعل هذا الأمر أكثر تعقيداً وصعوبة . أما وجود شيخ آخر مكانه ، يكون أقل شهرة منه ويكون أكثر ليونة ، فانه يمد الطرق بسهولة أمام الانجليز . ولقد كان المرشح الجديد لشيخ شمر على هذه الصفات التي أرادها الانجليز ، ولعمل هذا يفسر لنا نجاح المفاوضات التي دارت بين المسئولين الانجليز وشيخ شمر الجديد بشأن عقد صلح دائم بين شمر وعنزة فتحدثنا الوثائق الانجليزية عن أن الانجليز توصلوا إلى اتفاق يكفل لهم التنقل بين الساحل السوري ونهر الفرات دون أن يتعرضوا لأية هجمات من جانب العشائر (٣) .

حقيقة أدى إبعاد صفوق عن العراق إلى تقوية السيطرة العثمانية عن ذي قبل

(١) مسيحي عراقي سيصبح بعد ذلك وكلا سياسياً للانجليز في الموصل من ١٨٣٩ -

• ١٨٧٢

F.R. Chesney : Narrative of the Euphrates Expedition, (٢) London, 1856, pp. 239-241.

Palmerston to Ponsinby, July 28, 1936, No. 63, F.O. 195/130. (٣)

في منطقة الجزيرة المراقية وإلى تحويل الموصل — بعد طرد يحيى الجليلي منها — إلى قاعدة عثمانية هجومية ضد الوجود المصري في الشام . ولكن ذلك الأسلوب الذي اتبع في القبض على صفوق كان ممقوتاً جداً لدى أهل العراق . علاوة عن أنه أسلوب مكروه بصفة عامة .

فما لاشك فيه أن تلك الأساليب التآمرية في القبض على الزعامات الوطنية كانت تعطى الحكومة العثمانية سيطرة مؤقتة ونصراً مظهرياً . فالملحوظ أنه عندما تقع أزمة بين الناس والحكومة سرعان ما تستعيد ذاكرة الناس تلك الأساليب التآمرية التي اتبعتها الحكومة العثمانية ويكون ذلك مبرراً للتمرد والثورة واستخدام أساليب مماثلة ضد الحكومة نفسها .

وبالنسبة للعشائر العربية بالذات كان القبض على شيخها يمثل هذه الأساليب التآمرية يعتبر سقطة للحكومة لا يمكن أن تغفر ، ولا يمكن أن تكسب — حكومة هذه أساليبها — ثقة وإحترام العشائر . وهذا يفسر لنا موقف عشائر شمر الجربا بعد اعتقال صفوق . فقد ظلت عشائره ثائرة على الحكومة ، ولم يستطع الشيخ (١) — الذي عينه « على رضا » خلفاً لصفوق — أن يثبت أقدامه في المشيخة ، بل لقد أصبح صفوق بطلاً من أبطال العرب الذي لا يعرف الخداع ويشق طريقه بحمد السيف . بينما أصبح الأتراك العثمانيون مجرد شرذمة من الحكام الأتراك المستبددين الذين لا يراعون الدين أو الخلق أو العهد . فكانت هذه الأمور عاملاً هاماً في توسيع الشقة بين الأتراك والعرب (٢) .

ولكن نلاحظ أنه بينما صدر حكم الأعدام ضد محمد بك (أمير راوندوز) ونفذ فيه بسرعة (٣) ، نجد صفوق يرسل هو وابنه فرحان إلى الآستانة ليعيشا هناك

(١) لم نستطع تحديد اسمه لعدم وروده في المراجع ولقصر فترة حكمه ولطفيلان تاريخ صفوق عليه .

(٢) Ainsworth : A Personal Narrative of the Euphrates Expedition, vol. II, p. 319.

(٣) محفظة عابدين ، ٢٥٦ - ٢ في ٣ محرم ١٢٥٤ / ٣١ مارس ١٨٣٨ ، محفظة ٢٥٦

عابدين ٢٥٦ - ٢ في ٢١ محرم ١٢٥٤ / ١٨ أبريل ١٨٣٨ .

Wood to Ponsonby, September 3, 1836 (Ind. Office Rec., Fact. Rec., Per. and Per. Gulf, vol. 54, pp. 679-695).

في النفي زهاء ثلاث سنوات . حقيقة كانت إقامتهما معددة إلا أنهما كانا يتمتعان برعاية خاصة من جانب المسؤولين هناك .

ولا شك أن هذا الاختلاف في المعاملة ، كانت تتحكم فيها ظروف ذلك الوقت . وكانت ظروف جد عصيبة سواء بالنسبة للعثمانيين أو العشائر العربية أو العشائر الكردية . فقد أصبحت لدى العثمانيين حساسية شديدة ضد كل زعيم يتهم بالتعاون مع القيادة المصرية في الشام . ولكنهم إلى جانب هذا كانوا في حاجة ماسة إلى كل من يقدم معونة لهم ضد الوجود المصري في الشام . وفي هذا المجال اختلفت مكانة صفوق لدى العثمانيين عن مكانة محمد بك لديهم .

حقيقة كان محمد بك أميراً قوى الشكيمة حتى لقد كاد أن يسيطر على شمال العراق خلال العشرينات من القرن التاسع ، إلا أن فرص اتصاله بالقيادة المصرية في الشام أصبحت قليلة جداً بعد أن أصبحت الموصل قاعدة عثمانية بعد طرد يحيى الجليلي منها ، ومن ثم كان إعدام محمد بك يعني أن أقوى شخصية في ديار الكرد قد سقطت . وأنه على بقية الأمراء والزعماء الأكراد الآخرين أن يخضعوا للسلطان العثماني . ولقد كان في استطاعة العثمانيين أن يسيطروا على الإمارات الكردية إذا ما وضعوا أيديهم على مقر الإمارة الكردية .

ومن ناحية أخرى لم يكن لدى الحكومة العثمانية نية استخدام القوات الكردية ضد المصريين في الشام ، ومن ثم لم تكن هناك حاجة ماسة إلى وجود زعيم قوى كردى ليتولى قيادة قوائمه الى الشام^(١).

أما بالنسبة لعشائر شمر الجربا فالوقوف كان يختلف . فقد كانت الحكومة العثمانية في حاجة ماسة إلى القوات العشائرية الشمرية ، ومن ثم كان على العثمانيين أن يعملوا على كسبها إلى جانبهم ، ولو حدث أن أعدموا شيخها صفوق فإن ذلك سيؤدى إلى عداوة مستحكمة يمنع من قيام تعاون قوى بينها وبين الحكومة . أما إذا أبقى على حياته ، وأعيد إلى منصبه فالآمال في أن يخدم السلطان تصبح محتملة التحقيق .

(١) تجدر الإشارة هنا إلى أن الأكراد لم يكونوا متحمسين للانتقال إلى ميادين حرب بعيدة عن مواطنهم .

وترجع قبة عشائر شمر الجربا أيضاً إلى أن اتصالاتها بالقيادة المصرية يمكن أن تكون مباشرة حيث أن الجزيرة العراقية تربط بين العراق والشام . ومن ثم كان على العثمانيين ألا يثيروا حفيظة هذه العشائر في هذه الظروف حتى لاتنضم عشائر شمر بأسرها إلى المصريين . وحيث أنه كان من المتعذر على الحكومة العثمانية أن توجه ضربة حاسمة إلى شمر الجربا — على شاكلة تلك الضربة التي وجهتها إلى محمد بك أمير راوندوز — فان إعدام صفوق كان سيعود بالمشكلات المعقدة وبالتالي يكون تجنب إهدامه خير للحكومة العثمانية من تنفيذه فيه .

ومن ناحية أخرى كان صفوق أكثر إدراكا لمشكلات المنطقة من غيره من شيوخ العشائر ، ومن ثم كان كسبه إلى جانب السلطان يعطى الحكومة العثمانية إمكانات كبيرة سواء من حيث الدفاع عن العراق أو الهجوم على الشام .

وإذا ما نجح العثمانيون في كسبه إلى جانبهم ، وفي خوض المعركة المقبلة في صف الجيش العثماني ، فان النفقات التي ستدفعها عليه الحكومة ستكون قليلة حيث أن العشائر تتكفل بنفقات تحركاتها خاصة وأن ميدان المعركة المتوقعة ليس يبعد جداً عن الجزيرة العراقية .

وكان المسئولون العثمانيون يعتقدون أن إقامة صفوق فترة مناسبة في العاصمة العثمانية (الآستانة) ومشاهدته لروائعها ، وزيارته للسراي السلطاني الفخم سيغير من نظراته نحو الأتراك العثمانيين ولهذا كان من الأمور التي عني بها المسئولون الأتراك أن يرى صفوق ما يجعله يحترم الدولة العثمانية ويشعره بعظمتها واتساع ثرائها وقدراتها ، وأن يلقوا في قلبه الخضوع المطلق للسلطان العثماني . ولقد كان من بين الجهات التي قام صفوق بزيارتها السراي السلطاني نفسه . وعندما ذهب صفوق إلى هناك بهرته الرياش ومظاهر العظمة والملك وكان يتلفت يميناً ويساراً على عادة البدوي عندما يؤخذ بمثل هذه المظاهر ، وكان ذلك من دواعي اشتزاز كبار رجال السراي . ولكنهم أخفوا امتعاضهم ، لأنهم كانوا يسعون إلى كسب ثقته .

ويبدو أن مناقشات عديدة دارت بين صفوق والمسئولين العثمانيين بشأن موقفه في المستقبل من الصراع العثماني المصري . فقد أفرج عنه العثمانيون قبيل وقوع معركة

نزيب ١٨٣٩ . وأعادوا إليه المشيخة . وقام هو من جانبه بإعداد رحاله للمشاركة في الحركة المقبلة .

والمعروف أنه في أوائل ١٨٣٩ كان الجيش العثماني قد أخذ يتحشش بالقوات المصرية في شمال الشام حتى عبرت القوات العثمانية نهر الفرات ، وأصبح من الضروري خوض معركة حاسمة بين الطرفين . فكان من الطبيعي أن تراقب القيادة المصرية كل تلك التحركات وغيرها من التحركات التي قد تهدد الجيش المصري في الشام . وكان التهديد الموجهة إلى المصريين من جانب العراق قوياً . فقد كان وإلى الموصل العثماني (محمد اينجه يرقدار) على رأس بعض الكتائب التي عبرت نهر الفرات إلى حافته الغربية ، كما كانت هناك الشائعات القوية التي تردد أن « علي باشا رضا » سيقود قوة كبيرة ليستترك بها مع الجيش العثماني الرئيسي الذي كان بقيادة حافظ باشا .

وجاءت الأنباء إلى القيادة المصرية أيضاً بأن عشائر شمر الجربا بقيادة صفوق مستنشر على طول المنطقة الممتدة بين حماه ودير الزور . ولو ألقينا نظرة سريعة على هذه المنطقة — التي قيل إن صفوق سيتولى أمرها — لوجدناها تلامس حرب الصحراء التي كانت تتقنها تلك العشائر العربية . وأغلب الظن أن الخطة العثمانية وضعت على أساس أن تعمل العشائر العربية وراء خطوط مواصلات الجيش المصري منطلقة من قواعد الصحراوية (١) .

ويبدو أن القيادة العثمانية كانت قد عولت كثيراً على ما سيقدمه صفوق من مجهودات عسكرية ، حيث أن حافظ باشا — القائد العام للجيش العثماني — بعث ابنه ليكون مع صفوق في تلك الجهات (٢) .

وتشير التقارير المديدة التي تلقىها القيادة المصرية عن تحركات قوات شمر إلى أن هذه القيادة كانت قد أولت عناية كبيرة جداً لتحركات هذه العشائر . وهذا يرجع إلى أن عيون المصريين في العراق كتبوا يقولون أن هذه القوات الشمرية هي أخطر ما في المراق من القوات الضاربة ، وأن ما لدى « علي باشا رضا » وإلى بغداد

من قوات ليست سوى قوات من المرتزقة (الباشيورك) . أما عشائر شمر الجربا فكانت كثيرة العدد سريعة الحركة قادرة على إنزال خسائر كبيرة بالقوات المصرية في وسط الشام ، في الوقت الذي يكون فيه الجيش المصري منشغلا في المعركة . وقد وصفت القيادة المصرية خطورة التحركات الشمرية بشكل دقيق عندما قالت أن تلك الشائر لو انطلقت من نهر الفرات صوب الشام فإنها ستحول المنطقة الممتدة « من المرة إلى الشام خراباً بقلعاً » (١) .

ولقد كان انتقال القوات الشمرية من الجزيرة العراقية إلى ضفاف نهر الفرات أمراً يسيراً حيث أنها كانت تسير في طرق صحراوية اعتادت على مثيلاتها . ولكن لكي تنتقل هذه القوات إلى الضفة الغربية عبر نهر الفرات كان لابد لها من استخدام عدد من السفن . فطلب صفوق من حافظ باشا — قائد عام القوات العثمانية — أن يزوده بالسفن اللازمة لنقل قواته . ولكن اعتذر له حافظ باشا بأن جميع السفن التي كانت تحت يده منهكة في نقل الجيش الرئيسي من الضفة نهر الفرات الشرقية إلى ضفته الغربية . فاضطر صفوق إلى الانتظار بعض الوقت حتى يتمكن من تمديد قواته (١) .

كان على القيادة المصرية في الشام أن تواجه قوات شمر الجربا بقوة كافية لردّها إذا هاجمت منطقة حماه . وكان في حماه حينذاك الآلايين من الفرسان . وبسبب توقع هجوم شمرى على حماه فقد تقرر عدم اشتراك هذين الآلايين في المعركة للقبلة . بل صدرت إليهما الأوامر بعدم التحرك من حماه والدفاع عنها .

وبعد دراسة أخرى للامكانيات الدفاعية المصرية ضد القوات العشائرية الشمرية وجد القائد العام للجيش المصري (ابراهيم باشا) أن هذين الآلايين لا يكفيان لصد هجوم كبير شمرى . فطلب إبراهيم باشا من أخيه « عباس باشا » أن يبعث إليه من

(١) من ابراهيم إلى عباس ١٥ صفر ١٢٥٥ / ١٨٣٩م ، حفظة ٢٥٧ عابدين ، وثيقة تركية - ١ .

(٢) من محمد مجونى في ٢٠ صفر ١١٥٥ هـ ، حفظة ٢٥٧ عابدين ، وثيقة - ١ .

من محمد مجونى في ٢٧ صفر ١٢٥٥ هـ ، حفظة ٢٥٧ عابدين ، وثيقة .

من محمد مجونى في ١٢ ربيع الأول ١٢٥٥ هـ ، حفظة ٢٥٧ عابدين - ١ .

مصر بالآلايين الرابع والعشرين والحادى والثلاثين وبطاريق مدافع وبعض القوات العشائرية . ويبدو أن إبراهيم كان يرى أن الدفاع عن حماه يجب أن يكون بالقوات النظامية . وإما قتال شمر في الصحراء أو مطاردتها ليس في مقدور هذه القوات النظامية وإنما يجب أن تقوم به قوات بدوية مهدت في حرب الصحراء على شاكلة شمر الجربا نفسها .

ولكن تبين أن سحب هذين الآلايين من مصر يعنى تجريدتها من قوة دفاعية لازمة لمواجهة الطوارئ . ولاشك أن تجريد مصر من قوة عسكرية دفاعية منظمة يعنى تعريض قلب البلاد المصرية لخطر دائم لو حدث ونزلت قوات معادية إليها ، ومع هذا وجد « إبراهيم » أن ظروف المعركة المقبلة ، وتهديد شمر لحماة يقتضى إرسال هذين الآلايين وبطاريق مدافع إلى الشام على أن تدبر حكومة القاهرة قوات جديدة للدفاع عن مصر عند الحاجة إلى ذلك . ولهذا اقترح إبراهيم تسليح عمال الورش بالبنادق وتدريبهم على الأعمال العسكرية (١) .

وحيث أن التقارير الواردة إلى القيادة المصرية عن تحركات « شمر الجربا » كانت مضطربة ، وكانت هناك إشاعات عن أن صفوق قد لا يشترك في المعركة المقبلة فإن المسؤولين في القاهرة تباطأوا في إرسال القوات التي طلبها إبراهيم . ولكن لم تلبث التقارير أن أكدت أن صفوق عبر نهر الفرات بقواته صوب زيب . وأصبح على المسؤولين في القاهرة تدارك الأمر بسرعة ، فأرسلوا على جناح السرعة الآلاى (الحادى والثلاثين) إلى الشام ومعه بطاريق مدافع وقوات عشائرية مصرية (٢) .

وعلى أى حال ، كانت عشائر شمر الجربا أداة من أدوات تشتيت الجهود الحربية المصرية . ولكن المعركة الحاسمة التي كانت ستقرر مصير المنطقة هي تلك التي كان يستعد لها الجيشان المصرى والعثمانى بالقرب من زيب . ولقد دارت المعركة فعلا في ٩ يونيو ١٨٣٩ وانتهت المعركة باندحار شامل للجيش العثمانى .

(١) من ابراهيم إلى عباس : ١٥ صفر ١٢٥٥/١٨٣٩ ؛ محفظة ٢٥٧ عابدين

وثيقة - ١ .

(٢) محفظة ٢٥٧ عابدين وثيقة - ١٢ ؛ من الملية إلى السر عسكر في ١٩ ربيع الأول

١٢٥٥ هـ دفتر ٦ عابدين وثيقة ١٠٩ .

وخلال هذه المعركة كانت عشائر « شمر الجربا » قد أصبحت على مقربة منها . وشاهد رجال شمر كيف نزلت الهزيمة الحاسمة بالعثمانيين . وأغلب الظن أن صفوق لم يلق بقواته في المعركة ولكن موقفه بعدها أصبح حرجاً ، فهو من وجهة نظر القيادة المصرية المنتصرة كان مع جيش العدو . ومن ثم فيجب مطاردته هو الآخر . وفعلًا وجهت القيادة المصرية ضد شمر قوة من العشائر التي جاءت مصر لغرض مقاتلة العشائر الموالية للعثمانيين . وكان صفوق قد أدرك أن لا قبل له بالتصدي للجيش المصري المنتصر ، فانسحب بقواته مسرعاً تاركاً دواب عشيرته لدى بعض العشائر الخليفة له^(١) . ولما لم يجد القوات المصرية أثراً لعشائر شمر الجربا أنزلت العقاب بالعشائر التي أخفت دواب شمر لديها^(٢) . وكان طبيعياً أن تكون المطاردة محدودة الأهداف حيث أن الحكومة المصرية كانت لا تفكر في مد سيطرتها على العراق .

وتعتبر الفترة الواقعة بين ١٨٣٩ — ١٨٤٢ فترة تحول خطيرة في تاريخ المشرق العربي . فقد أدت هزيمة العثمانيين في نيب إلى إقناع الحكومة العثمانية بأنها لن تستطيع التغلب على المصريين إلا بالتعاون مع القوى الأوروبية الكبرى . وكانت إنجلترا مستعدة للتدخل لصالح السلطان العثماني وضد مصالح مصر الفتية حتى تضمن إنجلترا لنفسها اليد العليا في المشرق العربي . وفعلًا تدخلت الدول الكبرى — بتوجيه من إنجلترا — وفرضت على مصر الانسحاب من الشام ومن شبه الجزيرة العربية .

وترتب عن انسحاب المصريين من المشرق العربي أن تفرغت الحكومة العثمانية — إلى حد كبير — لتحقيق سيطرتها على ولاياتها العربية عن طريق القضاء على المصالحات المحلية فيها . وقد تولى تنفيذ هذه السياسة في العراق نجيب باشا والي بغداد الذي خلف علي باشا رضا في عام ١٨٤٢ م . واستمر في منصبه حتى عام ١٨٤٧ .

(١) من محمد معجوني إلى إبراهيم باشا ٢٩ جمادى الثانية ١٢٥٥ هـ / ٩ سبتمبر ١٨٣٩ ،

مخططة ٢٥٨ عابدين ص ١ .

(٢) إبراهيم إلى محمد معجون : ٧ رجب ١٢٥٥ / ١٧ سبتمبر ١٨٣٩ ، مخططة ٢٥٨

عابدين ص ١٤ .

ولقد كانت الظروف تضع كلا من نجيب وصفوق على طرفي تقيض . فقد كان نجيب باشا يسعى إلى القضاء على العصبيات المحلية بينما كان صفوق — منذ هزيمة العثمانيين في نزيب — يستخف بهم ثائراً عليهم^(١) . وكان من المنتظر أن يوجه نجيب باشا جهده ضد صفوق ولكن نجدوا على العكس من ذلك . ففي الوقت الذي أقدم فيه نجيب باشا على إعدام سليمان الغنام — شيخ عشائر العقيل^(٢) — نجده يحاول أن يحسن من علاقاته مع صفوق . ويبدو أن نجيب باشا كان قد أضمر في نفسه القضاء على صفوق ولكنه آثر أن يخفي أهدافه هذه إلى أن تحين الفرصة ولهذا أعاد صفوق إلى مشيخة الجربا وخلع عليه^(٣) .

ويبدو أن صفوق اعتقد أنه يستطيع الحصول على إمتيازات جديدة من نجيب باشا في مثل هذه الظروف . وقملاطلب صفوق ذلك منه . ولكنه وسط الوكيل السياسي الإنجليزي في بغداد الميجور روبرت تيلر R. Taylor لدى نجيب باشا من أجل الحصول على طلباته^(٤) .

ونعم أننا لاندرى هل نجح روبرت تيلر في وساطته أم لا ، فإنه مما لا شك فيه أن هذه الوساطة أساءت إلى صفوق ، فقد كان الولاة العثمانيون سيئو الظن بتلك العلاقات الودية التي كانت بين الدبلوماسيين الإنجليز والزعامات المحلية^(٥) .

(١) A.H. Layard : Nineveh and its Remains, London, 1848, vol. I, pp. 93-97.

(٢) Taylor to Secret Committee, November 24, 1842 (Political and Secret Department Records, Letters from Agent at Bagdad, vol. 13, pp. 115-117.

(٣) Taylor to Secret Committee, August 22, 1842 (Ibid., pp. 81-85).

(٤) Taylor to Secret Committee, October 18, 1834 (Pol. and Sec. Dep. Recs., Lets. fr. Pol. Ag. at Bag., vol. 13, pp. 231-235).

(٥) زادت هذه الظاهرة بوضوح في القرن التاسع عشر . ومن ذلك أن ناصر السعدون — شيخ عشائر المنتفق — أن يقبل دعوة نامق باشا له إلا بعد أن حصل على تأكيد سلامته من القنصل الإنجليزي في بغداد . كذلك وسط « مطلق آل كريدى » — شيخ عشائر —

ويبدو أن نجيب باشا كان يدبر المتاعب لصفوق ومن جهة أخرى كانت أحوال صفوق نفسه في تدهور مستمر منذ مجيء نجيب باشا إلى العراق. فقد ظهر منافس خطير لصفوق في شخص «نجريس» المطالب بالمشيخة. وكثيراً ما واجه صفوق مثل هذه المواقف، ولكنه في هذه المرة كان يبدو ضعيف الجانب أمام خصمه «نجريس» الذي استطاع أن يكسب إلى صفه قسماً كبيراً من العشائر.

وخلال هذه الأزمة بدا واضحاً أن صفوق في حاجة إلى قوة تشد أزره لكي يستعيد سيطرته الكاملة على عشائره. ويبدو أن صفوق وجد أنه لو قدم خدمات لنجيب باشا ربما استطاع أن يستعيد قوته وانفراد بالمشيخة. ولهذا أبدى صفوق استعداداً لمساعدة نجيب باشا في صد عشائر عنزة التي هبطت الجزيرة المراقية غازية ناهبة. ولكن نجيب باشا فضل أن يواجه عنزة بإمكانياته هو وبقوة المشائير البدوية الموالية له حتى لا يمكن صفوق من استعادة تفوقه وقوته^(١).

ولقد زاد موقف صفوق بعد ذلك تدهوراً بسبب بعض الأمور التي كانت خارج إرادته. فقد ضعفت الطبيعة على مراعي شمر بالأمطار لمدة عامين متتاليين حتى لقد أصبح صفوق نفسه في عوز شديد لدرجة أنه اضطر إلى بيع «خلخال» زوجته^(٢) في الموصل ليشتري به قمحاً^(٣).

ووجد نجيب باشا في هذه الظروف فرصة مواتية لإرهاق آل محمد (البيت الحاكم في شمر الجربا) إرهاقاً قد يمهّد للقضاء على صفوق. فقد كان المعتاد أو يتخذ

== الخزاغل - الفصل العام الفرنسي في بغداد ليشرح قضيته ليصنئ المشاكل بينه وبين والي بغداد انظر: .

Kemball to Erskine, February 24, 1864, No. 4, Précis of Turkish Arabia, Paragraph No. 142, F.O. 195/803, A. and Rawlinson to Secret Committee, December 26, 1843 (Political and Secret Department Records, Letters from the Persian Gulf, vol. 13, pp. 243-254).

Rawlinson to Canning, June 10, 1842 (Pol. and Sec. Rec. (١) Dept., Sec., Lets. fr. Ag. at Bagdad, vol. 14, pp. 55-63).

(٢) من عادة فتيات وسيدات العراق لبس الخخال الذهبي ويسمى في العراق (حجل ،

حجول).

Layard : Nineveh and its Remains, vol. I, pp. 93-97. (٣)

والى جانب أحد المتنافسين على المشيخة ، ولكن نجيب باشا لم ياخذ جانب صفوق ولا جانب نجريس وإنما أسند مشيخة شمر الجربا إلى فرحان بين صفوق ، وأخذ نجيد تحت فرحان على أن يثبت مقدرته على الوقوف على قدميه في مواجهة كل من أبيه صفوق ، وعمه نجريس . ولكن « فرحان » لم يسر في هذا الطريق الذى رسمه نجيب باشا له . وظل مخلصاً لأبيه ولفكرة وحدة العشيرة تحت زعامة صفوق . بل لقد حاول « فرحان » أن يصفى المشاكل التى كانت بين صفوق « ونجريس » حفاظاً على كيان البيت الحاكم وطى كيان العشائر الشمرية ويبدو أن صفوق وجد في هذا السعى الحميد فرصة لتحقيق أهدافه :

لقد وجه « صفوق » دعوة « نجريس » لمقعد اجتماع كبير لشيوخ عشائر شمر لتصفية الضغائن ولكن نجريس رفض قبول الدعوة لأنه كان يدرك أن « صفوق » مستعد لأن يقدم على أى عمل طائش في سبيل استعادة انفراد بالمشيخة . ولكن صفوق أصر على أن يكرر الدعوة إليه ، وبث بابنه فرحان ليطمشه وإيزيل ما لديه من مخاوف .

ولقد كان « فرحان » يخشى أن يحث أبوه بوعود ، وأن يغدر « بنجريس » فيعمله وزر هذه الوساطة . ولذلك أخذ « فرحان » المهود على أبيه بالأصيب نجريس بأى أذى إذا ما حضر الأخير في صحبته . وعلى هذا الأساس ذهب « نجريس » مع فرحان إلى الاجتماع ، ودخل خيمة صفوق ، وجلس الرجلان كل بجانب الآخر . وبعد فترة وجيزة استل صفوق سيفه وقتل نجريس رغم توسلات فرحان (١) .

لقد كان صفوق يعتقد أنه بقتل نجريس — مهما كانت الوسيلة — يستطيع أن يستعيد السيطرة الكاملة على عشائر شمر الجربا . ولكن ذلك العذر لم يكن مقبولا لدى العشائر البدوية الأمر الذى أدى إلى زيادة ضعف مكانة صفوق عن ذى قبل . وأخذت العشائر الشمرية تنعاز إلى مطالب جديدة بالمشيخة هو « عيوضة » النهري ثبت أقدامه في نواحي سنجار وشمال العراق .

Kemball to Cowley, September 29, 1847, F.O. 195/272. (١)

Layard : Nineveh and its Remains, vol. I, pp. 111-114. (٢)

Layard : Nineveh and its Remains, vol. I, pp. 111-114. (٣)

وعندما علم نجيب باشا — والى بغداد — بما أقدم عليه صفوق نحواً منجرس لم يلق اللوم على صفوق ، وقبل من صفوق أعذاره ومبرراته ، بل وثبته في المشيخة ، وأردف ذلك بأن أرسل إليه قوة عسكرية حكومية تحت قيادة « إبراهيم أغا » .

لقد كان نجيب باشا يلعب لعبة كبيرة . واختياره إبراهيم أغا بالذات ليتولى قيادة القوات الحكومية المذهبة لصفوق كان الخطوة الأولى في تنفيذ مؤامرة مدروسة ضد صفوق^(١) . فقد كان « إبراهيم أغا » هذا ضابطاً من ضباط (الهايتا) . وكان « إبراهيم أغا » شركسياً مسيحياً ثم أسلم . واشتهر بتنفيذ مؤامرات ناجحة ضد الزعماء الوطنيين الثائرين على السلطان العثماني . وكان الرجل ماهراً في التخلص من هؤلاء الزعماء بطريقته الخاصة . فكان يحتال بطريقة أو بأخرى لكي يصل إلى مجلس الأمير الثائر ، ثم يتقضى عليه فيصرعه بضربة من سيفه تقضى عليه أو بإطلاق الرصاص عليه فينتهى أمره في سرعة خاطفة ، ثم يعلن أن ذلك كان بأمر السلطان العثماني ، ويأخذ رأس الضحية وينصرف بها إلى المسؤولين العثمانيين الذين كانوا ينتظرون نجاح مهمته . وهذا ما فعله مع شيخ « زاخو »^(٢) .

تلك كانت مهارات « إبراهيم أغا » ، وذلك كان تاريخه ، ويبدو أن صفوق لم يكن يعرف عنه شيئاً حيث أنه قد عزم على الاعتماد عليه في بعض العمليات العسكرية بينما كان « إبراهيم » خلال وجوده لدى صفوق يتحين الفرصة المناسبة لتنفيذ المؤامرة .

وجاءت هذه الفرصة عندما اشتبكت قوات صفوق — بقيادة ابنه فرحان — مع عشيرة ثائرة . وعند ما ابتعد فرحان بقواته ، انقض « إبراهيم أغا » على صفوق فصرعه وقطع رأسه وأخذها معه إلى بغداد . وهكذا كانت نهاية « سلطان البر »^(٣) .

ويجدر بنا هنا أن نقيم أعمال صفوق : هل كانت كل تلك الحركات الكبرى التي قام بها صفوق من أجله هو فقط ومن أجل مصلحته الشخصية أم أنها كانت

(١) Layard : Nineveh and its Remains, vol. I, p. 114

(٢) أصبحت زاخو (في شمال العراق) منذ ذلك الوقت تحت الحكم المباشر العثماني .

(٣) Layard : Nineveh and its Remains, vol. I, p. 114

أيضاً من أجل عشيرته ورفع شأنها بين مختلف العشائر ؟ كما نتساءل أيضاً : ألم يكن صفوق أبداً هذفاً وأعمق فكرة عندما دافع عن العراق ضد الفرس ، وعندما تعاون مع القيادة المصرية في الشام ضد الحكم العثماني في العراق .

لا شك أن صفوق كان — رغم بداوه — من معدن فريد بين شيوخ العشائر . وأنه كان واسع الأفق إذا ما قورن بغيره من شيوخ العشائر الآخرين . وذلك لطول احتكاكه بالقرى العديدة التي كانت في داخل العراق وخارجه . ولا شك أن صفوق شعر بقيمة العراق له ، وبقيمته للعراق ، وأنه شخصية بذلت الكثير من أجل العراق فيحق لها أن تشارك في أموره وتوجيه سياسته .

ولكن سيطرة الفكر البدوي عليه ، وعدم قدرته على الارتفاع — بسبب ذلك — إلى مستويات الدبلوماسية المالية حينذاك كان يحول دون وصوله إلى مركز كبير في مجالات الحكم والإدارة . ثم إنه كشيخ عشيرة بدوية كان ينظر إليه من جانب أهل المدن بين القدر والريّة ، لأن البدو بالنسبة لأهل المدن — كانوا خطراً دائماً لا يجب أن تفتح المدينة لهم أبوابها وإلا استباحوها .

ولقد كان لصفوق عمليات قاسية ضد بعض المدن العراقية مثل بغداد وتكريت ، حتى أن أهل تكريت اضطروا إلى أن يحفروا خندقاً للدفاع عن المدينة ضد هجماته (١) .

ومن ثم لم يكن صفوق يمتلك مقومات الزعيم الوطني القادر على أن يحل محل الحكم العثماني . إلا أن مصرعه على تلك الصورة كان عاملاً هاماً جعل صفوق أسطورة البادية ، كما أنها عمقت الهوة بين الأتراك وآل محمد (شيوخ ثمر الجربا) (٢) .

وبعد مصرعه صفوق أسند نجيب باشا مشيخة عشائر ثمر الجربا إلى عيوضه الذي كان أقوى من نافس صفوق . بينما كان فرحان بن صفوق قد فر من وجه الحكومة حتى لا يلقى نفس مصير أبيه . ولكن سرعان ما غير نجيب باشا رأيه وعزل عيوضه وأسند المشيخة إلى فرحان (٣) . وأغلب الظن أن نجيب باشا لم يفعل

Jones, J.F. : Selections from the Records of the Bombay Government No. XLIII. Memoirs Bombay, 1857, p. 23. (١)

Rawlinson to Cowley : October 27, 1847. F.O. 195/272. (٢)

Sakdanha : Precise of Turkish Arabia, August 25, 1849, Nos. 25-26 ; Kembell to Cowley : September 29, 1947, F.O. 195/272. (٣)

هذا إلا ليستعيد ثقة عشائر شمر الجربا التي كانت متعلقة بصفوق وبإجماعه رغم أخطائه في أواخر أيامه . ثم أن فرحان نفسه كان صاحب تجارب وخبرات وصفات تجعله جديراً بالمشيخة سواء لدى الحكومة العثمانية أو لدى أهل العشائر أنفسهم .

فرحان هو أحد أبناء صفوق من زوجته الحضرية . وقد شارك أباه سنوات النفي في الآستانة (١٨٣٤ - ٨) . ويبدو أن مظاهر الأبهة والعظمة التي شاهدها في العاصمة العثمانية جعلته يعتقد أن الدولة العثمانية لا تقهر . ومن ناحية أخرى اعتقد في ضرورة إيجاد أسس قوية للتفاهم بين الحكومة العثمانية في العراق والعشائر البدوية .

والحق ، إن أفكار الشيوخ العشائريين في القرن التاسع عشر كان قد أصابها تغير واضح عنها في القرون العثمانية السابقة . فلقد هبت على العراق في القرن التاسع عشر تيارات عديدة قوية كانت تهز أفكار الناس هزاً ، وكانت الأزمات الكبرى التي تقع فيها الدولة العثمانية تصل بعض أنبائها إلى العراق ، وكان ظهور القوى الأوروبية بوضوح في الخليج العربي والشام من الأمور التي جعلت الزعامة الوطنية في المشرق العربي تعيد النظر في بعض أفكارها وإتجاهاتها . وكانت الدولة العثمانية نفسها تحاول أن تغير من طريقة حكمها ومن أساليب الإدارة لعلها تستطيع أن تصل إلى مستوى مصر .

ولا شك أن التغيرات التي طرأت على الدولة بسبب الإصلاحات والتنظيمات قد أثرت في أفكار شيوخ العشائر فجعلتهم يختلفون إلى حد ما عن أسلافهم في القرون العثمانية السابقة ويثمل فرحان نموذجاً لهذا النوع الجديد من الشيوخ الذين حاولوا التفاهم مع الحكومة وأن يحافظوا على كيان عشائريهم في آن واحد . فكان طبيعياً أن يجد نفسه في كثير من الأحوال يعيش في تناقضات شديدة ويعاني من إتجاهات متعارضة كل التعارض .

ولقد كان فرحان مخلصاً في أن يأخذ ببعض سياسات الحكومة وخاصة السياسة الهادفة إلى إستقرار العشائر في أرض محددة تقوم فيها بالأعمال الزراعية ، فتكف العشائر بالتالي عن عمليات الغزو ، وتصبح مصدر إنتاج وعاملاً من عوامل الهدوء في المنطقة . ولقد أدى ذلك إلى أن يزداد التفاهم بين فرحان والحكومة حتى لقد

أقدمت الأخيرة على خطوات هامة في هذا الصدد فقد اتفقت الحكومة معه على أن يحصل على مرتب شهرى ينفق منه على نفسه وعلى أسرته في مقابل عدم الأقدام على أية تحركات عسكرية ضد العشائر المجاورة وضمان الهدوء في ديرته^(١) . ولقد سار هذا التفاهم بين فرحان والحكومة إلى دجات بعيدة . فقد شارك فرحان الحكومة في الضغط على عشيرة حمود — وهى عشيرة شميرية — لإرغامها في رد ماسلبته من أموال الحكومة^(٢) .

ومن ناحية أخرى طلبت سلطات الآستانة — في محاولاتها للتفاهم مع القوى العشائرية — من وإلى الموصل أن يبعث ثلاثة من أولاد الأعيان ومن أسرة الجربا الحاكمة ليقموا في الآستانة وليلحقوا بمدرسة العشائر التى كان الهدف منها ربط شيوخ المستقبل بالولاء للسلطان العثمانى .

ولكن المشكلة العويصة هى : هل كانت العشائر الشميرية على استعداد لقبول تلك الاتجاهات التى كانت تعتبر تقدمية إلى درجة كبيرة حينذاك .

والحق ، كانت هناك عدة عوامل تحول دون نجاح فرحان في إقناع كل عشائره بالسير في تلك الاتجاهات . وأولى هذه العوامل أن عشائر شمر الجربا كانت كبيرة العدد ، ومراعيها المترامية في الصحراء لا تدخل ضمن الوادى المزروع . والمعروف أن العشائر البدوية عرضة في كل وقت لانفصال بعض أجزائها عنها الأمر الذى يجعل موقف شيخ العشيرة حرجا ، حيث أنه يظل مسئولاً عن أعمال تلك العشائر رغم انفصالها عن بيت الرئاسة .

ومثل هذه الظروف كفيلة بأن تخلق الزعيم الذى ينافس فرحان ويتطلع إلى الشيخة . ولقد تعرض فرحان لأزمات شديدة من هذا القبيل . فقد اتخذ أخوه نايف طريقاً خاصاً به على رأس بعض العشائر الشميرية مثيراً الفوضى والأزمات

Kemball to Bulwer : No. 27, Sept. 25, 1861, F.O. 195/676. (١)

Ross : Letters from the East, p. 61 ; Walpole : vol. I, pp. 339-340 ; Layard : Discoveries, pp. 268-269. (٢)

Rassam to Canning : No. 8, April 25, 1852, F.S. 195/394.

Rassam to Bulwer : Sept. 28, 1863, F.O. 195/752. (٣)

ليثبت للحكومة أن فرحان عاجز عن القيام بواجبه كشيخ العشائر. شمر الجربا لعل ذلك يؤدي إلى صدور قرار بزمه . ولكن يبدو أن نايف كان غير قادر على التغلب على فرحان ولا بالقادر على أن يفرض نفسه على الحكومة ، فلم تلبث تمرداته إن هدأت بعد وقت قصير (١) .

وإذا كانت تمردات « نايف » قليلة الخطر على فرحان أو على تماسك عشيرة شمر الجربا ، فإن تمردات أخيه الثاني « عبد الكريم » كانت على جانب كبير من الخطورة ، حيث أن التنافس بين « فرحان » و « عبد الكريم » لم يكن تنافساً على المشيخة فقط — مثلاً كان عليه الحال من قبل — وإنما كان يقوم على أساس اختلاف وجهات النظر بالنسبة لمستقبل العشيرة ، وقد برزت هذه الخلافات بصورة خطيرة عندما تولى مدحت باشا — المصلح التركي المشهور — حكم بغداد ، ١٨٦٩ (٢) .

فقد عقد مدحت باشا العزم على أن ينفذ سياسة تؤدي إلى استقرار العشائر في الزراعة . ولهذا عرض على « فرحان » مساحة مناسبة من الأراضي الزراعية لتستقر فيها عشيرته بالقرب من نهر دجلة . وقد قبل فرحان هذا العرض الأمر الذي شجع مدحت على المضي في مشروعه . ولكن قسماً كبيراً من العشائر الشمرية لم يقبل هذه السياسة . فكان ذلك فرصة سانحة لظهور زعامة جديدة تدافع عن وجهة نظر هذه العشائر . وكان عبد الكريم — أخو فرحان — معترساً على تلك الاتجاهات

(١) Kemball to Bulwer : No. 2, January 30, 1861, F.O. 195/676.

وتجدر الإشارة إلى أن عشائر شمر كانت تتعرض من وقت لآخر لضغط عنيف من جانب عشائر عتزة عدوتها التقليدية . ولقد تعرضت شمر الجربا لتمديدات عنيفة من جانب عشائر عتزة في ١٨٥٨ في نواحي الموصل . ويبدو أن فرحان طلب من والي بغداد أن يعبر بمشائره إلى ماوراء بغداد ، ولكن والي رفض لأنه كان يخشى من الفوضى التي ستنتج عن انتقال شمر إلى تلك الجهات ، وهذا يدلنا على أن عشائر شمر الجربا تحمت قيادة فرحان كانت أضعف شوكة منها عندما كانت تحت قيادة صفوق .

انظر :

Kemball to Bulwer : No. 2, January 30, 1861, F.O. 195/676.

Kemball to Allison : No. 5, February 8, 1858, F.O. 195/577.

Kemball to Lyons : No. 41, October 17, 1866 (Précis of Turkish Arabia. pp. 72-73). Kemball to Bulwer, January 30, 1861, No. 2, F.O. 195/676.

الحكومية . فزعزعه عبد الكريم ثورة كبيرة ، ونادى في العرب أن مشروعات مدحت باشا لا تهدف إلا إلى القضاء على تقاليدهم البدوية — التي هي خير من أية تقاليد أخرى من وجهة نظره . كما دعا العرب إلى أنه قد آن الأوان لأن يقف العرب وقفة رجل واحد ضد الحكومة التركية . ولقيت نداءاته هذه آذاناً مصفية لدى المشائير التي تمسكت بيداوتها^(١) .

وكانت العلاقات الاجتماعية ذات أثر كبير في تصاعد الحركة الثورية التي قام بها عبد الكريم . فقد كان عبد الكريم معترفاً بأن أمه هي عمشة العربية الأصلية ، بينما كان فرحان من زوجة أخرى لصفوق كانت حضرية . وكان عبد الكريم يفخر بأنه لم يذهب إلى الآستانة ولم يتطبع بطبائع الأتراك . وكان المروف عن فرحان أنه قد تقلد الرتب العثمانية ، كما كان عبد الكريم ينسب على أخيه فرحان أنه كان يأخذ مرتباً شهرياً من الحكومة^(٢) . ومثل هذه الدعايات تستطيع أن تجذب إليها الأسماع في ذلك المجتمع العشائري حينذاك . ولكنها من ناحية أخرى لا تستطيع أن تكسب كل القلوب ، حيث أن الفترة كانت فترة انتقال . وكان الناس يريدون التطور والتقدم وهم عاجزون عنه ، وخائفون على تقاليدهم من ذلك التطور والتقدم كانوا معترزين بأنفسهم ويرغبون رغبة صادقة في أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم . ولكنهم أضعف من أن يفرضوا ذلك على الحكومة العثمانية ذات الإمكانات العسكرية الواسعة . ولهذا انقسمت العشائر الشمرية بشدة على أنفسها ولكن في تردد واضطراب ، فلا استطاع فرحان أن يقنع عبد الكريم بخطيء مسعاه ، ولا استطاع عبد الكريم أن يقنع فرحان بفكرته . وظل كل منهما متمسكاً بقضيته .

وهناك أسباب أخرى قيل أنها أدت إلى ثورة عبد الكريم ومنها ما ذكره الفصل البريطاني في بغداد هربرت فقد قال إنه كان من المتعارف عليه أن يدفع العقيل — أدلة القوافل العاملة بين العراق والشام — مبلغاً من المال إلى شيوخ شمر لضمان سلامة القوافل أثناء مسيرتها في أراضي شمر . ولكن يبدو أن «العقيل» قدموا المبالغ السنوية لفرحان وليس لعبد الكريم . فاقض عبد الكريم على إحدى

Herbert to Elliot : August 2, 1871, No. 36, F.O. 195/949.

(١)

Herbert to Elliot : August 2, 1871, No. 36, F.O. 195/949.

(٢)

القوافل ونهبها باديةً بذلك ثورته^(١).

وقد كان مدحت باها شديد الحساسية لأى تهديد اطرق المواصلات التجارية بين العراق والشام حيث أنه كان معنياً كل العناية بتأمين هذه المواصلات البرية والنهرية عاملاً على رفع العراق إلى المستوى الذى يستطيع به أن ينافس قناة السويس طريق المواصلات العالمية. فلقد أدى افتتاح قناة السويس فى ١٨٦٩ إلى حث الحكومة العثمانية ومدحت باشا إلى العمل على تنشيط التجارة العالمية عبر العراق^(٢) وهذا لا يتأتى إلا باستتباب الأمن فى الطرق الهامة للمواصلات عبر العراق. ومن ثم كانت تحركات عبد الكريم تثير الاضطراب فى المشروعات العثمانية.

ومن ناحية أخرى وقعت ثورة عبد الكريم فى الوقت الذى كانت فيه القوات العثمانية قد تحركت من العراق للسيطرة على الإحساء^(٣) فأعلن مدحت أن عبد الكريم أصبح خارجاً على القانون وأعد العدة لتوجيه ضربة قوية له (١٧/٧/١٨٧١) ، وأعلن عن مكافأة قدرها عشرة آلاف قرش لمن يأتيه بعبد الكريم حياً ، وب نصف هذه المكافأة لمن يأتيه به ميتاً^(٤).

ويبدو أن الخطوات التى اتخذها مدحت ضد عبد الكريم كانت سرية المفعول فقد أخذت العشار تنفض عنه حتى أصبح من الواضح أنه لا يستطيع الصمود طويلاً أمام قوات الحكومة. ومن ناحية أخرى كان مدحت متمسكاً كل التمسك بتطبيق القانون على عبد الكريم ليكون ذلك عبرة لغيره من الشيوخ الذين يفكرون فى التمرد على الحكومة العثمانية.

وبعد وقت قصير وجد عبد الكريم أن بقاءه فى العراق يعرضه لخطر داهم

(١) Herbert to Elliot : July 17, 1871, F.O. 195/949.

(٢) حيدر مدحت ، تبصره عبرت ، ٩٨ ، يعقوب سر كيس ، مباحث عراقية ج ٢ ، نية ٢٧٧ .

(٣) انظر تفاصيل هذه الحملة فى F.O. 195/949. ومجموعة كبيرة من الوثائق المتعلقة ٢٧ الحملة موجودة بمكتبة كلية الآداب بجامعة عين شمس على ميكروفيلم . وانظر الفصل الحادى عشر من كتابنا « تاريخ العراق الحديث » .

(٤) Herbert to Elliot, No. 32, July 17, 1871 ; No. 36, August 2. 1871, F.O. 195/949.

فمزم على الرحيل إلى جبل ممر - للوطن الأصلي لعشيرته - وكان جبل شمر حينذاك تحت حكم آل رشيد . وكان آل رشيد يقدرّون تماماً أن الدولة العثمانية عازمة على أن تفرض سيطرتها بقوة على العراق وما جاوره ، ويشاهدون عن كثب تدفق القوات العثمانية على الإحساء (١٨٧١) (١) ، وكذلك مساعي مدحت لإقضاء البيت السعدي عن الحكم في الإحساء ونجد . ومن ثم كان وقوف آل رشيد بجانب ثورة عبد الكريم أو إيوائهم له قد يعرضهم لنقمة مدحت .

لقد سارع مدحت منذ البداية إلى توجيه تحذير شديد اللهجة إلى آل رشيد طالباً منهم عدم إيواء عبد الكريم إن قدم عليهم . وبهذه الخطوة يكون مدحت قد أحكم الحلقة حول عبد الكريم . ومن سوء حظ عبد الكريم أنه أصيب بمجرع أضعف من قدراته على الحركة وأخيراً وقع في يد ناصر السعدون - شيخ عشائر المنتفق - الذي لم يتوان عن تسليمه إلى مدحت باشا (٢) .

وتلقى آن بلنت A. Blunt لوماً شديداً على ناصر السعدون لأنه سلم عبد الكريم إلى رجال الحكومة (٣) . والواقع أن عبد الكريم - من وجهة نظر الحكومة - كان مجرد نائر خطر عليها ، فمن يعاونه أو يخفيه كان سيعرض نفسه للعقوبات الجنائية التي كان مدحت حريصاً على تطبيقها في مثل هذه الظروف . ولقد كان ناصر السعدون مشغولاً عن الأمن في منطقة المنتفق ، ومشغولاً عن التعاون مع الحكومة . ومن ثم فإن ناصر السعدون قام بواجبه في هذا الصدد . ولكن للموضوع وجه آخر . وهو أن العرب اشتهروا بحماية بني جلدتهم من رجال الحكومة الأتراك . والحق ، لقد كان الوقت عبارة عن فترة انتقال من الولاء للفرع العثماني إلى الولاء للفرع العربي . وفترات الانتقال تكون عادة مليئة بالتناقضات . فلقد كان ناصر السعدون بين نارين : هل يحكم العاطفة ورابطة الدم أم القانون التركي ؟

Lorimer : Gazetteer of the Persian Gulf, vol. I, Part I, p. (١)

A. Blunt : Bedouin Tribes. vol. I, pp. 122-123. (٢)
1129.

Ibid (٣)

وكان قراره هو تسليم عبد الكريم إلى الحكومة لأنه كان مسئولاً أمامها ، وقد يمرض عشائر التتق لتتابع قاسية إن هو عارض سياسة الحكومة .

بعد أن تسلمت الحكومة في بغداد عبد الكريم عقدت له محاكمة رسمية وأجريت مراسيمها تحت إشراف وتوجيه مدحت حتى صدر حكم الإعدام على عبد الكريم . ثم تقرر ترحيله إلى الآستانة ولكنه ما أن وصل إلى الموصل حتى جاء التصديق بإعدامه سناً ، فنفذ فيه الحكم قرب الموصل في نفس المنطقة التي بدأ منها ثورته (١) .

وإذا كان أمر عبد الكريم قد انتهى على هذه الصورة الدرامية ، فإن أمه عمشة آلت على نفسها أن يستمر أبناؤها في التطوع إلى منصب المشيخة ، وأن يظلوا مخلصين لتقاليد البدو والبادية . وهذا ليس بمستغرب على سيدة — مثل عمشة عاشت معظم حياتها في كفاح متواصل إلى جانب صفوق ثم إلى جانب ابنها عبد الكريم — أن لا تكف عن الكفاح من أجل رفع أحد أبناء صفوق إلى منصب الولاية . ولا شك أنه فقدوا زوجها صفوق على تلك الصورة الغادرة ثم إعدام ابنها عبد الكريم جعلها أكثر صلابة في مقاومة الترك عن ذي قبل . فقد أخذت أولاد عبد الكريم وكذلك ابنها فارس إلى جبل ثمر . وهناك ربهم تربية بدوية أصيلة وأرضتهم لبان الكراهية للترك ولفرحان شيخ العشائر .

ولما أصبح فارس بن صفوق فتى من فتيان العرب دفعت به إلى معترك السياسة مطالباً بمشاركة فرحان المشيخة . واستطاع فارس أن يكسب إلى جانبه عدداً من العشائر وبدأ كأن جولة جديدة من الصراع الأسرى بين آل محمد على وشك الوقوع . ولكن الحكومة عملت على الوصول إلى تسوية أرضت الطرفين . فقد اتفقت مع « فارس » على إعطائه مرتباً شهرياً في مقابل هدوء العشائر التي تحت يده . وهكذا أخذت أمور المشيرة في الاستقرار . حقيقة وقعت بعض الأحداث إلا أن هذه الأحداث لم ترتفع إلى المستويات المالية التي مرت بنا أيام « مطلق بن محمد » ،

(١) حيدر مدحت ، نبصرة عبرت ومرآة حيرت ، استانبول ١١٠-١١٣ .

و « صفاق » ، « فرجين » . « وعبد الكريم » ثم أنه المراق كان قد دخل في مرحلة جديدة تنسم بالعمل السياسي القائم على الفكر العربي المتطور .

فمنذ أواخر القرن التاسع عشر أصبحت الزعامات العربية العراقية مركزة في جماعات المثقفين من أهل المدن الذين كانوا في نفس الوقت يستمدون كثيراً من قوتهم ضد عشائريهم . وهذه مرحلة من أهم مراحل التاريخ العراقي الحديث .

في هذه المرحلة بدأ يتجلى دور المثقفين في الحياة السياسية العراقية ، وكانوا هم الذين بدأوا في التفكير في التغيير الاجتماعي والسياسي في العراق .

وكان دور المثقفين في الحياة السياسية العراقية يتجلى في عدة مجالات ، من أهمها :
١ - العمل على تحديث الفكر العربي في العراق ، وذلك من خلال الترجمة والنشر .
٢ - العمل على تنظيم الحركات الاجتماعية والسياسية .
٣ - العمل على توعية الشعب العراقي ، وذلك من خلال الصحافة والخطب .
٤ - العمل على مقاومة الاستعمار ، وذلك من خلال المقاومة المسلحة .
٥ - العمل على تحقيق الديمقراطية ، وذلك من خلال العمل البرلماني .
٦ - العمل على تحقيق العدالة الاجتماعية ، وذلك من خلال العمل النقابي .
٧ - العمل على تحقيق التنمية الاقتصادية ، وذلك من خلال العمل الصناعي .
٨ - العمل على تحقيق التنمية الثقافية ، وذلك من خلال العمل التعليمي .
٩ - العمل على تحقيق التنمية السياسية ، وذلك من خلال العمل الحزبي .
١٠ - العمل على تحقيق التنمية الاجتماعية ، وذلك من خلال العمل الخيري .

وكان دور المثقفين في الحياة السياسية العراقية يتجلى في عدة مجالات ، من أهمها :
١ - العمل على تحديث الفكر العربي في العراق ، وذلك من خلال الترجمة والنشر .
٢ - العمل على تنظيم الحركات الاجتماعية والسياسية .
٣ - العمل على توعية الشعب العراقي ، وذلك من خلال الصحافة والخطب .
٤ - العمل على مقاومة الاستعمار ، وذلك من خلال المقاومة المسلحة .
٥ - العمل على تحقيق الديمقراطية ، وذلك من خلال العمل البرلماني .
٦ - العمل على تحقيق العدالة الاجتماعية ، وذلك من خلال العمل النقابي .
٧ - العمل على تحقيق التنمية الاقتصادية ، وذلك من خلال العمل الصناعي .
٨ - العمل على تحقيق التنمية الثقافية ، وذلك من خلال العمل التعليمي .
٩ - العمل على تحقيق التنمية السياسية ، وذلك من خلال العمل الحزبي .
١٠ - العمل على تحقيق التنمية الاجتماعية ، وذلك من خلال العمل الخيري .

وكان دور المثقفين في الحياة السياسية العراقية يتجلى في عدة مجالات ، من أهمها :
١ - العمل على تحديث الفكر العربي في العراق ، وذلك من خلال الترجمة والنشر .
٢ - العمل على تنظيم الحركات الاجتماعية والسياسية .
٣ - العمل على توعية الشعب العراقي ، وذلك من خلال الصحافة والخطب .
٤ - العمل على مقاومة الاستعمار ، وذلك من خلال المقاومة المسلحة .
٥ - العمل على تحقيق الديمقراطية ، وذلك من خلال العمل البرلماني .
٦ - العمل على تحقيق العدالة الاجتماعية ، وذلك من خلال العمل النقابي .
٧ - العمل على تحقيق التنمية الاقتصادية ، وذلك من خلال العمل الصناعي .
٨ - العمل على تحقيق التنمية الثقافية ، وذلك من خلال العمل التعليمي .
٩ - العمل على تحقيق التنمية السياسية ، وذلك من خلال العمل الحزبي .
١٠ - العمل على تحقيق التنمية الاجتماعية ، وذلك من خلال العمل الخيري .

المراجع

أولا - وثائق غير منشورة

١ - دار الوثائق الأهلية في عابدين

محفظة ٢٣١، ٢٤٦، ٢٥٧، ٢٥٨.

Commonwealth Relations Library :

a) India Office Records, Factory Records, Persia and the Persian Gulf, vols. 47, 49, 51, 54.

b) Political and Secret Department Records :
Letters from Agents at Bagdad, vol. 13-14.

Public Record Office :

a) F.O. 78 : 210, 371, 394.

b) F.O. 195 : 803A, 272, 577, 676, 752, 949.

ثانيا - المؤلفات العربية والتركية

١ - جودت باها :

تاريخ جودت ، ج ٧ ، مطبعة عثمانية د ، طبع المصدر ، ١٣٠٢ هـ .

٢ - سر كيس (يعقوب) :

مباحث عراقية . جزءان ١٩٤٨ .

٣ - مند (عثمان) :

مختصر مطالع السعود بطيب أخبار الوالى داود . اختصره أمين بن حسن

الحلوانى ، طبع ببي ١٣٠٤ هـ .

٤ - المزاولى (عباس) :

(١) تاريخ العراق بين احتلاين ، بغداد ، ج ٥ (١٩٥٣) ، ج ٦ ،

(١٩٥٤) .

(ب) عشائر العراق ، ج ١ ، بغداد ١٩٣٧ .

٥ - فائق (سليمان) :

تاريخ بغداد ، بغداد ١٩٦٥ .

٦ - فريزر (جيمس بيلي) :

رحلة فريز ، ترجمة جعفر الحياط ، الطبعة الأولى ، مطبعة المعارف ،
بغداد ١٩٦٤ .

- قرالي (بولس) :

نظر الدين المعنى الثاني ودولة تسكانيا ١٦٠٥ - ١٦٣٥ .

رومية ، مجمع العلوم والفنون الملكي الإيطالي ١٩٣٨ ، الجزء الثاني .

٨ - السكركوكي (رسول)

دعوة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء ، نقله عن التركية موسى
كازم نورس . دار الكتاب العربي بيروت .

٩ - لونكربك (هنري) :

أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، الطبعة الثالثة بغداد ١٩٦٢ .

١٠ - مدحت (حيدر)

تبصره عبرت و امرأة حيرت . استنبول

١١ - نوار (عبد العزيز)

(أ) تاريخ العراق الحديث . دار الكتاب العربي القاهرة ١٩٦٨

(المكتبة العربية) .

(ب) داود باشا وإلى بغداد : دار الكتاب العربي القاهرة ١٩٦٨

(المكتبة العربية) .

ثالثا — المؤلفات الأوربية

1. Ainsworth, W.F. :
A Personal Narrative of the Euphrates Expedition (2 vols.), London, 1888.
2. Blunt, Ann :
Bedouin Tribes of the Euphrates, 2 vols., London, 1879.
3. Chesney, F.R. :
Narrative of the Euphrates Expedition, Carried on By Order of the British Government during the Years 1835, 1836, 1837, London, 1868.
4. Groves, A.N. :
Journal of a Residence at Bagdad during the years 1830-1831, London, 1832.
5. Hoskins, H.L. :
British Routes to India, London, 1928.
6. Jones, J.F. :
Selections from the Records of the Bombay Government, No. XLIII, Memoirs, Bombay, 1857.
7. Layard, H. :
 - a) Nineveh and its Remains. With an Account of a Visit to Chaldaean Christians of Kurdistan, London, 1849, 2 vols.
 - b) Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon, London, 1853.
8. Lorimer J.G. :
Gazetteer of the Persian Gulf, vol. 1, Parts 1-11, Culcutta, Superintendent Government Printing, India, 1908.
9. Ross, H.J. :
Letters from the East 1837-1857. Edited by his wife, London, 1902.
10. Saldanha, J. :
Precis of Turkish Arabia, 1904, (India Office Library).
11. Walpole, R.N. :
The Ansayri or Assassins. Travels in the further East in 1850-1851. Including a Visit to Nineveh, London, 1851.

obeikandi.com

فاشودة الصغيرة

١٨٩٩ - ١٩٠٦

للكونر بوناه ليب رزق

ترك سقوط الحكم المصرى فى السودان فى أوائل الثمانينيات من القرن الماضى فراغاً سياسياً وعسكرياً ضخماً فى تلك البلاد .

وإذا كانت « الدولة المهدية » قد استطاعت سد جانب من هذا الفراغ فى شمال السودان أمام تحديات هائلة من احتمالات الغزو الخارجى والثورات الداخلية إلا أنها بالقطع لم تستطع أن تقوم بهذا الدور كاملاً فى جنوبه للأسباب الآتية :

١ - صعوبة المواصلات البالغة بين الشمال والجنوب .

٢ - عدم قبول قبائل تلك الجهات للحكم المهدى ، ويروى تاريخ المهدية كثيراً من قصص ثورات هذه القبائل على « الأنصار » .

٣ - ضعف إمكانيات المهدية المادية عن تمويل حكم قوى يكفل سيطرة معقولة على تلك الجهات .

٤ - تعاظم الأطماع الامبريالية الأوروبية فى أفريقيا عامة فى تلك الحقبة ، ولا شك أن جنوب السودان بوضعه هذا كان هدفاً مرغوباً لقوى الاستعمار النامية فى تلك الجهات .

ومن هنا أتى تسابق تلك القوى المرير نحو السيطرة على ما كان يشكل مديريات جنوب السودان المصرى .

وقد أدى هذا السباق إلى صدامات دبلوماسية عنيفة كادت تتحول في بعض مراحلها إلى تشابك بالسلح ، وقد حدث هذا مرتين :

الأولى : في الصدام العسكرى الذى كاد ينشب بين أكبر قوتين استعماريتين في العالم وقتذاك — بريطانيا وفرنسا — فيما عرف « بأزمة فاشودة » والى إنتهت بتراجع الفرنسيين وبصدور « تصريح ٢١ مارس ١٨٩٩ » بدسوية الأزمة .

الثانية : في الصدام العسكرى الذى كاد يحدث أكثر من مرة بين القوات « الكونتو — بلجيكية » وبين القوات « الأنجلو — مصرية » فيما تنفق على تسميته « بأزمة فاشودة الصغيرة » .

« وفاشودة الصغيرة » لها نفس ملامح « فاشودة الكبيرة » وإن لم يكن لها نفس حظها من الشهرة السياسية أو التاريخية ، ويعود ذلك فى الغالب إلى أن الأخيرة كادت تؤدى إلى حرب أوربية عامة أما الأولى فلم يكن من المنتظر أن تؤدى فى أسوأ الظروف إلى أكثر من صدام عسكرى محدود فى تلك الجهات النائية من القارة الافريقية .

ولكن ذلك — على وجه التأكيد — لا يسلب تلك الأزمة السياسية حقها فى التسجيل والتحليل التاريخيين وهو ما نحاول أن نفعله هنا .

الوجود الكونغولى فى جنوب السودان قبل ١٨٩٩

يعترف الملك « ليوبولد الثانى » ملك بلجيكا وصاحب الكونغو عام ١٨٩٤ أن « الجنرال غوردن » كان أول من وجه أنظاره إلى المديرىات الجنوبية فى السودان قبل ذلك بعشر سنوات — ١٨٨٤ — وذلك أثناء وجود الأخير فى بروكسل خلال تلك السنة^(١) .

(١) F.O. 10/416 Plunkett to Kimberley, April 29, 1894 quoted from : Gray, R., A History of the Southern Sudan, 1839-1889.

ومن المعروف أنه عندما استدعى غوردن لتنفيذ « سياسة الإخلاء » تضمن مشروع تنفيذ هذه السياسة اقتراحاً ببقاء القوات الموجودة في مديريات بحر العزال وخط الإستواء والتي يقودها « لتون » و « أمين » بأسلحتها في مراكزها مع إلحاق هذه المديريات بالسكنغو تحت حماية ملك البلجيك^(١).

ولكن أدى مقتل غوردن إلى فشل هذه الخطة وإلى أن يولى ليوبولد وجهه شطر مشروع آخر ، ففي عام ١٨٨٧ رأى الملك أن يكلف أمين باشا بالدور الذي لم يستطع غوردن أن يلعبه ١٨٨٤ — ١٨٨٥ ، وعلى ذلك فقد قدم له عن طريق « ستانلي » — الذي كان قد تقرر أن يقود حملة لإقناع أمين باشا ومن معه — مركز الحاكم السكونغوى للمديرية الإستوائية^(١). ولكن رفض أمين باشا هذا الاقتراح ولم يحاول ستانلي أن يضغط عليه حتى يقبله^(٢).

وفيما بين عامي ١٨٨٧ ، ١٨٩٠ وصل المسكتشفون الأوروبيون إلى منابع النهر المختلفة عند خط تقسيم المياه بين النيل والسكونغو ، وقد صاحب عمليات الكشف تلك جهود دبلوماسية أدت إلى إبرام « معاهدة ما كينون » في ٢٤ مايو ١٨٩٠ بين دولة السكونغو الحرة و « شركة شرق أفريقيا البريطانية الإمبراطورية Imperial British East Africa Co. » ، وقد وافقت الشركة المذكورة بمقتضى هذه المعاهدة على ألا تقوم بأى عمل سياسى على الشاطئ الأيسر للنيل شمالاً حتى اللادو ، واعترفت لدولة السكونغو « بحقوق السيادة » على الأراضي المذكورة. ومن ناحية أخرى أخرجت السكونغو إلى الشركة شريطاً من الأراضي يمتد من بحيرة ألبرت إلى الطرف الشمالى من بحيرة تنجانيقا .

Pensa, H., L'Egypte et le Soudan Egyptien, p. 322. (١)

Sanderson, G.N., England, Europe and the Upper Nile, p. 35. (٢)

Langer, W., The Diplomacy of Imperialism, p. 114. (٣)

وبالرغم من أن « معاهدة ماكينون » لم تقدم رسمياً إلى الحكومة البريطانية إلا أن « سولسبرى » وزير الخارجية البريطانية وافق عليها « بصفة شخصية » ، وأدى هذا إلى تزايد الشعور في بروكسل بأن ليوبولد قد نجح أخيراً في تنظيف الطريق — دبلوماسياً — نحو التقدم إلى النيل ^(١) .

وإلى جانب النجاح الدبلوماسى فلا شك أن الأوضاع التى ترتبت على تحطيم الحكم المصرى فى جنوب السودان قد شجعت « سيد الكوتغو » على إنفاذ قواته إلى تلك الجهات آملاً أن يفرض سيطرته عليها بمعونة بقايا القوات العسكرية التى كانت تخدم تحت العلم المصرى ، وتجمعت قوة كوتغولية بقيادة « فان كركهوفن Van Kerkhoven » قرب أواخر عام ١٨٩٠ وتقدمت إلى المديرتين « الاستوائية » و « بحر الغزال » ، ورغم وفاة قائد الحملة فى سبتمبر ١٨٩٢ إلا أن ضباطه قد استطاعوا رفع الأعلام الكوتغولية على عدة مراكز فى المديرية الاستوائية (كبرى وموجى ، ولابوريه ، ودوفيله) وفى بحر الغزال (حفرة النحاس ، وكاتواكا وليفى وديم الزبير) ^(٢) .

كما نجحت الحملة الكوتغولية فى كسب بقايا القوة المصرية فى المديرية الاستوائية التى كان يقودها « فضل المولى » .

ولكن ما لبث المهديون أن عصفوا بقوة فضل المولى وأبادوها عن آخرها ^(٣) ، ثم ما لبثوا أن أخذوا فى التقدم نحو خط تقسيم المياه بين النيل والكنغو لمواجهة القوات الكوتغولية الموجوده فى تلك الجهات . وقد صاحب هذا التقدم المهدي انتشار الثورة فى « الدولة الحرة » ابتداء من فبراير عام ١٨٨٤ ، وفى ظل هذه الظروف القاسية تقدمت قوة مهدية بقيادة « على عبد الرحمن » إلى « موندو » وكانت مركز

Collins, Robert O., *Anglo-Congolaise Négociations, 1900-1906*, Zaire — *Revue congolaise*, vol. XII, part. 5, p. 480. (١)

Wauters, *L'Etat indépendant du Congo*, pp. 93-94. (٢)

Slatin, R., *Fire and Sward in the Sudan*, pp. 93-94. (٣)

قيادة القوات الكونغولية في بحر الغزال ، ونتج عن القتال العنيف الذى دار حوله هذا المركز انسحاب الضباط البلجيك بقواتهم في النهاية من « موندو » ، ثم ما لبثوا أن انسحبوا من عدة مراكز أخرى في بحر الغزال خلال ابريل من نفس العام^(١).

ومع تلك الانتكاسة العسكرية كان على ليوبولد أن يواجه الانتكاسة السياسية فاعتقاده بالرضاء البريطانى عن « معاهدة ماكينون » بدأ يهتز بشدة ، ففي أول مارس عام ١٨٩٢ طالب السفير البريطانى في بروكسل دولة الكونغو بتأكيدات بأنها لن تتقدم وراء حدودها التى أعلنت في « تصريح ١٨٨٥ » وألا تحاول الدخول إلى منطقة النفوذ البريطانية المحددة في الإتفاقية الإنجليزية — الألمانية المعقودة في أول يولية عام ١٨٩٠ .

وقد فوجئ ليوبولد بهذا الطلب وأشار إلى موافقة اللورد سولسبرى على معاهدة ماكينون فأجابت الحكومة البريطانية بأنها لا ترى أى قيمة لهذه الموافقة ، على أساس أن اللورد سولسبرى قد عبر عن رأيه الشخصى وليس عن قرار اتخذ من جانب الحكومة البريطانية ، كما أنه ليس « لشركة شرق أفريقيا البريطانية الإمبراطورية » أى سلطة للتنازل عن حقوق سياسية ، يضاف إلى ذلك أن الشرط الخاص بتأجير شريط تنجانيقا الوارد في المعاهدة لم ينفذ على الإطلاق .

وكان على ملك بلجيكا أن يكافح من جديد ، ففي أول يولية عام ١٨٩٢ اقترح ليوبولد على البريطانيين أن تحصل دولة الكونغو على إيجار منطقة في أعلى النيل ولكن لم توافق لندن على الاقتراح وانتهت المفاوضات التى جرت بشأنه دون نتيجة في أغسطس ١٨٩٣ . وعندئذ توجه ليوبولد إلى باريس حيث أجرى أيضاً مفاوضات لا نتيجة لها .

وفي ربيع عام ١٨٩٤ منحت الفرصة « لصاحب الكونغو » حين تم تقارب فرنسى — ألماني في الميدان الأفريقى ضد إنجلترا ، فمعاهدة الكرون الفرنسية — الألمانية التى تم إبرامها في ٢ فبراير ١٨٩٤ قد تركت لفرنسا حرية التقدم شمالا وشرقا

حتى النيل . وأثرت هذه المعاهدة تأثيراً فعالاً على دوائر وزارة الخارجية البريطانية لا سيما بعد أن وصلتها التقارير بأن « قوة فرنسية يقودها مونتي Monteil تنوى التقدم إلى اللادو أو فاشودة » . وأدى ذلك إلى إرسال مبعوث بريطاني هو « رينل رود » إلى بروكسل يحمل تعليمات محددة بالتفاوض حيث وضعت أسس اتفاق نهائي ما لبث أن ظهر في صورة المعاهدة التي وقعت في لندن في ١٢ مايو عام ١٨٩٤^(١) .

وكان أهم ما في هذه المعاهدة المادة الثانية التي استأجر الملك ليوبولد بمقتضاها منطقة ضخمة غربي بحر الغزال^(٢) ، واستهدفت بريطانيا من وراء ذلك خلق « حاجز بلجيكي » أمام التقدم الفرنسي المتوقع .

ولكن لم يتحقق الأمل البريطاني فسرعان ما انهار ليوبولد تحت وطأة ضغط الفرنسيين ، واضطر إلى أن يوقع معهم معاهدة ١٤ أغسطس ١٨٩٤ التي تنازل في مادتها الرابعة عن أغلب ما منحه له معاهدة ١٢ مايو مع البريطانيين ، وقع بتلك المنطقة التي عرفت فيما بعد باسم « حاجز اللادو »^(٣) . وافتتح بذلك الطريق أمام الفرنسيين نحو النيل مما مهد لوصول « مارشان » إلى فاشودة وانتهى إلى الصدام البريطاني — الفرنسي في الأزمة المشهورة باسم تلك البقعة .

وتج عن معاهدة أغسطس أن اقتصر النشاط الكونغولي بعد عام ١٨٩٤ على منطقة الحاجز تلك ، فعندما تقرر أواخر عام ١٨٩٥ إرسال « دهانيس » على رأس حملة إلى تلك الجهات حددت التعليمات التي صدرت إليه مدى نشاطه باحتلال حاجز « اللادو » الذي سيصبح نهاية لحدود الدولة الحرة ولن تعمل على تجاوزه^(٤) .

وهكذا تجدد النشاط الكونغولي في إطار الحاجز حتى عام ١٨٩٨ إلى أن تم إنهاء الحكم المهدي للسودان وما ترتب على هذا الإنهاء من المواجهة البريطانية —

(١) Collins, Anglo-Congolaise Negotiations, part 5, pp. 482-483.

(٢) Hertslett, The Map of Africa by Treaty, vol. II, pp. 579-580.

(٣) Ibid., p. 570.

(٤) Wauters, op. cit., p. 78.

الفرنسية في فاشودة في نفس العام واستسلام فرنسا وخروجها من ميدان التنافس في أعالي النيل بمقتضى تصريح ٢١ مارس ١٨٩٩ .

وقد نظرت كل من بروكسل ولندن إلى نهاية الأزمة البريطانية — الفرنسية نظرة مختلفة ، ففي الوقت الذى رأى فيه ليوبولد أن الانسحاب الفرنسى يعنى سقوط معاهدة أغسطس ١٨٩٤ التى كبله الفرنسيون بمقتضاها داخل حدود الحجاز ، وتصور بناء على ذلك أن عليه الإنطلاق للحصول على كافة ما منحه له معاهدة ١٢ مايو ، رأى البريطانيون أن دور الكونغو الذى كان قد تقرر في المعاهدة المذكورة والذي فشل في تحقيقه قد انتهى ، ولم تتردد الحكومة البريطانية في إبلاغ بروكسل بهذا الرأي ، ففي ١٥ مايو عام ١٨٩٩ قام السفير البريطانى في العاصمة البلجيكية بإبلاغ ممثلى دولة الكونغو أنه كنتيجة لموقعة أم درمان فإن حقوق مصر التى تم الاتفاق عليها في الخطابات الملحقه بمعاهدة ١٨٨٤ قد تم إحيائها^(١) ، وأن نتائجاً خطيرة ستترتب على محاولة الملك التقدم فيما وراء منطقة النفوذ التى اعترفت له بها الاتفاقية الفرنسية — الكونغولية في ١٤ أغسطس ١٨٩٤ — أى حجاز اللادو — وقال بلانكت : « لا تحاولوا أن تواجهونا بالأمر الواقع فقد حاول الفرنسيون ذلك وأخفقوا »^(٢) .

كما حرص البريطانيون على إبلاغ هذا الرأى إلى القائد البلجيكي في اللادو ، ففي أواخر عام ١٨٩٩ أرسلت قوة أنجلو - مصرية إلى تلك الجهات ومعها تعليمات محددة بإبلاغ البلجيكي أن الحكومة البريطانية « لا تعترف لملك البلجيكي بأى حقوق للملكية دأمة لأى جزء من وادى النيل »^(٣) ، وقام الضابط البريطانى بمهمته ،

(١) فقد ألحق بهذه المعاهدة خطابان متبادلان بين وزيرى الخارجية البريطانية والكونغولية وقد وافق الأخير على الاعتراف بحقوق مصر في الجهات المؤجرة في الوقت الذى يستقيم فيه المصريون ممارسة هذه الحقوق .

(٢) Sanderson, G.N. Leopold II and The Nile Valley — The Sudan Historical Association Proceedings, vol. I, part VII, p. 56.

(٣) C.R.O.S. Sudan Intelligence Reports, No. 67. Director of Intelligence Dep. to Officer Commanding Expedition to Open White Nile, Dec. 16, 1899.

وحصل على وعد من « القومندان هنرى » القائد البلجيكي بأنه لن يرفع أعلام الدولة الحرة على أى مركز خارج الحاجز (١) .

ولكن هذا الوعد من جانب السلطات المحلية الكونغولية لم يمتثل استسلاماً بلجيكياً للرأى البريطانى « بعودة إحياء الحقوق المصرية » ، بالعكس فقد شهدت السنوات السبع التالية صراعاً عنيفاً تراوح بين مقارعة الحجب واحتمالات قرعة السلاح !!

مرحلة المفاوضات وفتحها ١٨٩٩ — ١٩٠٣ :

إذا كانت الدبلوماسية البريطانية قد أبعدت دولة الكونغو من بحر الغزال بالإشارة إلى الخطابات الملحقة بمعاهدة مايو ١٨٩٤ فإن ليوبولد أراد بنفس شروط تلك المعاهدة أن يؤكد حقوقه فى الأرض المؤجرة له بمقتضاها .

ولما لم يكن الملك البلجيكي على إستعداد لمغامرة الإحتلال العسكرى للأرض المؤجرة — وكان هذا مستحيلاً عام ١٨٩٩ وتجربة فرنسا فى فاشودة لازالت ماثلة أمام كافة الساسة الأوربيين — ومن ثم فقد لجأ إلى أسلوب آخر وذلك بتأكيد حقوقه بإحياء بعض الإمتيازات التجارية .

فى عام ١٨٩٤ وبعد توقيع المعاهدة الإنجليزية — الكونغولية بفترة قصيرة . كون ليوبولد شركة باسم "Société Générale Africaine" حصلت على إمتياز غير محدود لإستغلال وتعمية الأراضى المؤجرة . وقد تنازلت هذه الشركة عن حقوقها فى تلك الأراضى بعد أن قسمتها إلى قسمين إلى شركتين بريطانيتين هما « شركة أفريقيا البريطانية الإستوائية The British Tropical Africa Co. » و « شركة أفريقيا الإنجلو — بلجيكية The Anglo-Belgian Africa Co. » ، وكان رأس مجلس إدارة الشركتين « السير ليل جريفن Griffin » وإن كان ممولها الرئيسى صاحب السفن اللندنى والمالى المشهور « سير جون ويليا مسون جونسون » (٢) .

Ibid., Officer to Director, Jan. 22, 1900.

(١)

Sanderson, G.N. Leopold II and The Nile Valley, p. 57.

(٢)

وكانت هذه الأراضي التي حصلت عليها الشركتان قد نزعَت من الكونغوليين بمقتضى معاهدة أغسطس ١٨٩٤ مع فرنسا . وكان من الواضح وقتذاك أنه ليس لدى ليوبولد أو شركاته أى أمل في ممارسة نشاطهم في تلك الأراضي ، ولكن في ظل الظروف الجديدة التي تمخضت عن خروج الفرنسيين من ميدان الصراع عاد ليوبولد يسمى إلى إحياء هذه الإمتيازات .

ففي ٢ مايو عام ١٨٩٩ أبلغ « المسيو دى كوفليه De Cuvelier » ممثل دولة الكونغو السفير البريطاني في بروكسل رسمياً بوجود هذه الإمتيازات ، ودخل هذا الإبلاغ إلى حيز التنفيذ خلال العام التالي ففي ٢٩ يونية عام ١٩٠٠ طلبت كل من « شركة أفريقيا الأنجلو — بلجيكية » و « شركة أفريقيا البريطانية الإستوائية » من وزارة الخارجية البريطانية تأمين سفر موظفيهما عبر السودان إلى بحر الغزال . وقد تساءلت الوزارة في ٩ يولية عن مدى الإمتيازات الممنوحة للشركتين وعن الطرق التي سيسلكها موظفوها لبلوغ مقاصدهم . ووصل رد الشركتين في أول أغسطس وقد أكدتا فيه أنهما لن يمارسا أى سلطات سياسية وإن هدفهما الوحيد يتركز في العمل على التطوير التجارى لأعلى النيل .

وكان إعتراف الحكومة البريطانية بمطالب الشركتين يعنى اعترافها بحقوق ليوبولد في الأراضي المؤجرة له بمقتضى المادة الثانية من معاهدة ١٨٩٤ ، ومثل هذا الإعتراف كان مستحيلا من الناحية السياسية ، فالإعتراف بادعاءات ملك البلجيك سلما بعد القضاء على ما كسبه الفرنسيون بالتهديد بالحرب لن يضايق الفرنسيين فحسب بل سيؤدى إلى إحباط المحاولات القائمة لتحسين العلاقات البريطانية — الفرنسية . يضاف إلى ذلك إن حدة مزاج الرأى العام البريطانى الناتجة عن النكسات التي أصابت بريطانيا في جنوب أفريقيا لم تكن لتسمح باستسلام سلمى لليوبولد في بحر الغزال ، وكما كتب « سيسل رودس » في خطاب له إلى أمير ويلز في تلك الأيام « أنى متأكد أن الشعب الإنجليزى لن يسمح بتسليم بحر الغزال إلى البلجيك بعد مثل هذا الصراع مع فرنسا » (١) .

ولسكن إذا كانت ظروف ليوبولد لم تسمح له خلال عام ١٨٩٩ أو العام الذى يليه بتحقيق إدعاءاته فى بحر الغزال بالقوة أو بفرض الأمر الواقع كما أشرنا فإن ظروف إنجلترا بدورها لم تكن لتسمح لها باستعمال أسلوب القهر مع ملك البلجيك وذلك لعدم رغبتها فى الحصول على مزيد من الأعداء أثناء إتمامها فى الحرب فى جنوب أفريقيا ، لذا فقد رسم السياسة البريطانيةون خططهم على أساس عدم السماح لليوبولد بتحقيق إدعاءاته ولكن بالوسائل التى لا تخلق جفوة أو احتمالات للصدام بين الجانبين فى تلك البقعة من أفريقيا .

وقد طبقت هذه الخطة على الصعيدين المحلى والدولى بمهارة فائقة حتى خرجت بريطانيا عن العزلة التى سببتها لها مغامرتها مع البوير وأصبحت فى وضع يمكنها من استعمال العنف أو التلويح به .

فعلى الصعيد المحلى اتجهت الخطة البريطانية إلى نشر المراكز الأنجلو - مصرية فى مناطق بحر الغزال - والتى كانت مؤجرة للكونغو بمقتضى معاهدة ١٨٩٤ ، وقد تقرر أن تصل هذه المراكز إلى أقصى المناطق التى لا يوجد فيها كنغوليون ، وبالفعل تقرر خلال صيف عام ١٩٠٠ إنشاء مركز شمال « كيرو » بخمسة أميال وهى أبعد نقطة يحتلها البلجيك نحو الشمال وتقع على خط ٤٠° ٥' شمالا وهو الخط الذى حددته الإتفاقية الفرنسية - الكونغولية فى ١٤ أغسطس ١٨٩٤ لمنطقة النفوذ الكونغولية فى أعالي النيل (١) .

وقد تضمنت التعليمات التى صدرت إلى قائد هذا المركز جانبين هامين يوضحان نوعية السياسة البريطانية المحلية :

الأول : بذل أقصى جهد ممكن لإقامة علاقات ودية مع البلجيك وإزالة أى سبب من أسباب سوء التفاهم يمكن أن يحدث بين الطرفين مع عدم الدخول فى أى محادثات ذات طبيعة سياسية « وأن يجب إذا ما حاولوا محادثته فى هذا الموضوع بأنه ليس مخول لبحث هذه المسائل التى تعتبر من اختصاص لندن وبروكسل » .

الثانى : القيام بتعريف الأهالى أن بلادهم واقعة تحت نفوذ حكومة السودان
لا نفوذ حكومة الكونغو الحرة أو أى حكومة أخرى (١) .

ويتضح من هذا خطة السياسة البريطانية فى اتباع أسلوب « السالملة » على
الجبهة المحلية على ألا يخل هذا الأسلوب بهيكل الخطة العام بعدم الاعتراف
بالادعاءات الكونغولية فى المنطقة والعمل على سبق منافسيهم إلى الجهات محل هذه
الإدعاءات .

أما على الصعيد الدولى فقد كان على وزارة الخارجية البريطانية أن تبت فى
البداية فى طلب شركتى « أفريقيا البريطانية الاستوائية » و « أفريقيا الأنجلو -
بلجيكية » ، والواقع أن الخطابات التى تبودلت بين الحكومة البريطانية والشركتين
المذكورتين كانت فى حقيقتها عملية جس نبض من جانب ليوبولد لتحديد موقفه . .
هذا من ناحية . . ومن ناحية أخرى كانت مقدمة للمفاوضات الطويلة بينه وبين
البريطانيين إذ أنه من المؤكد أن ليوبولد كان وراء هذه الشركات مع الحكومة
البريطانية .

وقد رد سولسبرى برفض طلب الشركتين فى ١١ أغسطس عام ١٩٠٠ متذرعاً
فى رفضه بعدم جدية هذه الامتيازات . وقد أبدى وزير الخارجية البريطانية فى هذا
الرد آراءه فى أن سيادة دولة الكونغو فى تلك الجهات مستمدة من المعاهدة
الفرنسية - الكونغولية النعقدة فى ١٤ أغسطس ١٨٩٤ والى اتفاق فيها على
ألا يكون للكونغو أى نفوذ خارج حدود اللادو وخرج من ذلك بأنه ليس للدولة
الحرة أى امتيازات فى الأراضى محل طلب الشركة . وأضاف أن حقوق مصر
وتركيا فى تلك الأراضى لم ينص عليها فحسب فى معاهدة ١٢ مايو ١٨٩٤ بل أحيائها
أيضاً نصر أم درمان ، وأنه لما كانت مصر لم تستشر أو تبلغ بهذه الامتيازات فهى
لا تستطيع الاعتراف بها .

(١) Ibid., Enclosures 1 and 2 in No. 193, Cromer to Lansdowne, (١)
Dec. 6, 1900.

وبعد التشاور مع ليوبولد كتبت الشركتان في أوائل الشهر التالي — سبتمبر

١٩٠٠ — إلى وزارة الخارجية تدافعان عن حقوقهما على الأسس التالية :

١ — أن حصولهما على الامتيازات كان في أول أغسطس ١٨٩٤ أى قبل توقيع

المعاهدة الفرنسية الكونغولية في ١٢ من نفس الشهر .

٢ — أن الامتيازات تجارية وليست سياسية .

٣ — أن معاهدة مايو ١٨٩٢ لازالت محل التطبيق لأن الحكومة البريطانية

لم تنسكرها في أى وقت^(١) .

* * *

مضى أكثر من شهرين وقد أهملت الحكومة البريطانية مذكرة الشركتين

الأخيرة تماما مما دعا ليوبولد إلى أن يسفر عن وجهه ويقرر الاتصال مباشرة بلندن

دون الاختفاء وراء الشركتين المذكورتين ، ومن ثم استدعى المسيو «دى كوفليه»

ممثل دولة الكونغو في بروكسل السفير البريطانى فيها في نوفمبر عام ١٩٠٠ وسلمه

مذكرة طويلة تتناول وضع بحر الغزال بالنسبة لدولة الكونغو .

وقد سمعت المذكرة الكونغولية إلى تأكيد مبدأين بالنسبة لهذا الوضع :

(١) أن معاهدة مايو ١٨٩٤ الإنجليزية — الكونغولية لازالت في كامل

فاعليتها ، وأن معاهدة أغسطس من نفس العام (الفرنسية — الكونغولية) لا يمكن

أن تؤثر على الحقوق والواجبات التى حصلت عليها دولة الكونغو بمقتضى معاهدة

مايو وإذا ما رغب الكونغوليون إحياء حقوقهم فمن له الحق فى الاعتراض فرنسا

لا بريطانيا .

يضاف إلى ذلك أن بريطانيا لم تناهض أبداً معاهدة ١٨٩٤ البريطانية — الكونغولية .

وظلت تتصرف على أساس أن هذه المعاهدة لازالت سارية ، ففي ٢٨ مارس عام

١٨٩٥ أشار سير إدوارد جراى فى مجلس العموم إلى ذلك بوضوح تام عندما قال

« إن دولة الكونتوق قد اعترفت بمنطقة النفوذ البريطانية » ، وبعد ذلك بعامين وفي ١٠ يونيو ١٨٩٧ أبلغ السفير البريطاني في بروكسل حكومته أن القوات الكونتولية التي عبرت إلى الشاطئ الشرقي من النيل سوف تنسحب قريباً وذلك حسب اتفاقية مايو عام ١٨٩٤ ، وأخيراً — وفي نفس العام — نشر مرسوم في المجلة الرسمية لدولة الكونتوق بتطبيق القوانين المدنية الكونتولية على الأراضي المؤجرة بمقتضى معاهدة ١٨٩٤ ولم تبد الحكومة الإنجليزية أى اعتراض على ذلك .

وتستطرد المذكرة أنه بعد النصر البريطاني — المصري في أم درمان (١٨٩٨ — ١٨٩٩) تضمنت التعليمات الصادرة لليجور مارتر Martyr — الذى قاد حملة عسكرية تقدمت من أوغندة للانضمام إلى القوات الأنجلو — مصرية القادمة من الخرطوم — الأمر باحترام المعاهدة التي تم الاتفاق عليها مع دولة الكونتوق ١٨٩٤ .

ويضاف إلى كل ذلك ما قدمه سولسبرى نفسه في محاولته لتحديث إدعاءات السفير الفرنسى إبان أزمة فاشودة قال الأخير أن للفرنسيين نفس حق الكونتوليين في البقاء على النيل فرد سولسبرى أن الوضع مختلف فالكونتوليون حصلوا على مركزهم على النيل بمقتضى معاهدة مع بريطانيا ، والتي قال عنها سولسبرى بأنها في كامل فاعليتها .

(ب) بالنسبة لمسألة إعادة إحياء الحقوق المصرية فإن مصر تملك فقط من الحقوق ما تسمح به بريطانيا ، وأن حقوق مصر في بحر الغزال يمكن الموافقة عليها فيما لو جلت بريطانيا عن مصر ، وحتى يتم هذا فإن مركز بريطانيا في مصر يمنحها حق التأجير^(١) .

* * *

ومضى شهران آخران دون أن تبدي لندن رأياً في المذكرة الكونتولية مما

دعا الملك ليوبولد إلى تدبير لقاء مع السفير البريطاني في بروكسل في أواخر يناير عام ١٩٠١ تساءل فيه عن « أى حق يمكن أن يجعل المؤجر يمنع المستأجر من حرية ممارسة حقوقه في المكان المؤجر » ؟

واستطرد الملك البلجيكي مفنداً الحجة البريطانية بأن معاهدة أغسطس ١٨٩٤ مع فرنسا قد ألغت معاهدة مايو من نفس العام مع الإنجليز بأن الحكومة البريطانية تركته وقتها وحيداً أمام الإدعاءات الفرنسية ومن ثم لم يكن أمامه من سبيل سوى الإذعان للقوة الفرنسية . . أى أنه ألقى بمسئولية المعاهدة الكونتولية — الفرنسية على الموقف البريطاني نحوه وقت إبرامها .

وبناء على كل ذلك طلب ليوبولد موافقة الحكومة البريطانية على السماح له بممارسة حقوقه في أقرب وقت ودون أى تعويق ^(١) .

وخلال نفس الوقت الذى أخذت فيه بروكسل تبذل جهودها الدبلوماسية كانت تحاول ممارسة إدعائها على بحر الغزال بصورة أكثر عملية ، ففي أوائل عام ١٩٠١ طالبت بإلحاح بالسماح لجماعات الرعاة من الأهالي بالانتقال من حاجز اللادو إلى الأراضي الواقعة شماليه ومنها ، ورفضت القاهرة والخرطوم هذا الطلب بشدة ^(٢) مما دعا الحكومة البريطانية بدورها إلى الاعتذار عن قبوله لاسيما أن هذا القبول كان يتضمن إيماءات سياسية معينة بقبول إحياء معاهدة مايو عام ١٨٩٤ لأن حرية الانتقال بين هذه الأراضي كانت تعنى وحدتها الإدارية على الأقل ^(٣) .

* * *

ولم يكن أمام الحكومة البريطانية بعد كل ذلك سوى أن تسارع بالرد على ليوبولد فعلم السفير البريطاني في بروكسل للبارون فان أتفيلد وزير الكونتو في العاصمة البلجيكية في ٨ فبراير عام ١٩٠١ مذكرة تضمنت آراء الحكومة البريطانية في رفض المذكرة الكونتولية المؤرخة في نوفمبر ١٩٠٠ وقد أكدت المذكرة البريطانية أنه بالرغم من أقوال سولسبرى الرسمية فإن المعاهدة الأنجلو — كونتولية ملغاة في الحقيقة

Corres, part V, No. 41, Phipps to Lansdowne, Jan. 26, 1901. (١)

Ibid., No. 24, Cromer to Lansdowne, Jan. 17, 1901. (٢)

Ibid., No. 25, Lansdowne to Phipps, Jan. 17, 1901. (٣)

لأن مواردها لم توضع أبداً موضع التنفيذ من أى من الجانبين . وقد أشير إشارة خاصة إلى عدم تنفيذ تأجير شريط تنجانيقا أبداً .

وختمت الحكومة البريطانية مذكرتها بإعلان تمسكها باحياء الحقوق المصرية ولكنها اقترحت - حلاً للموقف - إمكان تطوير معاهدة ١٨٩٤ إلى معاهدة أخرى يمكن تطبيقها^(١) .

وأمسك ليوبولد بهذا الاقتراح ليسارع بتقديم آرائه عن مشروع المعاهدة الجديدة ، وفي ٢١ فبراير قدم « فان أتفيلد » لفييس المقترحات التالية كأساس للمعاهدة الجديدة :

(١) أن يتنازل الملك ليوبولد عن كل حقوقه السياسية شمال خط عرض ٢٠° - ٢٠° (أى شمال اللادو) .

(ب) أن تحصل دولة الكونغو على تعويض مناسب .

(ج) أن يسمح لدولة الكونغو « بالحصول على التسهيلات اللازمة لإقامة خط حديدى إلى النيل مع حرية العبور إلى أعلى النيل »^(٢) .

وكان أسوأ ما في مقترحات ليوبولد - من وجهة النظر البريطانية - الاقتراح الثالث ، فقد رأى المعتمد البريطانى في القاهرة أنه من الأمور البالغة الأهمية أن يبقى كل مجرى النيل في أيدي البريطانيين والمصريين لما لذلك من ضرورة حيوية بالنسبة للمشاريع التى سيتم إقامتها على النيل كذا بالنسبة للتحكم في مياه النيل . وعلى هذا أوصى كرومر بالتمسك بالمواد التى تضمن لبريطانيا أو مصر استرجاع الأراضي المؤجرة على الشاطئ الأيسر من النيل حال وفاة الملك ليوبولد^(٣) .

ورأى المعتمد البريطانى في القاهرة أن التمسك بهذه المواد لن يمنع الكونغو أى حقوق على النيل إذ أنه في المعاهدات المختلفة التى عقدتها مصر مع دول أوربية

Sanderson, op. cit., pp. 59-60.

(١)

C.R.O.S. Mongalla 1/7/48, Cecil to Findlay, Sept. 25, 1905.,

(٢)

Corres, part V, No. 128, Cromer to Lansdowne, March 23, 1901.

(٣)

احتفظت دائماً لنفسها بالسيطرة على الملاحة في مياهها الداخلية . ونصح الحكومة البريطانية بعدم السماح على الإطلاق للحكومة الكونتو بحرية الملاحة في أعلى النيل . وبناء على هذه النصائح ، وبعد عرضها على المخابرات العسكرية البريطانية رأى مديرها « السير جون أردث » أن تقوم حكومة السودان باحتكار الحزن والإمداد بالوقود على شواطئ النهر لقطع الطريق على طلب ليوبولد بحرية الملاحة في أعلى النيل ، وبالفعل أصدرت سلطات الخرطوم أوامرها بذلك في نهاية أبريل ١٩٠١^(١) .

* * *

بينما كانت الحكومة البريطانية تدبر الخطط المناسبة لإبعاد نفوذ ليوبولد عن مياه النيل كان الملك يستشير عدداً من كبار رجال القانون الدولي في قيمة حقوقه في بحر الغزال ، وكانت آراؤهم جميعاً في صالحه . وقد كتب أشهر هؤلاء « المرفون مورتيترز Von Mortitz » أستاذ القانون الدولي بجامعة برلين مذكرة في ٢٠ أبريل ١٩٠١ بأنه ليس من حق ليوبولد إحياء حقوقه السياسية فحسب بل من حقه الحصول على الامتيازات التجارية أيضاً^(٢) .

وقد تأثر سير المفاوضات بين الطرفين بعد ذلك بهذين الموقفين . . موقف الحكومة البريطانية بالتصميم على إبعاد الكونتو عن السيطرة على أى قسم من النيل وإن حاولت منح ليوبولد التعويض المناسب بعيداً عن النهر حتى لا تضطر إلى اللجوء للتحكيم الذى عارضته أشد المعارضة خوفاً من أن تبدى هيئة التحكيم تأييداً للآراء القانونية أكثر مما تعترف بالوضع السياسى القائم . وموقف ليوبولد المتشدد على اعتبار أن ما لا يستطيع الحصول عليه بالمفاوضة يستطيع الحصول على أكثر منه « بالتحكيم » .

ومن هذا الفهم نستطيع أن نتتبع سير هذه المفاوضات منذ صيف عام ١٩٠١ حتى قرر البريطانيون قطعها في أواخر عام ١٩٠٣ .

* * *

Corres, part V, No. 169, Cromer to Lansdowne, April 30, 1901. (١)

Collins, op. cit., part 5, p. 496. (٢)

في ٦ أغسطس عام ١٩٠١ أبلغ السير فيبس وزير خارجية الكونغو أنه بالرغم من أن الحكومة البريطانية ترغب في الوصول إلى معاهدة جديدة إلا أن مقترحات ٢١ فبراير غير مقبولة منها وسلم الوزير الكونغولي المقترحات البريطانية المضادة التالية :

(أ) أن تسير الحدود المصرية - الكونغولية مع نهر سمليكي شمال بحيرة ألبرت على طول خط تقسيم مياه النيل - الكونغو حتى خط طول ٣٠° شرقاً ثم شمالاً حتى خط عرض ٣٠° ٥٥' ، ومن ثم غرباً إلى خط تقسيم المياه بين النيل والكونغو .
(ب) ضمان تسهيلات تجارية لدولة الكونغو في بحر الجبل .

(ج) منح دولة الكونغو حرية الملاحة في أعالي النيل (لا السيطرة على مياهه) .

(د) إذا ماتم مد خط حديدي من حوض الكونغو إلى النيل في المستقبل تمنح أفضلية بناء الخط لشركة أنجلو - بلجيكية .

ورد ليوبولد على ذلك بأن أرسل فان اتفيلد إلى لندن في ٢١ من نفس الشهر حيث قابل وزير الخارجية البريطانية مقابلة طويلة اعترض فيها الوزير الكونغولي على المقترحات البريطانية وأكد في نهاية المقابلة أن المعاهدة الإنجليزية - الكونغولية المعقودة ١٨٩٤ ستبقى صالحة للعمل وطالب بجلاء القوات الأنجلو - مصرية من بحر الغزال (١) .

وبعد بضعة شهور أخرى من المفاوضات حاول البريطانيون إرضاء ليوبولد بتقديم بعض التنازلات له ، ففي مذكرة مقدمة إليه منهم في ٢٥ يناير ١٩٠٢ اقترحوا استبدال « حاجز اللادو » بأراضي بحر الغزال الواقعة غرب نهر « يي » « Yei » وجنوب خط عرض ٣٠° ٥٦' شمالاً . وكان هذا التعويض المقترح أكبر كثيراً من « حاجز اللادو » وكانت شروط الاقتراح أكثر كرمًا ، فان حاجز اللادو كان سيقى تحت سيطرة ليوبولد في عهد سيادته على دولة الكونغو الحرة فقط أما المنطقة الجديدة فقد كانت مؤجرة بصفة نهائية .

والواقع أن الهدف الأساسي وراء هذا الكرم البريطاني كان إبعاد الكونتوليين عن مجرى النيل فلاقتراح الأخير استهدف زحزحة الحدود الشرقية لدولة الكونتو على بعد مالا يقل عن ٤٠ ميلاً من النيل .

ولكن اقتراح المبادلة لم يرض ليوبولد ففي ٦ فبراير ١٩٠٢ طلب أن تضم الأراضي المقترحة كل حوض نهر « بي » . وقد أشار على الملك بضرورة هذا الطلب حيث الالتزامات التي يفرضها البريطانيون عادة على الأهالي أخف كثيراً من تلك التي يفرضها الكونتوليون ، وفي حالة تقسيم نهر « بي » فسوف تحدث هجرة ضخمة من الأراضي الكونتولية إلى الأراضي البريطانية ، ولكن إذا ما حصلت الكونتو على كل حوض النهر فلن يكون أمام سكانه سوى البقاء إذ أن الأراضي المحيطة غير صالحة للزراعة .

كما طلب الملك أن تمتد الأراضي المقترحة في اتجاه شمالي غربي على طول الحدود بين مناطق النفوذ الفرنسية والأنجلو — مصرية حتى حدود دارفور في منطقة « حفرة النحاس » . وكان ليوبولد راغباً في الحصول على هذه المنطقة لاعتقاده بترائها للعدنى الضخم^(١) .

ولكن الحكومة البريطانية لم تكن مستعدة لتأجير كل وادى نهر « بي » إلى ليوبولد لأن ذلك سينتج عنه إحداق حدود الدولة الحرة بالنيل وكان كل ما وافق البريطانيون على تعديله في اقتراحهم الجديد الذى قدموه في ٦ يونيو عام ١٩٠٢ أن يسير خط الحدود مع شاطئ النهر الأيمن بدلاً من شاطئه الأيسر ، ولم يوافقوا أبداً على منح الكونتو أى امتيازات خارج الأراضي المذكورة ، وأن يتم بناء الخط الحديدي بواسطة شركة انجليزية — بلجيكية .

ولم يرض هذا التعديل ليوبولد لأن معناه تخليه عن الامتيازات التي عول عليها أهمية كبيرة فقد كان الملك متأثراً بما تواتر من أخبار ثراء « حفرة النحاس » الطيبي . ولكن لسوء الحظ فإن وقوع حفرة النحاس في أقصى الركن الجنوبي الغربي من الأراضي المؤجرة أجبر ليوبولد أن يطلب اعترافاً بالامتيازات في كل الأراضي المؤجرة

له بمقتضى معاهدة ١٨٩٤ وليس فقط الأراضي الجديدة التي قدمها البريطانيون في مقترحاتهم الأخيرة (١) .

ومما زاد في شكوك ليوبولد في قيمه « حفرة النحاس » المعدنية أنه أعد خلال ربيع عام ١٩٠٣ حملة يقودها كل من « لاند هام » و « رويو » لتتقدم من الحاجز إلى تلك البقعة لفحص قيمة خاماتها المعدنية ولكن اضطرت السلطات الكونغولية إلى وقف كل أعمال هذه الحملة في ٦ أبريل تحت وطأة الاحتجاجات البريطانية الشديدة وإن كانت قد أكدت أنها حملة خاصة وذات طبيعة علمية (٢) .

وإلى جانب الخلاف على الأراضي كان هناك خلاف حول الخط الحديدي المزمع بناءه فإن ليوبولد كان مهتماً إهتماماً عظيماً بهذا الموضوع فإن نقل البضائع من خط تقسيم النيل - الكونغو إلى أوروبا عن طريق المحيط الأطلنطي كان يستلزم ثلاثة شهور وتكاليف مضاعفة بينما كان يحتاج إلى ٣٧ يوماً فقط عن طريق النيل .

ولم يكن طول المفاوضات في صالح مؤيدي بناء هذا الخط ، ففي ٩ أبريل عام ١٩٠٣ كتب كرومر تقريراً مطولاً اعترض فيه على الاقتراحات المتعلقة بالخط الحديدي الكونغولي متذرعاً بأنه من غير الممكن تدبير المال اللازم لمده ، كما اعترض على أن تحصل شركة يساهم فيها رأس المال البلجيكي بمقدار النصف على حقوق في السكك الحديدية السودانية ، بل إنه اعترض - نظراً لما هو معروف من سوء إدارة أصحاب الامتيازات الكونغولية - على أن يكون لهؤلاء أى امتيازات في بحر الغزال إطلاقاً . كما رأى عدم الربط بين مسألة ادعاءات الملك ليوبولد على أراضي أعلى النيل وبين فكرة الخط الحديدي وإن أكد استعداد الحكومة المصرية التام لتيسير طرق التجارة بين الكونغو وأعلى النيل (٣) .

وفي خلال تلك الأيام التقى اللورد لانسدون بفان اتفيلد في لندن وأبلغه بقرار

Collins, R.O., op. cit., part 5, pp. 502-504. (١)

Corres, LXIII, Inc. in No. 160, Phipps to Lansdowne, April 10, 1903, Tel. No. 42. (٢)

Corres, part LXIII, Inc. in No. 160, Cromer to Sir T. Sanderson, April 9, 1903. (٣)

الحكومة البريطانية بشأن الخط الحديدي وبأنه من المستحيل أن توافق على منح أى امتيازات لشركة السكك الحديدية المقترحة شمال خط عرض ٣٠° ٩' ، وكان هذا المطلب أساسياً في الاقتراح الكونتولى^(١).

* * *

ولما ثعرت احتمالات الاتفاق بهذه الصورة قدم البارون فان اتفيلد في ٢١ أبريل ١٩٠٣ إلى وزارة الخارجية البريطانية مذكرة ضافية بشأن اقتراح الخط الحديدي ومسألة الأراضي المتنازع عليها عموماً .

بالنسبة للخط الحديدي اقترح إما أن يقرر الملك ليوبولد مدى الحقوق التى ستمنح لشركة السكك الحديدية داخل الأراضي المؤجرة له وإما عودة المفاوضات المتعلقة ببناء الخط الحديدي من الكونتو إلى النيل من البداية .

أما فيما يتعلق بالاقترحات البريطانية التى قدمت بشأن الأراضي المتنازع عليها فقد ذكر أن حكومة الكونتو تنتظر تقرير السيوليمير انسر ثم رر رساله لمسح الأراضي التى وافق البريطانيون على تأجيرها .

كما اقترح أن تحدد لجنة مشتركة مركز بحيرة ألبرت المتنازع عليها وأبدى ارتياحه لإبداء الحكومة البريطانية لئيتها بقبول مبدأ تعويض الكونتو عن الأراضي التى قد يفقدها نتيجة لتعديل الحدود وأعلن أنه ليس من الضروري أن يتم هذا التعويض فى وادى النيل .

ومع هذه الاقتراحات البديلة عادت المذكرة تؤكد أن معاهدة ١٨٩٤ لم تلغ أبداً وأنها يجب أن تبقى فى كامل فاعليتها طالما لم يتم تغييرها بموافقة الطرفين اللماقدين ، ولكن أسوأ ما كان فيها - من وجهة النظر البريطانية - إبداء استعداد الحكومة الكونتولية لإحالة الأمر كله إلى التحكيم أو الوساطة طبقاً لشروط معاهدة برلين^(٢).

(١) Corres, Part LXIII, Lansdowne to Phipps, April 7, 1903, Tel. No. 32.

(٢) Ibid., Inc. in No. 160, Phipps to Lansdowne, April 24, 1903, Desp. No. 49, including Memorandum from Baron Van Etvelde.

وقد سارع اللورد لانسدون هذه المرة بالإجابة على المذكرة الكونغولية السابقة بمذكرة طويلة مؤرخة في ٢٠ يولية ١٩٠٣ حدد فيها آراء الحكومة البريطانية فيما يلي :

١ — بالنسبة لمسألة الخط الحديدي رفض الاقتراح الأول على أساس أن حكومة السودان لا يمكن أن توافق على منح منطقة واسعة من الأرض من أجل بناء هذا الخط الحديدي . أما عن الاقتراح الثاني فقد أبدى استعداده لاستشارة الحكومة المصرية فيه . وأعرب عن أمله أن مصر سوف تعاون في إقامة اتصال تجارى سهل بين «مهاجى» ومناطق أعالي النيل الصالحة للملاحة ومد خط حديدي من الكنفو إلى مهاجى ، ولكن الوصول الى تنافس في هذا الشأن يجب أن يكون ضمن اتفاق عام يقوم على أساس الجلاء عن الحاجز خلال مدة قصيرة .

٢ — وبالنسبة للتعديل المقترح للحدود عند بحيرة ألبرت فقد رأى وزير الخارجية البريطانية تناوله بمفرده طالما أنه لا يؤثر في مصر أو السودان .

ثم عاد لانسدون ليفند قيمة تأكيد الادعاءات الكونغولية بواسطة معاهدة ١٨٩٤ فأكد أن بريطانيا لم تعترف أبداً بأن دولة الكونغو قد حصلت على حقوق سياسية في حوض النيل قبل معاهدة ١٨٩٤ ، كما أنه لا يمكن اعتبار تلك النواحي قبل هذه المعاهدة أيضاً أرضاً لا مالك لها *res nullius* كما أن عدم حصول بريطانيا على ما تقرر لها في هذه المعاهدة من ناحية ومنح فرنسا القسم الأكبر من الحقوق التي منحت للكونغو من ناحية أخرى جعل من غير الضروري الاعتراف بهذا القسم من المعاهدة . كما أن حقوق مصر وتركيا ثم تأكيدها وقت توقيع المعاهدة ووافقت حكومة الكونغو على ذلك ، وأن هذه الحقوق قد تم إحيائها الآن . كما حدد بوضوح موقف حكومته من التحكيم إذاً أكد أنها لا توافق على دعوة مصر لقبول قرار تحكيم بشأن معاهدة لم تكن هي أحد أطرافها لا سيما إذا كان لهذا القرار تأثير خطير على مصالحها .

وقد حضرت المذكرة البريطانية الكونغوليين على قبول المقترحات الأخيرة على أساس أن الحكومتين البريطانية والمصرية قدمتا أساس اتفاق مقبول للغاية ، وختم

لانسدون مذكرته بتعذير واضح بأنه إذا لم يتم إقرار المسألة على ضوء العرض الذى تم تقديمه فى يونيه عام ١٩٠٢ فى ميعاد غايته أول نوفمبر عام ١٩٠٣ فسوف يتم سحب هذا العرض^(١).

وقبل أن يتم تقديم المذكرة الأخيرة للملك ليوبولد كان قد تراعى إلى اسماعه أن الحكومة البريطانية سو تقدم إنذاراً رداً على المذكرة الكونتولية المؤرخة فى ٢١ أبريل مما دعاه الى أن يكتب لفان اتفيلد يبلغه أن المقترحات التى قدمتها الحكومة البريطانية مسيئة ومهينة له ، وأنه إذا بقيت الكونتو مصدر متاعب له فهو يفضل أن يتنازل عنها وإلا متصبح هذه البلاد مصدر ضعف بلجيكا ، ثم رأى وضع أسس معينة لمواجهة الموقف متحثة فيما يلى :

١ — ألا يتم تقرير أى أمر بشأن بحر الغزال بدون استشارة فرنسا .

٢ — أن تبقى شروط معاهدة برلين المتعلقة بالتحكيم قيد النظر^(٢) .

وفى خلال يوليه اتصل الملك ليوبولد بالحكومة الفرنسية بشأن هذه المفاوضات ولكنه لم يستطيع أن يحصل منها على رأى محدد فى الموقف^(٣) ، و انتهى الصيف على ذلك !!

* * *

فى خريف عام ١٩٠٣ حاول ليوبولد أن يجرب اللعبة الديبلوماسية التى كان البريطانيون يحق يعتبرون أساندة لها ألا وهى لعبة الموافقة على شروط منافسيه « مع بعض التحفظات » ، ولكن لم تجز هذه اللعبة على لندن ... بالعكس فقد كانت اللعبة خطرة إذ دمرت المفاوضات لتدخل بمدى الأزمة فى مرحلة حادة كانت احتمالات الصدام فيها أقوى من أى احتمالات أخرى .

Corres, part LXIII, Inc. in No. 160, Lansdowne to Phipps, (١)
June 20, 1903, Desp. No. 57.

Ibid., Phipps to Lansdowne, June 30, 1903, Desp. No. 80. (٢)

Ibid., Phipps to Lansdowne, Sept. 19, 1903, Tel. No. 109. (٣)

ففي ٢١ سبتمبر قدم البارون فان أتييلد مذكرة للحكومة البريطانية أعلن فيها أن حكومة الكونغو — بعد أن لم تلاق أى اعتراض من فرنسا — على استعداد لقبول مقترحات يونيه البريطانية المتمثلة في :

١ — يتم تثبيت خط الحدود ابتداء من خط عرض ١° جنوباً وخط طول ٣٠° شرقاً كما هو حتى يصل إلى خط تقسيم المياه بين النيل والكونغو كما جاء في اقتراح للمذكرة المؤرخة في ٢٠ يونيه ١٩٠٢ .

٢ — ومن ثم يتجه هذا الخط نحو الشمال حتى يصل إلى أقرب نقطة لمنابع نهر «ني» ، ثم يتبع مجرى هذا النهر حتى يتقاطع مع خط عرض ٣٠° شمالاً ثم يتجه غرباً ليتبع الخط المحدد في مذكرة يونيه ١٩٠٢ (أى يسير مع خط عرض ٣٠° غرباً حتى خط المياه الفاصل بين حوض النيل والكونغو) . ولن يقترب خط الحدود بهذا إلى الشاطئ الأيسر من النيل أكثر من ٥٠ ميلاً .

٣ — أن يكون نصف مديري الخط الحديدى المقترح من الانجليز ، والنصف الآخر من البلجيكيين .

ولكن مع « القبول » تضمنت المذكرة الكونغولية « تحفظات معينة » دارت كلها حول المطالبة بضرورة « التحكم » في المطالب الكونغولية ، أما هذه التحفظات فهي :

١ — أن تبحث كافة الأطراف المعنية ما إذا كانت المزايا التى قدمتها انجلترا تعتبر تعويضاً عادلاً للحقوق المختلفة التى سالت بها بريطانيا لدولة الكونغو وصاحبها خاصة الامتيازات التى منحت للملك فى الأراضى المؤجرة .

٢ — وإذا رأى من سيتم تحكيمه فى هذه المسألة ، أن هذا التعويض غير مناسب فعلى انجلترا تعويض الكونغو عما تنازل عنه — حتى ولو خارج الأراضى السودانية .

٣ — يتم الجلاء عن مراكز حاجز اللادو بعد أن يصدر الحسك قراره إذا لم يقرر منح مزيد من التعويض أما إذا قرر ذلك فيتم هذا الجلاء بعد الاتفاق على التعويض .

وقد أرفقت هذه المذكرة الكونغولية بمذكرة تفسيرية لتدعيم إدعاءات ليوبولد من ناحية ولشرح أسباب التحفظات التي أبدتها المذكرة الأولى من ناحية أخرى ، وقد جاء فيها :

١ — أن بريطانيا قد اعترفت بالحقوق السياسية للدولة الكونغو حتى قبل عام ١٨٩٤ .

٢ — أنه لم يحافظ قط على الحقوق المصرية عندما تصرفت إنجلترا في تلك الأراضي عام ١٨٩٤ ، فقد تصرفت في هذا الوقت على أساس سيادتها لها وعلى اعتبار أنها تقع في مناطق نفوذها . وعلى أي الحالين فإنها في هذا التصرف قد استبعدت الحقوق المصرية ، وإذا تمحجبت الآن بأنها أرض مصرية : فهذا يعني أنه لم يكن من حقها أصلا التصرف فيها .

وشكت حكومة الكونغو في هذه المذكرة من أنه رغم كل هذه الأسباب التي تؤكد أحقية الكونغو في الأراضي الخاضعة لها فإن بريطانيا أجابت بطلب الجلاء عن الحاجز دون تقديم أي تعويض كما أنها رفضت الاعتراف بالامتيازات التي منحتها الكونغو في الأراضي المؤجرة لها .

وتلت ذلك بشكوى أخرى من أن الحكومة البريطانية قد تقدمت باقتراح نهائي كأساس للمفاوضات بإلغاء معاهدة ١٨٩٤ دون تعويض للدولة الكونغو سوى رقعة من الأرض لا تزيد عن $\frac{1}{8}$ الأراضي الأصلية للمؤجرة في هذه المعاهدة وأنه قد تم قبول هذا الاقتراح فقط على أساس أن يمهّد لتنظيم آخر لا باعتباره تسوية أو تعويض نهائيين^(١) .

وتتج عن كل ذلك أن بادرت الحكومة البريطانية بتحديد موقفها ، ففي ١٦ أكتوبر أجاب اللورد لاندسون على المذكرة الكونغولية بأنه يرى إمكان الموافقة على شروطها الثلاثة الأولى ، أما بقية الشروط بما فيها من أن قبول الاقتراح سيتم

(١) Corres, part XIII, Phipps to Lansdowne, Sept. 19, 1909, Desp. No. 109.

فقط على أساس أنه مجرد تهديد لتنظيم آخر فإن هذا يخالف تماماً وجهة النظر البريطانية التي ترغب في حل المسألة حلاً نهائياً « كما أن الحكومة البريطانية ترى أنه سيكون من الصعب للغاية أن تحصل على موافقة البرلمان على تأجير أى أراضى لدولة الكونغو بسبب ما أثير أخيراً حول وسائل إدارة هذه الدولة لأراضيها » .

وقد خرجت حكومة لندن من ذلك بنتيجة محددة أبلغتها للبلجيكيك في نفس المذكرة وهي أن الخلاف في وجهات النظر بينها وبين حكومة الكونغو مما لا يمكن تسويته ، وعلى ذلك فقد قررت قطع المفاوضات الجارية (٢) .

ووقع القرار البريطاني موقع الدهشة لدى أوساط حكومة الكونغو مما دعا « فان أنشيلد » أن يتساءل في مذكرة دفعها إلى السفير البريطاني في بروكسل في أوائل ديسمبر عن الأسباب التي دعت الحكومة البريطانية إلى قطع المفاوضات ، وأشار في مذكرته إلى :

١ — أن موافقة البرلمان غير ضرورية على مثل هذه المعاهدة .

٢ — أن الحكومة البريطانية لم تسأل قط عن التعويض الذي يمكن أن تقبله الكونغو مقابل التسليم بكامل حقوقها .

٣ -- أنه أعقاب عقد معاهدة للتحكيم مع فرنسا رفضت الحكومة البريطانية قبول اقتراح التحكيم من حكومة الكونغو رغم أن هذا التحكيم لا يشمل المسألة برمتها وإنما يشمل فقط قدر التعويض المقترح .

واستطردت المذكرة أنه طالما أن الحكومة البريطانية قد وقفت هذا الموقف فإن حكومة الكونغو لا ترغب في تعديل شروط معاهدة ١٨٩٤ وإن كانت قد فعلت كل ما في استطاعتها لترضى الرغبات البريطانية . وعلى ذلك فهي تصر على أن هذه المعاهدة في كامل فاعليتها ، ومن ثم فهي لا توافق على تعيين اللورد لانسدون لحدود السودان بالحد الشمالي للعاجز وخط المياه الفاصل بين النيل والكونغو .

ورأى فان أنشيلد بناء على ذلك أن أى منع للموظفين الكونغوليين من دخوله

أراضيهم هو انتهاك لحقوق دولة الكونغو يمكن أن يؤدي إلى اصطدامات خطيرة ، ولم ينس الوزير الكونغولي أن يلوح بأنه إذا ما تم — ولو بطريق الخطأ — احتلال أى جزء من أراضي الكونغو التي تخضع لشروط معاهدة برلين فإن الحكومة الكونغولية سوف تطلب وساطة دولة أو أكثر من الدول الصديقة طبقاً لشروط هذه المعاهدة (١) .

وبهذا « التهديد الكونغولي » انتهت مرحلة هامة من مراحل المشكلة لتبدأ مرحلة أهم استمرت لما يقرب من ثلاث سنوات .

مائة المصام ١٩٠٣ — ١٩٠٦ :

أدى فشل للمفاوضات الإنجليزية — الكونغولية في نهاية عام ١٩٠٣ إلى نهاية محاولات إقرار المشكلة بالوسائل السلمية ، وبدأ كل من ملك البلجيك والحكومة البريطانية يسعيان إلى تثبيت مطالبهما بحق « الإحتلال الأول » وفرض « الأمر الواقع » .

ويرتبط تغير أساليب علاج الخلاف البريطاني — الكونغولي وانتقالها من على موائد المفاوضات وأروقة وزارات الخارجية إلى أحراش بحر الغزال بالأوضاع الأوربية عامة وأوضاع طرفي النزاع على وجه الخصوص ، فبريطانيا تحسن موقفها السياسى والعسكرى كثيراً بعد نهاية حرب البوير في مايو عام ١٩٠٢ ، كما أنه أصبح واضحاً منذ أواخر عام ١٩٠٣ أن هناك إتفاقاً في الطريق مع فرنسا وهو الذى تم فعلاً فيما عرف بإسم « الوفاق الودى » في أبريل من العام التالى ، وعلى ضوء هذه التطورات أحس الساسة البريطانيون أن في إمكانهم إتخاذ موقف أكثر تشدداً نحو المشكلة .

أما ليوبولد فقد تأكد إبان سنى المفاوضات من قانونية حقوقه التي يطالب بها بمقتضى معاهدة مايو ١٨٩٤ ، ولهذا كان توافاً إلى « تحكيم » يكفل له الحصول على بقيته . ولما كانت الحكومة البريطانية قد رفضت إطلاقاً فكرة « التحكيم »

هذه فقد أراد أن يفرضها عليها ولو كان الطريق إليها صداماً عسكرياً محدوداً في تلك النواحي الأفريقية .

وقد بدأت محاولات فرض « الأمر الواقع » عندما وافقت الحكومة البريطانية على إقتراح قدمه حاكم عام السودان أواخر نوفمبر عام ١٩٠٣ لتقوية سلطة الحكومة على قبائل « النيام نيام » في بحر الغزال خاصة على رؤساء « تبورا » و « ييمبو » فصدرت الأوامر قبيل نهاية العام إلى حملة قوية بالتقدم من « واو » إلى بلاد النيام نيام أو الزاندي لفرض سلطة الحكومة عليها (١) .

ولم يكن البلعيكيون أقل نشاطاً في خلال نفس الشهر إستمر ورود التقارير عن النشاط الكونغولي في الحجاز . والواقع إن أخبار هذا النشاط كانت قد بدأت تتراى إلى أسماع لندن منذ سبتمبر خاصة ما تعلق منها بمد خط حديد مهاجى بأسرع ما يمكن (٢) .

وبدا أن هدف هذا النشاط تحقيق خطة جريئة ، ولم تلبث أن تحققت مخاوف لندن ففي ١٤ يناير عام ١٩٠٤ وصلت برقية إلى القاهرة من الخرطوم تبلغ عن وصول ١٣٠ من الجنود والضباط الكونغوليين بقيادة « المسيو لير » إلى « مئولو » ولما تصدى له مدير بحر الغزال أعلن أن حملته ذات أهداف علمية وأن كان قد اعترف بأنه يقوم بمسح الأراضي المقترح تبادلها مع حجاز اللادو ، وقد أعلن عن نيته على التقدم نحو « رومبك » ، وقد قام المدير بتحذيره بأنه لا يمكن السماح بدخول حملته للأراضي السودانية دون تصريح وأنه لابد من انسحابه (٣) .

وأوصى اللورد كرومر بتقديم الإحتجاج لبروكسل لمنع مثل هذه الانتهاكات (٤) .

Corres, part LXIII, Inc. in No. 160, Findlay to Lansdowne, (١)
Nov. 28, 1903, Tel. No. 42.

Ibid., Inc. in No. 160, Cromer to Lansdowne, Sept. 21, 1903, (٢)
Tel. No. 102.

Corres, part X, Inc. in No. 8, Wingate to Cromer, Jan. 9, (٣)
1904.

Ibid., No. 8, Cromer to Lansdowne, Jan. 14, 1904, Desp. (٤)
No. 4.

وانقضى ما يقرب من الأسبوعين قبل أن تحصل لندن في ٢٥ يناير على صورة كاملة للموقف ، وقد علم منها أن المسيو ليير ومعه ٣ من الضباط البيض و ١٣٠ من الجنود الوطنيين و ٢٠٠٠ حمال قد وصلوا إلى مقولو وتقع على خط عرض ٦°٦ شمالاً وخط طول ٥٨° ٢٩ شرقاً في ٢٥ نوفمبر قادمين رأساً من ليوبولد فيل . وقد سارع أحد المشايخ المحليين بإبلاغ مفتش المنطقة بأن جماعة من الفرنسيين والبلجيكي قد وصلوا إلى جهاته مما دعا « المستر بول » إلى الإسراع إلى مقولو للقاء ليير الذي أعلن أن أهدافه علمية تماماً ، ولا أبلغ أنه ليس له الحق في الدخول إلى بحر الغزال . أجاب على ذلك بأنه في الأرض التي قدمتها الحكومة الانجلو - مصرية بدلاً من الحاجز وأنه أرسل لمسحها وأنه يأمل في التقدم إلى رومبك في ١٩ ديسمبر . فأبلغه المفتش أنه لن يسمح له بذلك وأحال الأمر للمدير الذي طلب من المسيو ليير الإمتناع عن التقدم إنتظاراً للتعليمات . وبينما أخذت الجماعة الكونتولية في تدعيم قوتها في مقولو تقدم ليير نفسه إلى « مهل Mehl » وهي تبعد بضعة أميال شمال مقولو في الطريق إلى رومبك ، ولما منع من الإستمرار قدم في ٢٤ ديسمبر احتجاجاً شديداً بسبب عدم السماح له بالتقدم نحو رومبك .

وفي اليوم التالي - ٢٥ ديسمبر - وصل ممثل المدير إلى « مهل » حيث قابل المسيو ليير وأبلغه شفويّاً وكتابة أن عليه أن ينسحب من السودان . وقد اعترف ليير أن حكومة الكونتو قد أرسلت بعثته بأمر من الملك ليوبولد وأن التعليمات التي لديه هي القيام بمسح خط المياه الفاصل بين النيل والكونتو ، وأنه حق يقوم بذلك فانه مضطر إلى تتبع مجارى المياه بين الحوضين . وظل يؤكد أن حماته ذات طبيعة علمية لا سياسية . ورغم أنه وافق على التراجع إلى أراضي الكونتو كما طلب منه إلا أنه أبلغ ممثل المدير في ٢٩ ديسمبر أن نقص وسائل النقل منعه من هذا التراجع وكتب له أنه ينتظر قرار حكومته الذي كان - من الوجهة العملية - صعب الوصول (١) .

...

في ظل هذه الظروف الجديدة التي خلقها وجود القوات الكونتولية في الأراضي

السودانية كان على وزارة الخارجية البريطانية أن تتحرك ، وقد تحركت لندن في ثلاثة اتجاهات :

١ - بدأت بالإسراع بتوضيح موقفها من الإقتراحات السكونغولية التي قدمت إليها في مذكرة فان انشيلد المؤرخة في ٤ ديسمبر ١٩٠٣ والتي كانت المفاوضات قد قطعت على أثرها ، وقد روى أن توضيح هذا الموقف لن يدع للسكونغوليين فرصة للدعاء بأن وجودهم في بحر الغزال إنما حدث بناء على الاقتراح البريطاني بمنحهم أراضي معينة في تلك الجهات كتعويض عن الأراضي المتنازل عنها ، وبالفعل أرسل « لانسدون » مذكرة طويلة في ٢٢ فبراير إلى بروكسل لتوضيح هذا الموقف .

تحدث وزير الخارجية البريطانية في مذكرته أولاً عن إشارة فان انشيلد بعدم ضرورة الحصول على موافقة البرلمان على المسألة محل البحث فذكر أن نتائج هامة للغاية ستترتب على قيام الحكومة البريطانية بالتصرف في الأراضي السودانية مما يلاقي اعتراضاً حاداً من البرلمان البريطاني .

كما أنكر أن هناك أى تغير في موقف الحكومة البريطانية من مسألة التحكيم وذكر أن أهم أسباب رفض التحكيم أن المسائل محل هذا التحكيم ستؤثر في مصالح طرف ثالث هو مصر التي تم إحياء حقوقها كاملة بعد نصر أم درمان وأن معاهدة التحكيم التي يرغب فان انشيلد في تطبيقها تستبعد المسائل التي تمس مصالح الطرف الثالث .

وأن الحكومة البريطانية قد قدمت عرضاً تحصل بمقتضاه السكونغو على منطقة كبيرة من الأراضي السودانية مؤجرة تأجيراً نهائياً في مقابل أن تستأنف مصر ملكيتها لحاجز اللادو . وأنه بعد عامين من المباحثات قبلت حكومة السكونغو الاقتراح ولكنها لم ترغب في تنفيذه قبل بحث مسألة كفاية التعويض بطريق التحكيم ، ولا يمكن أن ينظر لثل هذه الرغبة إلا أنها عودة لمسألة التحكيم التي رفضتها الحكومة البريطانية من قبل .

واستطرد لانسدون بأنه يرى أن السلطات السودانية تمارس حقوقها في رفضها السماح لبعثة علمية خاصة يقودها مكتشف بلجيكي بعبور بحر الغزال وأنه لحكومة

السودان أن تقرر إذا كان من الممكن السماح لمثل هذه الحملات بالهجوم إلى أراضيها دون تعريض أمن المنطقة للخطر أو التدخل في شئونها الإدارية .

وأن الحكومة البريطانية لا ترى — فيما يتعلق بالوساطة — إمكان تطبيقها على الأراضي التي تقع خارج المنطقة المحدودة في المادة الأولى من معاهدة برلين . وطالما أنه لم يحدث أى تدخل في حقوق دولة الكونغو أو في الأراضي المؤجرة لها جنوب خط عرض ٥° شمالاً فإن شكوى الكونغو حتى إذا كان لها أساس لا تخضع لهذه المادة من المعاهدة للشار إليها . وعلى ذلك فإن اقتراح الوساطة مما لا تقبله الحكومة البريطانية في ظل الظروف القائمة .

وإن مصر لم تدع — بناء على النصيحة البريطانية — العودة إلى احتلال الحاجز بالرغم من حفظ حقوقها في معاهدة ١٨٩٤ ، ولكن من ناحية أخرى فإن الحكومة البريطانية لا يمكن أن تنصحبها بقبول ادعاءات دولة الكونغو في الأراضي التي تم إعادة تأكيد الحقوق المصرية فيها والتي لم تحتلها الحكومة الكونغولية قط .

وقد تم — بروح ودية تماماً — تقديم الاقتراح بأن تمتلك مصر منطقة صغيرة من الأراضي المحيطة بالنيل والتي ستؤول إليها على أى الأحوال في نفس الوقت الذي تعلم فيه بمنطقة كبيرة من الأراضي بصفة دائمة . وقد تم تحذير حكومة الكونغو أنه لا يمكن بقاء هذا الاقتراح مطروحاً إلا لفترة محدودة بسبب ظروف القبائل المحلية ونتيجة لذلك فإن الحكومة البريطانية لا تستطيع الاستمرار في تقديم الاقتراحات بتأجير الأراضي شمال الحدود الحالية (١) .

والواقع أنه منذ منتصف يناير عام ١٩٠٤ كان المعتمد البريطاني في القاهرة قد نصح حكومته بوجوب تحذير الملك ليوبولد بأن جلاء القوات السودانية عن أراضي بحر الغزال سيكون صعباً نتيجة للارتباطات التي تمت مع القبائل ، وأن هذه الارتباطات قد تم تجديدها مؤخراً نتيجة لعدم قبول المقترحات البريطانية ، وأنه بناء على ذلك لا يمكن تقديم أى اقتراح بتأجير أراضي شمال خط الحدود البلجيكي (٢) .

(١) Corres, part X, No. 25, Lansdowne to Phipps, Feb. 22, 1904, Desp. No. 13.

(٢) Ibid., part LXIII, Inc. in No. 160, Cromer to Lansdowne, Jan. 14, 1904, Desp. No. 5.

٢ — الاحتجاج على الوجود الكونغولي في بحر الغزال ، ففي ٢٤ فبراير طلب اللورد لانسدون من السير فيبس أن يرجو الحكومة الكونغولية بأن تطلب من المسيو ليمير الانسحاب العاجل وأن تتخذ الخطوات المناسبة لمنع تكرار مثل هذه الانتهاكات (١) .

وتقدم فيبس بالاحتجاج المذكور على الفور راجياً إصدار الأوامر المشددة لمنع مثل هذه الحملات من الدخول في أراضي السودان في المستقبل (٢) .

ولكن لم يتفاهل السفير البريطاني في بروكسل كثيراً من أثر هذه الاحتجاجات فقد رأى أنه لن يكون لها تأثير كبير إذ أعتقد أن حكومة الكونغو ترغب في صدام وذلك حتى يمكن اللجوء إلى التحكيم بمقتضى ميثاق برلين (٣) .

٣ — الضغط على المسيو ليمير واحتواء قواته بطريقة لا تسمح له بحرية الحركة ، ففي ٢٩ فبراير أبرق اللورد كرومر إلى لندن بأن حاكم عام السودان قد اقترح أن تقوم الحملة التي أرسلت إلى النيام نيام أو الزاندي بطرد المسيو ليمير وقواته إذا كانت الحكومة البريطانية راغبة في ذلك أو تبقى هذه الحملة في ضواحي مفولو حتى يتحسن الموقف وقد وافق كرومر على بقاء الحملة في ضواحي مفولو وطلب عدم اللبادة بأي عمل عدواني واقترح فقط قطع طريق مواصلات ليمير ومنع الإمدادات عنه حتى تدمر هو وقواته المجاعة (٤) .

* * *

بدأت ردود فعل التحرك البريطاني في اتجاهاته المتعددة تظهر من الجانب البلجيكي منذ أواخر فبراير ، ففي ٢٩ من هذا الشهر سلم البارون فان أفيلد إلى السفير

Corres, part LXIII, Lansdowne to Phipps, Feb. 24, 1904, (١)
Desp. No. 14.

Ibid., part X, Inc. in No. 31, Phipps to M. De Cuvelier, (٢)
Feb. 25, 1904.

Ibid., No. 29, Phipps to Lansdowne, Feb. 26, 1904, Tel. (٣)
No. 23.

Ibid., No. 32, Cromer to Lansdowne, Feb. 29, 1904, Tel. (٤)
No. 15.

البريطاني في بروكسل رده على مذكرة لانسدون وقد كرر فيها نفس الآراء التي أبداهها من قبل وهي :

١ — أن الحكومة البريطانية تستعمل مسألة الحقوق المصرية بالطريقة التي تناسبها.

٢ — أن التحكم هو الحل الوحيد السليم .

٣ — أن إنبذ الحقوق السياسية الممنوحة ١٨٩٤ إنما تم فيما يتعلق بفرنسا وحدها .

٤ — أن معاهدة ١٨٩٤ لا زالت في كامل فاعليتها .

وعندما تحدث السير فيبس عن مسألة حملة ليمير ، وأن هدفها الأساسي أصبح غير ذي موضوع ، وأنه في منطقة مثل بحر الغزال تكن احتمالات واسعة للصدام ، أجاب البارون فان أنفيلد أن حكومته لا تختص الصدامات المحلية أو نتائجها^(١) .

ورغم ذلك أبلغ فان أنفيلد السير فيبس في ٧ مارس أنه حالما أن تم بمئة ليمير مهمتها فسوف تنسحب تلقائياً^(٢) .

ولكن يبدو أن هذا الإبلاغ من جانب الوزير الكونغولي لم يكن سوى محاولة تخدير حتى يتمكن ليمير من كسب الوقت لتدعيم قواته ، ففي اليوم التالي لهذا الإبلاغ — ٨ مارس — وصلت برقية إلى لندن من السودان عن طريق اللورد كرومر بأنه تم إرسال التعزيزات لحملة ليمير وأنها تقوم بتشديد مبان دأمة ، وقد أشار المعتمد البريطاني في القاهرة لخطورة الموقف وطلب سؤال الملك عن حقيقة نياته لاسيما أن الوقت يمر وستؤدي الأمطار إلى استعالة الاتصال بتلك الجهات^(٣) .

(١) Corres, part LXIII, Inc. in No. 160, Phipps to Lansdowne, Feb. 29, 1904, Desp. No. 24.

(٢) Ibid., Phipps to Lansdowne, March 7, 1904, Desp. No. 29.

(٣) Ibid., part X, No. 42, Cromer to Lansdowne, March 8, 1904, Tel. No. 17.

ورد اللورد لاندون متسائلا عما إذا كان يمكن قطع الإمدادات عن المسير ليمير^(١) كما أبق للسير فييس يسأله عما إذا كان يرى ضرورة تقديم احتجاج آخر^(٢) ورد السفير البريطاني في بروكسل على ذلك بالإيجاب .

وفي ١٠ مارس أبلغ كرومر اللورد لاندون عن امكان قطع الإمدادات عن ليمير ولكنه لم يرحب بهذه الخطوة إلا كسهم أخير نتيجة لما يمكن أن تؤدي إليه من صدام . وقد ذكر اللورد لاندون أنه في ظل الموقف القائم فالظروف تمكن البلجيكيين من تجميع قواتهم في بحر الشمال أكثر مما تمكن حكومة السودان^(٣).

كما طلب وزير الخارجية في نفس اليوم من السير فييس تقديم احتجاج آخر على ضوء الأنباء التي تأكدت عن تدعيم القوة التي يقودها ليمير وهدف هذا العمل الظاهر إلى تحويل « مفولو » إلى مركز دائم . وبالفعل ضغط السير فييس في نفس اليوم على حكومة الكونغو لتقديم الاجابة المنتظرة لمذكرة الاحتجاج التي كان قد قدمها في ٢٠ فبراير^(٤).

وقد أجابت حكومة الكونغو في ١١ مارس على طلب السير فييس بسحب حملة ليمير بلغت نظره إلى معاهدة ١٨٩٤ التي كررت أنها في كامل فاعليتها ، وطادت تكرر تأكيدها أنها على استعداد للتفاوض في الأمر .

وعندما طلب رأى كرومر في الرد على الحكومة الكونغولية في ١٢ مارس— أجاب بأن أفضل طريق هو التمسك بالحقوق المصرية التي جاءت في معاهدة ١٨٩٢ كما ذكر أن عدم تنفيذ المادة الثالثة من المعاهدة يبطلها برمتها (وهي المادة المتعلقة بتأجير شريط من الأرض بين بحيرتي ألبرت وتنجانيقا إلى بريطانيا) ، وأوصى باستمرار الضغط على الملك ليوبولد حتى يتم سحب حملة ليمير^(٥).

Corres, part X, No. 43, Lansdowne to Cromer, March 9, 1904, Tel. No. 11. (١)

Ibid., part LXIII, Inc. in No. 160, Lansdowne to Phipps, March 9, 1904, Tel. No. 19. (٢)

Ibid., part X, No. 46, Cromer to Lansdowne, March 10, 1904, Tel. No. 18. (٣)

Ibid., No. 47, Lansdowne to Phipps, March 10, 1904, Desp. No. 1. (٤)

Ibid., No. 53, Cromer to Lansdowne, March 12, 1904, Tel. No. 21. (٥)

وفي خلال الشهر الذى امتد من منتصف مارس حتى منتصف أبريل بلغت لجة الشد والجذب أقصاها ، فبينما أخذ ممثلو ليوبولد يقدمون وعوداً غامضة عن قرب الإنسحاب أخذ الضغط البريطانى يتزايد يوماً بعد آخر بطلب تنفيذ هذه الوعود حتى رضخ الكونتوليون أخيراً وتمحلت الوعود الغامضة إلى تعهد كتابى صريح حصلت عليه السفارة البريطانية فى بروكسل فى ١٧ أبريل سنة ١٩٠٤ ، وتم تنفيذه خلال الشهر التالى .

وقد بدت أول استجابة من الجانب الكونتولى للإنسحاب عندما أبلغ المسيو دى كوفليه السير فيبس فى ١٢ مارس أثناء المحادثات التى جرت حول إنسحاب ليير أن الصعوبة الوحيدة فى صدور أمر الإنسحاب أن مثل هذا الأمر سيحمل إعتراضاً من الكونتو بأنه فبس لها حق فى الأراضى المؤجرة وطلب منه — بصورة غير رسمية — تأكيداً بأنه لن ينظر إلى السألة مثل هذه النظرة ولكن رفض السير فيبس تقديم مثل هذا التأكيد^(١) .

وفي لقاء بين الرجلين فى اليوم التالى — ١٣ مارس — بدأ الموقف يتضح أكثر ، فقد عاد الممثل الكونتولى يؤكد إنسحاب ليير حالما تستكمل بعثته عملها وإن كان لم يستطع أن يفسر الاستعدادات التى يقوم بها رجاله من أجل إقامة طوية فى مفولو^(٢) . كما أكد أن حكومته غير مستعدة أن تقدم تمهداً مكتوباً بدم حدوث ذلك فى المستقبل^(٣) .

* * *

وتوقف هنا لبرهة فليس فيها تفسيراً لموقف ليوبولد باستعداده لسحب حملة ليير وسؤال يلح علينا عن ماهية الأسباب التى دعت إلى ذلك ؟
الواقع أن تفسيرين يتدافعان لدينا فى هذا الصدد :

(١) Corres, part LXIII, Inc. in No. 160, Phipps to Lansdowne, March 12, 1904, Tel. No. 32.

(٢) Ibid., part X, No. 62, Phipps to Lansdowne, March 13, 1904, Desp. No. 4.

(٣) Ibid., No. 62A, Phipps to Lansdowne, March 13, 1904, Tel. No. 33A.

الأول : أن الحملة كما ادعى قائدها منذ البداية مجرد « بعثة طبوغرافية » لا تلبث أن تنسحب بعد إتمام مهمتها .

الثاني : وهو التفسير الأكثر منطقية والذي أكدته الأحداث فيما بعد بأن « صاحب الكونغو » رأى أن صداماً في « مفولو » لن يكون له الأثر المطلوب بالجوء إلى التحكم ، وذلك لوقوع هذه البقعة شمال خط عرض ٥° شمالاً ، وهو الخط الذي حدده ميثاق برلين ١٨٨٥ لدولة الكونغو الحرة بأنه يجب « التحكم » في الخلافات التي تحدث وراءه وهو ما أشارت إليه مذكرة اللورد لانسدون المؤرخة في ٢٢ فبراير سنة ١٩٠٤ .

ومما يؤكد هذا التفسير أن الكونغوليين بعد انسحابهم من « مفولو » ما لبثوا أن عادوا لاحتلال مراكز سودانية جنوب خط عرض ٥° شمالاً في مرحلة تالية من مراحل الصراع .

ومن ثم لم يكن أمام ليوبولد سوى الانسحاب وإن كان قد حاول إحراز أى كسب قبل إتمامه فتارة يطلب من البريطانيين أن يعترفوا بأن هذا الانسحاب لا يعنى عدم أحقيته في الأراضي موضع النزاع ، وتارة أخرى يرفض تقديم أى تمهد مكتوب بعدم حدوث ذلك في المستقبل .

كما أن هذا الانسحاب تم بتباطؤ شديد بأمل فرصة في إحداث ثغرة في الحائط الإنجليزي يحرز منه كسباً ، ويجذبنا هذا إلى العودة لتتبع المناقشات التي دارت حول الموقف وقتها إذ يظهر ذلك أن ليوبولد كاد يحقق بغيته .

فهذا التباطؤ دعا البريطانيين في البداية إلى التفكير في عملية تجويع حملة ليير ، ولكن قائد القوة التي كانت تراقب ليير كتب بأن مثل هذا الأسلوب سيستغرق وقتاً طويلاً ونصح بطرده بالقوة . ورأى اللورد كرومر أن يحدد البلجيكيون موعداً لانسحابهم وحذر من النتائج الخطيرة التي ستترتب على تأخير هذا الانسحاب .

وبناء على ذلك أبلغ اللورد لانسدون السير فييس في ٦ أبريل أن الموقف لم يتغير في « مفولو » وأن عليه إبلاغ السيوكوفليه بأنه إذا كانت التعليمات لم تصل

إلى ليمير بالانسحاب فعلى سلطات الكونغو أن تحدد أقصى موعد يمكن أن تصل فيه هذه التعليمات. كما طلب من السير فييس أن يؤكد أن الموقف سيصبح خطيراً للغاية إذا لم يتم انسحاب سريع^(١) . .

ولما تقد « فييس » التعليمات الرسالة اليه وأبلغ دى كوفليه بها رد عليه هذا مؤكداً أن الحملة تنسحب جنوباً وإن كان قد ذكر أنه سيمود للملك فيما يتعلق بتحديد ميعاد لخروج ليمير من أراضي السودان^(٢) .

واستمر التباطؤ الكونغولى وتزايد الإلحاح البريطانى ففى ١١ أبريل أرسل اللورد كرومر برقية من حاكم عام السودان يلح فيها بأن تسارع سلطات بروكسل بإرسال تعليماتها برقية عن طريق النيل حيث يزداد تعقيداً^(٣) .

وبناء على طلب كرومر هذا قدم السير فييس مذكرة فى اليوم التالى — ١٣ أبريل — للحكومة الكونغولية أشار فيها إلى أنه رغم التأكيدات التى صدرت له إلا أن ليمير لم ينسحب بعد ، وأنه بناء على ذلك يعتقد أن السيوليمير قد عدل فى التعليمات الصادرة له ومن ثم فهو يطلب إعادة صدور هذه التعليمات حفاظاً على سلامة الحملة ، وأيضاً سلامة للديرية . وقد أعادت المذكرة ما كان قد تم بين الحكومتين فى الموضوع وأشارت إلى أخطار الموقف وسألت الإبراق بالتعليمات رأساً إلى السيوليمير عن طريق النيل^(٤) .

ولما لم تحصل الخارجية البريطانية على رد سريع لمذكرة فييس الأخيرة أبرق لانسدون إلى كرومر فى ١٥ أبريل يطلب منه رأيه فى الخطوة التالية إذا رفضت الحكومة الكونغولية سحب ليمير ، ونبهه إلى أنه لا جدوى من التهديد إذا لم يكن هناك نية لتنفيذه ، ولما رأى أنه من الضرورى التأكد من التفوق العسكرى الذى

(١) Corres, part X, No. 73, Lansdowne to Phipps, April 6, 1904, Tel. No. 29.

(٢) Ibid., part LXIII, Inc. No. 160, Phipps to Lansdowne, April 11, 1904, Tel. No. 38.

(٣) Corres, part X, No. 79, Cromer to Lansdowne, April 12, 1904, Tel. No. 42.

(٤) Ibid., part LXIII, Inc. in No. 160, Phipps to Lansdowne, April 13, 1904, Tel. No. 39.

محتاج إلى مزيد من الإمدادات وتسكون النتيجة صداماً لن يمكن معه تجنب التحكم كما رأى أن هناك حلاً آخر طويل الأجل بالاستمرار في تجويع ليمير مع ممارسة الضغط السياسى فى نفس الوقت (١) .

وبينما كان المعتمد البريطانى فى القاهرة يعد رأيه فى مذكرة لانسدون الأخيرة التقى السفير البريطانى فى بروكسل بالمسيو دى كوفليه فى ١٨ أبريل ، وقد اتسم رد الأخير « بالبرود » فمع تأكيده قرب إنسحاب ليمير ككتابة ، إلا أنه أضاف أن الملك لن يصدر تعليمات جديدة (٢) .

وتزايدت الشكوك أكثر وأكثر حول موقف الكونتولين فى تلك الأثناء أرسل وينجت مراسلتين إلى كرومر عن الموقف فى بحر الغزال جاء فى الأولى أنه قد حصل على كتاب مرسل إلى المسيو ليمير من حكومة الكونتغو عن طريق حاكم اللادو جاء فيه ما يعنى أن عليه - أى ليمير - البقاء حيث هو . ورأى حاكم عام السودان بناء على هذا تزايد احتمالات الصدام وطالب بمزيد من الضغط بهدف سحب ليمير .

أما الكتاب الثانى فقد أرفق به السير وينجت تقرير قائد القوة التى ترافق ليمير والتى ذكر أن البلجيكيين لا يبدون أى علامة تدل على نية انسحابهم ، بالمعكس فقد تم تعزيز قواتهم وجمعوا كميات كبيرة من الإمدادات كما أنهم نجحوا فى التقرب إلى الأهالى بشراء حاجياتهم بأثمان مرتفعة (٣) .

وفى ظل هذا الجو أجاب كرومر على اللورد لانسدون فى ١٩ أبريل فذكر أنه استشار السردار ، وأنه يرى أولاً انتظار رد الملك ، أما إذا كان هذا الرد غير مرض فعلى الحكومة البريطانية أن تقرر الموافقة أو عدم الموافقة على التحكم ، وقد رأى أن البديل الوحيد للتحكم هو القوة التى قد تؤدى إلى شن حرب فى حاجز

(١) Corres, part X, No. 85, Lansdowne to Cromer, April 15, 1904, Tel. No. 31.

(٢) Ibid., No. 90, Phipps to Lansdowne, April 18, 1904, Desp. No. 7.

(٣) Ibid., No. 99, Cromer to Lansdowne, April 16, 1904, Desp. No. 41.

اللاذو وإلى استدعاء الاحتياطى المصرى وإلى زيادة الحماية البريطانية . أما مسألة قطع الإمدادات عن ليمير فهمى مسألة طويلة المدى . وإن كان قد رأى أنه لا يمكن البدء فى أى عمليات عسكرية قبل أكتوبر وأنه فى تلك الفترة ستمسك قوة بين مفولو والحدود لتحفظ الحقوق المصرية ولكنها لن تقطع الإمدادات . وحذر المعتمد البريطانى فى القاهرة من أن « مركزنا فى السودان سيتعرض للحرع الشديد إذا فشلنا فى إخراج ليمير بسبب التحكيم ، أو أى سبب آخر » (١) .

وهكذا نرى أن تباطؤ سحب ليمير قد أدى إلى أن يطرح المعتمد البريطانى فى القاهرة حل اللجوء إلى التحكيم كأحد حلين للموقف إلا أن حكومة الكونتو ما لبنت نفسها أن تبرعت بحل الموقف لوزارة الخارجية البريطانية وذلك حين حصلت السفارة البريطانية فى بروكسل على أول مذكرة رسمية من هذه الحكومة عن تأكيد انسحاب ليمير وعن ميعاد هذا الانسحاب الذى تمحدد بعد إتمام مهمته فى مايو أو يونيه (٢) .

ورغم التأكد الكونتوفولى فى مذكرة ٢٠ أبريل إلا أن القلق كان يمسك بتلابيب حاكم عام السودان الذى أبرق فى أوائل مايو إلى كرومر بأنه سوف يشعر بالثقة إذا ما أوضحت الحكومة البريطانية للملك ليوبولد بأنه إذا لم يتم انسحاب ليمير فإنه سوف تستعمل القوة لتحقيق هذا الانسحاب . وأنه فى حالة ضرورة القيام بعمليات عسكرية فلا بد من إرسال لواءين من الجنود البريطانيين وبطارية مدفعية كامدادات ضرورية وذكر الحكومة البريطانية أنه فى حالة رفض بروكسل لطلب انسحاب ليمير فإن ذلك يعنى حقه فى الوجود فى تلك الجهات وهذه سابقة خطيرة للغاية . ثم اقترح أخيراً أن تطلب الحكومة البريطانية التعويض المناسب من الكونتو عما ستكلفه السودان من جراء العمليات المقترحة .

وأجاب اللورد كرومر على كل ذلك بأن هناك اعتراضات هامة على إرسال إمدادات بريطانية قوية إلى السودان وذكر للحاكم العام أنه إذا كان ثمة

Ibid., No. 93, Cromer to Lansdowne, April 19, 1904, Tel. (١)

Ibid., No. 94, Sir B. Boothby to Lansdowne, April 20, 1904, (٢)

Desp. No. 8.

اختيار بين الحرب والتحكيم فإن الحكومة البريطانية ستجد نفسها مضطرة لقبول الحل الأخير .

ورد وينجت على ذلك على ضوء اعتبارات معينة عرضها وهي :

١ - أن العمليات العسكرية المزمعة ضد النيام نيام لا يمكن تنفيذها قبل أكتوبر .

٢ - أن استبقاء القوات العسكرية في بحر الغزال سيؤدي إلى استنزاف مبالغ كبيرة كما أنه ضار للغاية بصحة أفرادها .

٣ - أن المواصلات مع المراكز القائمة ستكون مستحيلة خلال موسم المطر .

٤ - أن مركزة القوات في تلك الأنحاء سيؤدي إلى التدخل في شئون الإدارة المحلية للمديرية .

٥ - أن الأمطار سوف تشل التحركات البلجيكية بدورها .

وبناء على ذلك فقد اقترح سحب القوات التي لاحتاجة لها في المديرية .

ورد اللورد كرومر على ذلك موافقاً على القرار المذكور وإن أبدى أسفه نتيجة الاضطراب لاتخاذ هذا الإجراء قبل انسحاب ليمير .

وقد أبلغ لانسدون السير فيبس بانسحاب القوات السودانية من بحر الغزال ، وطالبه بالاستمرار في محادثاته مع حكومة الكونغو لتنفيذها وعدها بسحب حملة ليمير من الأراضي السودانية^(١) في نفس الوقت الذي أرسل فيه إلى كرومر يبلغه بموافقة السكاملة على رأيه بالموافقة على هذا الانسحاب^(٢) .

وفي اللقاء الذي تم في أوائل يونيو بين السفير البريطاني في بروكسل ، وممثل حكومة الكونغو ألح الأول على تنفيذ وعد الانسحاب الذي كان قد حصل

Corres, part LXIII, Inc. in No. 160, Lansdowne to Phipps, (١)
May 11, 1904, Tel. No. 40.

Corres, part X, No. 108, Lansdowne to Cromer, May 13, 1904. (٢)

عليه . وأجاب السيودى كوفليه على ذلك أن الوعد في طريق التنفيذ وإن ظل مصمماً على أن من حق الموظفين الكونتوليين استمرار الدخول في بحر الغزال طبقاً لاتفاقية ١٨٩٤^(١) .

ولم يكن أمام البريطانيين بعد ذلك سوى الاستمرار في ضغطهم الدبلوماسى ، وتنسبهم لأخبار انسحاب ليمير ، وقد حصل السفير البريطانى في بروكسل قبل نهاية سبتمبر ١٩٠٤ على تأكيدات محددة بانسحاب ليمير وإن ظل من غير المعلوم هل تم هذا الانسحاب أم لا لأن طريق الاتصال الوحيد مع بحر الغزال وقتذاك هو طريق الكونتو ، وكان الاتصال بواسطته يستغرق وقتاً طويلاً ، ومن ثم لم يكن من المنتظر وصول أخبار مؤكدة عن هذا الطريق قبل نهاية أكتوبر^(٢) .

ولكن تأكيد انسحاب ليمير مالم يثبت أن وصل عن طريق النيل في أواخر سبتمبر إذ علمت حكومة السودان عن طريق مراكزها في بحر الغزال أنه قد تم انسحاب ليمير والجللاء عن مفولو خلال منتصف أغسطس^(٣) . وبذلك انتهت المرحلة الأولى من مراحل « احتمالات الصدام » .

* * *

لم يمنح ليوبولد وزارة الخارجية البريطانية فرصة لتبدأ فيها خلال انسحاب حملة ليمير ، أو في أعقاب هذا الانسحاب .

ففي هذا الوقت كان قد نشر تقرير كرومر السنوى عن السودان وقد جاء فيه إشارات واضحة إلى إمكان حدوث تغييرات في حدود السودان مع الكونتو^(٤) ، كما جاء في مكان آخر أن اتفاقاً قد تم مع سلطات الكونتو بشأن الحدود الشمالية لحاجز اللادو التى تقطع النيل^(٥) .

(١) Corres, part LXIII, Inc. in No. 160, Phipps to Lansdowne, June 4, 1904, Tel. No. 63.

(٢) Ibid., Phipps to Lansdowne, Sept. 22, 1904, Tel. No. 91.

(٣) Ibid., Findlay to Lansdowne, Sept. 27, 1904, Tel. No. 86.

(٤) Annual Report, 1904, p. 1.

(٥) Annual Report, 1904, p. 87.

وبناء على تحريض الملك البلجيكي احتجبت شركة «أفريقيا الإستوائية البريطانية» و «أفريقيا الأنجلو - بلجيكية» على احتمال مثل هذه الاتفاقات أشد الاحتجاج وذكرنا اللورد لانسداون بوعده بإبلاغهما بأى اتفاق قد يعقد مع دولة الكونغو ويؤثر على الحقوق والامتيازات التى منحتها هذه الدولة للشركتين .

وأشارتا فى احتجاجهما إلى أنه على الرغم من أن الامتيازات الممنوحة لهما فى الأراضى التى أجزتها الحكومة البريطانية للملك ليوبولد فى معاهدة ١٢ مايو ١٨٩٢ تجارية تماماً وليس لها أى صبغة سياسية أو إدارية فإن أى تغيير فى الوضع السياسى لتلك الأراضى قد يؤثر أشد التأثير على مراكز الشركتين ومناطق عملهما فى المستقبل^(١) .

ولم تكتف الشركتان بمخططات الاحتجاج بل إنهما أخذتا تبحثان عن مفر من تنفيذ منها إلى الأراضى السودانية ، وبالفعل أرسلت « شركة أفريقيا الأنجلو - بلجيكية » مندوباً لها هو « السيد دالزيل H.D. Dalziel » ليحصل على العلاج والمطاط من مديرية بحر الغزال ، وبدأ الرجل نشاطه من مركز بلجيكي صغير هو : « بوفى Bufo » ، وذلك دون إذن من حكومة السودان ، ولما وجده رجال هذه الحكومة فى المنطقة أمروه بمغادرتها على الفور^(٢) .

ورغم إنصياح « دالزيل » لطلب السلطات السودانية إلا أنه سجل احتجاج شركته على عدم السماح له بممارسة نشاطه التجارى فى المنطقة مما دعا الحكومة البريطانية إلى القيام بتحذير الشركة من العودة لإرسال أى مندوبين تجاريين لها للمديرية السودانية حتى تنتهى المفاوضات الجارية مع دولة الكونغو^(٣) .

ورد « السير جريفن Lapel Griffin » رئيس مجالس إدارة الشركة على ذلك التحذير بأنه ليس للامتيازات التى حصلت عليها شركته أى طبيعة سياسية ، وأن

(١) Corres, part X, No. 106, Anglo-Belgian Africa Co. and British Tropical Africa Co. to Lansdowne, May 10, 1904.

(٢) Ibid., No. 136, Cromer to Lansdowne, June 15, 1904.

(٣) Ibid., No. 139, Foreign Office to Anglo-Belgian Africa Co., July 1, 1904.

أهدافها تجارية ، وتجارية فقط ، وأعلن أن خسارة فادحة قد نزلت بالشركة نتيجة لإبعاد المسيو دالزيل من بحر الغزال ومنعه من التجارة . وأعرب عن أمله أن يسمح لشركته بحرية التجارة في بحر الغزال وذلك حتى يتم التوصل إلى اتفاق بين الحكومة البريطانية والملك ليوبولد (١) .

وردت وزارة الخارجية البريطانية على السير جريفن برفض طلبه بالسماح بحرية التجارة في بحر الغزال حتى يتم التوصل إلى اتفاق مع الملك ليوبولد ، وعادت تكرر تحذيراتها بعدم القيام بمحاولات أخرى شبيهة بتلك التي قام بها دالزيل (٢) .

* * *

لا تنتهى محاولات الشركات البريطانية حتى تنأثر قبل نهاية الشهر نفسه -- يولييه - الأخبار بقيام البلجيكي ببناء خط من التحصينات في حاجز اللادو وبتطوير الأجهزة الإدارية والقضائية فيه (٣) .

ورغم أن السلطات البريطانية في القاهرة أبدت تشككها في قيمة هذه الأخبار التي صدرت عن السفارة البريطانية في بروكسل (٤) ، إلا أن الإشاعات عادت تتواتر خلال فبراير من العام التالي - ١٩٠٥ - عن بناء التحصينات في حاجز اللادو وعلى طول الحدود السودانية (٥) .

ولم يمض وقت طويل حتى تأكدت أنباء بعودة البلجيكي لاقتحام بحر الغزال عندما أبقى الكولونل هنرى ممثل الحاكم العام في السودان في أوائل مارس لكرور يبلغه عن وجود هؤلاء في مركز غرب « مريدي » ، وآخر على نهر « ال رهل Ruhl » ، وكان مع رجال المركز الأخير أحد مدافع الميدان ، وقد طلب قائد القوة السودانية من قائد المركز الأول الانسحاب بعد أن أوضح له أنه في أرض سودانية ،

(١) Corres, part LXIII, Inc. in No. 160, Sir Lapel Griffin to Foreign Office, July 1, 1904.

(٢) Ibid., Gorst to Sir Lapel Griffin, July 9, 1904.

(٣) Ibid., Phipps to Lansdowne, Aug. 22, 1904, Tel. No. 13.

(٤) Ibid., Findlay to Lansdowne, Sept. 22, 1904, Desp. No. 104.

(٥) Ibid., Phipps to Lansdowne, Feb. 15, 1905, Tel. No. 11.

ولكن هذا رفض تنفيذ ذلك الطلب دون تعليمات من السيوليمير الذي لم يكن معروفاً مكانه بالضبط ، وذكر أنه مجرد قسم من بعثة ذات طبيعة جغرافية ، ومن ثم لم يكن هناك حل سوى تحذيره بعدم الاستمرار في التقدم غرباً .

وبدخول قوات « ليمير » مرة أخرى إلى الأراضي السودانية تدخل الأزمة في مرحلتها الثانية — الأكثر حدة — التي وصل فيها الجانبان إلى حافة الصدام فعلاً ، وقد بادر كرومر فأرسل إلى لندن يبلغ بهذه الأخبار وحث وزير الخارجية البريطانية على الاحتجاج بشدة لدى بروكسل ، والمطالبة بالانسحاب من هذه المراكز^(١) .

وبناء على مطلب للتعتمد البريطاني أرسل اللورد لانسدون تعليماته إلى السفارة البريطانية في بروكسل بتقديم الاحتجاجات اللازمة ، وطلب انسحاب القوات الكونغولية الموجودة في بحر الغزال^(٢) ، وبالفعل تقدم « السير بوثنباي » بالذكرة المطلوبة وإن كان السيوليدى كوفليه يمثل حكومة الكونغو في بروكسل قد ذكر أنه لن يمكن البت في أي إجراء قبل عودة الملك من رحلة كان بها خارج البلاد^(٣) .

وعلى أرض النزاع كانت تبذل الجهود لتحقيق انسحاب القوات الكونغولية محلياً ، فقد أرسل قائد المركز السوداني في « واو » رسالة إلى ليمير في ٣ يناير طلب منه فيها الانسحاب من الأراضي الواقعة تحت الحكم المصري — الإنجليزي ، فرد ليمير على ذلك بأن حكومته قد كلفته بالقيام بعمليات المسح في الأراضي المؤجرة لدولة الكونغو بمقتضى معاهدة ١٨٩٤ التي لم تلغ أبداً ، وأكد أن جميع المراكز التي أقيمت على طول خط التقسيم بين النيل والكونغو تقع جميعها جنوب خط عرض ٥° شمالاً جنوب الحدود الشمالية لحوض الكونغو كما تشير معاهدة برلين^(٤) .

والواقع أن ليمير كان قد أرسل خلال هذا الشهر — يناير — يسأل رؤسائه

(١) Corres, part LXIII, No. 49, Cromer to Lansdowne, March 8, 1905.

(٢) Ibid., No. 52, Lansdowne to Boothby, March 9, 1905, Tel. No. 7.

(٣) Ibid., Inc. in No. 62, Boothby to De Cuvelier, March 9, 1905.

(٤) Ibid., No. 66, Cromer to Lansdowne, March 13, 1905, Desp. No. 7.

عما إذا كان سيقاوم في حالة الهجوم عليه ، وقد أحيل هذا التساؤل لليوبولد شخصياً الذى أجاب عليه بالإيجاب^(١) .

وقد رد قائد واو على إجابة ليمير بأنه لا يمكن الاعتراف بأى حدود أخرى سوى تلك التى تتفق مع خط تقسيم المياه بين النيل والكونغو كحدود جنوبية للسودان .

وأرسل قائد المركز السودانى فحوى هذه الاتصالات لممثل الحاكم العام فى الخرطوم الذى طيرها للمعمد البريطانى فى القاهرة الذى أرسلها بدوره إلى لندن مع طلب باستمرار الضغط على حكومة الكونغو لتحقيق الانسحاب العاجل^(٢) ، وبالفعل عاد ممثل السفير البريطانى فى بروكسل يطالب بالانسحاب السريع للقوات الكونغولية من الأراضي السودانية^(٣) .

ولم ينتظر السير بوثنباى طويلاً ليحصل على رد الحكومة الكونغولية الذى كشف عن خطتها ، فقد جاء فى هذا الرد أن السيوليمير قد أقام مراكزه فى نطاق الحقوق الممنوحة بمقتضى معاهدة ١٨٩٤ ، ورغم ذلك فإنها مجرد مراكز مسح جغرافى وليس لها أى أهمية سياسية ، كما أشار إلى أن هذه المراكز جنوب خط عرض ٥° شمالاً ، وفى الختام أكدت الذاكرة الاستعداد الكونغولى للمفاوضة وإما الوساطة طبقاً للمادة ١٢ من ميثاق برلين^(٤) .

وأحسن ليوبولد أنه قد حاصر بذلك الحكومة البريطانية بين العودة للمفاوضة والرضوخ لشروطه ، أو التحكيم وهو ما نجحت هذه الحكومة من تجنبه خلال الرحلة السابقة ، وبالفعل أرسل لانسدون إلى كرومر يستشيره فى إمكان قبول هذا الحل المقترح بالوساطة^(٥) ، وإن لم يمنع هذا استمرار الاتصال بالسلطات

(١) Sanderson, G.N., op. cit., p. 63.

(٢) Corres, prat LXIII, No. 66, Cromer to Lansdowne, March 13, 1905, Desp. No. 7.

(٣) Ibid., No. 69, Lansdowne to Boothby, March 14, 1905, Tel. No. 9.

(٤) Ibid., Inc. in No. 160, Boothby to Lansdowne, March 16, 1905, Desp. No. 30.

(٥) Ibid., No. 73, Lansdowne to Cromer, March 17, 1905, Tel. No. 15.

الكونتولية ومحاولة إقناعها بالانسحاب ، وقد ألتقى السير بوثباى فعلاً بالمسيو دى كوفليه وعاد لذكيره بمقوق مصر للنصوص عليها فى ملاحق معاهدة فى ١٨٩٤ ، وإن ما تقعله بريطانيا ايس إلا تنفيذاً لما جاء فى هذه الملاحق^(١).

وفى الوقت الذى كان كرومر يعد فيه رده على لانسدون بشأن قبول الوساطة أو التحكيم فى الأزمة ، والذى تضمن الرفض السكامل لهذه الفكرة كانت الأحداث تجرى على أرض للمنطقة محل النزاع بسرعة أكبر من تلك التى تجرى بها فى نطاق الاتصالات الدبلوماسية إذ نجح ليمير فى تأسيس مراكز ثلاثة أخرى على نهر « سوى Sueh » اكتشفها « اليجور بولنوا » قائد الحملة التى كانت قد أرسلتها حكومة السودان لمنطقة عيمبو ، وهى من الحملات الدورية التى ظلت سلطات الخرطوم ترسلها إلى تلك الجهات الجنوبية بهدف بسط سلطانها عليها وإقامة مراكز حكومية فيها .

وقد رأى للتمند البريطانى فى القاهرة أن وجود البلجيك فى تلك الجهات سيؤدى إلى إضعاف نفوذ حكومة السودان فيها ، كما سيعرقل تنظيم إداراتها ، وعبر عن رأيه بضرورة استمرار الضغط الدبلوماسى على حكومة الكونتولى دون اللجوء إلى التحكيم^(٢).

وحتى تلتهى الاتصالات الدبلوماسية بين لندن وبروكسل خطت السلطات المحلية السودانية خطوة هامة بأن تقدم بولنوا للقاء ليمير مطالباً بالانسحاب فرد عليه الأخير بنفس الحجج المتعلقة بمعاهدة ١٨٩٤ ، وادعى أنه قد تقدم خلال عام ١٩٠٢ فى بحر الغزال حتى خط عرض ٣٠° ٥٦' ولما أوقف تراجع إلى جنوب خط عرض ٥° شمالاً ، أى فى المنطقة الخاضعة لمعاهدة برلين ، على أساس أن حقوق دولة الكونتوليفها بما لا يقبل الجدل ، وطلب من مدير بحر الغزال العودة إلى المواد من ١-١٢ من المعاهدة المذكورة .

وأكد أنه لا يستطيع التراجع دون أوامر من حكومته ، وذكر أن التعليمات التى

(١) Corres, Part LXIII, No. 72, Boothby to Lansdowne, March 17, 1905, Desp. No. 31.

(٢) Ibid., No. 76, Cromer to Lansdowne, March 20, 1905, Desp. No. 31.

جاءته من بروكسل تضمنت تكليفه بالقيام بهذا العمل ، وإن كافة ما قام به قبول .
بالموافقة التامة في العاصمة البلجيكية ، ومن ثم فهو يعتبر نفسه الممثل المثل للحكومة
الكونغو (١) .

ولما اتضح إصرار البلجيكي على البقاء عمل « بولنوا » على تجميد الموقف
« باتفاقية تعايش Modus Vivendi » وقمها مع لير ، وتكون من ثلاث
نقاط رئيسية :

١ — أن يستمر الوضع القائم كما هو .

٢ — أن تدير حكومة السودان الأراضي المتنازع عليها .

٣ — أن تحتفظ بعثة لير بمراكزها لأهداف عليية فقط .

وعندما أبلغ كرومر لندن بهذه التطورات أرفق بها رأى الحاكم العام الذي
طالب بالوصول إلى اتفاق ملى بأسرع ما يمكن وإلا قد يفتج من استمرار الموقف
على ما هو عليه خطر فقدان الرجال والمال إذ سيكون مضطراً للاحتفاظ بقوة تتراوح
بين ٦٠٠ ، ٧٠٠ رجل في بلاد غير صالحة في فصل للطر .

أما كرومر نفسه فقد رأى أن البلجيكي سوف يذعنون في النهاية إذا ما استمرت
الحكومة البريطانية في ضغطها الدبلوماسي عليهم دون اللجوء إلى الوساطة وأهرب
عن ثقته الكاملة بأن البلجيكي لن يحاولوا مزيداً من التقدم (٢) .

والواقع أنه كان لهذه الثقة مبررها خاصة بعد أن أرسل ممثل الاتصال البريطاني
في بوما « المستر نيتنجيل » يذكر أن الأخبار قد وصلت إليه بما يفيد أن عملية بناء
التحصينات على طول حدود الكونغو الشرقية والشمالية الشرقية قد توقفت (٣) .

* * *

(١) Corres, Part LXIII, No. 94, Cromer to Lansdowne, April 4, 1905, Tel. No. 36.

(٢) Ibid., Inc. in No. 160, Cromer to Lansdowne, April 21, 1905, Desp. No. 41.

(٣) Ibid., Inc. in No. 160, Nightingale to Lansdowne, March 6, 1905.

وفي أواخر مارس كان كرومر مشغولاً بكتابة مذكرة طويلة قلب فيها الموقف على مختلف جوانبه ، وكانت أهم المشاكل التي عالجها في المذكرة :

١ — مسألة المراكز البلجيكية التي أقيمت في بحر الغزال .

٢ — الاقتراح الذي كان قد تقدم به المستر «دورمان Dorman» في ٧ مارس بإنشاء شركة باسم « شركة ملاحية تطوير أعالي النيل The Upper Nile Navigation and Development Co. » يساهم فيها ملك البلجيكي لتدير الملاحية في أعالي النيل على أن يكون لها منفذ على النيل ومراكز تجارية فيه^(١).

وقد رأى اللتعمد البريطاني أن المشكلتين مرتبطتان فقد استهدف البلجيكي من تقديم الاقتراح الأخير :

(١) الحصول على تسهيلات تجارية .

(ب) إعادة فتح باب المفاوضات الذي كان قد أغلق في العام السابق .

(ج) استعمال « التحكيم » بشأن الإدعاءات الكونغولية على الأراضي الواقعة جنوب خط عرض ٥° شمالاً بهدف إثارة مسألة كل الأراضي المؤجرة بمقتضى معاهدة ١٨٩٤ .

* * *

وقد استرسل كرومر في بحث النقطة الأولى المتعلقة بإقامة السيول لليبيرا للدراكر الكونغولية في الأراضي السودانية ، وقد اختلف في رأيه مع تأكيدات ليبيرا بأن بتمته « جماعة كشفية ذات طبيعة علمية » ، ورأى أنها حملة عسكرية على قدر من القوة والأهمية ، وأن قائدها قد اختار مراكزه بعناية فائقة .

وخرج اللتعمد البريطاني في القاهرة من ذلك بأن الحملة بهذه الصورة تصبح عملاً سياسياً واضحاً لا سيما أن وجودها في الأراضي السودانية قد أدى إلى معاركة

(١) Corres, part LXIII, Dorman to Foreign Office, March 7, 1905.

خطيرة مع القبائل التي تعيش فيها .. هذا من ناحية .. وإلى تفتيت ولاء هذه القبائل من ناحية أخرى مما أدى إلى نشوء صعوبات بالغة نحو إقامة للمراكز الحكومية في مناطق « النيام نيام » والتي بدت سهلة إلى حد كبير بعد وفاة « عيمو » زعيم تلك القبائل .

وبعد أن حدد كرومر طبيعة الوجود الكونغولي السياسية في بحر الغزال ذكر أن المسيو دي كوفيليه والمسيو ليير يعتمدان في تبرير شرعية هذا الوجود على :

١ — معاهدة ١٢ مايو ١٨٩٤ .

٢ — الميثاق العام لمعاهدة برلين ١٨٨٤ .

ولما كانت المسألة الأولى قد أشبعت بحثاً فقد انتقل رأساً إلى المسألة الثانية ، فذكر أن البند الذي يعتمدون عليه في الميثاق العام لمعاهدة برلين يتعلق بحرية التجارة التي كفأت بمقتضاه في الأراضي الواسعة التي تشغلها الدولة الحرة ، ولكن حكومة الكونغو نفسها قد تجاهلت هذا البند حين احتكرت تجارة المطاط ثم غيره من فروع التجارة الأخرى ، وعلى ذلك فلا يمكن لهذه الحكومة أن تتمتع بمزايا المادة الثانية عشر من الميثاق المذكور ، وإجبار البريطانيين على قبول الوساطة .

وبعد تنفيذ حق الكونغو في اللجوء إلى الوساطة أو التحكيم دفع المعتمد البريطاني الوجود الكونغولي في بحر الغزال بأنه « وجود عدواني » إذ أنه يمثل في « حملة عسكرية بنت القلاع وقتلت ثلاثمائة من الأهالي ممن تحت إدارة حكومة السودان » ، وخرج من ذلك بأن هذا الوجود يمثل « حالة حرب » .

وبناء على ذلك فقد رأى كرومر إمكان التخلص من ليير بتجميع القوات السودانية بقيادة « الميجور بولنوا » في الأراضي المجاورة لمراكزه وتحذيره ، وإن لم يتم انسحابه في يوم معين فسوف يتم إجباره على ذلك بالقوة ، وإن رأى عدم ضرورة القيام بهذا العمل قبل سبر غور حقيقة تلك التحركات الأخيرة من جانب ليوبولد .

وانتقل للمتمد البريطاني بعد ذلك إلى بحث النقطة الثانية المتعلقة بالتسهيلات التجارية المطلوبة متمثلة في الامتياز المقترح لاعداد أعلى النيل للملاحة ، وذكر أنه بعد أن بحث « السير وليم جارستين » مستشار وزارة الأشغال المصرية هذا الموضوع حذر من أن تقوم أى سلطة غير الحكومة المصرية بأعمال يستهدف منها السيطرة على مجرى النيل بصورة مباشرة أو غير مباشرة .

ورغم موافقة كرومر على آراء السير جارستين إلا أنه أعلن إمكان تقديم تسهيلات تجارية للملك البلجيكي لتقل بضائع الكونغو وحاجز اللادو عن طريق النيل وذلك بوساطة للمفاوضات ، ولكنه اشترط قبل عودة فتح باب المفاوضات شرطين :

١ — الانسحاب من المراكز التي أقامها ليمير في الأراضي السودانية .

٢ — أن يصدر ملك البلجيكي التأكيدات اللازمة بأنه لن يعود لمثل ذلك العمل مستقبلاً .

وختم مذكرته التي وصلت لندن في ١٨ أبريل بأنه في حالة عدم قبول الملك لمثل هذه الشروط فإنه بالإمكان تجويع مراكز ليمير بقطع الأغذية عنها^(١) . وكانت هذه بداية التفكير في سياسة الحصار التي اتبعت بالفعل بعد ذلك .

* * *

ولما كان كرومر قد طرح جانباً فكرة المصادم العسكري — لوقت على الأقل — فقد وافق على اقتراح مدير بحر الغزال بانسحاب القوات السودانية من المراكز الواقعة في المنطقة محل النزاع حيث لم تبق هذه القوات إلا في مركزين هما مريدى وتيمورا^(٢) .

في نفس الوقت — وبناء على نفس المذكرة — تم إبلاغ « المستر دورمان » أن وزارة الخارجية تعتبر مشروعه غير عملي ، وإن من رأى الحكومة المصرية أن

Corres, Part LXIII, No. 95, Cromer to Lansdowne, March (١)

Ibid., Inc. in No. 160, Cromer to Lansdowne, April 15, 1905, (٢)
26, 1905, Desp. No. 32.
Tel. No. 42.

كافة المشاريع التي تحكم في مياه النيل بصورة مباشرة أو غير مباشرة يجب أن تبقى في أيديها^(١).

وفي تلك الأثناء كانت بروكسل قد ردت على المذكرات البريطانية المتلاحقة عليها بمذكرتين مؤرختين في ١٦، ١٧ أبريل ١٩٠٥، وكان قوام هاتين المذكرتين أن الحكومة الكونتوية تبرر أعمال السيوليمير بأن المراكز التي أقامها إنغا في أراضي مؤجرة لدولة الكونتو بمقتضى معاهدة ١٢ مايو ١٨٩٤، وقد تجاهلتنا تماماً مسألة الحقوق المصرية في تلك الأراضي.

وعادت الحكومة البريطانية ترد على المذكرات الكونتوية مؤكدة :

١ — حقيقة أن حكومة الكونتو قد حصلت بمقتضى معاهدة ١٨٩٤ على حقوق معينة في الأراضي محل النزاع ولكن أغلب هذه الأراضي تخلت عنها الكونتو بمحض إرادتها في معاهدة أغسطس من نفس العام مع الفرنسيين.

٢ — أن الحكومة البريطانية قد حفظت حقوق مصر بمذكرات متبادلة وقت توقيع المعاهدة، وأن هذه الحقوق قد عادت لكامل قوتها بعد استعادة السودان، وأن الحكومة المصرية متمسكة بكافة هذه الحقوق^(٢).

وفي ٢٥ أبريل أبق اللورد لانسدون إلى السفير البريطاني في بروكسل يبلغه بمقترحات اللورد كرومر بفتح طريق التجارة بين النيل والكونتو وبضمانات بقسميات تجارية خاصة لدولة الكونتو في أعالي النيل^(٣).

ولم يعرض السفير البريطاني هذه المقترحات الجديدة على السيول كوفله عندما قابله بعد ذلك يومين — ٢٧ أبريل — إذ أنه خرج من هذه المقابلة بانطباع هام وهو أنه لا جدوى من المقابلات والاحتجاجات طالما أن الملك والسيول فان اتفيلد

(١) Corres, part LXIII, No. 110, Foreign Office to Mr. Dorman, April 25, 1905.

(٢) Ibid., No. 108, Lansdowne to Phipps, April 25, 1905, Desp. No. 30.

(٣) Ibid., Inc. in No. 160, Lansdowne to Phipps, April 25, 1905, Tel. No. 41.

متغيان عن العاصمة ، ذلك أن المسيو كوفليه أخذ يكرر نفس الحجج القديمة ، ولما ذكره فييس بوعوده التي قطعها في العام السابق عن انسحاب حملة ليمير أجاب بأنه لم يذكر مسألة الانسحاب وإنما التراجع إلى الجنوب وهو ما تم بالفعل إذا انسحبت هذه الحملة إلى جنوب خط عرض ٥° شمالاً .

وعلى ذلك رأى السفير أنه ليس من فائدة من مباحثة المسيدى كوفليه وطالب بالانتظار إلى أن يأتي رد الملك — الذي كان في زيارة لأسبانيا وقتذاك — على مذكرة اللورد لانسدون المؤرخة في ٢٥ أبريل (١) .

* * *

كان على الجانب البريطاني أن ينتظر حتى قرب منتصف مايو حين عاد الملك وفان اتفيلد من مدريد ، وقد تمكن فييس من مقابلة الأخير فور عودته فأكد له هذا رغبة الملك في الاتفاق وإمكان إعادة فتح باب المفاوضات الخاصة بتقسيم الأراضي مرة أخرى . وقد بادر السير فييس بتذكير الوزير البلجيكي بأن الاقتراحات البريطانية المتعلقة بتقسيم الأراضي قد سُحبت وأن جانباً كبيراً من أعضاء البرلمان البريطاني يعارض بعنف تأجير أى جزء لدولة الكوتو .

ورد فان اتفيلد على ذلك بأن لوح بنية الملك على اتخاذ الخطوات اللازمة لمنع استعادة مصر لحاجز اللادو عند وفاته وأنه إذا ما تم اتفاق قبل اتخاذ هذه الخطوات فإن ذلك سيكون من صالح مصر وبريطانيا . واستطرد أن بريطانيا قد اعترضت على « التحكيم » بينا يوافق الملك على أى حكم يمينه البريطانيون « حتى ولو كان الميكادو » (٢) . وأضاف أخيراً أنه من أشد المدافعين عن تسليم الكوتو لبلجيكا ، ولكن قبل أن يتم ذلك فلا بد من حل المشاكل التي ترتبت على معاهدة ١٨٩٤ .

وكان رأى سير فييس في كل ذلك أنه لا يمكن الإبقاء على الضمان الذي منح قبل ذلك لحط حيدى فيما كان يشكل الأراضي الكنفولية حتى ذلك الوقت ، كما أكد أنه يجب أن تبقى مياه النيل تحت السيطرة الأنجلو مصرية . وحث السفير البريطاني المسيو فان اتفيلد على تقديم اقتراحات عملية لحل المشكلة (٢) .

Corres, Part LXIII, No. 114, Phipps to Lansdowne, April 27, 1905, Desp. No. 41. (١)

Ibid., No. 116, Phipps to Lansdowne, May 12, 1905, Desp. No. 47. (٢)

وفي ٢٥ مايو ردت الحكومة الكونغولية على مذكرة وزير الخارجية البريطانية المؤرخة في ٢٥ أبريل — وكان الرد على صورة مذكرة شفوية قرأها المسويدي كوفيه على السفير البريطاني في بروكسل ، وقد عادت السلطات الكونغولية تؤكد فعالية معاهدة ١٨٩٤ وأعلنت أن انسحاب ليمير — كما طلب البريطانيون — يعني الاعتراف من جانب الكونغو بأن لاحق لها في بحر الغزال . وأضافت المذكرة أن الكونغو مستعد للتعاون مع الحكومة البريطانية في سبيل إدخال أى تعديلات على معاهدة سنة ١٨٩٤ . وهدد البلجيكيون في النهاية بأنه إذا لم يتم التوصل إلى اتفاق من هذا النوع فإن دولة الكونغو ستعتبر أن حقوقها السياسية في حوض النيل لازالت قائمة وستبادر إلى استعمال هذه الحقوق إذا لزم الأمر^(١) .

وقد بادر السير فيبس في أعقاب تلقي هذه المذكرة الكونغولية إلى الاجتماع بالبارون فان اتفيلد في نفس اليوم — ٢٥ مايو — ، وفي هذا اللقاء أعرب الأخير عن آرائه في أسباب الصدام بين الحكومتين : فان بريطانيا تعتبر أن تأجير الحاجز للملك لدى الحياة أمراً لازال قائماً ، أما الأراضي الأخرى المؤجرة نهائياً فقد أبطل تأجيرها نتيجة للمعاهدة الفرنسية — الكونغولية ونتيجة لاستعادة مصر للسودان .

أما الملك فيرى أن الأراضي المؤجرة بنوعها لازال تأجيرها سارياً ، وأنه إذا تجاهلت بريطانيا التأجير الدائم لبعض الأراضي فان الملك بدوره سيتجاهل التأجير المؤقت للأراضي الأخرى في حوزته — حاجز اللادو — ويضمها نهائياً إلى الكونغو متذرعاً بحق احتلال تلك الأراضي السابق على معاهدة ١٨٩٤ .

وكان رد السير فيبس أن الحكومة البريطانية مصممة على جلاء قوات الكونغو عن بحر الغزال والملح إلى أن خليفة ليوبولد لن يسعده كثيراً أن يبدأ عهده بصدام مع بريطانيا .

وأجاب فان اتفيلد على ذلك بأن تملك بلجيكا للأراضي الكونغولية سيقتد أساساً على التزام خليفة الملك ليوبولد بالشروط التي يضعها هذا الملك ، لأنه إذا لم تنفذ تلك الشروط فان فرنسا ستعمل على إحياء حقها بتملك تلك الجهات « بالشفعة » .

وأضاف أنه ربما يكون من الأفضل لبريطانيا أن تتعامل مع فرنسا بدلا من الكونغو في تلك الأيام ولكن هذا سوف يعتمد على الظروف السياسية العامة في أوروبا خلال الأعوام المقبلة وإن كانت بلجيكا سوف تنفض يدها من الأمر .

وخرج الوزير الكونغولي من ذلك إلى اقتراح وهو أن الملك مستعد أن يضحى بأى اعتبارات أخرى إذا ما علك منفذاً دائماً على النيل ، وإنه في هذه الحالة فقط على استعداد للجلاء حتى عن الحاجز .

ولكن السير فيبس ذكره أن حكومته ستبقى على اعتراضها لملك دائم لأى قوة أجنبية لمناطق على النيل ، وإن بريطانيا لا تقدم ألا مركزاً تجارياً عند نهاية الخط الحديدى المقترح كمنفذ للتجارة الكونغولية^(١) .

* * *

كان قد مضى أكثر من سبعة شهور على عودة دخول القوات الكونغولية إلى أراضي بحر الغزال (أكتوبر ١٩٠٤ — يونيه ١٩٠٥) ولم يحقق هذا العمل مبتغاه باجبار البريطانيين على قبول التحكيم أو بمحدث صدام محدود تكون نتيجته التحكيم أيضاً . ونتيجة لأن « احتلال » الأراضي السودانية الواقعة جنوبى خط عرض ٥ شمالا لم يؤد إلى ما استهدفه ليوبولد فقد كان عليه أن يخطو خطوة أخرى في تلك الجهات قد تؤدى إلى النتيجة المرغوبة ، وتمثلت هذه الخطوة في قرار بإقامة « إدارة » كونغولية في المنطقة .

ففي ١٢ يونيه عام ١٩٠٥ اتخذ الملك ليوبولد خطوة خطيرة نحو تصعيد النزاع البريطانى — الكونغولى بإصداره « مرسوم إمز » وقد جاء في هذا المرسوم :

« أنه بالنظر إلى حقوق دولة الكونغو على مراكز معينة في حوض النيل كنتيجة لاحتلالها لها وللمعاهدات التى أبرمتها مع رؤساء تلك البلاد فإنه ينطبق عليها نفس الأوضاع الإدارية القائمة في مناطق حوض الكونغو حتى يتم تنفيذ كل شروط

(١) Corres, Part LXIII, No. 119, Phipps to Lansdowne, May 20, 1905, Desp. No. 50.

معاهدة ١٢ مايو ١٨٩٤ ، وعلى ذلك وبناء على اقتراح وزيرنا المختص أصدرنا
للمرسوم الآتي :

« مادة (١) : تلتحق الأراضي التي تحتلها الدولة في حوض النيل جنوب خط
عرض ٥° شمالا بناحية الأول .

« مادة (٢) : تطبق مراسيم وتنظيات وقوانين الدولة عليها .

« مادة (٣) : على وزيرنا المختص تنفيذ هذا المرسوم » (١) .

وما أن وصلت أخبار هذا المرسوم إلى لندن حتى بادر وزير الخارجية
البريطانية بإصدار تعليقاته للسير فيبس ليستعلم من حكومة الكونغو عما إذا كان
« مرسوم أمز » ينطبق على المنطقة التي أسس فيها ليمير مراكزه في بحر الغزال
أخيراً والتي تعتبر قسماً من السودان (٢) . وما أن جاء الرد بالإيجاب حتى أرسل
لانسدون مذكرة عنيفة إلى بروكسل يحذر فيها حكومة الكونغو بأنه إذا لم تنسحب
من هذه المراكز وتلقى هذا المرسوم فعليها أن تتحمل كافة العواقب (٣) .

وإذا انتقلنا إلى حلبة الصراع نجد أن نشر مرسوم إمز قد أدى إلى نقض كامل
« لاتفاقية التعايش » التي كان قد تم التوصل إليها بين الليجور بولنوا وليمير كما كان
من المفهوم أنه إذا حاول الكونغوليون تنفيذ هذا المرسوم لنتج عن ذلك موقف
خطير لا يمكن معه تجنب الصدام .

وقد طرحت عدة اقتراحات لمواجهة هذا التعدي من جانب الملك ليوبولد
تراوحت بين اقتراح « للسير رنيل رود Rodd » بالتهديد بسحب الاعتراف
البريطاني بجماد بلجيكا وبين اقتراح « السترفندلي » ممثل المتمدن البريطاني في القاهرة
الذي رأى تجاهل المرسوم بعد تقديم احتجاج مناسب ضده (٤) .

(١) Corres, part LXIII, Inc. in No. 160, Phipps to Lansdowne, June 12, 1905, Desp. No. 58.

(٢) Ibid., No. 129, Lansdowne to Phipps, June 28, 1905, Tel. No. 54.

(٣) Ibid., Inc. in No. 160, Lansdowne to Phipps, July 8, 1905, Tel. No. 58.

(٤) Ibid., No. 131, Findlay to Lansdowne, July 7, 1905, Tel. No. 60.

وقد اتبعت الصيغة الأخيرة إذ أرسلت التعليمات إلى قائد القوة السودانية المراقبة في الأراضي محل النزاع بأن « اتفاقية التعايش » لازالت سارية وأن الحكومة البريطانية لا تعترف بالمرسوم الجديد^(١) .

ويعود هذا الموقف الذى وقفه لانسدون وحكومة السودان إلى القرار الذى اتخذته الوزارة البريطانية في نفس الشهر — يوليه — بعدم تسليم حكومة الكونغو لأى أراضى تقطنها شعوب تحت الحماية البريطانية ، كما قررت الوزارة مقاومة أى محاولة من ليوبولد — بالقوة إذا لزم الأمر — لتنفيذ شروط هذا المرسوم .

* * *

نتج عن مرسوم إمز وإصرار الحكومة البريطانية على مقاومة تنفيذه أن تزايدت احتمالات الصدام إلى حد كبير ، وعلى ذلك فقد بدأت على الفور الاتصالات بين لندن والقاهرة والخرطوم للاستعداد لهذه الاحتمالات .

وفي أول هذه الاتصالات التى تمت في ٢٢ يوليه ١٩٠٥ بين المعتمد البريطانى في القاهرة وحاكم عام السودان طرح الأول عدة أسئلة . . فقد قدم كرومر أسئلة ثلاثة محددة لوينجت على النحو التالى :

— هل الجيش المصرى قادر على مواجهة القوات التى يستطيع البلجيكي استحضارها ؟

— هل من الضرورى إبعاد البلجيكي عن المراكز التى كانوا يحتلونها وقتذاك ؟ وبأى الوسائل ؟

— إذا ما كان هذا ضرورياً فما هى الأوامر التى يمكن أن تصدر إلى قائد بحر الغزال لوضعها فى حيز التنفيذ ؟

وبعد توجيه الأسئلة طرح المعتمد البريطانى احتمالين للتنفيذ :

الأول : تحذير القائد البلجيكي بأن أى تقدم منه سوف ينع بالقوة كما يرسل هذا التحذير إلى حكومة بروكسل .

الثانى : أنه فى حالة أى تقدم بلجيكي يطلب قائد القوة السودانية منه منع هذا التقدم ، فإذا لم يقبل يجبره على التراجع على أن تكون قواته قادرة على ذلك^(١) .

وقبل أن يعضى وقت طويل وصلت ردود وينجت على الأسئلة التى طرحها كرومر فى مذكرة طويلة .

بدأ حاكم عام السودان مذكرته باستعراض الموقف الذى تسبب عنه نشر « مرسوم إمز » والذى قلب رأساً على عقب « اتفاقية التعايش » التى كان قد تم إبرامها بين بولنوا ولير .

ثم عين مواقع المراكز الخمسة التى يحتلها البلجيكي وهى « إير » و « مريدى » و « مانجى » و « مويارا » ومركز على نهر « هو » . وقدر عدد الرجال المسكرين فى تلك المراكز بخمسمائة رجل ولكن يمكن زيادة أعدادهم بسهولة من يى وبانجو . وقدر القوات الموجودة فى الحاجز بما يتراوح بين ألفين وثلاثة آلاف رجل مبعثرين على طول وعرض الحاجز .

أما الحامية السودانية فقد كانت تتكون من قوة موزعة على مراكز متعددة هى « تمبورا » و « مريدى » و « شامبي » و « رومبك » و « تونج » و « ديم الزير » و « واو » و « مشرع الرق » ومن ثم كانت هذه القوة أضعف من البلجيكي نتيجة لذلك التوزيع ، ويشكل الجلاء عن أى مركز من هذه المراكز بهدف « للركزة » خطورة شديدة إذا لم تقم قوات أخرى على الفور بالحلول محل القوات التى تم الجلاء عنها . وقد طالب بعدم توجيه أى إنذار للملك ليوبولد قبل استكمال الاستعدادات العسكرية اللازمة لتنفيذ هذا الإنذار .

وإجابة على الأسئلة الثلاثة التى طرحها كرومر كانت ردود وينجت على النحو التالى :

١ — إن اللوات السودانية الخمسة مع قدر مناسب من المدفعية تستطيع أن تواجه بسهولة القوات البلجيكية التى يمكن أن ترسل إلى مناطق النزاع ، ولكن ذلك سيؤدى إلى ترك المراكز النهرية دون حراسة ، ويمكن مواجهة ذلك بستة سفن

نهرية مسلحة مع لوائين من المشاة وبطارية من المدفعية البريطانيين من الخرطوم ،
وللراكر الأخرى التى ستجاول عنها القوات السودانية فى طول وعرض البلاد يمكن
أن يحل المصريون مكانهم فيها وذلك باستدعاء لواءين مصريين من الاحتياط .
كما أنه من الضرورى استحضار لواء بريطانى ليحل محل اللوائين اللذين سيتركان
الخرطوم .

٢ — إذا ما صمم البلجيكي على تنفيذ الرسوم فليس هناك حل سوى مقاومتهم ،
وسوف يقوم الحاكم الإدارى للمنطقة السودانية بإبلاغ السلطات السكوتية المحلية
أن الحكومة البريطانية لن تسمح بإدارتها للمنطقة ، وإذا لم تتم الاستجابة لهذا الطلب
يخذرون بأنهم سيتخذ الإجراءات اللازمة لإجلائهم عن مراكزهم العسكرية التى
يعتمدون فى إدارتهم عليها . وأضاف وينجت أنه بالرغم من أن من المعلوم تماماً أن
الملك لا يرغب فى الصدام إلا أنه سيكون من التبعات توجيه أى إنذار دون وجود
القوة اللازمة لتنفيذه ومن ثم فلا بد من التريث فى توجيه الإنذار النهائى حتى تكون
القوات المصرية فى وضع يمكنها من تنفيذه .

٣ — أعرب السير وينجت عن اعتقاده بأن البلجيكي لن يتقدموا إلى المناطق
الواقعة شمالى خط عرض ٥° شمالاً إلا إذا كانوا راغبين فى إثارة مسألة الأراضى
المؤجرة لهم بمقتضى معاهدة ١٨٩٤ برمتها . وعندئذ يواجه الموقف العسكرى على
الصورة التى أشار إليها من قبل (١) .

* * *

وبعد تعييض الموقف من جانب القاهرة والخرطوم فى تلك الاتصالات أصدرت
لندن أوامرها التى أبلغت للسلطات المحلية فى بحر الغزال بأنه طالما أن القوة
السودانية الموجودة فى المنطقة لا تستطيع بوضعها القائم أن تقاوم التقدم البلجيكي
إذا حدث فعلى قائدها أن يحتج بحسب ولا يقاوم بل ويبقى فى وضع دفاعى ويظل
على احتلاله للراكر التى يسيطر عليها فعلاً (٢) .

(١) Corres, Part LXIII, No. 138, Wingate to Cromer, July 29, 1905.

(٢) Ibid., No. 141, Lansdowne to Findlay, July 31, 1905, Tel. No. 38.

ولكن فى هذه الأثناء كان « فندلى » ممثل المعتمد البريطانى فى القاهرة يعد تقريراً طويلاً عن إمكانيات حل القضية على ضوء الآراء التى أبدتها فى هذا الوقت إدارتا المخابرات المصرية والسودانية .

وقد رأى فندلى أن هناك طريقاً من أربعة يمكن أن تسلكه الحكومة البريطانية :

١ — أن تصمم على الإبقاء على الحقوق المصرية كاملة على النيل وفروعه .
٢ — أن تعدل من هذه الحقوق بأن تصبح على النيل وفروعه التى تؤثر فى إمداد مصر بالمياه .

٣ — ونتيجة لذلك فإن آراء بعض الخبراء أن أنهار بحر الغزال لا تؤثر كثيراً فى إمداد النيل بمياه ذات قيمة ، وبناء على ذلك يمكن الاتفاق مع البلجيك على منحهم الأرض التى يرغبونها فى تلك المنطقة فى مقابل موافقتهم على تسليم حاجز اللادو للسودان بعد وفاة الملك ليوبولد .

٤ — منح دولة الكونغو منطقة عبور حرة لتقل بضائعها إلى النيل على شرط الجلاء فوراً عن المناطق محل النزاع وأن يصدر الملك ليوبولد تأكيدات مرضية بأن حاجز اللادو سيعاد إلى السودان عند وفاته .

وبعد أن حدد « فندلى » هذه الحلول بدأ فى تحليل قيمة كل منها ، فبالنسبة للحل الأول رأى أنه يتميز بالوضوح وقد وافق عليه الفرنسيون من قبل ، وسوف ينتج عن هذا الحل حدود جغرافية واضحة يسهل تحديدها ، كما أن هذه الحدود ستكون ذات قيمة استراتيجية كبيرة بالنسبة للحاجز . ولكن هناك الجانب السيئ من هذا الحل إذ سيؤدى إلى استمرار احتلال بحر الغزال بما يتضمنه من احتمالات الصدام والتاعب الصحية . وإن كان قد تحفظ فى مسألة الصدام ورأى أن كل ما يفعله الملك وموظفوه لا يدل على الرغبة فيه اللهم إلا إذا كان الألمان وراء صدور « مرسوم إمز » . وبالنسبة للمصاعب الصحية فقد رأى احتمالات تناقص نسبة الوفيات بتحسين ظروف الحياة والسكن والخدمات .

أما بالنسبة للحلين الثانى والثالث فهما يفتقدان الوضوح الذى تميز به الحل الأول ولكن الخبراء يجحدونه إذ أنه سينهى الصراع مع البلجيك كما سيمكن من

التخلص من إدارة بحر الغزال المكلفة ، ولكن هناك الجانب الآخر من هذا الحل وهو أن فرنسا قد تعيد فتح طريقها نحو وادى النيل والذي تحولت عنه ١٨٩٨ إذ أنه سيتمنح ادعاءاتها على بحر الغزال قوة كبيرة . بل الأخطر من ذلك أن الجيران الآخرين سيظمعون في فروع النيل الأخرى القرية من حدودهم ما دام هذا الباب قد فتح . يضاف إلى كل ذلك ما سيتسبب فيه هذا الحل من ضياع هيبة الحكومة بين قبائل تلك الجهات .

أما بالنسبة للحل الأخير فإن الاعتراض الوحيد الذى يمكن أن يثار ضده أنه قد تم رفضه من قبل .

ومن الحلول السياسية المختلفة للأزمة انتقل « فندلى » إلى اقتراحات الحلول العسكرية ورأى أن هناك أحد طريقين فاما طرد البلجيك بالقوة أو بالتهديد باستعمال القوة ، أو باتباع السياسة السلبية نحو البلجيك طالما أنهم لم يحاولوا التقدم مع اتباع سياسة « المقاطعة الاقتصادية » فى نفس الوقت ضد دولة الكونغو من جانب السودان وأوغندا لإجبار ليوبولد على قبول حل معقول .

والحل الأول سريع ومضمون واحتمالات استعمال القوة فيه ضعيفة ، أما الحل الثانى فسيستغرق وقتاً طويلاً ويكلف غالباً سواء فى المال أو الرجال (١) .

ورغم ذلك فقد تبنى اللورد كرومر الحل الثانى « بالمقاطعة الاقتصادية » وأرسل فى ٢٠ أكتوبر إلى لندن يدعو حكومته إلى « إبلاغ حكومة الكونغو بأن طريق النيل سيغلق أمام كل بضائعها وخطاباتها وبرقياتها حتى تنسحب من المراكز التى تحتلها فى الأراضى المتنازع عليها » ، وأضاف كرومر أن كمية البضائع الكونغولية التى يتم تصديرها واستيرادها عن طريق النيل تزايد بسرعة ، « فتكاليف نقل المطاط عن طريق الأطلنطى أكثر ست مرات من تكاليف نقله عن طريق النيل ، يضاف إلى ذلك أنه إذا ما تم تصدير مطاط الكونغو الفرنسى عن طريق النيل فيمكن وصوله إلى الأسواق بنصف ثمن المطاط المصدر عن طريق الكونغو .

« ولما كانت دولة الكونغو الحرة تعتمد تماماً في دخلها على المطاط سوف يكون لهذا الضغط أثره الكبير عليها مما سيؤدي بحكمها إلى إعادة النظر فيما يتعلق بسياساتهم نحو الأراضي المتنازع عليها » (١).

وبعد أن تمت دراسة الموضوع من كافة جوانبه وأبدى « مدير البوستان المصرية » رأيه بأنه ليس ثمة خرق لأى اتفاق مع « اتحاد البريد » برفض تسليم الخطابات إلى المراكز الكونغولية (٢) وافقت وزارة الخارجية البريطانية على هذا النوع من العمل وأرسلت التعليمات إلى وينجت بمنع وصول أى خطابات إلى المراكز البلجيكية عن طريق النيل حتى تجلو قوات ليمير تماماً عن الأراضي المتنازع عليها جنوب خط عرض ٥° شمالاً « وحتى لا تخرق المسادة الأولى من الفصل الثالث عن ميثاق برلين يجب أن تكون كل عملياتك شمال هذا الخط » (٣).

وفي أوائل ديسمبر تم إبلاغ قائد اللادو بوقف كل اتصالاته مع الشمال عن طريق النيل « حتى يتم جلاء قوات الكونغو التام عن الأراضي المتنازع عليها في مديرية بحر الغزال الواقعة بين خط عرض ٥° شمالاً وخط تقسيم مياه النيل — الكونغو » (٤). كما تم إبلاغ حكومة بروكسل بنفس القرار (٥).

ولإحكام هذه المقاطعة تقرر أن تشترك فيها « أوغنده » فتباحث كرومر مع أحد كبار موظفي حكومتها الذى وصل إلى القاهرة في منتصف ديسمبر في مدى الدور الذى يمكن أن تقدمه السلطات الأوغندية في الحصار الاقتصادي الذى تقرر فرضه حول الكونغو (٦). وتعمضت هذه المباحثات عن تعليمات محددة أرسلت من لندن إلى حكومة أوغنده بعدم السماح بارسال البضائع عبر الأراضي الأوغندية إلى

(١) Collins, R.O., Anglo-Congolaise Negotiations, 1900-1906, Part 6, p. 641.

(٢) Corres. Part LXIII, No. 183, Cromer to Lansdowne, Nov. 23, 1905.

(٣) Ibid., No. 207, Cromer to Sir Edward Grey, Dec. 19, 1905.

(٤) Ibid., No. 188, Cromer to Lansdowne, Nov. 30, 1905.

(٥) C.R.O.S. Sudan Intelligence Reports, No. 136, Nov. 1905.

(٦) Corres, Part LXIII, Cromer to Lansdowne, Dec. 9, 1905.

النيل عن طريق الكونغو إن لم يصحبها شهادة تثبت أنها ليست بلجيكية وبتنسيق العمل مع حكومة السودان لتحقيق الهدف المرجو من المقاطعة (١).

وقد حذر كبار المسئولين في بروكسل السفير البريطاني فيها في لقاءاتهم الخاصة به من أن هذه الإجراءات قد تؤدي إلى عناد الملك وتصميمه على إبقاء قواته في مراكزها (٢).

وبدا لبعض الوقت صدق هذه التحذيرات فقد تواترت الأنباء في مطلع عام ١٩٠٦ عن أن البلجيكي يقومون بنشاط عسكري كبير في الحجاز وبأنهم نصبوا ثلاثة مدافع في مركز اللادو كما أنهم يقومون بإجراء التدريبات العسكرية المتواصلة استعداداً لاحتمالات الصدام.

كما نهت سلطات الحجاز وكلاء التجار السودانيين فيه بأنه إذا لم تتوقف قوارب بريد الحكومة السودانية في اللادو كمادتها فإن عليهم نقل بضائهم من أراضي الكونغو خلال ٤٨ ساعة (٣).

يضاف إلى ذلك أن التقارير وردت إلى الخرطوم بتأسيس الكونغوليين لثلاثة مراكز جديدة أحدها في « نيندا » والثاني في بقعة جنوب غرب المركز الأول على نهر « يو Yubo » والثالث في « مانجي » (٤).

في نفس الوقت سمعت سلطات الكونغو إلى وضع « مرسوم إمز » موضع التنفيذ فشمرت « المجلة الرسمية » لحكومة الكونغو بأنه قد تقرر إقامة عدة مكاتب للإدارة المدنية في « ناحية الأول » و « منطقة مريدي » (٥) وبناء على ذلك أرسل « الكابتن بولس » الذي منح صفة مدنية وأصبح « رئيس منطقة مريدي » إلى

Corres, part LXIII, No. 210, Earl of Elgin to Commission- (١)
er Wilson, Dec 22, 1905.

Ibid., No. 205, Phipps to Grey, Dec. 14, 1905. (٢)

C.R.O.S. Sudan Intelligence Reports, No. 138 (Jan. 1906). (٣)

Corres, Part LXIV, No. 8, Cromer to Grey, Jan. 6, 1906. (٤)

Ibid., No. 17, Phipps to Grey, Jan. 16, 1906. (٥)

حاكم بحر الغزال يبلغه بليته على إدارة الأراضي المتنازع عليها تحت سيادة دولة الكونغو الحرة^(١).

ولكن كافة هذه المحاولات لم تصرف الحكومة البريطانية عن تصميمها على السياسة التي اختطتها بفرض الحصار الاقتصادي على الكونغو ، ونتج عن ذلك أن بدأت علامات التخاذل والتراجع تتضح أكثر وأكثر في بروكسل مما مهد لنهاية الأزمة والاتفاق .

الارتفاع : ١٩٠٦

لم يغفل ملك البلجيكي معنى المقاطعة التي فرضت على أملاكه في الكونغو ، فالحكومة البريطانية لم ترفض الإذعان فحسب لضغط ليوبولد السياسي والعسكري بل إنها اتخذت من الاجراءات ما يوحى بتصميمها على البقاء في بحر الغزال وقد مر على الصراع وقتذاك ما يزيد عن ستة أعوام وليوبولد تقدم به السن وقد أراد قبل أن يموت أن يرى الكونغو وقد حصلت عليه بلجيكا بشروطه هو ولكن البرلمان البلجيكي لن يكون راغباً في قبول إدارة الكونغو إذا كان هناك نزاع مع بريطانيا بشأنه . وإن كان الأغلب أن العامل الأساسي في تغير رأى الملك كانت عودة « فان اتشيلد » ، فمنذ البداية كان هذا قد بدأ مفاوضاته بأمل الاتفاق وفي عام ١٩٠٣ كان قريباً من إبرام المعاهدة لولا عناد الملك ، وقد كان « فان اتشيلد » ميالاً دائماً لبريطانيا وخلال حرب البوير كان أحد الساسة الأوربيين القلائل الذين عاونوا الانجليز ، وبجهوده وحده تمكن من الحصول على موافقة ليوبولد لوضع حد للنزاع^(٢).

وقد اتخذ ليوبولد أول خطوة لحل النزاع في أواخر يناير حين دعا « الميسو روفيه Rouvier » السفير الفرنسي في بروكسل وأبلغه أنه يود أن يرسل مندوباً

(١) C.R.O.S. Sudan Intelligence Reports, No. 139 (Feb. 1906).

Collins R.O., op. cit., Part 6, pp. 643-644.

(٢)

إلى لندن لبحث المسائل المتعلقة بين الحكومة البريطانية وحكومة الكونتو ولكنه في انتظار موافقة لندن على استقبال مثل هذا المبعوث .

وبعد ذلك بعدة أيام دعا « فان اتفيلد » المسيو روفيه وأعاد عليه نفس أقوال الملك وسأل عما إذا كان من الممكن أن تقوم حكومته بعمل استخبارات سرية في لندن « ليرى ما إذا كانت الحكومة البريطانية على استعداد لاستقبال ملك البلجيك وأن تبحث معه مواضيع الخلاف بين الجانبين » (١) .

ووافق المسيو روفيه على إرسال التحليلات اللازمة للسفير الفرنسي في لندن ليتحدث مع وزير الخارجية البريطانية في هذه الموضوع . وفي نفس الوقت قررت السلطات الكونتولية الاقتراب من الحكومة البريطانية بصورة مباشرة ، ففي ٨ فبراير ١٩٠٦ دار حديث طويل بين المسيو فان اتفيلد والسير « هاردنج Hardinge » السفير البريطاني الجديد في بروكسل . وتحدث عن رغبة الملك في المفاوضة للوصول إلى اتفاق وأعرب عن استعداده للذهاب إلى لندن لبحث الأمر مع السير إدوارد جراي ، وأشار « فان اتفيلد » إلى أن أى اقتراح ستقدمه حكومة الكونتو ستعترف فيه بالهدف الأول للحكومة البريطانية « بتأمين كل أقسام النيل بحيث تصبح تحت الإدارة المصرية البريطانية بعيدة عن سلطة أى دولة أجنبية » .

وفي اليوم التالي تحدث المسيو كامبو — بناء على طلب روفيه — مع سير جراي عن إمكان استئناف المباحثات الإنجليزية الكونتولية فأجاب وزير الخارجية البريطانية على السفير الفرنسي في لندن بأن حكومته لا يمكن أن توافق على أى مباحثات مع مبعوث لملك البلجيك طالما بقيت القوات الكونتولية تحتل الأراضي المتنازع عليها في بحر القزال ، كما أرسلت نفس الإجابة إلى هاردنج في بروكسل رداً على استفسار فان اتفيلد (٢) .

واستدعى البارون فان اتفيلد السير هاردنج مرة أخرى في ٢٣ فبراير ١٩٠٦ وأشار إلى اقتراحه بشأن الذهاب إلى لندن للتوصل إلى تسوية ، كما أشار إلى خطورة الموقف الناجم عن الوضع في الأراضي المتنازع عليها مما قد يؤدي إلى صدام .

Corres, Part LXIV, No. 61, Grey to Sir F. Bertie, Feb. 9, 1906. (١)

Collins, R.O., op. cit., Part 6, pp. 644-645. (٢)

وكان لهذه الالهجة القوية أثرها على السفير البريطاني في بروكسل مما دعاه إلى أن يحذر حكومته أنه بالرغم من أن الرأي العام البلجيكي لا يشعر بالود نحو دولة الكونتو فإن أى صدام في أعلى النيل قد يؤدي إلى صرف الأنظار عن سوء إدارة حكومة الكونتو ، بل إن هذه الحكومة ستجعل للسألة « دفاع عن الشرف البلجيكي » وتثير مشاعر البلجيكي ضد بريطانيا وهو أمر غير مرغوب فيه في ظل الأوضاع القائمة وقضايا في أوروبا . وأمام هذه الالهجة القوية تشكك السير هاردينج في قيمة الاستمرار في إصااد باب للمفاوضات (١) .

وقد أكدت أعمال اللوطنين الكونتوليين في الأراضي المتنازع عليها مخاوف هاردينج من أنهم يستهدفون كسب عطف أوروبا عامة وبلجيكا خاصة ، فقد بدا تماماً أن ليوبولد مستعد لأن يصل بالأزمة إلى صدام فعلي ، ففي ١٩ فبراير كتب كرومر للخارجية البريطانية أن الكونتوليين رفعوا رايتهم لأول مرة فوق « مريدى » . وأعلن قائدهم « الكابتن بولس Paulis » - بأوامر من بروكسل بدون شك - أنه في طريقه لبناء أوتاد حدود على طول خط عرض ٥٠ شمالاً وكان لا يمكن مرور تلك الأعمال دون رد ولكن وزارة الخارجية البريطانية كانت تخشى أن تؤدي إزالة القوات الإنجليزية المصرية لهذه الأوتاد إلى صدام (٢) .

وعلى ذلك فقد حذر « هاردينج » السيوى كوفليه في ٣ مارس ١٩٠٦ من أن بناء أوتاد الحدود في بحر الغزال أمر لن يسمح به ، وقد اعترف السيوى كوفليه بأنه لا يعلم شيئاً عن هذا الأمر ووعده بالنظر فيه فوراً (٣) .

وفي اليوم التالى دعا السيوى كوفليه السيد هاردينج وأبلغه أن حكومة الكونتو قد أبرقت للكابتن بولس لإيقاف بناء أوتاد الحدود (٤) .

وكان للطريقة الحاسمة والفعالة التي أوقفت بها حكومة الكونتو عملية بناء

Corres, part LXIV, No. 98, Hardinge to Grey, Feb. 23, 1906. (١)

Ibid., No. 85, Cromer to Grey, Feb. 19, 1906. (٢)

Ibid., No. 113, Hardinge to Grey, March 4, 1906. (٣)

Ibid., No. 114, Hardinge to Grey, March 4, 1906. (٤)

الأوتاد أثرها في إزالة الشكوك المتبقية لدى الخارجية البريطانية في رغبة ليوبولد في الاتفاق .

ثم جاء العامل الأخير الذي تكالب مع العوامل الأخرى لإنهاء الموقف لصالح استئناف المفاوضات متمثلاً في عدم إمكان احكام « الحصار الاقتصادي » الذي تقرر فرضه فقد أبلغت « حكومة أوغنده » حاكم مديرية منجبالا السودانية أنها لا تستطيع إيقاف التجارة مع الكوتغو^(١) .

وعلى ضوء كل هذه الاعتبارات أوصى كرومر خلال النصف الأول من مارس باعادة فتح باب المفاوضات مع الكوتغو^(٢) .

وبناء على ذلك فقد أبرقت الحكومة البريطانية بتعليماتها لسفيرها في بروكسل بشروطها لإعادة فتح باب المفاوضات مع الكوتغو وهي العودة أولاً إلى الوضع الذي كان قائماً في ظل « اتفاقية التمايش » الموقعة بين بولنوا ولجير^(٣) . وكان معنى هذا إيقاف العمل « بمرسوم أمز » . والجلاء عن ثلاثة مراكز كوتغوية تم تأسيسها بعد الاتفاقية المذكورة هذا من ناحية ، وفتح طريق النيل لدولة الكوتغو الحرة من ناحية أخرى .

وقد وافق « فان اتفيلد » على هذا الاقتراح وأعرب عن اعتقاده بأن الملك بدوره سيوافق عليه^(٤) . وكان اعتقاد « فان اتفيلد » صحيحاً ففي أوائل الشهر التالي — أبريل — وافقت حكومة الكوتغو رسمياً على الشروط البريطانية^(٥) .

وسافر فان اتفيلد إلى لندن لبدأ المفاوضات مع السير « إيفلين جورست » الممثل البريطاني ، فقد رؤى أفضلية مواجهة الأمر بمبدأ على ليوبولد^(٦) .

(١) Corres, part LXIV, No. 139, Cromer to Grey, March 6, 1906.

(٢) Ibid., No. 154, Cromer to Grey, March 15, 1906.

(٣) Ibid., No. 155, Grey to Hardinge, March 21, 1906.

(٤) Ibid., No. 160, Hardinge to Grey, March 23, 1906.

(٥) Corres, part LXV, No. 29, Grey to Hardinge, April 7, 1906.

(٦) Collins, R.O., op. cit., part 6, pp. 467-68.

وكانت رغبة الجانبين واضحة في الوصول إلى اتفاق بأسرع ما يمكن ، فقد أراد البارون فان أتفيلد من جهته التوقيع قبل أن يطلع ليوبولد على كل التفاصيل التي قد يمترض على بعضها ، كذا كان السير إدوارد جراي راعياً في إنهاء المفاوضات قبل أن يهاجم أحد أعضاء البرلمان — بمن كانوا مستمرين في طرح الأسئلة في هذا الموضوع — يهاجم الملك الذي قد يرد على ذلك بأزمة أخرى . كما أن جورست كان راضياً في اتفاق سريع فقد علم بصورة غير رسمية أن وزارة المستعمرات على وشك الموافقة على مد خط حديد أوغندة إلى بحيرة ألبرت في مقابل حدود مملكتي ماساي ودي إلى حرمان دولة الكوتو من طريق النيل ومن ثم يضيع واحد من أهم الامتيازات التي قدمها البريطانيون . كما أن جورست كان قد علم من فان أتفيلد أنه اذا بقي الأمر على ما هو عليه عند وفاة الملك ليوبولد فان حكومة الكوتو قد ترفض الجلاء عن حاجز اللادو ، ولسنا ندري إذا كانت هذه التية حقيقية من حكومة الكوتو أم أنها مجرد إشارة مقصودة من فان أتفيلد للاسراع نحو الاتفاق (١) .

وفي ظل كل هذه الظروف عقدت معاهدة ٩ مايو ١٩٠٢ (٢) وعقنتها تحلى الملك ليوبولد عن كافة ادعاءاته في أراضي بحر الغزال الذي كان متمسكاً بها بمقتضى معاهدة ١٢ مايو ١٨٩٤ . كما تقرر عودة حاجز اللادو إلى السودان عند وفاته ، كما تعهدت حكومة الكوتو الحرة ألا تتدخل بأي صورة في كمية المياه الجارية من نهر مملكتي إلى بحيرة ألبرت إلا بناء على معاهدة مع حكومة السودان . وقد استفادت مصر كثيراً من هذا التمهيد فيما يتعلق بضمان جريان المياه إلى النيل سواء من البحيرات أو من فروع النهر .

ومن ناحية أخرى فقد وافق البريطانيون نيابة عن الحكومة المصرية على ضمان فائدة قدرها ٣٪ على مبلغ لا يزيد عن ٨٠٠ ألف جنيه لد خط حديدي من حدود الكوتو إلى قناة النيل الملاحية قرب اللادو ، على أن يقوم بتحديد هذا الخط كل من حكومتى السودان والكوتو وأن يوضع الخط كله تحت إدارة حكومة السودان

(١) Corres, part LXV, No. 50, Hardinge to Grey, April 12, 1906.

Hertslett, op. cit., vol. II, pp. 584-586.

(٢) نص المعاهدة في :

عند نهاية احتلال الملك ليوبولد لحاجز اللادو (١).

وكان هذا الاتفاق في الواقع نصراً نهائياً للدبلوماسية البريطانية فقد تضمن تراجعاً حقيقياً عن المطالب الكونغولية التي قدمت خلال عامي ١٩٠١ ، ١٩٠٢ . ولم تفقد الحكومة الكونغولية فقط بمقتضاه مساحة كبيرة من الأراضي التي قدمتها لها الحكومة البريطانية ١٩٠٢ بل أنها لم تحصل على أى امتيازات في الأراضي التي ادعتها « شركة أفريقيا الأنجلو - بلجيكية » أو « شركة أفريقيا البريطانية الاستوائية » ، ولا حتى امتياز في الأرض لشركة السكك الحديدية المقترحة .

وحرية الملاحة للبضائع الكونغولية لم يكن امتيازاً كبيراً فقد كان البريطانيون مضطرين إليه بمقتضى معاهدة برلين ، وحتى مقدار مبلغ قرض الخط الحديدي والفائدة التي ضمنها الحكومة البريطانية قتل من مليون إلى ٨٠٠ ألف جنيه .

والواقع أن المادة الوحيدة التي جذبت اهتمام المسؤولين البريطانيين هي الموافقة على إحالة أى نزاع يتعلق بتنفيذ المعاهدة إلى التحكيم فقد سببت هذه المادة قلقاً في دوائر وزارة المستعمرات إذ يمكن تطبيقها على روديسيا وأغنده كذا على بحر الغزال . ولكن كما أشار جراي « للورد الجين » وزير المستعمرات بأن « مركز الحكومة لن يكون قوياً إذا ما سمحت بإفساد المعاهدة لهذا السبب » (٢) .

ومع أن معاهدة ٩ مايو ١٩٠٦ قد تضمنت تسوية للأزمة إلا أن ليوبولد قد ضاق بها إلى حد بعيد بعد أن علم بتفاصيلها ولكن الوقت كان قد فات للاعتراض عليها بعد أن وقعها فان اتفيله . ومن ثم لم يكن أمامه إلا أن ينزل غضبه على رأس الأخير فاستقبله بعد عودته من لندن أسوأ استقبال ثم مالبت أن سلبه من كافة صلاحياته (٣) .

ولكن رغم عدم رضاء الملك البلجيكي عن المعاهدة إلا أنها كانت فعلاً نهاية لذلك الصراع الذي احتدم في بحر الغزال والذي كاد في بعض مراحله أن يصل إلى الصدام للسلاح ، وكانت حقاً نهاية لأزمة « فاشودة الصغير » (١١)

Corres, part LXV, Inc. No. 1, in No. 239, Cromer to Botros Pasha Ghali, May 26, 1906. (١)

Collins, R.O., op. cit., part 6, p. 650. (٢)

Corres, Part LXV, No. 308, Hardinge to Grey, June 9, 1906. (٣)

مصادر البحث

أولاً - وثائق غير منشورة :

١ - وثائق بريطانية :

- Further Correspondence respecting the Affairs of North East Africa and the Sudan.

Part	Date
IV	July-Dec. 1900.
V	Jan.-June, 1901.
X	1904

- Further Correspondence respecting the Affairs of Egypt and the Sudan.

Part	Date
LXIII	1905
LXIV	Jan.-March, 1906.
LXV	April-June, 1906.

وقد أشير إلى هذه الوثائق في الهوامش تحت رمز « Corres » .

٢ - وثائق سودانية :

Central Record Office-Sudan (C.R.O.S.)

- Sudan Intelligence Reports.

No.	Date
67	1st Jan.-8th March, 1900.
136	Nov. 1905.
138	Jan. 1906.
139	Feb. 1906.

- Mongalla Province

Class 1 / Box 7 / File 48.

ثانياً - وثائق منشورة :

- Annual Report, 1904.

Report by his Agent and Consul General on the Finances, Administration and condition of Egypt and the Sudan.

ثالثاً - المراجع

- Collins, Robert O.
Anglo-Congolaise Negotiations 1900-1906.
Zaire-Revue Congolaise, vol. XII, parts 5 and 6, 1956.
- Collins, Robert O.
The Southern Sudan, 1883-1898, Yale 1962.
- Gray, R.
A History of the Southern Sudan, 1839-1889, Oxford 1961.
- Hertslett, Sir Edward.
The Map of Africa by Treaty (3 vols.), London, 1909.
- Langer, William.
The Diplomacy of Imperialism, New York, 1951.
- Pensa, H.
L'Egypte et le Soudan Egyptien, Paris, 1895.
- Sanderson, G.N.
Leopold II and the Nile Valley. The Sudan Historical Association Proceedings, vol. I, part VII, Khartoum, 1955.

وإذا كانت الوثائق البريطانية الخاصة بهذا الموضوع قد توفرت لدينا فإن قيمة هذه الدراسة التي أعدها الأستاذ ساندerson أنها تعدنا بوجهة نظر الجانب الآخر — الكونغولي — الرسمية ، حيث أنها مستمدة من مقالة نشرت في مجلة "Deutsches Kolonialblatt" في أول يونيو عام ١٩١٦ بعنوان « الأراضي

التي أجرتها دولة الكوتقو في اللادو وبحر النزال :

“Das Lado- und Bahr-el-Ghazal Pachtgebiet des Kongo Staates”.

وهي مقالة غنية جداً بالوثائق المتعلقة بمشروعات ليوبولد النيلية كما يذكر
ساندرسون .

— Slatin, R.

Fire and Sword in the Sudan, London, 1896.

— Wauters.

L'Etat Indépendant du Congo, Bruxelles, 1899.

نصوص ومخطوطات

obeikandi.com

مناهل الصفا في أخبار دولة الملوك الشرفا

للوزير عبد العزيز الفشتالى

عن دولة المنصور الذهبي
(أثرت العديم وأكسبت المحروم)

الأستاذ عبد الكريم كبريم

أستاذ معاصر بكلية الآداب جامعة محمد الخامس - الرباط

في الحزاة الملكية بالرباط ، نسختان مخطوطتان (لمناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا) ، للوزير عبد العزيز الفشتالى ، تحمل الأولى رقم ٢٧٤ والثانية رقم ٥١٨٢ وهاتان النسختان مختلفتان من حيث الحجم والكتابة . وعدد الصفحات والسطور .

— فالنسخة الأولى عدد أوراقها ١٥٢ ورقة أى ٣٠٤ صفحات ، وكل ورقة بحجم ٢٦,٥ سم طولاً في ٢١ سم عرضاً ، وبكل صفحة ٢٦ سطراً ، وكل سطر يتضمن نحو ١٥ كلمة .

— أما النسخة الثانية فلم ترقم بعد صفحاتها ، وحجم كل ورقة ٣٢ سم طولاً و ٢٢,٥ سم عرضاً ، وتحتوى كل صفحة على ٢٠ سطراً به نحو ١٢ كلمة . وهذه النسخة مشكولة ، وتحمل تاريخ الإنتهاء وهو أوائل رمضان عام ١١٢٨ هـ .

لقد اعتمدت على النسخة الأولى ، وإن كنت أرجع بين الفينة والأخرى إلى النسخة الثانية لضبط بعض الألفاظ والكلمات والحروف التى أتت عليها الأرضة في النسخة الأولى .

وإلى جانب ذلك يوجد ملخص ، كان الأستاذ الفاضل السيد عبد الله كنون قد نشره سنة ١٩٦٤ ، وعند مقارنة المختصر بالنسختين المخطوطتين ، يبدو لأول وهلة بأن هذا الملخص هو اختصار وتلخيص لما جاء بهما ، إنما الذى قام بالتلخيص قد تصرف كثيراً وإلى حد بعيد ، في إثبات وحذف العديد من الموضوعات والمعلومات

القيمة التي لا تدرك إلا بالرجوع إلى الأصل أولاً والمختصر ثانياً . ولعل ذلك مما دفع السيد الأستاذ عبد الله كنون إلى أن يثبت في الصفحة ١٣ قوله « . . . فضلاً عن أنه إذا نشر الأصل فإن هذا المختصر سوف لا يرى النور ولا يجد سبيلاً إلى الظهور أبداً » .

وتعود أهمية المخطوط إلى عدة عوامل .

أولاً — أهمية الفترة التي يتحدث عنها بالنسبة لتاريخ الغرب الحديث .

ثانياً — كون مؤلفه شاهد عيان ، وفي المطلعين على مجرى الأحداث الداخلية والخارجية .

ثالثاً — تعرضه إلى الأحداث السياسية والحضارية .

رابعاً — أغنى وجوده عن الرجوع إلى المراجع الكثيرة التي نقلت عنه .

المختصر الذهبي وعصره :

أولاً — عرف القرن السادس عشر صراعاً قوياً وعنيفاً بين إمبراطوريات ثلاث : الأتراك العثمانيون في الشرق والأسبان والبرتغال في الغرب .

(أ) فالأتراك العثمانيون الذين تولوا الخلافة الإسلامية وسعوا إلى توحيد قوى العالم الإسلامي للدفاع عن بلاد الإسلام ضد الغزو المسيحي الغربي . قد أجبرتهم ظروفهم السياسية والتوسعية على الاهتمام بالغرب الأقصى كجزء لا ينفصل عن بلاد الشمال الإفريقي التي دخلت جميعها تحت سيطرتهم وللدفاع عن حدود إمبراطوريتهم الغربية ثم لأن ضم الغرب من شأنه أن يمكن الأتراك من السيطرة على قواعد استراتيجية تمكنهم من تهديد أوروبا الغربية المسيحية وإيريا بوجه خاص وتساعدهم على وضع جميع مقدرات خصومهم الأسبان والبرتغال تحت رحمتهم والتحكم أخيراً في طريق الهند البحرية التي تنبع عن اكتشافها أضعاف اقتصاديات الشرق الإسلامي وتحويل طريق التجارة العالمية في البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسي .

(ب) والأسبان والبرتغال الذين نجحوا في اكتشاف العالم الجديد والتعرف على

طريق الهند البحرية قد عاد عليهم ذلك بالغى والرفاهية ومكنهم من تسليح القوات العسكرية والأساطيل البحرية التى غزوا بها مناطق واسعة من العالم القديم والجديد ، ولما كان الغرب الأقصى أقرب بلاد عربية إسلامية إلى أوربا الغربية الناهضة المسيحية ، فقد تعرضت سواحله المطلة على البحر المتوسط والمحيط الأطلسى إلى غزو منظم من قبل البرتغال والأسبان الذين كانوا يرون فى الغرب نقطة دفاع وانطلاق لرد الخطر العثمانى المسلم عن إيبيريا المسيحية من جهة ، وللتوسع فى القارة الإفريقية العالم الغنى المجهول من جهة أخرى .

(ج) أما وضعية الغرب الأقصى الداخلية فقد ساعدت على نجاح حركة الجهاد المقدس التى تزعمها الشرفاء السعديون منذ السنوات الأولى للقرن السادس عشر ، وعند منتصف هذا القرن كان السعديون بقيادة المولى محمد الشيخ المهدي قد أمعوا وحدة المغرب السياسية وأصبغوا مجاورين فى حدودهم الشرقية والشمالية والغربية لقوى الإمبراطوريات الثلاث التى أخذت تتعاضد بهم نحوها ، إلا أن حرص الحكام المغاربة الجدد على وحدة بلادهم واستقلالها ، وإدراكهم المراسى الحقيقية والتوسعية لسلك من الأتراك والأسبان والبرتغال قد دفعتهم إلى اتخاذ كل وسائل المقاومة ، والدفاع وأجبرتهم على نهج السبل الكفيلة بالمحافظة على حريتهم واستقلالهم . وهذا الموقف من قبل الحكام السعدين جعل السياسة المغربية تتسم بصفات خاصة قوامها الوقوف على حذر واتخاذ كل وسائل المقاومة والدفاع ضد كل تدخل خارجى شريعياً كان أو غريباً . وقد وجدوا فى الخلاف القائم بين الدول الكبرى الثلاث وفى الحروب المستمرة بينها مجالاً رحباً لتحقيق ما يرمون إليه ويسعون إلى تحقيقه .

(د) وعند ما تولى المولى أحمد المنصور عرش المغرب عام ٩٨٦هـ / ١٥٧٧ م . كانت الوضعية الدولية قد عرفت نوعاً من التطور : فالقوتان العظيمتان التركية ، والأسبانية قد دخلتا فى مفاوضة لإقرار نوع من الهدنة والسلم بعد حروب طويلة وشاقة ، وذلك للمشاكل الداخلية التى أصبح يعانها كل من السلطان العثمانى الثانى مراد الثالث والملك الأسبانى فيليب الثانى ، ولأن كلا منهما كان يرى فى مهادنة الجانب الآخر ما يساعده على وضع حد للمشاكل العديدة التى من أهمها تصفية مشكلة الغرب الأقصى وبسط النفوذ على هذه البلاد ذات الموقع الاستراتيجى الهام . غير أن

للمولى أحمد المنصور وما كان يتمتع به من دهاء وحزم ، قد عرف كيف يفسد على بعض القادة الأتراك خططهم التوسعية الرامية إلى غزو الغرب . وظل للمنصور ونجح من جهة أخرى في الصمود دون انتشار النفوذ الأسباني بالمغرب ، وظل المنصور هكذا في مرحلة الاستعداد المسلح مع اللحظة والحذر إلى أن أخذت الظروف الخارجية تتطور في غير صالح كل من خصميه التركي والأسباني :

فبالنسبة لمراد الثالث هناك المشكلة الإيرانية والحروب ضد الصفويين الشيعيين علاوة على الجبهة للمسيحية القوية بأوروبا الشرقية .

وبالنسبة لهليلب الثاني اشتداد حدة الحروب الدينية وتطور الخلاف الأسباني - الانجليزي لتزعم مدريد ولندن العسكريين المتعارين الكاثوليكى والبروتستانتى .

لقد استغل المولى أحمد المنصور إلى حد بعيد ظروف الصراع القائم بين الجبهتين للمسيحيين بأوروبا الغربية . وبلغ به الأمر أن تدخل في هذا الخلاف وأصبح طرفاً هاماً يتوقف عليه مدى نجاح وفشل أى من الجانبين المتعارين ، أوضح لقد أصبح المنصور وبالتالي المغرب يتحكم في ميزان القوى الدولية وفي التوازن الدولي سواء بين دول الشرق والغرب أو بين الجبهتين المسيحيين الكاثوليكية والبروتستانتية ، وقد عاد ذلك على المغرب بتحرير بعض مراكز الاحتلال الأجنبي كما ساعده على تأسيس إمبراطورية واسعة بغرب إفريقيا تضم بين مناطقها بلاد السودان الغنية بذهبها وتوابلها ورقيقها والتي كانت من أهم الأسواق التجارية في العالم .

أصبح المنصور الذهبي منذ عام ١٠٠٠ هـ / ١٢٩١ م ندأ لكل من خصميه السلطان العثماني ، والمملك الأسباني ، وأصبحت دولته لا تقل عظمة وقوة وغنى عن دولتيهما كما أن سلطته أصبحت تشمل إمبراطورية واسعة مترامية الأطراف ، مما جعل المغرب في عداد الدول الكبرى وأجبر حكام استامبول ومدريد على أن يحسبوا للدولة المغربية وخليفاتها المولى أحمد المنصور كل الحساب ، علاوة على الاحترام ، والتقدير الذي أصبح الحاكم المغربي يتمتع بهما ، وقد تفرغ المولى أحمد منذ هذا التاريخ للأعمال العمرانية والإنشائية كما أخذ تطوير دولته سياسياً وحضارياً .

على أن للمنصور الذهبي قد وجد في انشغال الأتراك العثمانيين بحروب أوروبا

الشرقية ، وفي انهماك الأسبان بالحروب الدينية في غربي أوروبا ، الفرصة الذهبية لتحقيق الكثير من الأماني ، وأكثر ما ظهرت نواياه العدائية ضد الأسبان عندما انتهت حملة الأرماد الأسبانية ضد إنجلترا بالفشل سنة ١٥٨٨ م . فقد أعرب المنصور عن تأييده للأمر البرتغالي دون أنطونيو المطالب بعرش لشبونة ضد فيليب الثاني ، بل ودخل في مفاوضات سرية مع ايليزابيث ملكة إنجلترا لإعداد حملات عسكرية ضد أسبانيا ومستعمراتها ، إلا أن المولى أحمد لم يتمكن من السير قدماً في هذا الاتجاه للأحداث الداخلية الخطيرة التي عرفها المغرب وأهمها ثورة الناصر بن المولى عبدالله الغالب (ابن أخى المنصور) سنة ١٢٩٥ وما وجدته من تأييد من قبل الأسبان ثم انتشار الطاعون والأوبئة مما قضى على الكثير من الأرواح والحق الإضرار الفادحة بالاقتصاد المغربي ، وأخيراً ثورة المأمون ولى عهد المنصور بغاس ، ومحاولة التعاون مع الأتراك في الجزائر لولا أن تدارك المنصور الأمر وقضى على الثورة في مهدها . وقبل أن يعود المنصور من فاس إلى مراكش أصيب بداء الطاعون ووافاه الأجل المحتوم سنة ١٠١٢ هـ / ١٦٠٣ م .

* * *

مؤلف المخطوط :

ثانياً — أما مؤلف المخطوط فهو عبد العزيز الفشتالي ، ولد عام ٩٥٦ هـ أى السنة التي ولد فيها المولى أحمد المنصور وقد كان رفيقاً له منذ صباه . وحسب رواية المقرئ المعاصر في (روض الآس) فإن الفشتالي يعد من أشهر وزراء المنصور وكتابه وشعراته . مات بعد المنصور بعشرين سنة في عام ١٠٣٤ .

والمعلومات القيمة التي أوردها الفشتالي في مخطوطه الأسرار والأحداث الدقيقة في عصر المنصور ، تثبت بأنه كان من المقربين جداً للمولى أحمد ، ومن خواص جلسائه . وتمكس من جهة أخرى ما كان يتمتع به من علم غزير واطلاع واسع على مجريات الأحداث والوقائع الداخلية والخارجية . وقد أكد العالم أبو مالك عبد الواحد بن أحمد الشريف في الرسالة التي وجهها إلى المنصور مكانة الفشتالي السياسية والعلمية عندما كتب « فتركت أيديكم الله الصدر لن هو به مني أقعد ،

وتحميت عقده لمن هو له أحمق . أبى فارس عبد العزيز الذى فاضت عليه أنواركم ، وأضأت له سبل هذا المنحنى أقماركم ... » (ص ٥٤) .

أما ناسخ المخطوط ومكان نسخه وزمانه ، فالنسخة التى بين أيدينا لا تتضمن إشارة إلى ذلك . كما نجعل ما إذا كانت هذه النسخة المخطوطة قد نقات عن المؤلف مباشرة أو بواسطة نسخة ونسخ أخرى . وكل ما يمكن قوله : هو أن الناسخ كان أميناً — فيما يبدو — إلى حد بعيد لدرجة أنه قد ترك الكثير من البياض للكلمات والألفاظ والحروف التى ربما صعب عليه فهمها ونقلها ، وحافظ على ضيغ الأفعال عند التكلم والمخاطبة بل وحافظ أيضاً على ترتيب الموضوعات التى لم تكن مرتبة ترتيباً . هذا فيما إذا فرضنا بأن الناسخ قد نسخ عن آخر قبله ، وكيفما كان الأمر فإن ناسخ المخطوط لم ينتبه إلى مسألة الترتيب الزمنى للموضوعات والأحداث ، ولعل ذلك كان مصدره المؤلف نفسه الذى كتب تواريخه بشكل مذكرات وكراريس والذى لم تساعده الظروف — كما يظهر — على جمعها وترتيبها . فاختلف الأمر على الناسخ وقدم وأخر . وعلى سبيل المثال :

— فى الصفحة ٥٢ عند التحدث عن (ارتجاع العساكر من كاغو إلى تنبكتو) يبدأ الحديث بقوله : « لما استولت العساكر الأمامية على كاغو ... » فالمفروض أننا نعرف احتلال القوات المغربية للسودان ، مع أن التحدث عن فتح السودان والتفكير فى ذلك لن نعرف عليه إلا فى الصفحة ٦٨ .

— فى الصفحة ٨٤ لما تعرض لتوسع القوات المغربية فى المناطق الصحراوية الساحلية الممتدة بين جنوبي الغرب ونهر السينغال قال « لما تم لمولانا الإمام الخليفة للنصور بالله ما أراد من فتح إقليمى توات وتيكورارين ... » وفى الصفحة ٦٧ عند التحدث عن فتح السودان يقول : « وكان أيدى الله تعالى حسباً قدمنا قد وطئ عساكره الأمامية هذه الأقاليم ذات اليمين مع سيف البحر » .

— فى الصفحة ٤٨ وبعد السلام عن فتح إقليمى توات وتيكورارين يذكر الرسائل التى بعثها للنصور إلى (الجهات والأقطار من ممالك بالفتح وإنهاء البشرى بما أفاء الله عليه) مع أن هذه الكتب قد وجهت بعد فتح السودان الذى سيبدأ الحديث عنه فى الصفحة ٦٥ .

— في الصفحة ٦٢ يتحدث عن قفول المساكن من توات وتيكورارين بمد
إخماد ثورة قامت بهما (كنا أشرنا إلى ما كان من انتفاض أهل توات وتيكورارين
وإجلاء عرب اليمن ..) مع أن الحديث عن هذه الثورة لن يأتي إلا في الصفحة ١١٢ .

إلى غير ذلك في الأمثلة التي تؤكد بأن الفشتالي لم تمهله الظروف القاسية التي
عرفها المغرب بعد المنصور لجمع مذكراته ، فاشتبه الأمر على جامعها من بعده ، وفي
إمكاننا ترتيب الموضوعات والأحداث ترتيباً تاريخياً وتصحيح الخطأ الذي ارتكبه من
جمع مذكرات الفشتالي دون أن نعتبر ذلك محلاً بقواعد البحث التاريخي العلمي طالما
أن الخطأ — كما يبدو بكل وضوح — لم يصدر عن المؤلف نفسه .

أما الفشتالي المؤرخ فأهم ما يلاحظ عليه :

١ — إطنابه في مدح الولي أحمد المنصور والإعلاء في شأنه وشأن الخلافة
السعدية الترفيفة ، مما يجعل الدارس أحياناً يقف من رواياته وأخباره مواقف الحذر ،
ولا غرابة في ذلك طالما أنه كان من المقربين عند المنصور وكتبه الخاص ومؤرخ
دولته الرسمي .

٢ — عرضه تفاصيل ووقائع دقيقة كشفت النقاب عن الكثير من الأحداث
التي عرفها المغرب خلال العهد السعدي وعصر المنصور الذهبي بوجه خاص . وبعض
هذه المعلومات يعرف لأول مرة . وجميعها يلقي الأضواء على مرحلة حاسمة من تاريخ
المغرب السياسي والحضاري خلال العشرين سنة الأخيرة من القرن السادس عشر
وهي الفترة الحرجة التي قررت مصير المغرب خلال القرون الثلاثة المقبلة من
التاريخ الحديث .

٣ — لقد كتب الفشتالي تواريخه بشكل مذكرات وكراريس ، يحمل بعضها
الشهر والسنة التي قام خلالها الوزير بتسجيل الأحداث ، وعلى سبيل المثال :

— في صفحة ١١٢ عند ما كان الفشتالي يتحدث عن وصول المنصور إلى فاس
عام ٩٩٧هـ وعن أهم الأحداث التي حصلت بالمغرب تعرض إلى ثورة توات وتيكورارين
وكيف أن المنصور قد أرسل ضدهما قوات جرارة «...» وم لهذا العهد غائبون تجاهها
كعب الله ملائمتهم في الطمن والإقامة ومنهمم الظفر والغنيمة » .

— في الصفحة ١١٤ يتحدث عن معدن الملح بتغازي وعن استغلال آل سكية ملوك السودان له ثم يذكر « .. واستفعلت الدولة اليوم لهذه الكريم وتفرقت التجارة وتضاعف خراج العادن فرأى نصره الله ان المعدن لبيت المال » .

في الصفحة ١٢٨ تعرض إلى فتح السودان وقيام محمود باشا بتمهيد أمره نهائياً خلال ثلاث سنوات ١٢٩٥ — ١٢٩٣ وذكر بأن المنصور قد أمر محمود باشا ومن معه من القوات المحاربة بالعودة إلى المغرب على أساس تمويض ذلك بقوات أخرى جعل على رأسها منصور بن عبد الرحمن ، وفي معرض كلامه عن القوات الجديدة ذكر ما يلي « .. وتسايت لهذا العهد كتاباتها على هذا النمط متالية ونصر الله يقدمها والتأييد يصحبها » .

— في صفحة ١٣٦ عند تحدثه عن اشتداد الحروب الدينية بغربي أوربا يشير إلى تدخل الاسبان ضد هنرى الرابع بفرنسا «فتها لكونها لهذا العهد في مضايقته» ثم يتعرض إلى الهجومات الإنجليزية ضد الشواطئ الإسبانية «وفي هذا التاريخ صمد إليه أسطول سلطنة بلاد نكلطيرة في مائتي مركب » .

— في صفحة ٢٢٦ عند تحدثه عن بناء البديع قال « فكان مبدأ الشروع في تأسيسه في شوال خامس الأشهر من خلافته السعيدة في عام ستة وثمانين وتسعمائة واتصل العمل إلى هذا العهد وهو عام اثنين وعشر مائة لم يتخللها فترة » .

— في صفحة ١٩٠ لما تحدث عن توكل المنصور على الله روى حادثة خاصة وقال « ومما يحكى في هذا الباب ... في صفر في عامنا هذا وهو عام سبعة وتسعين » .

— في صفحة ١٥٧ ذكر الفتشالي بأن المنصور قد كاتب بعض علماء المشرق في مصر مخبراً إياهم بالقضاء على الثورة التي قام بها ضده ابن أخيه الناصر « ... إلى كبير مشايخ الأولياء والعلماء على الطريقة اليوم بالديار المصرية الشيخ الأستاذ زين العابدين بن الشيخ القدوة محمد بن أبي الحسن البكرى الصديق » . والكتاب يحمل تاريخ ربيع النبوى عام ١٠٠٥ هـ .

— آخر حدث تاريخي أورده المخطوط إيقاع المنصور بمرمب الخلط عام ١٦٠٦ هـ / ١٥٩٧ وقد تم ذلك بعد القضاء على ثورة الناصر « فجهز إليهم العساكر

إثر الإيقاع بالناصر» ص ١٦١ وعندما تتساءل هل توقف الفشتالى عن كتابة المذكرات أم أنه استمر في ذلك ولكن الأيام أتلقتها كما حصل للكثير من مؤلفاته ؟ فاعتماداً على ما أورده في صفحة ١٧٠ « وإذ جرت بنا جياذ الأقلام في ميادين التقيد إلى هذا المدى البعيد عن دولة مولانا الخليفة حامي بيضة الإسلام أمام الأمة كافل الملة تاجر الخلافة مركز دائرة الإمامة مولانا الإمام المجاهد أبى المباس المنصور بالله أمير المؤمنين أيده الله فقد آن لنا أن نختم هذا السفر بآثره الشريفة المنيفة التي وعدنا أول الكتاب بسوقها إلى أن يسنى الله تعالى بفضلها على يده من الفتوح والظفر الممنوح ما يستفتح به إن شاء الله سفر آخر متصل موصول الأخبار المقدمة بصلة من أخبار .. » فالفشتالى ارتأى أن يختم الأحداث السياسية التي عرفتها العشرون سنة من حكم المنصور (٩٨٦—١٠٠٦ هـ) بالحديث عن مظاهر حضارية امتاز بها هذا العمد ، على أمل الشروع في تأليف كتاب آخر يتضمن ما ستأتى به الأيام من أحداث ووقائع وما سيفتحه الله على يده من الفتوح ، فهل أجز وعده وألف عن الفترة الأخيرة من حكم المنصور بل وعن أحداث ربع قرن من الزمن وهي المدة التي امتدت خلالها حياة مؤرخنا ؟ وأن التأليف قد ضاع ؟ أم أن أحداث المغرب الداخلية منذ ١٠٠٧/١٥٩٨ قد عاقته عن القيام بذلك خصوصاً وأن السنوات الخمس الأخيرة في حكم المنصور قد تعرض خلالها للمغرب لأحداث جد مؤلة : انتشار الطاعون بكل المغرب لكثرة قتلى المارك والثورات ، واضطراب سبل الحياة الاقتصادية حيث أخذت المجاعة تم البلاد وتزيد من أمر داء الطاعون استفعالاتم الثورة التي قام بها المأمون بفاس ضد والده المنصور بما كفى والتي لم يتمكن المنصور من القضاء عليها إلا بعد جهد جهيد ، فهذه النكبات الثلاث غيرت مجرى الحياة في المغرب وكانت نقطاً سوداء في صفحة المولى أحمد المنصور الذهبي ، لم يجد فيها الفشتالى ما يثير الاهتمام ويستحق التسجيل وبالتالي ما يزيد من شأن ممدوحه الذي امتازت دولته بأنها « الدولة الشريفة التي أثرت العديم وأكسبت المحروم » ص ١٤٦ .

— من المآثر التي اتصف بها المنصور والتي يختم بها الفشتالى صفات ممدوحه الكثيرة : الجهاد في سبيل الله برأ وبحراً لرفع راية الإسلام والعمل على استعادة الفردوس المفقود (الآندلس) وما يتطلب ذلك من إعداد العدة والمتاد ، وآخر فقرات المخطوط ، الدعاء للمنصور : « أسأل الله تعالى لمولانا الإمام ظل الله في الأنام منشي الآثار التي عرف فضلها الإسلام بقاء يخلق أثواب الأيام ونصراً تحقق بزمه

الرايات والأعلام ونحصد سيوفه الناققين وطواغيث الشرك وعبداء الأصنام منه
وفضله » (ص ٣٠٤) .

٤ — حاول الفشتالى — كما يلاحظ — تنظيم بعض مذكراته السياسية
والحضارية موضوعياً كما يتضح من :

(أ) استعماله عبارات خاصة يفهم منها أن الموضوع الذى هو بصدد دراسته لم يتم
بعد ، وأن ما يأتى فى الأخبار مكمل لما سبق ذكره ، فمثلاً فى صفحة ١١٩ عندما كان
يتحدث عن ملاحقة القائد الغربى محمود باشا لسكية بالسودان ذكر « وقطع الشق
فرضة المجاز من النيل لمدوته القصوى فكان من إجلاب العساكر عليه هناك
ما نذكر إن شاء الله تعالى » .

(ب) استعمال نفس العبارات — أحياناً — التى يختم بها الموضوع السابق
كعنوان للموضوع الجديد ، كالمثال السابق حيث نجده فى نفس صفحة ١١٩ يذكر
كعنوان : « ذكر إجلاب العساكر على سكية » .

وتعدد الملاحظتان فى الصفحات التالية :

• فى صفحة ١١٩ يختم للموضوع بقوله « فكان فى خبره وخبر الإيقاع بسكية
واستئصال شأفته وتدميرده لأرض الكفر ما نذكر إن شاء الله تعالى » ، ثم يعنون
الموضوع التالى : « ذكر استئصال شأفة سكية » .

• فى صفحة ١٢٢ ختم الفصل « وأما خبر أخى سكية النازع فقد كان أمره
ما نذكر إن شاء الله تعالى » ، وأما عنوان الفصل التالى فهو « ذكر اصطلاء أخى
سكية الناكث بنار كفره » .

• وفى صفحة ١٤١ ختم حديثه عن ثورة الناصر « إلى أن كان فى الإيقاع به
ثانياً على فاس وقطع دابره ما نذكر إن شاء الله » ، وعنون الموضوع التالى « ذكر
إيقاع المولى الأمير . بالناصر على فاس ثم القبض عليه وقطع دابره » .

(ج) ويزداد الترتيب حسب الموضوعات وضوحاً عند ما يتحدث عن المظاهر
الحضارية فى عهد المنصور سواء فيما يتعلق بصفات المولى أحمد أو فيما يرجع إلى
وصف مآثره ومميزات عهده .

٥ - إن المعلومات والأحداث التي دونها الفشتالي تؤكد قدرته العلمية ،
وتشهد له بنوع من الحرص على الأمانة التاريخية ، وقد اعتمد في جمع أخباره على
المصادر الآتية :

(أ) الولي أحمد المنصور نفسه : فهو يكثر في استعمال عبارات يفهم منها أن هذا
الجبر أو ذلك قد ميمه عن الخليفة المنصور : في صفحة ٢١٣ « وصمته أيده الله يحدث
أنه لما . . . » وفي صفحة (٢) ذكر « وهي ما حدثنا به أيده الله » (ص ٣)
« قال أمير المؤمنين . . . » كما يفتنه على قل نقله عن مدونات الخليفة : « ورايت
أن أملى الخطبة الشريفة بكاملها ليطلع منها موضوع الكتاب . . . » ص ٢٥٨ -
« وقد رايت أن أعول في تحقيق هذا على تقييد شريف بخط يده الكريمة ناوليه
أيده الله متضمناً لذكر ما قرأ من العلوم . . . » ص ١٩٥ .

(ب) ما نقله عن الآخرين من القدماء والمعاصرين :

فقد روى الكثير عن المؤرخين القدماء أمثال ابن حيان في تاريخه في صفحة
٥١١ ذكر : « ابن حيان في تاريخه أن المنصور بن أبي عامر لما . . . » ، وابن
خلدون في عبره : أورد في صفحة ٣٨ « وقد ألم الإمام ابن خلدون في كتاب العبر
بذكر تيكورارين . . . » .

ورجع إلى المعاصرين له أيضاً لتسجيل وضبط الأحداث : فعند الحديث عن فتح
السودان مثلاً نجد في صفحة ٨٠ قوله : « يحكى عن بعض الأدلاء المهرة ممن محب
عسكر مولانا الإمام . . . » وفي صفحة ٧٩ ذكر « حدث بعض الثقباء من أعيان
التجار . . . » ثم في صفحة ١٩٣ « ثم عرض إجتماعي في ذلك اليوم أو بعده مع
شيخنا العلامة أبي العباس أحمد بن علي النمرؤزي . . . فحدثني بشارة القضية لعدم
إتفاق حضوري ساعتئذ » . فالفشتالي أهبت من جمعة المصدر الذي اعتمد عليه ونبه
من جمعة أخرى . على أنه غير متأكد فيما إذا كان التقاؤه بالشيخ أبي العباس قد تم
في هذا اليوم أو الذي بعده ، وتلك ميزة عرف بها مؤرخنا تشهد له بمقدار الضبط
الذي كان يتصف به .

(ج) ما يشاهده واطلع عليه : كما هو الحال عند تعرضه إلى صفات المنصور
الحلقية والحلقية وإلى العديد في مآثره العمرانية كقصر البديع وحصون فاس والقرائن

ثم معاصر السكر ومعامل الدخيرة والسلاح . . . وغير ذلك من الموضوعات الحضارية والسياسية .

* * *

الوثيقة السياسية والحضارية للخطوط :

تمرض الفتالي إلى الأحداث السياسية والمظاهر الحضارية :

(أ) النامية السياسية :

بلغ المغرب في عهد المولى أحمد المنصور مرحلة هامة في التطور والإزدهار ، جمعت هذا العصر الصفحة الذهبية الشرقية في تاريخ الدولة السعدية ، وقد سجل الفتالي كثيراً من التطورات الداخلية والخارجية عن هذا العهد ، ولكن ناسخ مذكراته اشتبه عليه الأمر فقدم وآخر . ومن الممكن ترتيب الموضوعات تاريخياً :

* السنوات الخمس الأولى في حكم المنصور ٩٨٦ هـ - ٩٩١ هـ [من صفحة ١ إلى صفحة ٥٢] تحدث الفتالي عن يعة المولى أحمد وقيامه بشبكة بعض قادة الجيش للفتن التي حاولوا القيام بها . ثم تعرض إلى وصف السفارات الأجنبية التي قصدت مراکش لتهتة المنصور . ومن أبرز تطورات هذه المرحلة الخلاف المغربي - العثماني الذي دفع المولى أحمد إلى اتخاذ كل وسائل الدفاع والوقوف على أهبة الاستعداد لرد أي تدخل خارجي . غير أن تراجع الأتراك عن غزو المغرب لظروفهم الخاصة جمعت المنصور يستغل وجود القوات المسلحة وينطلق إلى فتح إقليمين صحراويين بالمغرب الجنوبي - الشرق هما توات وتيكورارين . وكانت آخر أحداث هذه الفترة وصول سفارة من برنو أرسلها أدريس الثالث إلى المنصور ، أملا في أن يده الحاكم المغربي بالأسلحة النارية ولكن للمولى أحمد اشترط دخول برنو في طاعته وكتب الفتالي نص البيعة .

* خلال سنة ٩٩٥ هـ (من ص ٨٧ - ١٠٣) ضمت القوات المغربية جميع المناطق الصحراوية التي تمتد بين وادي درعه شمالاً ونهر المسينغال جنوباً ، وقام المنصور بمحشد عظيم في سهول تامسنا لأخذ البيعة من العامة وكبار القوم لابنه ونائبه

على فاس المولى محمد الشيخ المأمون . وأثبت الفتالي في مخطوطه في البيعة الذي بعد من الوثائق الهامة .

* وجأة نجد أنفسنا أمام أحداث سنة ٩٩٦ هـ . فهل فقدت الكرايس التي كانت تتضمن حوادث سنة ٩٩٣ - ٩٩٤ - ٩٩٥ هـ ؟ أم أن الفتالي كان مريضاً خلال هذه المدة [في صفحة ٢٥٩ ذكر الفتالي « وأما ما قابلتني به عنايته أيده الله عند انقماشى في العلة المتطاولة لأمد من حولين كاملين ... »] . . . وفي سنة ٩٩٦ هـ (من ص ١٠٢ - ١٠٧ قامت بشمالى المغرب ثورة تزعمها (ابن قرقوش) وقد تمكن المأمون بفاس من القضاء عليها أخيراً .

* أما أحداث سنة ٩٩٧ هـ . فكانت :

١ -- (من ص ٥٥ - ٦٥) : تفكير المنصور في استغلال معادن ملح تغازي بالصحراء المغربية الجنوبية ومراسلته إلى سكية بالسودان في ذلك . ثم القضاء على ثورات قام بها عرب الحلط بسهول الغرب والقبائل الجينية بتوات وتيكورارين .

ومن الأحداث أيضاً استرجاع مدينة أجيلا من الأسبان .

٢ -- (من ص ١٠٧ - ١٠٩) : فشل المحاولة التي قام بها المغاربة لتحرير مدينة سبته من الاحتلال الاسباني .

* وفي سنة ٩٩٨ هـ (من ص ٦٩ - ٧٧) أخذ المنصور يفكر جدياً في فتح السودان للظروف الداخلية والخارجية المساعدة ، فجمع مجلساً للشورى ضم كبار القوم وقادة الجيش . واقتضى النظر أخيراً تهيء الحملة ومكانة قاضى تنبكتوب بالسودان للدخول في الطاعة .

* ثم في سنة ٩٩٩ هـ (ص ٨٠ - ٨٧) تقدمت القوات المغربية المسلحة إلى غزو السودان فطالب اسكيا اسحاق بالهدنة مقابل خراج عظيم سنوياً وتوقف القتال في انتظار جواب المنصور .

* وخلال السنوات الثلاث الأولى من مطلع القرن الحادى عشر للهجرة (١٠٠٠ - ١٠٠٢ هـ) [من ص ١١٦ إلى ص ١٢٩] استؤنفت الحرب ضد السودانيين إلى أن الجيو للمولى أحمد المنصور .

* وفي الستين الثلاثين (١٠٠٣ - ١٠٠٤ هـ) [من ص ١٣٨ - ١٦٠] اشتعلت بشمال الغرب وبجبال الريف ثورة خطيرة تزعمها أحد أبناء إخوة النصور وهو الناصر بن عبد الله الغالب ، إلا أنها انتهت بالفشل . ولإبراز مدى خطورتها نشير إلى أن النصور قد بث رسائل عديدة إلى الشرق الإسلامي (مصر ومكة) وإلى مختلف الأقاليم المغربية ليزف بشرى القضاء على هذه الثورة .

* وأخيراً قام للنصور عام ١٠٠٦ (من ص ١٦٠ - ١٧٠) بتشريد قبائل عرب الخلط بسهول الغرب ، لأعمال النهب والتخريب التي قاموا بها ولقيامهم بتأييد الناصر زمن ثورته ضد عمه المولى أحمد النصور .

* * *

(ب) الناحية الحضارية : وتشمل الحديث عن المظاهر الإدارية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية التي عرفها المغرب خلال عهد المولى أحمد النصور . وقد حاول الفشتالي إلقاء الضوء على الكثير من هذه المظاهر . مما زاد في قيمة المخطوط الذي بين أيدينا . ومظاهر الحضارة المغربية زمن النصور ، وكما ثبت ذلك الفشتالي ، تميزت بالصفات الآتية :

١ - المظهر الإداري . ويستلقت النظر هنا بعض الأعراف الدبلوماسية التي كانت بالمغرب والتي قل أن تجد لها مثيلاً في مصدر تاريخي آخر ، وعلى سبيل المثال نورد صوراً لذلك :

استقبال النصور لوفد برنو (ص ١٦ - ١٧) حيث ذكر الفشتالي : « وكان يوم سلامه يوماً مشهوداً حسناً وغمامة وأبهة وجلالة ، جلس لهم أمير المؤمنين أغم جلوس بالقبتين التوأمتين المضروبتين أمام السياج المحيط بقباب الخلافة بإفراك ، واستوقف للوالى والماليك سباطين من التوأمتين إلى القبة العرية ثم منه إلى باب المسكر القبلى ، فعودى بالرسول يمترق السباطين حتى أنزل بالديوان وكان الملا من أكابر الدولة وصدور المملكة جلوساً به وكرسی الأمانة وسرير الخلافة مثنوب به وآماط الإمامة الكريمة ممهدة وأوطيتها مبسوطة وللهاية قد أخرست الألسن وخضعت القلوب والأبصار لجلس الرسول هناك ملياً ثم عودى به على سبيل الترقى إلى القبة العرية

فقبلت بها ريثما جاء الإذن الكريم بإيصاله إلى مقر الأمانة الكريمة العليا ...
فوردى به إلى التوأمتين فثقل بين يدي أمير المؤمنين ... فأدى الرسالة وقضى فرض
التهنية وسنة الهدية ... ثم انصرف على رساله إلى معسكر ولى عهد الخلافة ... فأشرف
الرسول على دنيا أخرى وأبهة مذهشة ... واستدرج إلى أن وصل لولى العهد وقد
قعد له بفسطاط جلوسه أفخم قعود ... » .

— استقبال المنصور لأبنائه وبالأخص ولى عهده المأمون : فقد وصف الفشتالى
لقاءهما عام ٩٩٢ هـ عندما عزم المولى أحمد على إعلان بيعه ولاية عهد ابنه هذا بسهولة
تامسنا (ص ٣٢) « ولما كان يوم وصول ركابه العالى وطلوع طلوع السعد أمام موكب
الزاهر العباب ، ركب أمير المؤمنين أيده الله فى العساكر للاقائه تكريماً وإجلالاً
وبروراً بمقدمه وبرز إلى الصحراء خارج معسكره السعيد فوقف فى الأجناد وأقبل
المولى الأمير أبو عبد الله فى كتابه وقد ملأت الرنى والأباطح فى أفخم زى وأحسن
أبهة وأجل شارة وانبرت الكتائب يتسرب للسلام على أمير المؤمنين فوجاً من بعد
فوج حتى قضى جميعهم فرض التحية وتدافع المولى أبو عبد الله فى موكب التلاطم وقد
تطلع خلال الرايات كالسكوب الدرى ولما هوى إلى الأرض ساعياً على أقدامه الطاهرة
لأنهم الركاب الملى الأمامى شرفه الله وقضاء فرض التحية راجلاً برز أمير المؤمنين أيده
الله عن العساكر ووقفت بركزها وتقدم وحده للاقائه مرحباً وشفيقاً ومتبسّطاً حتى
أمكنه فى ثم قدمه للشرقة وحتى متطاطاً من صهوته على رأسه حتى قبله واستركبه
إلى جنبه وصاراً معاً فى الولاية والعساكر ... » .

— ومن المظاهر الإدارية حرص المنصور على أخذ البيعة بولاية العهد لابنه
الولى عهد المأمون . لضمان استمرار الحكم فى خلفه وحتى لا تضطرب الأوضاع بعد
وفاته كما حصل فى المهود السابقة . وقبل أن يتم إعلان بيعة ولاية العهد « جمع
أمير المؤمنين أرباب الدولة وأهل الحل والمقعد وسائر الأجناد والعساكر وجلس
لهم المولى أبو عبد الله بخيمة أمير المؤمنين العظمى فازدحم الناس على تقبيل يده
ومصافحته بالبيعة واقتضيت منهم الإيـمان بحضرة فكمل الفرض فى ذلك الجمع
المبارك » . (ص ٣٢) .

وعن الطريقة التى تم بها أخذ بيعة المأمون كولى للعهد ، ذكر الفشتالى فى

الصفحة ٩١ كيف « اجتمع باجتماعها في ذلك الخيم السعيد والمشهد المبارك أم لا تحس في أجناد المغرب ورؤساء القبائل والأشياخ وسائل أهل الحل والعقد ومن يشار إليه في المغرب بالبنان ... وأمرني أيده الله بالقيام على رؤوس الأشهاد برسم البيعة فرفعت بقرائه عقيدتي ، ليتأدى إلى الناس فهمه ، وبعد فصوله وقام إلى جنبي قاضي الجماعة ... أبو القاسم بن علي الشاطبي مفسراً لما أشكل على الناس من أحكام البيعة ...

.. وإن دفع الناس للبيعة وإعطاء صفقة الإيمان وتسابقوا إلى ذلك وإزدحموا عليه إزدحام الحبيج على الحجر الأسود .. وكان الأمراء بنو الإمام أمير المؤمنين أيده الله تأخرت يبعثهم عن الحجيم الفقير إكراماً لهم .. إلى أن عقد لهم من القدر مجلس خاص بهم في القبة العربية .. فسموا وأطاعوا وأوقفوا على الرسم علاماتهم بالرضى والقبول .. »

— وعن الإدارة المركزية وأهم عناصرها ، يستلفت نظرنا القصر الملكي الذي هو في آن واحد مقر إقامة الخليفة المنصور ومركز إدارته التي تضم : قاضي الجماعة ، مشيخة العلم ، الحاجب ، قائد القواد ، الكتاب ورؤساء الجند .. وفي الصفحة ٢٠٤ نجد وصفاً دقيقاً ليوم من أيام الديوان : « جلس أهل الإيوان وأرباب المناصب وأكابر الدولة الذين عليهم مدار الأمور يرقبون خروج أمير المؤمنين ثانياً فإذا حاز وقت الزوال أو كاد يخرج للجلوس وابرأسم أمور ملكه وسلطانة فيحضر خواص بساطه الكريم وكتب سره ويناوله ماورد على أبوابه الكريمة من الكتب من سائر الأقطار لكتب ماينحصر منها وتفريق غيره على الكتبة وتعرض عليه القضايا ومهمات الملك ثم يؤذن لسائر الأكابر والكتاب وأولى المناصب في الدخول فيأخذ عند ذلك أيده الله في العلامة أن كان اليوم يومها فتارة بيده الكريمة أن كانت الكتب أجوبة أو ظواهر وتارة بالطابع أن كانت مظالم أو براوات الأشغال والمطاء أما يأخذ في إملاء الأجوبة على الكتبة أو في صماع ما يرفعه أهل الديوان من المسائل مناوبة يستمر على ذلك حتى يصل الظهريين غالباً يوم الناس فيهما فيدخل إلى قصره أيده الله ويتفرق الديوان .. » .

— وإلى جانب أيام الديوان التي هي السبت والاثنين والأربعاء ، هناك أيام

الراحة » وهي التي تتخلل أيام الديوان لا يحضرها إلا الندمان من الخاصة أو من ينادى من غيرهم لخدمة تعرض أو مشورة تعين أن كان من أهلها » [ص ٢٠٢].

— وبما امتازت به إدارة النصور حرصه الشديد على « معرفة أخبار الآفاق الشاسعة والأقطار البعيدة والإطلاع على أنباء الملوك من أصداده وأوليائه وبث أصحاب الأخبار في البلاد دانيتها وقاصيتها وأذكاء العيون في سائر جهات ممالك من داره إلى الغرب بل إلى قاصية السودان اليوم من ملكه . . ولقد بلغ به الإغراق في مذاهب الحزم أيده الله إلى أن اخترع لهذا العهد أشكالا من الخط على عدد حروف المعجم يكتب بها فيما لا يريد الإطلاع عليه من أسرار ومهمات أموره وأخباره يمزج بها الخط للتعارف فيصير بذلك الكتاب ملهماً مستقلاً فلا يجد المطلع عليه باباً يدخل منه إلى فتح شيء من معاني الكتاب . . ثم نوع أيده الله هذا الخط إلى أنواع يخص ولي عهده منها بنوع يرجع إليه في فك معمي كتبه ثم إذا جهز أحداً بالمساكر أو بعثه في غرض رسالة أو قلده جانباً من أطراف ممالكه وتغوره ناوله خطأً من تلك الخطوط يفك به رسائل أمير المؤمنين ويكتب به هو من عنده فيما يريد تعميته من الأخبار وخبايا الأسرار » (ص ٢٠٦ - ٢٠٧) .

— كان للقاضي دور هام في الغرب كبلد إسلامي ، زمن المولى أحمد الذي كان « أشد الخلفاء إتياداً للشرع منصفاً حق من نفسه فيما يتوقف عليه حكم الله » (ص ١٩٤) ، وقد بلغ به الأمر أن « سوغ للقاضي توجيه الحكم على من يتعين عليه حق في داره الكريمة » (ص ١٩٦) . كما كانت لصاحب الشرطة مهمة السهر على الأمن والنظام في المدينة (ص ١٩٤) . وفي الولايات والأقاليم هناك العمال الذين تناط بهم مسؤولية تسير ولايتهم وفق توجيهات المولى أحمد النصور (ص ١٩٤) ، وإذا جار أى مسؤول على الرعية ورفع المظلومون ظلاماتهم إلى العاصمة مراکش فإن النصور سرعان ما يظهر « غلظته على جبايرة العمال المشهورين بالحيف وإرتكاب الجور وموالاة تكلمه عليهم وشموههم بأنواع العذاب والانتقام وقذفهم في السجون والطابق مقرنين في الأصفاد ومصادرتهم » (ص ١٩٤) .

— وكنموذج للرسائل التي كان النصور يعيها إلى من يهجه الأمر في الداخل أو الخارج أو رد الفتاوى في الصفحة ٧٤ نفس خطاب المولى أحمد إلى عمر بن محمود

ابن عمر قاضي تنبكتو بالسودان « ونص الكتاب . . . بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله ثم كانت العلامة السكرية المباركة للذهبة للنيرة للشرقة التي حظت فيها عين الإمام وبنان سط النبي عليه السلام إسمه الشريف المبارك الكريم بتدريج يهر العيون حسناً ورواء وغمامة ويسع منفسح البياض المعد لذلك ما بين البسملة ومبدأ الخطاب الكريم » .

— هذه جوانب عن الإدارة المدنية ، وعن الإدارة العسكرية القرية زمن المنصور . إهتم الفتشالي بوصف القوات العسكرية المسلحة وتنظيمها وطرق تدريبها وعن الفتوحات العديدة التي قامت بها ، دون أن يغفل عن وصف معداتها وأسلحتها وطرق قتالها .

فالمصور أولى الجيش عناية خاصة منذ توليته « فاختص رؤساء العرب وأكابر الدولة منهم بالمسورة والتدبير وقيادة عساكر الحيل البرية واصطفي من العجم موالى أنبتهم نعمته ودربتهم تربيته فنجبت طوائف عديدة ليس منهم فقي إلا أضخم حالا وأعظم شأنًا » (ص ١٩٧) . وجعل له ديواناً خاصاً به « . من أمثالهم ومن دونهم من ضمه الحاجر المتخذ لهم بايوان الخلافة المليية » (ص ١٩٧) . ولم تمض فترة من الزمن حتى أصبح عدد القوات المسلحة « عدداً جمّاً يضاعف أمير المؤمنين منهم مثنون بما كان أيده الله عنى لعمده الكريم بمجمهمم والإستكشار منهم » (ص ١٩٧) . وقد كان المنصور متأثراً عند إنشائه للجيش المغربي بالأتراك العثمانيين الذين كانوا قد اشتهروا بقوة وبطولة الجيش الإنكشارى « . من عساكر النار المعروف بجيش الإنكشارية » (ص ١٩٧) . لذا فقد دخلت إدارة الجيش ألفاظ أجنبية كثيرة مثل « لأن باى لفظة عجمية معناها قائد القواد » (ص ١٩٧) . وغيرها .

وفما يتعلق بتدريب الجند على الرماية وإصابة الهدف ، فقد جرت العادة بأن من « أصحاب الغرض بشهمه وقرطسه شاد بذكره الشديد وصدع باسمه فيتناول الحصاة المعلومة فتنبعث المنافسة الواقعة بين القوم في ذلك على مزيد التدريب والتخريج في الرماية » [ص ١٧٢ — ١٧٣] . واعتادت من جهة أخرى القوات المسلحة من المنصور « رميها المأزق الجلاد ، دروباً على الدربة وارتياضاً على صدق المصاع في ضنك المواقف وخوض غمرات الهجاء وبعيداً عن التراب والإخلاخ إلى الراحة

والركود والسكون إلى الدعة لما يؤدي إليه ذلك في وهن عزائمهم ولين عرائسهم
وقل شي شوكتهم عند الحاجة إليهم» ص ٧١ فكانت بذلك القوات المغربية مثالا
لنظام « لما مدنوا عليه من الانضباط وهذبهم من ثقاف السياسة حتى لو سيموا سم
الحياط لوسمهم مجالا مع تناهى الشركة والبأس والشهامة سيرة دربوا عليها حتى صارت
لهم سجية وغريزة طباع لم يأت النسيج طي منوالها » ص ٧٧ .

لقد نظم المنصور قواته المسلحة وجعلها عدة فرق أهمها : « جيش الأصباحية من
جيوش النار » ١٩٧ . و « جيش الموالى المملوجى من عساكر النار المعروف بجيش
الإنكشارية » ١٩٧ و « جيش الأندلس من جيوش النار » ١٩٧ ثم « جيش أهل
السوس في عساكر النار بمحضرة الخلافة العلية » ١٩٧ .

بالإضافة إلى العديد من القبائل التي ألحقها المنصور « بديوانه فتميزوا بشائر
الجندية ولبسوا شاراتها والحق رؤسهم بطبقات القواد اقطعهم بما شاء ومن البلاد »
[٥ ، ٦١] وفيما يرجع للمعدات الحربية ووسائل القتال ، فالفشتالى أبرز مدى
الكفاية المنصور بذلك لدرجة أن الجيش المغربى قد أصبح قوة « قاذفة بشواط النار
وحصاء البندق المتهل بسعائب من البارود مركوم تزجيه الرعود القاصفة والصواعق
الراجعة تتبعها الرادفة » ص ٧١ فأحرز لذلك انتصارات متوالية وفتح أقطاراً ومناطق
واسعة : « . . . فزحفوا إليهم حينئذ من ساعتهم وأحرقوا بهم في متصمهم ونصبوا
عليهم مدافع النار . . . وزجروهم بحصى السماوى منها وألحوا بالحربى على أسوارهم
ودلفت إليها الأجباد وتنادوا بشعائر النصر . . . وأرعدت رعود النار من كل جهة
فأرسلوا عليها شتايب الرصاص وأطبق عليها ليل ديمجوجى من البارود وتبوا الرجل
مقاعدهم للقتال . . . وحى الوطيس وضجت الأرض من صواعق النار الموقدة . . . »
(٤١ — ٤٢) هكذا وأعم الأمن والاستقرار كل أطراف الإمبراطورية المغربية
الى كان المنصور قد أقام بها قواعد عسكرية « فنقف بهم الجهات وسد الثغور والمسالح »
(ص ٣٢) ، علاوة على تحصين العديد من المدن الشاطئية « أسفى وبلد أزمو . . .
ومدينة أصيلا وسائر الأطراف والثغور ٢٨١ والداخلية كمدينة فاس التى بنى بها قلعين
عظيمين مسلحين فمؤذ بهما أيده الله المدينة من كل طارق يطرق إلى غابر
الدهر » (٢٧٨) .

وأخيراً لقد اهتم المنصور بالأسطول واتخذ من الرباط — سلا والعرائش قواعد لقواته البحرية « ثم صرف همه أيده الله إلى إتخاذ الأسطول برباط سلا آمنه الله فتعددت مراكبه » . التي منها « القطائع والشواني » وقد كان الأسطول يعمل تحت إمرة قادة أكفاء مثل « الرايس شعبان فهو اليوم قبطان الأسطول » (ص ٣٠٣) كلفوا من قبل المنصور بالقيام بأعمال الجهاد في البحر « وهو اليوم أيده الله لهذا العهد بصدد الإكثار من الأساطيل رغبة في الجهاد والاستظهار على عدو الدين . . . حتى يبلغ أمل الإسلام في الجهاد ويفتح من أرض الأندلس أقصى البلاد . . . » (ص ٣٠٣) أما علم المنصور فهو « اللواء العظيم الأبيض الذي هو علامة على شعار الدولة المدعو باللواء المنصور » (ص ٢٠٠) .

٢ — المظهر الاقتصادي : يتضمن المخطوط معلومات اقتصادية هامة عن المغرب في عهد المنصور : فبما يتعلق بالزراعة نجد بأن المولى أحمد قد أقطع القبائل أراضي واسعة لزراعتها وأن هذه السياسة قد نجحت إلى حد بعيد « وأقطعهم ماشاء ومن البلاد فبنت بذلك أحوالهم » ص ٦١ علاوة على أن استقرار المهاجرين الأندلسيين قد أثر على إقتصاد البلاد وساعد كثيراً على ازدهارها ، « أقطعهم الدولة أراضي فسيحة بالجانب الغربي من خصها الأفيح فأغترسوا بها جنات معروشات وغير معروشات وحصلوا من استغلال ذلك إلى اليوم على ما أنساهم ذكر وطنهم واعتاضهم مما فاتهم به » (ص ٨) . ومن مظاهر تطور الزراعة في المغرب تشجيع زراعة قصب السكر التي أصبحت تشمل مناطق واسعة عدا سوس موطنها الأول « ثم انطلق العمل وعم الاقتراس بالقصب الأوطان » (ص ٢٨٠) .

وبعد فتح السودان وإلحاقها بالخلافة السعدية أخذ المنصور يفسكر في طرق استغلال الأراضي الحصبة الموجودة خاصة على ضفاف نهر النيجر « وهو أنه يمكن منه اقتطاع الخلعان والأنهار المغلفة الشعبة المذائب والجداول وأعلى البساتين مناسبة الأرقام خلال الأباطح والوهاد التي تغل وضروب المزارع وتنظم عليها الحدائق الغلب والبساتين ومفروش الشجر والثمار والأدواح الأشبه ملتفة الأغصان والرياض المرفوفة الجمائل . . فتعنى على واسطة الأقاليم زكاء نبت وكرم تربة وجوم أقوات

وحبوب وفواكه جنية وقطوفها دانية » (ص ١٣٠) وفملا فإن القائد الغربي « محمود باشا أخذ في إنشاء نهر اجتلبه من غمرة واقتطفه من تياره ويمكن ذلك من غير ما موضع منه ، وعن قريب إن شاء الله تقود تلك الأمصار تزدها على جلق وشط الفرات ويطير صيتها في الحصب قنير القاصي والداني من أقاليم السودان » (ص ١٣١) .

أما الصناعة فقد ازدهرت بدورها ونمت الحرف والصنائع وتعددت مجالات نشاطها . للمتطلبات الجديدة التي قرضتها ظروف المغرب الحديث ومن مظاهر ذلك :

— مصانع السكر : « ومن أعظم آثاره ... المعاصر السكرية التي ابتدع رسومها واخترعها ييلاد حاحة وشوهاوة من عمل مراکش » (ص ٢٧٩) . وبكل معصرة من هذه المعاصر « ما شئت من برك رحيبة قرجان كالجوارب وقذور راسيات ولوالب فلسفية وحركات هندسية » (ص ٢٨٠) . ويعمل بها العدد العظيم من العمال « وإذا ألقيت عصي التسيار بمعصرة منهما رأيت مجمع الوري وأول الحشر وقرية النمل وكورة النخل ومذرج الذر لكثرة ما ضمت في العملة ومشرت من الخلق ولا تسئل عن هولها ولقط الأصوات بها تدل على عظمة شأنها وضخامة أحوالها » (ص ٢٨١) . وعن سير العمل بكل معصرة نجد « ديار الطعن ... ومخازن السمر واهواء الحبوب والبرك ... تمتاز منها قدور الطبخ مياه السكر أو ان الطعن ثم إفراغ القدور الراسيات والجفان والجوابي ... ثم أجرى أيده الله لاستدارة رحاها العظيمة الأخشاب الجافية الإجمام النهر المقرووف باميف أنوال » (ص ٢٧٩) .

— معامل الأسلحة « وإما ما يفرغ مع الأيام من مدافع النار ومكاحلها بدار العدة المائلة قرب أبوابها الشريفة من قصبتهم المحروسة المذكورة بنزير الأكيار وزبر الحديد لفتح جهنم » (ص ٣٥٣) .

— دور صناعة السفن « ثم صرف همه أيده الله إلى إتخاذ الأسطول برباط سلا أمته الله فتعددت مراكبه » ص ٣٥٢ وعلا على الرباط وسلا هناك العرائش « ولما كمل بناء حصن الفتح الذي هد به أيده الله تعالى باب البحر ومتبوا السفين في مرسى الدرائش نقله إليه وأنزله به » (ص ٣٥٣) .

وهناك المصانع اليدوية للحرف المختلفة التي عدد الفشتالي عدداً منها مثل :
معامل الشموع » ويكلف على خدمة رياض الشموع التي تجلوا محاسن هذه الدعوة
الجهابذة الذين يبارون النحل في نسج أشكالها لطفاً وإدماجاً » (ص ٨٨٢) ،
والحسك » واستحضر من أنواع الحسك أمام الحضرة كل قوراء مصنوعة من النشب
 وآلة البخور » ومثلت أمام الحضرة الأمامية لوقود العنبر آلة ضخمة الشكل فضية
الصوغ بديعة النقش » ص ٨٨٣ والتجارة » جمع لها أيدي العملة في صناعات التجارة »
(ص ٧٢) .

وشمل الازدهار عالم التجارة أيضاً لوجود العوامل المساعدة من أمن واستقرار
داخلي ، ولاتساع الامبراطورية المغربية واختلاف أقاليمها ثم للروابط الحسنة التي
كانت للمغرب مع الدول المجاورة ، وخاصة دول أوروبا الغربية الناهضة . وهكذا
» استفعات الدولة اليوم لهذه الكريمة وتفرقت التجارة وتضاعف خراج العائد »
(ص ١١٤) كما تطورت طرق المواصلات ووسائل الاتصال بين مختلف المدن
والبوادي ، وأكثر ما كان المسافرين يعتمدون على « الأبل إذهي ملاك السفر
البعيد ومركز إمداره » (ص ٧) . وعلى العربات » وأعمل في نقلها العجل »
(ص ٧٣) ويركبون السفن في البحر . أما المولى أحمد المنصور فقد كان يستعمل
في أسفاره » افراك وهو القصر الممد لنازلهم أيدهم الله بمحلاتهم السعيدة ذو السياج
المحيط بالحمام والقباب من كتان مترف » (ص ١٤٥) و « السياج وهو قصر اتخذته
مولانا الإمام ... من الحشب المولف ذات الألواح بعمل عجيب حموه فيرتل به في
الأسفار القريبة » (ص ١٧٤) . ومن الأمثلة التي ساقها الفشتالي عن طرق
المواصلات : الطريق الواصل بين مراكش وفاس والماربوادي السد وقلمة السكرار
وتادلا وأم الربيع وأبو الحائر وعين أغبال ثم مكناسة ورأس المال فمدينة فاس .
كما جاء في وصفه للسفر الذي قام به المنصور إلى فاس (ص ١٠٧) .

وعن العملة المتداولة في المغرب زمن المنصور هناك : الذهب العين » وما زال
يبيع منها في كل عام بألاف من الذهب العين » (ص ٥٠١) ، « ... كانت نهايته
ستين الفاً من الذهب العين » (ص ١٠) .

والدينار » فانها لوا عليه بين يدي الإمام بشتاييب الدينار » (ص ٥٦) .

والدرهم « فكان يتمشى له في كل شهر من لدى مقدمة إلى حين منصرفه تسعة درهم » (ص ٥١٠) .

وخلاصة القول : لقد ازدهرت أوجه النشاط الاقتصادي بالمغرب ازدهاراً عظيماً دفع الفشتالي إلى القول بأن دولة المنصور قد « أثرت المديم وأكسبت المحروم » (ص ١٢٦) فلا غرو إذا لقب لأجل ذلك « بالمنصور الذهبي » .

٣ — المظهر الاجتماعي : إهتم الفشتالي في « مخطوطه » بإبراز صور مختلفة عن الحياة الاجتماعية بالمغرب في عهد المولى أحمد المنصور ، فقد وصف طبقات المجتمع ولا سيما حاشية المنصور ، وأثبت العديد من العادات والتقاليد الاجتماعية ، كما وصف مآثر المنصور العمرانية كقصر البديع بوجه خاص .

أما المجتمع فقد كان يتكون من « شرفاء وقضاة وقهفاء وكتاب وشعراء وقراء وخطباء وأجناد ورؤساء وأشباه نبهاء وعمال » (ص ٢٦٣) . والطبقات التي أشار إليها المخطوط :

— « الفقراء أرباب الذكر على رسم الصوفية المؤذنين النعارين في السمر واذان » (ص ٢٨٢) .

— « طائفة الصحافين المحترفين بحمل خدور العرائس عند الزفاف » (ص ٢٨٢) .

— طبقة « أهل الآلة والغناء » (ص ٣٠٠) .

وأما العادات والتقاليد فهناك :

— الاحتفال بيوم عاشوراء حيث يقيم المنصور حفلاً « لختان ذرية ضمفاء من مساكين الحضرة وأحوازا وذوى الحاجة من أهلها » (ص ٣٠٠) .

— ولع المغاربة باللباس الأبيض « ثم يقتمد أريكة قبه وسرير ملكه وعليه خلع البياض شعار الدولة السكرية » (ص ٢٨٢) . واستعمال الطيب (ولم يزل في خلال دولة الإنشاد يختلف الظرفاء من الخدام على الناس لاختزال الملابس بماء النعيم المصمد من نسير الورد والأزهار الأرحية يسكب عليهم رشها بطاقات الرياحين والآس سكبا غدا في الحبور والأردان » (ص ٢٩٩) . والبخور « مثلت أمام الحضرة

الأمامية لوقود العنبر آلة ضخمة الشكل « (ص ٢٨٣) . واعتناؤهم بالطعام والشراب « ثم تنهل على الحفل عارض النعمة من أبواب القصور السكرية ويخص بالجفان والأخونة والصحون والطيافير الرحية الأقطار جامعة لألحم المسارح وأنواع الطير دواجن البيادن . . فلا تستل عن التفنن في الطابيح والتوبيع في المآكل والإرضاخ في النعمة . . . ويشرح مجمل الإرضاخ بانسكاب الخلاوى المتنوعة والمريات المتفتنة « (ص ٣٠٠) .

ومن المعادات أيضاً الخروج إلى الصيد (ص ١٠٧) وقذف طلقات المدافع في الصيدين وعند ورود البشارة « وإذا استهلّت رعوها في العيدين عند العود من الصلى أو لورود بشارة عظمى « (ص ٢٧٨) وإقامة الإستعراضات « انتظم عالم من النظارة في صحاطين بما في الطريق . . . قد جملوا جنبى الطريق وركبوا الأسوار والأسطاح وبرزت ربات الحجال من أعلى المنازه والصروح « (ص ٢٨٢) .

وهناك عادات تقام في مناسبات دينية : عند التوجه إلى بيت الله الحرام لأداء مناسك الحج (ص ١٢٧) ، وخلال شهر رمضان المبارك (١٧٢) وبمناسبة ذكرى عيد المولد النبوى حيث توجه « الرقاع إلى الفقراء أرباب الذكر على رسم الصوفية من المؤذنين . . . فيهون للدعوة من الأماكن النائية ويعكف على خدمة رياض الشموع التي تجلو محاسن هذه الدعوة الجهابذة الذين يبارون النعل في نسج أشكلها . . . حتى إذا كان ليلة عيد الميلاد الكريم . . . وحضر وقت زفاف العذارى من رياض الشموع إلى الأبواب العلية الشريفة وحضرت الآلة الملوكية . . . انتظم عالم من النظارة صحاطين بمخافى الطريق . . . وبرزت جذوع الشموع كالعذارى . . . فارفعت أصوات الآلة وقرعت الطبول وضع الناس بالتهليل والتكبير والصلاة على النبي الكريم . . . فإذا حضرت صلاة الفجر برز مولانا أمير المؤمنين أيده الله فيصل بالناس ثم يقتعد أريكة قبه . . . وتسائل الناس من البلد على طبقاتهم . . . تقدم أهل الذكر والإنشاد . . . ثم حضرت دولة إنشاد الشعراء . . . ولم يزل في خلال دولة الإنشاد الظرفاء من الخدام على الناس لإخضال الملابس بماء النعيم . . . ثم تنهل على الحفل عارضة النعمة . . . ويشرح مجمل الإرضاخ بانسكاب الخلاوى المتنوعة . . . ثم يختم بالشكر والدعاء . . . « (ص ٣٠٠) .

وأخيراً هناك مناحيه العمرانية في عهد المنصور وقد تميزت بقصر البديع الذي « طابق الاسم المسمى لاحتوائه على كل نوع من أنواع البدائع وغرائب المعجائب » (ص ٢٩٧) .

٤ - **المظهر الفكري** : لقد وقف الفشتالى طويلاً عند تعرضه للمناحية الثقافية بالمغرب زمن المولى أحمد المنصور ، حيث برز مختلف النشاطات الفكرية واهتم بصورة خاصة بالمنصور العالم الأديب الشاعر العبقري والمؤلف ، ثم محاشيته التي ضمت العديد من رجال العلم والأدب ، ولا غرابة في ذلك فهو العالم الأديب وأحد أعلام الفكر البارزين في حاشية المنصور ، وعلمه كثيراً أن يبرز قيمة هذه الطبقة العلمية لإظهار مكانتها ، ولأن في التعويه بها تنويهاً بالمولى أحمد المنصور الذي جمع إلى جانب صفات القائد السياسي الحازم ، مزايا المسلم العادل النزاهة ، ورغم أن اهتمام الفشتالى انحصر في الخليفة المنصور ودائرته الخاصة ، كما هو الشأن في جميع المظاهر السياسية والمهضارية التي تعرض لها ، فإن الباحث يستخرج الكثير من المعلومات المتعلقة بالمناحية الفكرية والنشاط الثقافي :

فطالب العلم يلقن أولاً مبادئ القراءة والكتابة ثم يشرع في حفظ كتاب الله العظيم ، وبعد آن ، يأخذ في دراسة مختصر خليل ، الرسالة ، مقدمة ابن آجرم ، ألفية ابن مالك ، لامية الأفعال ، علم الحساب ، علم العربية ، الألفية ، أصول الدين ، كبرى السنوسى ، حاشية الصغرى ، حاشية الكبرى ، شرح ابن زكريا ، الكبير والصغير ، ايساغوجى والشمسية في المنطق ، علم المروض ، تلخيص المفتاح والإيضاح ، الكتب الخمس ، الحديث ، الفقه للمالكى ... (ص ٢١٩ وما يليها) .

وبعد الدراسة والتحصيل تسلم لطالب العلم إجازة خاصة « وقرأت عليه أوائل الكتب الخمس بل البخارى والترمذى ومسلم وأجازنى فيها وفى باقى الكتب الخمس بسند متصل مذكور فى فهرسته التى كتب برسمى وأجازنى فيها بكل ما له من مقروء ومسموع رحمه الله » (ص ٢٢٠) .

وعن الجوى العلمى : نلاحظ حلقات العلم التى تعقد خاصة خلال شهر رمضان المعظم « ومنها قيسام رمضان وإحياء لياليه الباركة ... يلتقى لذلك مشيخة القراء

والأسانيد البرزين في السبع وحسن الأداء والتلاوة ويستغفرهم لشهود رمضان معه في الحواضر... ثم يبرز صباح كل يوم من أيامه لسماع الحديث الكريم أيضاً وسرد الجامع الصحيح للبخارى بين يديه يعقد لذلك مجلساً حافلاً من أهل العلم ومشيعته برسم الذاكرة والتفهم في أسرار الأحاديث النبوية ويحضر لذلك من كتب الفن بقصد الرجوع إليها فيما أشكل » (ص ١٧٢) ، وتشجيع المنصور للعلم والعلماء وطلبة العلم : فالعلماء يؤثروهم المنصور « بالموكلة معه في مائدته منى عن حضور بعضهم أو جميعهم في الحضر والسفر ويتاحفهم بهداياه وطرقة إلى منازلهم وأبياتهم وكل ذلك إجلالاً للعلم ومحبة في أهل الخير وتودد لأهل الدين » (ص ١٨٦) . وكذا طلبة العلم « وإقباله على كل صنف منهم وتضعيف الجرايات لهم وإيثار الجهد ودوى الفهم منهم بمزيد العناية والإقبال فناية أشرفت على جميع العلم أنوارها وعمت كافتهم جدتها » (١٨٦) . ونتيجة لذلك « تنافس الناس لهذا العهد الكريم من أجل ذلك في اقتناء العلم والاحتراف بصناعته الشريفة لاعتزاز أهله وسعة أرزاقهم حتى كثير حاملوه واستبعر جهابذته فتعددت المشايخ وكثر التلميذ ونبغ التأليف والتصنيف . . وكل ذلك بمناية أمير المؤمنين أيده الله وشريف همته وصالح نيته » (ص ١٨٦) .

ومن مظاهر تشجيع المنصور للعلم : حثه العلماء على التأليف « وشهد أمير المؤمنين أيده الله الهمم وأغرى بكل فن أهله وجذب بضيع كل فهامة فتنافس الناس ونبغ التأليف في أيامه السعيدة » (ص ٢٦١) وقد كان المنصور من الذين ألفوا تأليف عديدة « تسامت همته الشريفة أيده الله إلى تدوين كتاب في علم السياسة . . . وسمى أيده الله تعالى هذا التأليف الشريف بكتاب العارف في كل ما محتاج إليه الخلائف » (ص ٢٥٨) . وسميه إلى إحياء المخطوطات العلمية الهامة بأن يأمر بنسخ النسخ العديدة منها وتوزيعها لتعميم الفائدة « ومات الشيخ رحمه الله وتركه متبذراً في مسودته بين أوراق خزائنه ولم يبرزه للناس فتلافى مولانا الإمام أمير المؤمنين أيده الله أمره وبحث عنه فرفقه إلى مقامه العلى أولياء الشيخ مبسدة الشمل فتوجهت إليه العناية الكريمة فانتظم جمعه وترتبت فلالته وكتب الله مولانا . . . مشوبة استخراجها من ليف الإهمال وإفادته من لهوات التلف » (ص ٢٦٢) .

على أن شهرة المنصور العلمية جعلت بلاطه مقصد الكثير من رجال العلم والأدب
 المتاربة والمشاركة على السواء « قد ارتحلت إليها الشعراء من الأقطار القاصية والآفاق
 الشاسعة وضربوا إلى بابه أكباد الإبل » (ص ٢١٠) حيث وجدوا منه حسن
 الضيافة والاستقبال « وأما صلاته الجزيلة أيده الله تعالى وهباته الجسيمة الجليلة
 للشعراء ومن يفد على حضرته العلية من وفود الأعيان والعلماء وذوى الحاجات
 المتألين على بابه من كل قطر وفي كل وقت فأجل من أن يحصى » (ص ٢٠٣) .
 وأما كبار العلماء المشاركة خاصة الذين لم تساعدهم ظروفهم المختلفة على التوجه نحو
 الغرب ، فقد أرسلوا إليه مؤلفاتهم وأجازوه البعض منهم كتابة « ومن المشايخ الأعلام
 الذين أجازوه أيده الله كتابة ومراسلة من الشرق إلى الغرب الشيخ الإمام ...
 رئيس أئمة العلم بالديار المصرية ... حجة الإسلام ... أبو عبد الله محمد بن أبي الحسن
 البكرى الصديقي » (ص ٢٢٢) « وعن أجازته أيده الله كتابة ورسالة الشيخ الإمام ...
 غفر العلماء الجلة قاضى القضاة المالكية بالديار المصرية ... الشيخ بدر الدين القرافي »
 (ص ٣٢٦) . وقد أثبت الفشتالى نص المراسلتين اللتين أجاز بهما المنصور . وهما
 من الوثائق التاريخية الهامة التى تضمنها المخطوط إذ يندر وجودهما بمؤلف آخر ،
 ثم إنهما قد تضمنتا دراسة شاملة للنشاط الفكرى والعلوم الدينية بصفة خاصة فى مصر
 والشرق الإسلامى خلال أواخر القرن العاشر للهجرة الموافق لأواخر السادس عشر
 للميلاد ، وعلى سبيل المثال ذكر الشيخ القرافي فى إجازته « ورتبت هذا المطلوب على
 فصلين وخاتمة الأول فى الإجازة بسورة الفاتحة ثم بسند الحديث الشريف وأزهاره
 الفاتحة ، الثانى فى الوصول إلى إمامنا إمام داراً للهجرة وسلسلة فقه الشريف
 والخاتمة فى الإجازة وذكر مولدى ومايسر الله تعالى لى من التأليف وأنتم به من
 فضله المنيف) ص ٢٢٩ وأخيراً ولأخذ صورة واضحة عن ازدهار عهد المنصور من
 الناحية العلمية ، يفصل الفشتالى القول عن خزانة المنصور « وقد اشتملت الخزانة
 الكريمة العلية الإمامية الشريفة اليوم على عدد جم من تصانيف أهل المصر فى كل
 فن حق فى الطب والهندسة » (ص ٢٦١) . وأهم التأليف العلمية والدينية التى
 تضمنتها مثل : مؤلفات العالم أبى عبد الله محمد بن أبى عبد الله الرجراجى الذى جمع
 بين « تصيدى الإمامين البسبلى والسلوى عن شيخهما صدر الأئمة ... أبى عبد الله

ابن عرفة « (ص ٢٦١) ، ومؤلفات « شيخ الجماعة أبي العباس أحمد بن علي المنجور على رجز ابن زكريا في علم الكلام » (ص ٢٦٢) ، ومؤلفات « الشيخ الإمام الأوحى الفذ الفريد أستاذ المغرب في وقته في علوم القراءات وسيدويه زمانه في العربية والنحو الشيخ أبي العباس أحمد القدومي » (ص ٢٦٣) ، وتألف « الفاضل العلامة . . الرحالة الحاج أبي جمعة سعيد بن مسعود الأاغوسي التي منها شرح لأمية المعجم أملاء بالبلاد الشرقية ورفعه إلى حضرة مولانا الإمام أيده الله وقد وصمه بإسمه الشريف وعليه تقریطات علماء مصر وفضلائها وبعض علماء الشام » (ص ٢٦٣) ثم « ديوان الشريف الفاضل السري محمد بن أبي الفضل المكي . . وهو الذي جمع فيه مدائحه في مولانا الإمام » (ص ٢٦٩) ، وبما تضمنته خزانة المنصور « الكشف في علم التفسير وحواشيه للطبي وسعد الدين والسيد والفارسي وابن خليل السكوني والعلامة ابن البناء وتفسير البيضاوي وحواشيه للشبغ زكرياء والحافظ الأسيوطي . . وكتاب الرضاع على رأي المغني ومراقى المجد إلى رأي السعد من تأليف العلامة . . أبي العباس أحمد المنجور . . ومعنى اللبيب في العربية وحاشية الشعموني عليه وشرح ابن الدماميني وحاشيته . . والإرشادات لإمام الحرمين في علم الكلام . . والمعامل الدنيئة للفخر . . وشامل ابن عرفة الذي حاذى به طوابع البيضاوي والصعاف وشرحها للسمرقندي والمقاصد وشرحها لسعد الدين التفتازاني والمواقف لعبد الله والدين وشرحها للسيد الجرجاني وحاشية حسن جلبي على شرح السيد والأربعين للإمام الفخري والقطب في علم المنطق على الشمسية . . ومنطق الشفلايني على بن سينا . . وكافية ابن الحاجب . . وشرح ابن الدماميني على تسهيل ابن مالك . . » (ص ٢٢٢)

ويضاف إلى هؤلاء الأديب العالم أبو فارس عبد العزيز الفشتالي في تأليفه القيم « مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا » . ورغم أن الأيام قد ألفت القسم الأعظم منه . . وقد تجود به يوماً ما . . فان ما بين أيدينا يؤكد مدى اتساع أفق المؤلف وغزارة علمه وبراعة شاعريته .

* * *

وفي الختام ، لقد نقل عن مناهل الفشتالي مؤرخون عديدون أبرزهم : الأفراني

obeikandi.com

نقد الكتب

obeikandi.com

— Dr. Abdul-Karim Rafeq

إسم المؤلف

— The Province of Damascus 1723-1783 : عنوان الكتاب :
Khayats, Beirut, 1966.

عرض وتعليق : د. عبد العزيز نوار

حصل الدكتور عبد الكريم رافق على درجة الدكتوراه من مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية بجامعة لندن ، وكان موضوع رسالته هو هذا الكتاب الذى نحن بصدد استعراضه ، ويعتبر تاريخ آل العظم جوهر هذا الكتاب حيث عقد لهم حوالى خمسة من فصول كتابه السبعة . أما الفصل الأول فمباراة عن عرض للعوامل الأساسية التى كانت لها التأثير الكبير فى تاريخ دمشق خلال الفترة بين ١٧٢٣ - ١٧٨٣ ، وعن بشكل واضح بالإدارة العثمانية والحج الشامى .

وقد اعتمد فى دراسته هذه على المخطوطات والمؤلفات العربية المعاصرة للملك الفترة ، وعلى مكاتبات الفناصل الفرنسيين ، وعلى وثائق شركة الليفات الانجليزية ، إلى جانب هذا المراجع الأوربية التى تهتم موضوعه . ولكنه — مثل غيره من المؤرخين الشبان العرب — لم يقع على كنز ملء بالمادة العلمية المتعلقة بتاريخ الوطن العربى خلال العهد العثمانى ، وأعنى بذلك الوثائق المحفوظة فى تركيا .

وللفرد الثامن عشر أهمية خاصة فى تاريخ العرب الحديث ، فمن الممكن أن نطلق عليه « قرن الحركة » ، فالحكام العثمانيون قد بدأوا يستشعرون الحاجة إلى إدخال إصلاحات جديدة على الدولة العثمانية ، وظهرت فى نصفه الثانى الإراhasات الأولى للحركة الوهابية كما ظهرت عصبيات محلية حاكمة على حساب الحكم المركزى (العثمانى) فى معظم ولايات الدولة العثمانية ، ومن ذلك آل العظم فى دمشق ، وظاهر العمر فى فلسطين وآل شهاب فى جبل لبنان ، والماليك فى مصر .. الخ . وكان تدهور القوة العسكرية العثمانية عاملاً رئيسياً فى استبداد هذه العصبيات بالحكم .

ومن يراجع تاريخ آل العظم فى كتاب الدكتور رافق يجد بسهولة أن حكم آل العظم لم يؤد إلى تغيير جوهرى فى الشام . فلقد استمر الجمود الذى سيطر على الولايات العربية منذ القرن السادس عشر ، والإصلاحات التى قام بها آل العظم كانت فى غالبيتها هامشية وتمت فى إطار محدود هو ولاية دمشق مع أن ولايات طرابلس

وصيда كانت كثيراً ما تصبح — إلى جانب ولاية دمشق — تحت حكم آل العظم في آن واحد خلال الفترة سالفه الذكر . ومن ناحية أخرى لم يتطلع آل العظم إلى ما وراء الشام شرق (العراق) ولا إلى مصر جنوباً . وهذا يرجع إلى أن ولاية الشام كانت طوال تاريخها العثماني عاجزة عن أن تعيد وحدة الشام تحت حكمها ، حيث كان في الشام من يقف بقوة في وجه آل العظم مثل آل شهاب وظاهر العمر وأحمد باشا الجزار الذي استطاع أن يحول دمشق — عاصمة الشام — نفسها إلى تابعة لصيدا . وهذا ما لم يحدث لبغداد أو للقاهرة . بل لقد كانت لدى حكومة المماليك في القاهرة القدرة على التطلع بقوة إلى وضع الشام والحجاز تحت سيطرتها ، ولقد قام على بك الكبير بهذا الدور ، وكذلك من بعده محمد بك أبي الذهب .

ويربط د . رافق بين غزواتي على بك الكبير ومحمد أبي الذهب بسقوط آل العظم وتدهور مكانة دمشق . وفي اعتقادنا أن التطورات والأحداث الاقتصادية والسياسية الدولية والإقليمية هي صاحبة الأثر الأكبر في هذا التدهور . ولقد أشار إليها الدكتور رافق بإشارات سريعة ، وأهم هذه التطورات والأحداث .

١ — الحرب الفارسية العثمانية وأثرها على تدهور التجارة الشامية العراقية .

٢ — تزايد نشاط شركة الهند الشرقية البريطانية وأثره على تحويل تيار التجارة الانجليزية إلى السويس بدلا من الاسكندرية وحلب .

٣ — التنافس بين الانجليز والفرنسيين في المجالات العسكرية والاقتصادية في حوض البحر المتوسط .

٤ — قطع العثمانيين العربية لخطوط القوافل بين العراق والشام .

وفي اعتقادنا أن هذه التطورات والأحداث الاقتصادية تحتاج إلى دراسات أوسع ولقد توقعت أن يتضمن كتاب الدكتور رافق مثل هذه الدراسات حيث أن عنوان كتابه يوحى بأنه دراسة شاملة لولاية دمشق خلال الفترة بين ١٧٢٣ - ١٧٨٣ . يكون فيها التاريخ على قدم المساواة مع الاقتصاد والأوضاع الاجتماعية وإننا في الواقع لننتظر مثل هذه الدراسة من الدكتور رافق .

وهناك سؤال غالباً ما يقفز إلى الفذهن عقب قراءة كتاب قيم في تاريخ العرب الحديث خلال القرن الثامن عشر ، أو التاسع عشر ، وهو :

« من المستول عن التدهور والجحود الذى أدى إلى تخلف البلاد العربية حتى ما أصابها من استعمار وسيطرة أوربية ؟ » .

ولعل إجابة هذا السؤال كانت جديرة بأن تكون خاتمة لهذا الكتاب ، وهى نفس الوقت تكون بمثابة تقييم لحكم آل العظم حقيقة عن د . رافق فى الصفحات الأخيرة من الفصل السابع بإبراز مظاهر التدهور الذى أصاب دمشق ، كما أشار د . رافق فى صفحات متفرقة من كتابه إلى ما قدمه من خير وشر للبلاد ، ولسكتنا بفضل أن تكون لمثل هذا الكتاب القيم خاتمة أوسع تبلور تلك الأمور .

وفى دراسته لتاريخ آل العظم ، أشار د . رافق فى غير موضع إلى إحتكار عدد منهم لبعض أنواع التجارة والإنتاج ، وأنهم كانوا يعملون على إرضاء أهل المدن على حساب أهل الأرياف . وهذه نواحي جديدة فى هذه الدراسة فضلا عن التفصيلات الوافية لتاريخ ولاية دمشق خلال الفترة بين ١٧٢٣ - ١٧٨٣ .

ويمتاز كتاب د . رافق هذا بسبك تاريخى وتسلسل بحث المطالع — للمضى بتلك الموضوعات — على متابعة قراءته .

وللدكتور رافق كتاب آخر هو « بلاد الشام ومصر من الفتح العثمانى إلى حملة نابليون بونابرت ١٥١٦-١٧٩٨ » . وقد طبع فى دمشق ١٩٦٧ ، وهو دراسة للتطورات السياسية التى مرت بالقطرين خلال تلك الفترة ، وعلى وجه الخصوص الظروف التى أدت إلى التوسع العثمانى فى الشام ومصر والحكم العثمانى فيهما ، وكيف بدأ ولماذا تدهور وظهور العصبية المحلية فى الشام ومصر ، والصراع بين القوى الداخلية العسكرية التى حلت محل انكشارية الدولة فى كل من دمشق والقاهرة وفى دمشق كان هناك صراع مرير بين القبوقول (انكشارية الدولة) والبرلية (القوات المحلية) ، وكانت هناك اتجاهات قوية لدى أهل دمشق لإبعاد القوات غير الشامية عن مدينتهم ، وكانوا يسمونهم (الأغراب) ، وكان هؤلاء الأغراب أحيانا من الموصل ، ومن بغداد ومن الماربة . هذا كله إلى جانب الصراع المعروف بين العصبية المحلية نفسها فى الشام (آل العظم / ظاهر العمر / آل معن وخلفاؤهم آل شهاب / وأحمد الجزار) .

وعنى د . رافق فى كتابه بإبراز حقيقة هامة وهى أن التغييرات التى كانت تحدث فى المناصب العليا فى الآستانة كانت ذات تأثير كبير فى عزل الوالى أو الإبقاء عليه ، وهذا أمر ملاحظ أيضاً فى غير ولاية دمشق ، فى بغداد ، وفى القاهرة .

وأغلب الظن أن د . رافق كان يحاول فى كتابه الأخير أن يكشف عن توازى التاريخ الشامى مع التاريخ المصرى فى إطار الدولة العثمانية حتى جاءت ثورة طى بك الكبير التى خلقت اتجاهات جديدة محدودة بالمنطقة ثم جاءت الحملة الفرنسية لتخلق اتجاهات عالية فى المنطقة .

ولدينا بعض الملاحظات الخفيفة على المصادر والمراجع التى اعتمد عليها د رافق فى كتابه سالف الذكر . فما لا شك فيه أنه اعتمد على المصادر الرئيسية فيما يتعلق بتاريخ الشام ولكنه بالنسبة لتاريخ مصر فى الفترة سالفة الذكر لم يكن على نفس المستوى خاصة فيما يتعلق بالوثائق الفرنسية والانجليزية .

ثم هل لا يدري الدكتور رافق أن د . محمد رفعت رمضان أصدر كتاباً فى « ثورة على بك الكبير » هو رسالته للماجستير ، وأن د . حسن عثمان حصل كذلك على الماجستير فى ١٩٣٤ برسالة عنوانها « نغز الدين المعنى الثانى » وأن د . محمد أنيس أصدر دراسة بالإنجليزية عن مصر وقناة السويس فى أواخر القرن الثامن عشر ؟ ولقد كان هؤلاء المؤرخون أول من فتح مجالات الدراسات الأكاديمية فى تاريخ الشام واعتقد أن مؤلفاتهم جديرة بأن تقرأ فهى ليست بأقل قيمة من مقالة لىنى جورجى عن ظاهر العمر فى مجلة المقتطف أو من مقالة هولت عن على بك الكبير فى مجلة History today . وبالإضافة إلى هذا نلاحظ أن أسلوبه فى نقد مخطوطة « حوادث دمشق اليومية » للبديرى التى نشرها د . أحمد عزت عبد الكريم ينم عن شهة زائدة ، مع أنه أفاد من مقدمة د أحمد عزت عبد الكريم وأن ما اقتبسه من نسخ أخرى لمخطوطة البديرى لا يختلف عما هو فى المخطوطة التى نشرها د أحمد عزت عبد الكريم . إن محصلة كل هذا هو أنه لو اقترب الجيل الجديد من المؤرخين الشباب بأساتذتهم من رواد التاريخ العربى الحديث من أمثال د نور الدين حاطوم ود أسد رستم ود . أحمد عزت عبد الكريم لربما تشكلت مدرسة عريقة عربية للتاريخ الحديث .

Roderic H. Davidson

المؤلف

Reform in the Ottoman Empire, 1856-1876,
Princeton, 1963.

الكتاب

عرض وتعليق د. عبد العزيز نوار

لقد صدرت مئات الكتب عن الدولة العثمانية ، ولكن قلة من هذه الكتب تمرض لمشاكلها الداخلية وللخطوات التي اتبعت لإقاذها من التدهور في القرن التاسع عشر . وكان كتاب إنجلهاردت :

E. Engelhardt : La Turquie et le Tanzimat, 2 tomes, Paris, 1882-1884.

من أهم المؤلفات التي يعتمد عليها في دراسة فترة التنظيمات العثمانية التي اصطلح بأنها تبدأ منذ ظهور خط كلخانة ١٨٣٩ حتى صدور دستور مديت ١٨٧٦ . ولكن رودريك دافيدسون يركز على التنظيمات منذ ١٨٥٦ ، وهي السنة التي صدر فيها الخط المهايوني والحق أن خط كلخانة ظل لفترة طويلة جبراً على ورق دون تنفيذ الأهداف الرئيسية التي رمى إليها ، وإن كان هذا لا ينفي أن خطوات إصلاحية هامة قد نفذت بين ١٨٣٩ و ١٨٥٦ إلا أن الخط المهايوني في الحقيقة يمتاز بأنه وضع للبادئ الهامة الخاصة بالمساواة بين الرعية موضع التنفيذ .

وقد تمرض المؤلف في الفصل الأول لأسباب تدهور الدولة العثمانية ، وكان يؤكد أن فكرة الإصلاح لدى الأتراك ليست نتيجة للضغط الأوربي وحده ، وإنما كانت لشعورهم بالحاجة إلى الإصلاح حتى جاءت الحملة الفرنسية وتوالى الضغط الفكري الاقتصادي والسياسي فشطت حركة الإصلاح . حقيقة ذهب السلطان سليم ضحية معارضة الإنكشارية الرجعية لمحاولاته لتجديد الجيش على الأسس الأوربية الحديثة (١٨٠٧) . فكنت فكرة الإصلاح فترة لتنفجر بقوة عندما قضى محمود الثاني على الانكشارية في ١٨٢٦ ليبدأ سلسلة من الإصلاحات العسكرية والإدارية الهامة . ثم وقع الصدام الكبير بين محمود الثاني ووالى مصر « محمد على » . ومات محمود ، قبل أن يعرف أن جيشه قد نكب بقوة في معركة نيزب (١٨٣٩) ليأتي بعده السلطان عبد المجيد الذي وقع خط كلخانة في نفس السنة وهو نفسه الذي أصدر الخط المهايوني (١٨٥٦) .

وفي الفصل الثاني حلل المؤلف هذا الخط الهمايوني وكشف كذلك عن ممارضى هذا الخط الذى أعطى المساواة بين المسلمين والمسيحيين ، وجميع الأفراد فى الدولة أمام القانون وبين أن هذه الممارسة لم تكن صادرة عن المسلمين فقط بل كانت هناك قوى مسيحية تعارض الخط الهمايوني بشدة ، وخاصة الزعامات الإقطاعية البلقانية المسيحية . فالبلغار أرادوا الإفادة من الخط الهمايوني للتخلص من سيطرة رجال الدين اليونانيين ، وخشى هذا الأكلروس اليونانى من أن يفقد سيطرته على الأرثوذكس كافة حيث أن تطبيق القوانين المدنية يرفع يدهم عن الرعية ويحمل الفرد الأرثوذكسى مسئولاً بواجباته وحقوقه أمام الدولة ومؤسساتها وليس أمام رجال الدين الأرثوذكس ، كذلك كرهوا هذا الخط الهمايوني لأنه وضمهم على قدم المساواة مع اليهود الذين كانوا أقل منهم مركزاً .

فهل كان من اليسير تطبيق هذا البرنامج الواسع للإصلاح الإدارى والعسكرى والاقتصادى فى الدولة العثمانية المترامية الأطراف ، والمتعددة الأجناس واللغات ، والأديان ؟

لقد كانت المهمة شاقة وقاسية ، تولاهها على باشا وفؤاد باشا . وهما اللذان أعطيا للخط الهمايوني قيمة وأهمية كبرى . وعملاً على تنفيذه مركزين السلطات بين أيديهم من أجل ذلك . فقدموا الكثير من حيث إصدار قوانين تنظيمية عديدة وخطط للإصلاح الإدارى فى مركز الدولة والولايات على الأسس الحديثة ، كما واجهوا الكثير من العقبات .

ومن أشد العقبات التى واجهتهما أن كل طائفة أو ملة فسرت الخط الهمايوني بما يروق لها ويخدم مصالحها حتى ولو كان ذلك على حساب الدولة العثمانية التى وضعت الخط من أجل تقوية تماسكها وتجديدها . فلقد رفض المسيحيون مشاركة المسلمين أعباء الانخراط فى التجنيد أو المساهمة الفعلية فى ضريبة الدم المفروضة على كل رعية ومواطن ، ومن ناحية أخرى كان المسلمون يكرهون حينذاك أن يعملوا تحت قيادة ضباط مسيحيين . فضلاً عن هذا وذاك ظهرت معارضة شديدة من جانب الشعب للاقتباس من الغرب خوفاً من أن يكون ذلك مقدمة لانهايار الكيان الإسلامى للدولة العثمانية .

فكان طبيعياً أن يكون إصلاح أحوال الملل غير الإسلامية من أهم الموضوعات التي عنى بها المصلحون العثمانيون حتى يكسبوا تأييد الدول الأوروبية ويعنمو القوميات المسيحية من الإنفصال عن الدولة ، وكان هذا هدف رئيسي من أهداف التنظيمات العثمانية .

وقد عقد المؤلف فصلاً خاصاً عن إعادة تنظيم الملل ، وقد كانت كل مرحلة في الدولة العثمانية تتبع نظاماً وقوانين خاصة بها . وكان اليونان الأرمن من أكثر الملل تأثراً بهذه الحركة الإصلاحية في إطار الدولة العثمانية فقد صدرت لائحة الأرمن في ١٨٦٣ تلك اللائحة التي مهدت لظهور جمعية وطنية وحكومية لهم .

وبينما كانت الإصلاحات والتنظيمات تسير بخطى سريعة بين الأرمن كانت بطيئة بالنسبة لليونانيين حيث عارض البطريرك اليوناني طغيان العلمانيين اليونانيين على مشمولاته الدينية والسياسية وأدت هذه المعارضة إلى عدم ظهور جمعية وطنية لدى اليونانيين وإعما ظهرت هيئة لانتخاب البطريرك فقط .

كذلك حدث بين اليهود تطورات مشابهة لتلك التي حدثت لدى اليونانيين . فقد حصل اليهود على لائحة لهم في ١٨٦٥ بفضل فؤاد باشا رغم ما كان بين الأترياء العلمانيين اليهود في استانبول ، والربانيين الرجعيين من أزمات . وكان صدور هذه اللائحة انتصاراً للعلمانيين ، إلا أن التنازعات بين الطرفين منعت من تطبيق اللائحة على أحسن وجه .

ولكن كان احتكار عالي باشا للحكم والإصلاح سبباً في ظهور قوة جديدة معارضة له مؤلفة من المثقفين الجدد الأتراك الذين كانوا يريدون المشاركة في حركة الإصلاح . وظهرت خلال هذا اتجاهات شخصية وجهت حركة المعارضة ضد عالي باشا . فقد كان مصطفى فاضل باشا . الذي التف حوله هؤلاء المثقفون الجدد — يريد حكم مصر بإمام الخديوي إسماعيل عنه ، ولما نفى مصطفى فاضل بسبب نقده للتواصل للحكومة التف حوله في باريس عدد قوى من الأعوان شنو حملات شعواء ضد عالي باشا وفؤاد باشا ولكنها لم تستطع أن تقوضهما .

وسار عالي باشا وفؤاد باشا ومعهما مدحت باشا في طريق الاقتباس من الغرب

في الإدارة والخدمات العامة والجيش والأسطول مع العمل على وقف التدخل الأوربي في أمور الدولة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

لقد أدت هذه الجهود إلى سيطرة الملمانيين سيطرة قوية على أجهزة الدولة وإبتعاد رجال الدين عنها بسرعة ، خاصة في مجالات القضاء والتعليم . وطبقوا قانون الأراضى الذى أثار فائرة النفيين السياسيين الأتراك وخاصة ضيا باشا ، كما عارضته روسيا لأنها كانت تعتقد — عن حق — أن فرص بريطانيا وفرنسا في إستغلال مثل هذه الإصلاحات — التى أعطت للأجانب حق التملك — أكثر إتساعا من الفرص المتاحة لها بسبب عراقة التغلغل الانجليزى الفرنسى في الدولة وعمقه . كذلك عارضت روسيا الإصلاحات بصفة عامة لأنها تعيد إلى الدولة سيطرتها على القوميات المسيحية التى كانت تستخدمها روسيا أدوات لها ضد الدولة العثمانية ومن ناحية أخرى كانت روسيا ترى أن تطبيق هذه الإصلاحات سيؤدى إلى الإستعانة بالخبراء الانجليز والفرنسيين في أمور جمع الضرائب وكل هذا يؤدى إلى توهين نفوذ روسيا في الدولة العثمانية .

على أن هذه الإصلاحات والتنظيمات حصلت على دفعة قوية عندما قام مدحت باشا بتطبيق التشريعات الجديدة من كافة نواحيها في ولايتى نيش وبغداد . وكانت إصلاحاته تمتاز بالشمول ، وبجرأة في وضع القانون موضع التنفيذ . فطبق قانون الولايات ، وحدد الضرائب وشكل المجالس فى القرى والأقضية والولايات ، وأنشأ البلديات ، ورفع مستوى الكفاءة الإدارية بأقسامها الحديثة ، ووضع التجنيد موضع التنفيذ حتى في ولاية بغداد التى فشلت الولاة فشلا ذريعا قبله في تنفيذه .

حقيقة بدا كأن مدحت قام بأعمال كبرى وأنه هز الأجهزة الفاسدة من أصولها وأنه أنشأ أجهزة حديثة ، والحقيقة أن الغالبية العظمى من إصلاحاته في العراق بالذات كانت بفعل جهده وقوة سيطرته وشخصيته فلما ذهب عن العراق توقفت حركة الإصلاح وضاعت معظم أعماله فى طى الإهمال والنسيان . ولكنها ظلت عالقة بالأذهان هناك وظلت تثير فى الناس آمال التغيير والتطوير . وبالتالى مدحت من

العراق إلى العاصمة إنتقل مركز التطوير والتمديد بقوة إلى العاصمة وأصبحت مستعدة لفترة جديدة من التنظيمات .

ويعتبر المؤلف عام ١٨٧١ عام تحول خطير في التاريخ لبالنسبة لأوربا فقط بل كذلك بالنسبة للدولة العثمانية كذلك ، على اعتبار أن هزيمة فرنسا و وفاة عالي باشا في نفس السنة أحدثا تغيراً خطيراً في اتجاهات الحكومة العثمانية حيث أن هزيمة فرنسا هوت بمكاتها بشدة ، وكانت وفاة عالي باشا ضربة قاصمة لنفوذ فرنسا في الباب العالي حيث أنه كان من أكثر التعمسين للثقافة الفرنسية . ومن ناحية أخرى أصبحت سلامة الدولة العثمانية مهددة أكثر من جانب روسيا التي انتهزت هزيمة فرنسا في حرب السبعين وتخلصت من المادة التي كانت في معاهدة باريس ١٨٥٦ بشأن منع روسيا من تسليح البحر الأسود .

وفي نفس الوقت الذي تدهور فيه النفوذ الفرنسي في الدولة العثمانية لم يكن الألمان مستعدين للمء هذا الفراغ الذي كان الروس يسمعون جهدهم نحو ملته .

وأثرت وفاة عالي في الوضع العام من حيث أنه ترك فراغاً كبيراً بعده لأنه كان يشغل منصب المصدر الأعظم ووزير الخارجية ووزير الداخلية . وربما لو لم يمت فؤاد قبله لاستطاع أن يملأ هذا الفراغ ولكنهما توفيا في عامين متتاليين (١٨٦٩ / ١٨٧٠) دون أن يخلقا جيلا ليخلفهما .

تولى نديم باشا الصدارة العظمى بعد عالي باشا ، وكان من معارضى حركة الاقتباس من الغرب . فأوقف تيار الإصلاحات ، وأخذ يعتمد على دعايات تستند إلى المبادئ الإسلامية . وهي مبادئ رائعة ولكنها للأسف لم تسكن معها برامج تنفيذية قادرة على تيسير عجلة الإصلاح في طريقها القويم . واستمر هذا التوقف عن متابعة الإصلاحات حتى تولى مدحت الصدارة العظمى في ١٨٧٦ . ولهذا يرى المؤلف أن الفترة الواقعة بين وفاة عالي باشا وتولية مدحت باشا الصدارة العظمى أنها فترة الإضطراب وهي التي عقد لها الفصل السابع من كتابه . والواقع أن محمد نديم باشا لم يكن وحده مشغولاً عن هذا التوقف في عجلة الإصلاح حيث كانت هناك مجموعة أخرى من الأسباب وأهمها :

١ — الثورات التالية في البلقان العثماني بتحريض الروس والنمساويين .

٢ — شدة حملات النقد على حكومة نديم باشا من جانب « الأتراك الجدد » الذين كانوا يتهمون حكومة نديم باشا بأنها فتحت أبواب الدولة على مصراعيها أمام التدخل الأوربي خاصة فيما يتعلق بالبوسنة والمهرسك .

لقد أدت هذه التطورات إلى تهيئة الدولة العثمانية لوقوع انقلاب ضد حكومة نديم باشا . وكان مدحت باشا على رأس هذه الحركة ، فتمكن من عزل السلطان عبد العزيز عن العرش ، وأسنده إلى مراد الخامس الذى لم يمارس السلطنة سوى أشهر قليلة بسبب مرضه ليبعده عنه مدحت باشا ويسند العرش للمرة الثالثة فى سنة واحدة إلى السلطان عبد الحميد الثانى الذى كان من أنصار الحركة الدستورية .

شرع مدحت فى إعداد أول دستور للدولة العثمانية . ويحدد المؤلف أهداف مدحت من إصدار الدستور بما يلى :

١ — رغبته فى الحفاظ على وحدة وكيان الدولة العثمانية عن طريق تجديد حيوية الحكومة ووقف حركات الانفصال عن الدولة .

٢ — إقامة مساواة حقيقية بين رعية الدولة لتحافظ على وحدتها .

٣ — تحويل كل الرعية عن قومياتهم وصهر الجميع فى بوتقة المواطنة العثمانية .

٤ — وضع قيود على تصرفات السلاطين حتى لا تنطلق فى التبذير مرة أخرى ، ذلك التبذير الذى اشتهر به السلطان عبد العزيز والذى كان عاملاً هاماً من عوامل إفلاس الخزينة .

• — وضع تصرفات الباب العالى — فضلاً عن السلطان — تحت رقابة مجلس يمثل الشعب . ويبدو أن مدحت كان يضع ثقة كبيرة فى ممثلى الشعب فى القيام بدور بناء فى هذا الصدد . ولعل هذه الثقة تكوّنت لديه خلال عمله فى مختلف ولايات الدولة .

وهناك من يتهم مدحت بأنه كان — إلى جانب كل هذا — يهدف إلى تحويل السلطة العثمانية إلى جمهورية . ولقد أنكر مدحت هذا الاتهام .

لم تكن الأمور سهلة أمام مدحت لإصدار الدستور حيث كانت الصعوبات متعددة ، ولكن كانت هناك بعض التطورات التي جعلت الظروف أكثر مواتية . فقد كان الجدل يدور حول استناد الفكرة الدستورية إلى المبادئ الإسلامية ، وكانت الاتجاهات تشير إلى تأكيد هذا الارتباط . كذلك مهدت التنظيمات التي صدرت قبل ١٨٧٦ لصدر الدستور . هذا فضلا عن صدور دساتير ولوائح دستورية في بعض ولايات الدولة العثمانية مثل تونس ومصر والصرب ورومانيا . أضف إلى هذا أن نحو الحركة الصحفية ساعد على نشر الفكرة الدستورية وأثير جدل صحفي حول هذه الفكرة نبه الأذهان إلى قيمة الحكم الدستوري . هذا إلى جانب أن مجلس الأمة العثماني نفسه أيد فكرة إصدار الدستور في ١٨٧٦/١٠/٢ خاصة لمواجهة ظروف الحرب ضد الصرب ولإسكات الألسنة الأوربية المطالبة بالإصلاح أو بانفصال الصرب وغيرها عن الدولة .

تشكلت لجنة لوضع الدستور من :

(١) ١٦ مدنياً .

(ب) ١٠ من العلماء .

(ج) ٢ من قواد الجيش .

وكان مدحت رئيساً للجنة ، وضيا وكيلا للامور التعليمية ووكيلان آخران للأُمور الخارجية والقضائية وكلاهما كانا مسيحيين .

وقد وضعت عدة مسودات للدستور . وكان النص الذي وضعه مدحت هو صاحب السكفة الراجعة ، وكان يقضى بما يلي :

١ — أن شخص السلطان مقدس .

٢ — كل الرعية عثمانية .

٣ — مجلس نيابي يمثل الشعب ووزارة مسئولة .

٤ — إلغاء منصب الصدر الأعظم وإحلال رئيس الوزراء مكانه .

ولكن في ١٨٧٦/١٠/٣١ قدم الروس إنذارهم لإقحام حرب على الدولة العثمانية

الأمر الذى جعل مدحت يسرع فى إصدار الدستور . ومع هذا جرت الكثير من الداولات والمناقشات حول النص النهائى للدستور بسبب إختلاف الآراء والأهداف التى كانت لدى المعنيين بهذا الموضوع . فقد كان السلطان عبد الحميد الثانى يريد أن يحتفظ باليد العليا ، وكان جودت باشا - صاحب المكانة الكبيرة والأديب الكبير - يهتم بمدحت باشا بأنه صنيعة للسفير الانجليزى فى الآستانة السير إليوت Sir Elliot ، بينما اتهم مدحت خصمه جودت باشا بأن فرنسيته لاتعملو لغة ماضح أحذية فرنسى . كما كان بعض التنفيذيين يريدون ألا تسيطر الوزارة على مقدرات الشعب حتى لا تتكرر تلك الصورة التى كان عليها الحال على أيام على وفواد ، وكان البعض الآخر من التنفيذيين يدعو إلى وضع سلطات إستثنائية لمواجهة بعض الظروف الإستثنائية . وفى هذه الظروف تولى مدحت الصدارة العظمى (١٨٧٦/١٢/١٩) ليقوم بالمهمة التى كان يسمى إليها وهى إصدار الدستور الذى صدر فعلا فى ١٨٧٦/١٢/٢٣ .

وكان لصدور الدستور صدق قوى طيب لدى المثقفين كما توجس منه البعض خيفة على مستقبل كيان الدولة بينما كانت القاعدة الشعبية لاتفهم إلا القليل عن الموضوع ، بسبب نقصى الجهل والمقلية التقليدية لدى أفراد الشعب ، وخصه فى ولايات المشرق العثمانى . أما فى البلقان فقد رحب به اليونانيون للتخلص من البلغار ورحب به الأرمن لأنه كان يؤكد لهم حريتهم ، وكذلك اليهود لأنهم كانوا بلا قومية وامتعض منه الصرب لأنه كان يفرض عليهم البقاء فى حظيرة الدولة ، ونفس الموقف كان لدى البلغار . كما كرهه الرومانيون لأن الدستور سيجعل من رومانيا مجرد ولاية عادية من ولايات الدولة بينما كانوا يسعون إلى الانفصال عن الدولة .

أما السلطان فقد احتفظ بسلطات واسعة فهو الخليفة والسيادة له لا للشعب والوزراء مسئولون أمامه لا أمام المجلس النيابى ، وكان له حق تعيين وإعفاء الوزراء ، وحق عقد وحل البرلمان ، وكانت موافقته ضرورية ليصبح القانون نافذ للمفعول .

ومع مافى هذا الدستور من عيوب فاننا نكون متحاملين عليه إذا ما وضعناه موضع المقارنة بدساتير الدول الأوروبية الغربية ، مثل فرنسا أو إنجلترا ، فهذه مقارنة غير عادلة ، أما إذا قارناه بالأوضاع الدستورية فى روسيا أو روسيا - التى لم يكن

لها لا دستور ولا مجلس نيابي — فإنا يمكن أن نقول إنه دستور معقول هذا فضلاً عن أنه كان خطوة كبيرة إلى الأمام نحو الحكم الدستوري المتكامل .

ولكن كانت هناك بدايات خاطئة وخطيرة لهذه الحركة الدستورية . فقد كانت الثقة غير متبادلة بين السلطان عبد الحميد ، ومدحت . فالأول كان ينظر بعين الريبة إلى مدحت الذي وصف بأنه خالع السلاطين وصانهم ، وكانت لدى عبد الحميد بعض المخاوف من أن يستخدم مدحت القوات المصرية الرابطة في الآستانة ضده . وهكذا كانت هذه القوات المصرية التي أرسلت للدفاع عن الدولة العثمانية ضد العدوان الأوربي — رغم ظروف مصر المالية القاسية — ورقة يمكن أن يلعب بها أصحاب الشأن في الآستانة .

وكانت هناك بعض الشواهد التي كانت تشير إلى أن مدحت وأعوانه كانوا يخفون من قيمة السلطان في العهد الدستوري الجديد ، وقيل إن مدحت قال إن السلطان لو عزله فسيعيده الشعب إلى رئاسة الوزراء ولكن السلطان عزله استناداً إلى سلطاته الدستورية ولم يقيم الشعب بأي جهد متواضع لإعادته . فكان عزله نهاية لتاريخه السياسي . فقد حزن البعض لعزله وفرح البعض دون أن يحدث رد فعل إيجابي . وعلى أي حال تولى معارضو مدحت المناصب الكبرى بعده ، بينما قبض على أصدقائه .

وليس معنى هذا أن عزل مدحت كان نتيجة لتدبير عبد الحميد وحده ، وإنما هناك من يرى أن مؤامرات روسية وأخرى انجليزية لعبت دورها في عزله .

ومع هذا كان لعزل مدحت مغزى كبير ، فلقد أثبت السلطان بذلك أنه قادر على تخطي روح الدستور ، وتضمن الخلط السلطاني الخاص بإسناد الوزارة إلى أدم باشا ما يؤكد حق السلطان في تعيين كبار الموظفين .

ولقد توقفت عجلة الإصلاح بعزل مدحت لا للحاجة إلى إصلاحات جديدة وإنما بسبب الحاجة إلى روح مدحت المتدفقة لدفع تلك العجلة . ولقد جاء عزل مدحت في وقت عصيب للغاية حيث كانت الروسيا متفوقة عسكرياً في حربها ضد الدولة العثمانية حتى أصبح استقلال الصرب والجبل الأسود ورومانيا أمراً واقعياً (١٨٧٧ — ١٨٧٨) .

لقد كان عبد الحميد مُصر على أن تكون مقاليد الأمور بيده ، وأنه إذا تم إصلاح في الدولة فليكن ذلك من عمله هو ، وأن يكون البلاط هو مركز الثقل الباب العالي (رئاسة الوزارة) ، وكان يرى أن المهمة الأولى التي يجب أن يحمل لها هي أن يعد للحرية عن طريق التعليم ، وإتاحة الفرص نحو الرقي وعدم فرض دساتير غربية لا تلائم البيئة العثمانية ويرى المؤلف أن المصلحين — بصفة عامة — كانوا غير متمقين في الحضارة الإسلامية ، وكان عليهم أن يطوروا هذه الحضارة الإسلامية ومدارسها ونظمها ، وأن يرتفعوا بها إلى مستوى العصر . ولكنهم بدلا من ذلك خلقوا إزدواجاً محيراً (أوريبا عثمانياً) لأنهم عنوا بالمظهر أكثر من عنايتهم بالخبر ولهذا لم تلق إصلاحاتهم وشعاراتهم صدى قوياً لدى الشعب .

وهنا يجدر بنا أن نجيب عن أسئلة هامة وهي : ما هي قيمة فترة التنظيمات ؟ وهل حقق المصلحون أهدافهم ؟ وما مدى ما حققوه ؟ وما هي مسؤوليتهم في توقف عملية الإصلاح غير مرة قبل عبد الحميد ، وبعد اعتلاء عبد الحميد العرش ؟

إن أهم قيمة لفترة التنظيمات هذه هي أنها وضعت الدولة في مصاف الدول التي يجب أن تعامل بمثل ما تعامل به الدول ذات السيادة ، وتحسنت خلالها الأحوال المالية والقضائية والتعليمية وظهرت حركة أدبية نشطة وحركة صحفية كبيرة وتطورت أحوال الملل غير الإسلامية تطوراً ملحوظاً . وفصلاً عن هذا وذاك أصبحت فكرة المواطنة (العثمانية) تقف على قدم أكثر ثباتاً إن فترة التنظيمات هذه فترة بذر البذور الأولى ، وكثيراً من البذور كانت مستورداً يصعب العناية به وبعضه كان محلياً نبت جنباً إلى جنب مع البذور الأخرى لتبدأ بعد ذلك عمليات التهييج والتزاوج بين الحضارتين الغربية والإسلامية .

إن فترة التنظيمات ودستور ١٨٧٦ وتعطيله على يد عبد الحميد ، هو الذي أدى إلى ثورة ١٩٠٨ ، وهي التي مهدت لسياسة التحريك التي بلغت ذروتها على يد أتاتورك الذي أبرز إلى الوجود الدولة التركية الحاصلة .

مما سبق يتبين لنا أن كتاب الأستاذ دافدسون من أقيم الكتب التي تعرضت لهذا الموضوع الصعب ، ومنها أيضاً كتاب راساور « تركيا الفتاة » الذي ترجمه د . صالح

الملى سنة ١٩٥٩ وكتاب ماردن

S. Mardin : The Genesis of the young Ottoman thought

Princeton, 1962. يعطينا دراسة متكاملة للتنظيمات العثمانية (١٨٥٦ - ١٨٧٦) ،

والاستبداد الحميدى (١٨٠٧٦ - ١٩٠٨) ، والظروف والأهداف التى وقفت وراء حركة تركيا الفتاة .

ولكن لنا ملاحظة خفيفة على هذا الكتاب القيم وهو أن المؤلف - رغم اعتماده على بعض المراجع التركية - لم يرجع إلى الوثائق التركية حيث أننا نعتقد أنها يمكن أن تضع وجهة النظر التركية بوضوح أكثر وأنها قد تغير كثيراً من مفهومنا للأحداث حيث أن الاعتماد على الوثائق الفرنسية وغيرها من الوثائق الأوربية لا يكفي وحده للوصول إلى آراء مؤكدة فى بعض الأحيان خاصة وأن موضوع التنظيمات كان مرتبطاً بالأوضاع السياسية والاستراتيجية والاقتصادية الأوربية أوثق إرتباط الأمر الذى يجعل السقراء والقناصل الأوربيين يكتبون رسائلهم ووثائقهم بأهداف معينة مرتبطة بمصالح دولهم . ولكن يمتاز الأستاذ ديفسون بأنه استخدم الوثائق المتساوية والسويدية إلى جانب الوثائق الإنجليزية ، والفرنسية ، ووثائق الأرشيف الأمريكى فى واشنطن .

وملاحظة أخرى : هى أنه ألقى بثقله فى هذا الكتاب على حركة التنظيمات فى الآستانة أولاً ، وعلى أثر هذه الحركة على مسيحي البلقان ، وعلى الدول الأوربية دون أن يعن العناية اللازمة بأثر هذه التنظيمات فى ولايات المشرق العربى . حقيقة كانت حركة التنظيمات بطيئة فى المشرق العربى إلا أنها كانت هامة جداً فى بعض الفترات وخاصة خلال حكم مدحت باشا للولاية بغداد كما أن حركة التنظيمات كانت شديدة التأثير على تطور العلاقات العثمانية .

المؤلف : دكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى

الكتاب : علاقات مصر بتركيا في عهد الخديوى إسماعيل ١٨٦٣ — ١٨٧٩ .

دار المعارف ١٩٦٧ .

عرض وتعليق : د. عبد العزيز نوار

هذه هي رسالة الأستاذ الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى التي حصل بها على درجة الماجستير من جامعة القاهرة في ١٩٥١ . وهي تعتمد على الوثائق المحفوظة في عابدين فيما يعرف الآن باسم «دار الوثائق القومية» . وهذه الدار تحتوى كذلك على مجموعات قيمة جداً من وثائق القنصلية الأمريكية ، والوثائق الإنجليزية والفرنسية ، فضلاً عن المؤلفات والمقالات الرئيسية التي تعرض لموضوعه .

ويمكن أن نقسم هذه العلاقات المصرية التركية في عهد الخديوى إسماعيل ثلاث أقسام :

الأول : مجهودات إسماعيل لتوطيد حكمه وحكم ابنه من بعده على أسس شرعية .

الثاني : الخدمات التي قدمها الخديوى إسماعيل للدولة العثمانية وعلى رأسها (حملة كريت) .

الثالث : محاولات إسماعيل لتوسيع استقلال مصر الدائم بعد موافقة السلطان مهدياً السلطان بسحب قواته من كريت إن لم تنجح مطالبه واتهم اليونانيون الفرصة وأخذوا يمحثون إسماعيل على التحالف معهم ضد السلطان وقامت الجالية اليونانية في مصر بدور خطير في هذا الصدد . ولكن استطاع الباب العالي أن يتفاهم مع إسماعيل فمنحه لقب خديوى ، وأعطاه حق اللوائح والتنظيمات الإدارية والمالية للأمة لمصر وعقد بعض الاتفاقيات مع الدول الأوروبية وفي نفس الوقت أكد الباب العالي ضرورة سريان قوانين الدولة الأساسية — وخاصة خط كلخانة والمعاهدات التي عقدها الدولة العثمانية مع الدول الأخرى — على مصر . وسجبت القوات المصرية من كريت في نوفمبر ١٨٦٧ ولكن بعد أن مهدت الطريق أمام الأتراك بقيادة فؤاد باشا ليسعقوا الثورة في ١٨٦٩ .

الرابع : فترة الأزمات المصرية التركية الشديدة بين ١٨٦٩ — ١٨٧٩ حقيقة تملئت هذه الفترة أوقات توطدت فيها العلاقات بين إسماعيل والسلطان عبد العزيز ولكن طابع الأزمة كان هو الغالب .

بدأت هذه الفترة بزيارة الخديوى لبعض عواصم أوروبا لدعوة ملوكها لحفل افتتاح قناة السويس . ولكنه لم يقيم بدعوة السلطان واشتدت دوائر الباب العالى أن إسماعيل يتصرف وكأنه أمير مستقل وأن الدول الأوربية تعامله بهذا المعنى الأمر الذى أدى إلى أزمة بين الخديوى والباب العالى لدرجة أن إحدى الصحف التركية طالبت بعزل إسماعيل واتخذت خطوات تسحب ما كان قد أعطى لإسماعيل من امتيازات وتدخل الدبلوماسيون الفرنسيون والإنجليز والنمساويون فى هذه الأزمة وأشار السفير الإنجليزى على إسماعيل بأن يزور الآستانة فى مقابل تثبيت الحقوق التى سبق أن حصل عليها . وعندما أبدى إسماعيل معارضته لهذا الاقتراح هددوه بأن ذلك قد يفتح الطريق أمام مصطفى فاضل ليتولى الصدارة وهو لن يتورع عن خلع أخيه . وكان إسماعيل نفسه يقدر هذه الخطورة بل يرى أن إسناد الصدارة إلى مصطفى فاضل يعنى الحرب بين مصر وتركيا . وهدأت المشكلة مؤقتاً خلال حفلات افتتاح القناة وبعد ذلك استأنفت السلطات العثمانية ضغطها الشديد على إسماعيل .

فاستعد إسماعيل عسكرياً للدفاع عن مصر ضد أى غزو تركى وحى يوسف كرم زعيم الثورة المارونية فى لبنان وكورونيوس القائد اليونانى للثورة السكريدية ، وخلص العسكرية المصرية من السكلمات التركية واستبدلها بالعربية وكذلك فى دواوين البلاد وجعل مكاتبات ديوان الخارجية باللغتين العربية والفرنسية .

ودارت مفاوضات طويلة بين الأطراف المعنية انتهت إلى أن أقدم إسماعيل على ترشيات للباب العالى من حيث تخفيض مدى تسليحه وقيامه بزيارة الآستانة (يونيو ١٨٧٠) فأدت هذه الزيارة إلى عودة العلاقات الودية بين الطرفين وإلى تهدئة الموقف مؤقتاً .

فلم يلبث أن اتهم الأتراك إسماعيل بأنه يعيد تسليح البلاد بهدف التحالف مع روسيا ضد الدولة العثمانية انتهازاً منهما لتدهور التوازن الدولى بعد هزيمة فرنسا فى

حرب السبعين وتمتد الموقف عندما عازمت الحكومة التركية على إرسال حملة لإخماد ثورة عسيرة التي كانت أصابع الأتراك تشير إلى إسماعيل متهمه بإياه وشريف مكة بإثارتها . ومن ناحية أخرى كان إسماعيل يرى في إرسال قوات عثمانية إلى عسيرة تهديداً خطيراً له فلما بعثت الحكومة العثمانية بقواتها إلى عسيرة رد إسماعيل على ذلك بتحسين السويس .

ولكن إسماعيل أبقي الباب مفتوحاً محاولاً عدم وقوع صدام شديد مع الباب العالي . فجعل له مبعوثاً مقبلاً في الآستانة يشرح للسلطان كل أعماله ويبررها والطريف أنه لكي يكسب عطف السلطان عبد العزيز ورضاه بعث إليه من الطيور والحیوانات — التي يهواها — ما يمكن أن يكون حديقة حيوان كاملة هذا إلى جانب الأموال التي كان يبذلها لرجال السلطان . وبعد وفاة عالي سنة ١٨٧١ عمل إسماعيل على كسب ثقة السلطان عبد العزيز حتى يمنع أعداءه من الوصول إلى المناصب العليا وبوجه خاص مصطفى فاضل و خليل بك .

جاءت بعد ذلك فترة من العلاقات الطيبة بين السلطان عبد العزيز وإسماعيل باشا خلال صدارة نديم باشا (١٨٧٠ — ١٨٧٢) وبعد ذلك بقليل حيث كان في استطاعة الخديوي أن يشتري من السلطان ما يريد . وعلى هذا النحو استطاع أن يبعد خليل باشا — عدو الخديوي — عن وزارة الخارجية وأن يحصل على فرمان شامل (١٨٧٣) . وسارت الأمور بين السلطان والخديوي هادئة بعد ذلك حيث حصل الخديوي على معظم مطالبه من السلطان في الوقت الذي أصبحت الأزمة المالية في كل من مصر وتركيا على أشدها . والحق إنها فترة الأزمات المالية لا في تركيا ومصر فقط بل كذلك في تونس ومراكش بسبب الاستدانة وبسبب الإجهاد الاقتصادي بسبب حركة التطوير السريعة التي شملت هذه البلاد وبسبب الاستغلال الأوربي السيئ لهذه الظروف . ففي ١٨٧٤ كادت الدولة العثمانية أن تعلن إفلاسها ، وباع الخديوي أسهمه في قناة السويس ١٨٧٥ للحكومة الإنجليزية التي شرعت في السيطرة على مصر سيطرة فعلية إذا ما حانت لها الفرصة وأصبحت يد كل من إنجلترا وفرنسا مفروضة على مصر ولا يستطيع السلطان أن يحول دون ذلك ولا أن يعترض اعتراضاً مؤثراً بل هو نفسه لم يلبث أن خلع في ٣٠ أغسطس ١٨٧٥ على يد

مدحت باشا المتزعم للحركة الدستورية ، حيث ابتجع المصريون لذلك لأنهم اعتقدوا أن ذلك سابقة يمكن أن نعينهم على خلع الخديوى إسماعيل .

وزاد موقف إسماعيل حروجة أمام السلطان العثمانى عبد الحميد ، وصدرة الأعظم مدحت بعد صدور الدستور حقيقة كانت صدارة مدحت قصيرة ولكن خلالها سعى مدحت إلى سحب فرمان شامل ، ولكن عبد الحميد ، آثر أن يكون على علاقة ودية بالخديوى ، وتحسنت العلاقات أكثر بمشاركة مصر عسكرياً فى الحرب الألمانية الروسية التى أدت إلى عقد مؤتمر برلين ذلك المؤتمر الذى لعب فيه بسمارك دوراً رئيسياً كان خلاله يبحث إنجلترا على احتلال مصر .

ورأى إسماعيل أن يرتقى فى أحضان تركيا لعله بذلك يستطيع أن يوقف الخطر الداهم الإنجليزى الفرنسى على مصر ، وعندما أقدم على إقالة الوزارة الأوربية أيدته الحكومة التركية وكذلك عندما خفض سعر الفائدة على الديون دون الرجوع إلى المحاكم المختلطة المختصة بهذا الموضوع . ولكن تدخل بسمارك بقوة فى هذا الموضوع حفاظاً على حقوق الإمبراطورية الألمانية فى المحاكم المختلطة . وأثبت تدخل بسمارك أن نفوذ كل من فرنسا وإنجلترا فى مصر عرضة للاهتزاز ، ولكى يثبتا قوة وتفوق هذا النفوذ اتجهتا إلى خلع إسماعيل . وفى هذه الأزمة وقفت الحكومة التركية إلى جانب الخديوى ضد محاولات فرنسا وإنجلترا لحمله . ولقد كان للسلطان عبد الحميد عدة أهداف من وراء ذلك :

- ١ — منع التدخل الأوروبى على هذا الشكل الصارخ فى أمور مصر .
 - ٢ — المحافظة على ما للسلطان من حقوق فى مصر حتى لا يقضى عليها التدخل الأوروبى .
 - ٣ — استغلال هذه الفرصة لإلغاء الامتيازات التى حصل عليها حكام مصر من السلطان منذ ١٨٤١ .
 - ٤ — نجاح السلطان عبد الحميد فى مقاومة التدخل الأوروبى يقوى من الدعاية لفكرة الجامعة الإسلامية التى كانت أمضى هدف من أهداف السلطان عبد الحميد .
- فكان طبيعياً أن يقف عبد الحميد بقوة إلى جانب الخديوى ضد مجهودات الدول

الكبرى خلفه وطلبت منه الباب العالي عدم التنازل دون إخطار السلطان واستشارته . ولكن إنجلترا وفرنسا كانتا مصممتين على عزل الخديوى حتى لو تجاهلا بذلك الباب العالي . ولهذا أسرع السلطان إلى أن يتولى بنفسه إصدار قرار خلع الخديوى حتى لا يقوم الإنجليز والفرنسيون بهذا الأمر من غيره الأمر الذى يحط من مكانة السلطان فى مواجهة العالم الإسلامى والأوربى . وأياً كان الأمر فالحقيقة هى أن الدور الرئيسى فى سقوط الخديوى هو الذى لعبه الدبلوماسيون الإنجليز والفرنسيين وليس الأتراك .

المؤلف : د . أحمد عبد الرحيم مصطفى

الكتاب : مصر والسألة المصرية من ١٨٧٦ — ١٨٨٢ (التدخل الأجنبي ،
الحركة الوطنية ، الثورة العرابية) . دار المعارف ١٩٦٧ .

عرض وتعليق : د . عبد العزيز نوار

هذا الكتاب هو ترجمة لرسالة الدكتوراه التي حصل عليها المؤلف من جامعة لندن . وبذلك يكون قد غطى بكتابه «علاقات مصر بتركيا في عهد الخديوا اسماعيل ، مصر والسألة المصرية » فترة من أدق فترات التاريخ المصري . فهي كما يقول المؤلف :

« فترة شهدت فيها البلاد صنوفاً من الضغوط الداخلية والخارجية : بعثات مالية ، ولجان تحقيق ، وتغللاً أجنبياً في إدارتها واقتصادياتها وشئون الحكم فيها ، ومحاكم مختلطة — هذا في الوقت الذي كانت فيه البلاد تعاني من آثار الأوتوقراطية الخديوية و ازدياد سيطرة الامبريالية الأوروبية وتفكك الإمبراطورية العثمانية التي كانت مصر لا تزال تابعة لها » .

إن نظرة سريعة على الوثائق غير المنشورة والمنشورة والراجع الأصلية التي اعتمد عليها المؤلف في إعداد كتابه تكشف لنا بسهولة عن أصالة البحث وعمقه . فقد راجع الوثائق في مظانها في دور المحفوظات الانجليزية والفرنسية فضلاً عما في دار الوثائق القومية بعابدين بالقاهرة من وثائق غاية في الأهمية .

وقد قسم الكتاب إلى أحد عشر فصلاً ، الأربعة الأولى عن الظروف المحلية والدولية التي أدت إلى خلع اسماعيل ، أما الفصل الخامس والسادس فعن أوائل عهد توفيق (أى مقدمات الثورة) والثورة نفسها ثم عقد الفصلين السابع والثامن عن مجلس شورى النواب والمذكرة المشتركة والوزارة الوطنية . وهي فترة للواجهة السياسية بين قوى الثورة والقوى المناهضة لها في الخارج والداخل . وأما الفصول الثلاثة الأخيرة فهي تمثل الخطوات التي سارت بها الدبلوماسية والعسكرية الانجليزية في طريق التآمر ضد الحركة الوطنية حتى انتهى الأمر بالاحتلال رغم وجود مؤمر في الآستانة كان لا يزال ينظر في السألة المصرية .

والحديث عن أوائل عهد توفيق يذكرنا بأوائل عهد الملك فاروق . فلقد استبشر به المصريون والأجانب على السواء عندما توليا الحكم . ولكن سرعان ما تكشفت الحقيقة للشعب . فبينما كانت الآمال معقودة على تنمية الحركة الدستورية على يد توفيق بالذات إذا به هو يصبح عدواً للحركة الدستورية ، مثله في هذا أيضاً مثل السلطان عبد الحميد الثاني ، حيث أن كلا منهما كان يرى أن الشعب غير مستعد للنظام الدستوري . وفعلارفض توفيق اللائحة الدستورية التي تقدم بها شريف باشا ففضل الأخير الاستقالة وتولى الخديوى نفسه رئاسة الوزارة ، جامعاً كل السلطات العليا في يده ، ولكنها كانت تجربة أثبتت فشلها بسرعة ولم تستمر أكثر من شهر واحد حيث أسندت الوزارة بسرعة إلى رياض باشا .

ولقد كانت فرنسا وإنجلترا تهيئان الظروف لجعل توفيق حاكماً مستبداً حيث أن النظام الدستوري يتعارض مع التدخل الأجنبي ومع السيطرة الثنائية الانجليزية الفرنسية الممثلة في وجود المراقبة الثنائية والضغط المتواصل على البلاد من كافة النواحي وكان توفيق نفسه مقتنعاً تماماً أن وجوده في الحكم رهن بموافقة حكومتى فرنسا وإنجلترا ، ولهذا كان لا يخطو خطوة إلا بعد استشارة الممثلين الانجليزى والفرنسى وكانت إعادته للمراقبة الثنائية خطوة كبيرة في سبيل إرضائه لإنجلترا وفرنسا رغم المعارضة القوية التي أبدتها الصحافة المصرية لتلك الإعادة ورغم الكراهية الشديدة بين الشعب لتلك المراقبة الثنائية .

وقد كشف المؤلف عن المناورات الدبلوماسية الكبيرة التي قام بها الانجليز لكي يشبثوا نفوذهم خلال ذلك . فقد فرضوا ريفررز ويلسون في المراقبة الثنائية ولكنهم في الظاهر كانوا كمن لم يكن يرغب في ذلك . وسعوا إلى إجراء تصفية عامة للديون الأجنبية التي تشترك فيها عدة من الدول الأوربية الكبرى دون أن يحدث أى مساس بسلطات الرقيبين الانجليزى والفرنسى .

وبما صدر مرسوم التصفية في ٣١ مارس ١٨٨٠ تشكلت لجنة دولية لتنفيذه . وحيث أن هذه اللجنة كانت هي نفسها لجنة التحقيق القديمة — باستثناء بعض التبديلات — فقد قوبلت بمعارضة مصرية شديدة من جانب المصريين الذين كانوا يحشون — والحق معهم — من أن يضعى بهم عن طريق إلغاء دين المقابلة لمصلحة

الدائنين الأوربيين . ورغم كل هذا صدر قانون التصفية في ١٩ يوليو ١٨٨٠ فـسكان بمثابة قانون مصر الحالى الذى خصص ٥٧ ٪ من دخل مصر لمدة ٦١ سنة لدفع الخراج وفوائد الديون واستهلاكها . وبينما ضمن قانون التصفية رأس المال الأجنبى فانه لم يضمن الدائنين المصريين رؤوس أموالهم . ومن ناحية أخرى كانت الدولة ملزمة بسداد أى عجز فى ميزانية صندوق الدين بينما كان هذا الصندوق غير ملزم بدفع الفائض للحكومة . وحيث أن الخديوى ورجال حكومته استسلموا على هذا النحو للضغط الأجنبى فقد أصبح على الشعب أن يتحرك . فبدأت فترة « نضال حاد ذى ثلاث شعب بين روح القومية الصاعدة والسلطة الخديوية المتهاوية والأجانب بنفوذهم القوى فى البلاد » ، وهى فترة عصيبة لعبت فيها شخصيات وطنية وغروطنية أدواراً جد خطيرة من أمثال « أحمد عرابى » و « محمود سامى البارودى » و « شريف باشا » و « عثمان رفقى » و « الخديوى » و « توفيق باشا » و « رياض باشا » والسلطان « عبد الحميد » الثانى ومبعوثه « درويش باشا » ومالت ودى رينج وسنكفكر القنصلين الانجليزى والفرنسى ومن الدبلوماسيين الأوربيين جرانفيل الانجليزى وبسبارك الألمانى وحببتا الفرنسى .

وقد عمل المؤلف على أن يرسم صورة سريعة لسكل واحد من هؤلاء على ضوء موقفه من الثورة العربية . فقال عن رياض إنه كان « يشبه الساسة الأتراك فى زمانه ، فهو شديد الاعتداد بخصاله وهيبته ... مغرور وميال إلى الاستبداد » وكان يقول عن نفسه إنه كافور أو بسبارك . فسكان شديد الوطأة على زعماء الحركة الوطنية حيث طرد جمال الدين الأفغانى من مصر تنفيذاً لنصيحة القنصلين الانجليزى والفرنسى وحدد إقامة محمد عبده ، وكبت الصحافة . وكانت ظروفه صعبة فى الواقع حيث إنه هو الذى واجه نمو الحزب الوطنى الذى كان قد ظهر منذ ١٨٧٩ وكان يتألف من الضباط (الفلاحين) من أمثال عرابى والباشوات المتصلين بالخديوى السابق اسماعيل ومن بعض كبار الملاك الذين أضربهم قانون التصفية وجماعة مصر الفتاة الداعية إلى الإصلاح الدستورى والحرية الصحفية .

أما مالت ودى رينج فقد صورها لنا المؤلف على ضوء موقفهما من الأزمة الضيقة التى وقعت بين عرابى ورفاقه من جهة والخديوى وعثمان رفقى من جهة

أخرى . فكما هو معروف تمكنت وحدات الجيش أن تطلق سراح عرابي ورفاقه وقامت بمظاهرة عابدين الكبرى . فماذا كان موقف كل من دي رينج (الفرنسي) ومالت (الإنجليزي) من هذه الثورة ؟ .

كان دي رينج يرى أن حركة الجيش ليست إلا مظهرآ من مظاهر الشعور الوطني المصري . وكان مدركآ أكثر من غيره من المسؤولين الأجانب للموقف . ومع هذا فقد سحبه الحكومة الفرنسية من مصر في هذه الظروف رغم المعارضة الشديدة التي أبدتها الجالية الفرنسية في مصر لسحبه . وحل محله سنكفكنز .

أما مالت فكان يصور الحركة الوطنية في مكاناته إلى وزارة الخارجية الإنجليزية بأنها مجرد حركة عسكرية لا تستحق العطف . وكان يشد أزر الرجعية في مصر لمناهضة الثورة ، ووقف بقوة إلى جانب الحديوي .

أما في الجانب الوطني ، فيجدر أن نشير إلى مقارنة بين عرابي وشريف فلقد ظهر الأول بعظم الزعيم الوطني ، وكانت قوته كامنة في إخلاصه وجراته وفصاحته وتميزه عن آمال الشعب وآلامه وفي عدالة القضية التي تصدى للدفاع عنها ، ورغم أنه لم يتلق القسط الكافي من التعليم لمعالجة مسائل السياسة ، إلا أن شخصيته القوية مكنته من السيطرة على الجيش الذي كان في ذلك الوقت هو الفئة الوحيدة التي تتكون غالبيتها من المصريين » .

ولا شك أن أحمد عرابي كان زعيما وطنيا مخلصا ولكن الظروف التي واجهها والأزمات المستعصية التي ألفت في طريقه كانت فوق الطاقة .

أما شريف باشا فقد تمددت الآراء حوله ، أما المؤلف فقد وصفه بأنه :

« كان بطبيعته أميل إلى الدعة ومجازاة التيار دون محاولة السيطرة عليه » (١) .

إن الظروف هي التي منحت شريف باشا فرصة واسعة لتولى الوزارة بعد حركة الجيش في ٩ سبتمبر التي كانت ردآ على محاولات الحديوي والأجانب لتصفية الثورة . فقد كان العسكريون يتقنون فيه لأنه كان من أنصار الحركة الدستورية ، ولأن

الدبلوماسيين الإنجليز والفرنسيين كانوا قد وافقوا عليه كما «أن الأتراك القدامى» — وكان هو نفسه معهم — قد أيدوه .

لقد كانت هناك مسئوليات كبرى ملقاة على عاتق وزارة شريف باشا ، وعلى رأسها الحاجة إلى تهدئة الأوضاع الداخلية وإنقاذ مصر من الاستبداد الخديوى ومن التدخل الأجنبي ومن التدهور الاقتصادى . ولكنه كان يواجه كذلك بأمور جديدة ومنها مقدم بعثة من قبل السلطان عبد الحميد الثانى إلى مصر ، وهى بعثة — فى اعتقادنا — كانت تعقد الأمور أكثر من توجيهها نحو الحل السلمى . فلقد كان السلطان عبد الحميد الثانى ينظر إلى الأزمة المصرية من وجهة نظر مصالحه وأهدافه . فهو كان يكره الحركة العربية لأنها حركة دستورية ، وكان يحث الخديوى توفيق على رفض الفكرة الدستورية . ولكنه فى نفس الوقت كان يريد أن يقوى من سلطاته فى مصر حتى ولو تم ذلك على حساب الخديوى والشعب المصرى معاً . بل إنه فى وقت من الأوقات كان مستعداً للموافقة على التنازل عن مصر مثلما تنازل من قبل عن قبرص للإنجليز . ثم إنه كانت لدى السلطان عبد الحميد مخاوف خاصة به من جانب الثورة العربية . فقد تصور أنه ربما تتطور هذه الثورة إلى حركة تؤدى إلى وضع كل من سورية ومصر تحت حكومة واحدة على تلك الصورة التى طالعنا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر على أيام محمد على . ومن ناحية أخرى كان عبد الحميد الثانى يخشى من أن تهتز مكانته كخليفة للمسلمين مرة أخرى لوتفوق التدخل الأوروبى فى مصر على تدخله فيها خاصة وأنه كان يدعو إلى الجامعة الإسلامية وإلى التفاف المسلمين كافة حول خليفة المسلمين .

ولكن قررت الحكومتان الإنجليزية والفرنسية أن تمنع السلطان من التدخل فى أمور مصر إلا فى أضيق الحدود . ولهذا عندما أرسل السلطان عبد الحميد الثانى بعثة إلى مصر برئاسة نظامى باشا ردت الحكومتان الإنجليزية والفرنسية على ذلك بإرسال سفينتين مسلحتين إلى المياه المصرية . ولم تلبث البعثة العثمانية أن انسحبت بينما بقيت السفينة الإنجليزية فى المياه الإقليمية المصرية .

وتابعت الدبلوماسية الإنجليزية مؤامراتها حتى أخرجت حكومة شريف باشا الذى فضل — على عادته — الاستقالة بدلاً من مواجهة الأزمة . وكان الدور الذى لعبه مالت فى هذا الصدد خطيراً ، فقد بدأت المخططات الإنجليزية نحو احتلال مصر

تتضح خاصة عقب إصدار مالت رسالة موجهة إلى الرأى العام المصرى الذى تزايد قلقه من ناحية الإنجليز (١٥/٩/١٨٨١) . فقد أشارت هذه الرسالة إلى أن إنجلترا لا تفكر فى التدخل إلا « إذا تعرضت البلاد للفوضى » وهى عبارة يمكن أن يفسرها الإنجليز على طريقةهم التى مهروروا فيها لتبرير التدخل . ومن ذلك أن مجرد وجود أحمد عرابى فى القاهرة أثناء انعقاد مجلس شورى النواب كان فى رأى مالت يوفر حالة فوضى تستدعى التدخل .

والواقع أن انعقاد مجلس شورى النواب فى حد ذاته كان شوكة فى جانب النفوذ الأجنبى فى مصر مع أن شريف باشا كان قد دعا المجلس للانعقاد ليتمكن من إبعاد الجيش عن السياسة ، وهو أمر كان يريده الإنجليز أيضاً . وفعلاً أجريت الانتخابات وإذا بمعظم أعضاء المجلس من الأعيان وعلى رأسهم سلطان باشا . وهو أمر طبيعى أملت ظروف التشكيل الإجتماعى فى مصر حينذاك ، والطريقة التى أجريت بها الانتخابات .

ولقد أبدى أعضاء هذا المجلس منذ البداية اعتدالا واضحاً إزاء الأجانب . فلقد وافقوا على استمرار المراقبين الإنجليزى والفرنسى فى عملهما ، وفضلوا العمل على تنفيذ إصلاحات مالية وسياسية بدلاً من الاصطدام بإنجلترا وفرنسا أو بالدائنين الأوربيين . ولكن اتجاه السياسة الإنجليزية الفرنسية كان يسير نحو تعقيد المسألة المصرية . وفى نفس ذلك الوقت كانت المفاوضات الإنجليزية الفرنسية قد انتهت إلى صيغة إنذار موجهة إلى القوى الوطنية وهذا ما عرف باسم المذكرة المشتركة (يناير ١٨٨٢) . وهى المذكرة التى رأى فيها المصريون أنها :

ترمى إلى الضغط على السلطان وجل الحديوى ألحوبة فى يد فرنسا وإنجلترا وأن مصر ستعرض . . . لنفس مصير تونس كذلك رأى قادة الجيش أن هذه المذكرة المشتركة موجهة ضد حركتهم . فكان طبيعياً أن يرفضها الوطنيون وأن يعملوا لتوحيد صفوفهم لمواجهة التدخل العسكرى الإنجليزى الفرنسى المرتقب . ولقد كان الهدف السكامن وراء تلك المذكرة المشتركة فى رأى المؤلف هو التأكيد على أن لبريطانيا وفرنسا وحدهما حق التدخل فى أمور مصر دون غيرها ، أو بمعنى آخر القضاء على فكرة التدويل للمسألة المصرية وأما الهدف الثانى فى رأيه

فهو إرهاب مجلس شورى النواب حتى يتوخى هذا المجلس الحذر إزاء أية مشكلة تتعلق بالمصالح الإنجليزية الفرنسية ، وخاصة فيما يتعلق بالميزانية .

وقد أدت المفكرة المشتركة إلى حيث الوطنيين على التصدى للتدخل الأجنبي وعلى تحدى المراقبة الثنائية ، والإصرار على مناقشة الميزانية ، ووضع المصالح في مكانها اللائق بها . ولما كان شريف باشا يرى أن ذلك سيؤدى إلى أزمات شديدة أثر أن يستعمل على عادته .

تشكلت بعد ذلك وزارة محمود سامى البارودى التى كان فيها عرابى وزيراً للحربية ، وأخذت هذه الوزارة على عاتقها أن تحدم القضايا الوطنية ، فعملت على تقليص سلطات المراقبة الثنائية ، وعلى وجه الخصوص تلك السلطات التى استخدمتها المراقبة الثنائية دون وجه حق . وأخذت الوزارة تتخلص من الموظفين الأجانب . وبالتدريج بدأت تظهر تيارات وطنية قومية أقوى عما ألفناه فى الحركة الوطنية من قبل . فعرابى يدافع عن الفلاح لا دفاعه عن إنسان ضعيف وإنما عن صاحب حق سلبه منه الأثرياء ، ويعزم بنياته نحو التخلص من أسرة محمد على وإنشاء جمهورية مصرية خاصة عندما وقف توفيق ضد مجلس شورى النواب وكان توفيق يرى أنه انعقد انعقاداً غير قانونى .

فى هذه الظروف وقعت مؤامرة الشراكسة ضد أحمد عرابى ، وتردد أن الحديوى توفيق — الذى فقد ثقة الوطنيين تماماً — طلب من السلطان العثمانى عبد الحميد الثانى أن يرسل قوات من قبله من نواحي طرابلس الغرب أو سورية لشد أزره ضد الحركة الوطنية وفى نفس الوقت كان « مالت » يحث جرانفيل على التدخل دفاعاً عن الحديوى ونحت دعوى تحرير مصر من « الطغيان العسكرى . وفعلًا قام الأسطول الإنجليزى بمظاهرة بحرية بهدف إقامة الوزارة الوطنية .

والمعجب أن أحمد عرابى فى هذه الأزمة الطاحنة كان مستعداً لأن يبارح البلاد وأن يبتعد عن الحكم والسياسة إذا كان هذا يؤدى إلى تهتة الأمور ولكن إنجلترا وفرنسا أسرعت إلى تقديم إنذار بإبعاد أحمد عرابى وزميله على فهمى وعبد المال حلمى . فآثر عرابى أن يستقيل ولكن المسألة لم تكن مسألة أحمد عرابى بقدر ما هى مستقبل الأمة بأسرها حيث أن هذه الشواهد كلها تؤكد أن البلاد

أصبحت تحت رحمة الأجنبي فاضطر أحمد عرابي إلى العودة إلى الوزارة تحت الضغط الشعبي وتحت ضغط الحاميات المصرية .

فكان طبيعياً أن تستمر المؤامرات الانجليزية الفرنسية ضده ، وبما عقد الموقف أن السلطان عبد الحميد الثانى أرسل بعثة جديدة برئاسة درويش باشا إلى مصر لتأييد الحديوى وتصفية الموقف بما يتمشى مع مصالح السلطان . وكان درويش باشا خلال اتصالاته يقول إنه قد يتولى وزارة الحرية .

فى هذا الجو المشحون وقعت الحادثة المعروفة بمذبحة الاسكندرية وما تلاها من فوضى وتدخل انجليزى غادر بضرب الاسكندرية بمدافع الأسطول . والواقع أن جرانفيل استطاع أن يقنع الدول الكبرى الأخرى أنه لو حدث تدخل من جانب إنجلترا فى مصر فإن هذا التدخل سيء ون « ممثلاً لإنحد أوربا وسلطانها » وكان ذلك عندما دعت إنجلترا الدول الكبرى للنظر فى تطورات المسألة المصرية . وهكذا كما يقول المؤلف :

« فأنجلترا دعت الإنحد الأوربى للمرة الثانية خلال نصف قرن لحسم المسألة المصرية . وفى المرة الأولى أمكن القضاء على امبراطورية محمد على . أما فى المرة الثانية فقد تحدت أوربا القومية المصرية وفى النهاية احتلت القوات الانجليزية مصر » . وهكذا وفقت مصر تحت الاحتلال الانجليزى ، فى وقت كانت لا تزال فيه الدول الكبرى تعقد اجتماعاتها فيما عرف بمؤتمر الآستانة الذى وجد نفسه أمام الأمر الواقع .

فى خاتمة هذا العرض نثير مشكلة الطريقة التى كتب بها الأستاذ الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى هوامش كتابه ، وخاصة الطريقة التى كتب بها عنوان الوثائق الانجليزية والفرنسية فهو قد ترجم F.O. = Foreign Office إلى ف.و. ، وهناك عدد من المؤرخين يفضل أن يعرب المراجع الأوربية مكتفياً بالإشارة إليها بلغتها فى قاعة المراجع ، وإن كنت اعتقد أنها طريقة مجهدة للقارىء ، فإننا نعرض المسألة على القراء لينظروا فيها .